طُرُقُ التَّزْكِيَة

يوسف حازم أبو غزالة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين

سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ
بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾

مقدمة

الحمد لله رب العالمين من حفظ دينه وشريعته إذ قال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(١)، وأرشدنا سبحانه إلى طرق تحقيق هذا الوعد بقوله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(٢)، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم النبي الأمي العربي القرشي سيدنا محمد ﷺ رسول الله وخليله وحجته على عبيده جاء بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

جعل الله رسالته ﷺ شاملة عامة للناس كافة بحيث تصلح للتطبيق والامتثال من كل المخاطبين من عباد الله، وذلك يقتضي تنوع أساليب دعوته ﷺ بتنوع المخاطب، وبما يحكم هذه الأساليب من تغير زمان ومكان وأحوال، وما يحمل كل مخاطب من طبائع وصفات مختلفة عن الآخر، فتارة تجده ﷺ يحث على الصحبة الصالحة في تزكية النفس ورقيها، كما قال الله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا)(٣)، فجعل سبيل تزكية النفس ووصولها اتخاذ الأسوة الحسنة.

كان ﷺ تارة يجود بالمال لاستمالة القلوب إلى الإسلام أو تثبيتهم عليه، وأحيانا تجده ﷺ يحث على اعتزال الناس وتجنب الفتن ليحافظ العبد على قلبه، وقد يصل إلى تحقيق رسالته بالحث على الزهد في الدنيا، ومقابل ذلك يدعو ﷺ إلى إبراز معاني العزة بالله والاستغناء عن خلق الله والبعد عن التبذل إليهم، وكذا خطابه ﷺ يختلف باختلاف صفة المخاطَب.

وهكذا نجد أساليب كثيرة متنوعة في منهج الحبيب المصطفى ﷺ ضرورة الاختلاف، وتنوع الطبائع، غايتها تحقيق تزكية النفس، وامتثال ما أمر الله تعالى به،

---

(١) الحجر (٩).

(٢) النحل (٤٣).

(٣) الأحزاب (٢١).

واجتناب ما نهى الله عنه، والوصول إلى الوصف الكامل الذي يحقق مرضاة الله تبارك وتعالى وجنته.

وعلى هذا المنهج التربوي سار الصحابة الكرام - رضي الله عنهم -، ومَن بعدَهم مِن التابعين حتى ظهرت طرق في التربية، سلكت مسالك متنوعة مختلفة للوصول إلى تزكية النفس وتهذيبها عرفت **بالطرق الصوفية**.

وقد حرصت في هذا الكتاب أن أبين منهج النبي ﷺ في تربية أصحابه، والغاية منه تزكية النفس، معرفاً معنى التزكية وأهدافها وحكمها.

ثم بعد ذلك بينت سبيل الوصول إليها عن طريق الشيخ المربي المتبع منهجَ النبي ﷺ في التربية والتزكية وأخذ البيعة منه.

ثم انتقلت إلى تفصيل طرقِ التزكية، والأساليبِ التي انتهجتها، والأصول التي سارت عليها، لتحقيق الغاية المتفق عليها المتوارثة عن رسول الله ﷺ، ألا وهي الوصول إلى مرضاة الله تبارك وتعالى ومعرفته ونيل جنته.

هذا وإنني قسمت هذا السِّفر كالتالي:

الوحدة الأولى: مقدمات في التزكية، وحكمها، وأهدافها، ووسائلها النبوية، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم التزكية، وحكمها، ومشروعيتها، وأهدافها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التزكية لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: حكم التزكية ومشروعيتها.

المطلب الثالث: أهداف التزكية.

المبحث الثاني: أمثلة على تنوع أساليب تربية النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته الكرام.

الوحدة الثانية: المرشد، والمريد، والبيعة في طرق التصوف، وفيه ثلاثة مباحث:

الوحدة الأولى

مقدمات في التزكية، وحكمها، وأهدافها، ووسائلها النبوية

وفيه مبحثان:

قبل الشروع بذكر طرق التزكية والأساليب التي انتُهجت لتزكية النفوس ينبغي أن نبين أولاً مفهوم التزكية لغةً واصطلاحاً، وحكمها ثم عرض الأهداف والغايات المترتبة عليها، لأن التصوف والطرق التربوية ترجع في معناها إلى مفهوم التزكية.

المبحث الأول

مفهوم التزكية، وحكمها، ومشروعيتها، وأهدافها،

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

مفهوم التزكية لغة واصطلاحاً

أولاً: التزكية لغةً

أصل التزكية والزكاء والزكاة يدور حول عدة مَعَانٍ، هي الطهارة، والنّماء، والزيادة، والبركة، والصلاح، والْمَدْح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث(١).

ثانيا: التزكية اصطلاحاً

أورد علماؤنا مفاهيم وتعريفات لكلمة التزكية، لفهم معناها والاستفادة من فحواها، لتكون ميزاناً يقيّم بها العبد درجة صلاحه، منها:

التزكية من حيث حقيقتها تعني: صلاح الإنسان بطهارته من السوء والباطل، وارتقائه في الخير والحق(٢).

التزكية:وهي كلمة قرآنية، تعني السعي إلى تطهير النفس من الشوائب التي قلّما تنفك منها، والتي إن بقيت عالقةً بها تورد صاحبها المهالك، وتحيل إيمانه بالله إلى مظهر لاحقيقة له ولا فائدة منه، وأخطر هذه الشوائب: الكبر، ثم العجب، والحقد، وحب الدنيا ومظاهرها من المال والجاه والرئاسة.. إلخ.

ويتلخص سبيل التزكية باستحواذ التوحيد يقيناً راسخاً على العقل، أي أن يتحول التوحيد من كلمة لا إله إلا الله، إذ يرددها اللسان إلى يقين عقلي جازم بأن الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، لايشركه في شيء منها أحد، فهو وحده

---

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب (١٤/ ٣٥٨-٣٥٩) وغيره.

(٢) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٨).

القائم بأمر هذا الكون كله، ومن ثَّم فهو الموجد والمعدم، وهو الضار والنافع، وهو المعطي والمانع(١).

وتطلق التزكية ويراد بها **عملية التزكية وفعل التزكية**، وهي: إصلاح الإنسان بتطهيره من السوء والشر، وتنمية الخير عنده وتَرَقيه فيه.

وَإنما يوصف الإنسان بالصلاح بقدر ما يكون عنده من الطهارة والارتقاء، وبقدر ما يَطْهُرُ الإنسان ويرتقي؛ بقدر ما يكون مُزكىً أو زكياً.

وطهارة الإنسان من السوء تشمل طهارة عمله وطهارة قوله، تشمل ظاهره وباطنه، تشمل طهارة عقله وقلبه وجسده، تشمل طهارة اعتقاداته وأفكاره ونياته ورغباته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وأحواله، وتشمل طهارته من التأثر بما حوله من بيئة فاسدة ووسوسة شيطانية، وترقية الإنسان في الخير تشمل ذلك كله، فتشمل ترقية العمل والقول والظاهروالباطن.

ومعرفة الخير والسوء ترجع إلى الله ورسوله ﷺ، فكل ما كان حسناً خيراً في شرع الله فهو خير وحسن، وكل ما كان سوءاً وشراً في شرع الله فهو سوء وشر، والعقول مهما عَقلَت واهتدت إلى معرفة الخير والسوء؛ فإن علم الله فوق كل علم.

فإذا أراد الإنسان أن يطهر نفسه؛ يطهرها من الكفر والشرك والنفاق والرياء، يطهرها من أمراض القلوب، يطهرها من المعصية كبيرها وصغيرها، يطهرها من الجهل والشبهات والشهوات والبدع، يطهرها من الأخلاق المذمومة.

وإذا أراد الإنسان أن يرقّي نفسه؛ يرقيها بالإيمان واليقين، يرقيها بالسريرة الصادقة، يرقيها بالعلم النافع، يرقيها بالأعمال الصالحة فرائضها ونوافلها، يرقيها بالأخلاق الحميدة والمعاملات المشروعة(٢).

---

(١) منقول من موقع الدكتور البوطي.

(٢) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٩).

وحيثما ذكرت التزكية في القرآن الكريم فهي شاملة لهذين المعنيين: التطهير والترقية، كما بيّنه كثير من المفسرين[١].

قال البوطي رحمه الله تعالى: (إن التوحيد لا يتحول من شعار على اللسان إلى يقين راسخ في العقل، ثم تأثير على الوجدان، إلا بالإكثار من مراقبة الله، ولا يكون ذلك، إلا بالإكثار من ذكره - أي تذكره - واللسان ليس إلا أداةً لهذا التذكر، وخير سبيل لهذا الذكر والتذكر أن يربط الإنسان دائماً النِّعَمَ التي تَفِدُ إليه بالمُنْعِمِ، فكلما أقبلت إليه نعمة تذكّر بها المنعم وأيقن أنها وافدة إليه منه، ومن المعلوم أن نعم الله كثيرة لاتحصى، ولقد كانت هذه هي طريقة سيدنا رسول الله ﷺ في ذكر الله عز وجل.

فإذا استمر العبد على هذا العلاج من الذكر والتذكر ترسخت عقيدة التوحيد في عقله، وغابت الفاعلية المزيفة للأغيار عن عقله وتفكيره، ثم إن هذا اليقين الاعتقادي ينعكس إلى قلبه حباً ومهابة وخوفاً، إذ يعلم بعقله ويشعر بفؤاده أن المحسن الأوحد في الكون هو الله، والمتصرف بالعباد والمخلوقات هو الله، فتذوب في ضرام هذه المشاعر المهيمنة تلك الشوائب التي كانت عالقة بالنفس، فلا يرى لنفسه قيمة ذاتية حتى يتكبر بها، ولا يرى الدنيا بكل معانيها وما فيها إلا جنداً بيد الله عز وجل)[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ٨٨)، تفسير ابن كثير (٨ / ٤١٢).

(٢) منقول من موقع الدكتور البوطي.

المطلب الثاني

حكم ومشروعية التزكية

أولاً: حكم التزكية:

قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[١] في هذه الآية وغيرها رَتب الله الفلاح ودخول الجنة على وجود التزكية عند الإنسان، ورتب الخيبة ودخول النار على عدم التزكية، فدل ذلك على أن التزكية أمر واجب لا ينجو الإنسان إلا به[٢].

ثانياً: مشروعية التزكية

وردت نصوص عدة تبين مشروعية التزكية وأنها من الغايات الذي أرسل لأجلها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - منها:

- قوله تعالى ذاكراً دعاء إبراهيم عليه السلام: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[٣].
- قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)[٤].

---

(١) الشمس (٩-١٠).

(٢) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٣٢) .

(٣) البقرة (١٢٩).

(٤) آل عمران (١٦٤).

• قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(١).

المطلب الثالث

أهداف التزكية

أهداف التزكية ومقاصدها تندرج تحت هدفين عامّين، وهما: تطهيرٌ للنفس، وترقية لها.

وأهداف التزكية إنما هي هدف واحد، هو الهدف الأسمى الذي تسعى طرق التصوف إلى الوصول إليه والتحقق به، ويمكن أن نُسمي هذا الهدف بعشرات التسميات ونَصِفه بعشرات الأوصاف، وكلها تصب في النهاية في معنى واحد، فكل وصف من هذه الأوصاف يحمل في طياته الأوصاف الأخرى، فيمكن مثلاً أن نسمي الهدف الأسمى بأنه العبودية، ويمكن أن نسميه بأنه الإحسان، ولا يكون الإنسان محسناً إلا إذا تحقق بالعبودية، وإذا تحقق بالعبودية على أحسن أوجهها كان محسناً وهذا بيان هذه الأهداف:

أولاً: **العبودية**: وهي أهم مطلب إذ لأجلها خُلقنا، يقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(٢)، ومن جعل العبودية بإخلاصها وأعمالها وأخلاقها مقصوده ثبت على الطاعة والعبودية حتى يتوفاه الله.

ثانياً: **الصديقية**: وهي أعلى المقامات وأعظم الدرجات؛ لقوله تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

---

(١) الجمعة (٢).

(٢) الذاريات (٥٦).

وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (١)، فأرقى الناس النبييون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، على تفاوت درجات كل مرتبة، والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون والقليل، فليس بعاقل من لم يطمح إلى الأعلى والأكمل والأعظم أجراً عند الله تعالى، وقدوتنا في هذا رسول الله ﷺ يطلب المزيد كما في قوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (٢).

ثالثاً: الإحسان: وهو أن يكون العبد طالباً للأحسن في كل شيء، فهو يجعل عبادته على أحسن حال في أداء أركانها وهيئاتها وسننها وخشوعها وتحقيق مقاصدها، وهو في كلامه يتكلم بأحسن الكلام وأزكاه، وفي معاملاته يتصرف بأرقى التعاملات وأحسنها، وفي أخلاقه يكون على أرفعها وأجملها وأرقها وألطفها وأعظمها وأحسنها.

وقد أمرنا الله بالإحسان وبين لنا أن المحسن محبوبٌ عنده بقوله: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٣)، والنبي ﷺ حينما عرّف الإحسان بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٤)، إنما عرف الإحسانّ بأعظم وسائل الوصول إليه، وهي مراقبة الله وتذكر رؤيته لك.

رابعاً: طلب التقوى وآثارها: لما كانت المكرمة عند الله بالتقوى فهي مطلب الصادقين وسبيل الفلاح لقوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٥)، والتقوى هي حالة الحذر والخوف من الله تعالى التي تحجز العبد عن فعل المعاصي وتدفعه إلى فعل الطاعات.

خامساً: طلب الكمال: لا يزال الرجل يطلب الأعلى والأكمل، حتى ينافس الرجال في الكمال، وليس هذا كمالَ ألوهية، فإن كمال الألوهية والربوبية هو لله وحده، لا يشاركه

---

(١) النساء (٦٩).
(٢) طه (١١٤).
(٣) البقرة (١٩٥).
(٤) البخاري، صحيح البخاري، رقم (٥٠).
(٥) الحجرات (١١).

فيه أحد لا بقليل ولا بكثير، أما كمال العباد فهو كمال عبودية، وقد بين النبي ﷺ أن هذا الكمال موجود وممكن وأهله كثير، فَلِمَ لا نتطلع لأن تكون واحداً من الكاملين؟ قال رسول الله ﷺ: (كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسيةُ امرأةُ فرعون ومريم بنتُ عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)(١)، على أن هذا الكمال نسبي يتفاوت فيه أهله، فليس كمال الصديقين ككمال الأنبياء، ومن لم يستطع نوال الكمال فليبذل جهده للقرب منه، وللسير في طريقه.

سادساً: إرادة وجه الله تعالى ورضوانه وجنته: فكل ما يفعله المسلم ينبغي أن يكون مريداً به وجه الله ورضوانه، وقال تعالى يصف حال المؤمن الذي جعل هدفه رضوان الله فهو يبحث عما يرضي الله ويتبع الطريق الموصلة إلى ذلك: (وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)(٢)، والجنة هدف لمن يزكي نفسه، فهي جزاؤه على تزكيته لنفسه، كما قال تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ)(٣).

سابعاً: الاستقامة: وهي أن يلتزم الإنسان بأمر الله كله في الجملة، قال تعالى: (فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ)(٤)، والاستقامةُ هي سبيل إلى الهدف من وجه، لكنها من حيث هي مطلوبةٌ من العبد في الدنيا تصير مقصوداً له يبحث عنه ويهدف إليه.

ثامناً: السبق والقرب: إن الذي يضع في باله أن يسابق الناس في دراسة أو عمل أو رياضة، لا شك أن مسابقته تفتح أمامه باب الاجتهاد والمنافسة في الرتب العالية، وأولى ما يتنافس فيه الناس مراتب الآخرة، وقد أمرنا الله بالمسابقة بقوله: (سَابِقُوا إِلَىٰ

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، رقم (٣٢٣٠).
(٢) ال عمران (١٧٤).
(٣) طه (٧٦).
(٤) هود (١١٢).

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (١).

وقد ميز الله السابقين عن أهل الجنة حينما خصهم بالقرب فقال سبحانه: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) (٢)، فذكر لهم جنة وميزهم بأنهم مقربون، بينما لم يذكر لأصحاب اليمين إلا جنتهم: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) (٣).

ولا شك أن للمقرب حظوة ليست لغيره، ألا ترى لو أن ملكاً من ملوك الدنيا قضى جميع حوائجك، وأعطاك جميع شهواتك ورغباتك، وأسكنك قصراً وبستاناً، وجعل لك خدماً ورتبة، لكنه لم يخصّك بمجالسته. ولم يفتح لك بابه في كل وقت تشاء، هل تكون كمن أعطاه ذلك العطاء ثم زاد عليه أن قال له: ادخل علي متى شئت، وجعله نديماً له ومقدماً عنده ومُكرّما، فهل يستويان ؟

لأجل ذلك فالقرب واللقاء أعظم من الجنة، قال تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) (٤)، فسمى الجنة حسنى، وسمى النظر إلى وجهه زيادة، ليبين لنا أنه أعظم منها وأزيد.

وقد بينت الآيات السابقة أن هؤلاء المقربين قليل في آخر الزمان، والصوفية بجميع طرقها المستقيمة يسعون إلى هذا الهدف ويجعلونه نصب أعينهم، وكل مسلم ينبغي أن يطمع أن يكون منهم، ويجتهد في أسباب ذلك.

---

(١) الحديد (٢١).
(٢) الواقعة (١٠-١٤).
(٣) الواقعة (٢٧-٢٨).
(٤) يونس (٢٦).

تاسعاً: الولاية: وهي مقصود للعبد يصل به الى الأمان عند الله، قال تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[١].

وقد بيّن الله كم هي كرامة وليه عنده حينما قال في الحديث القدسي: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب)[٢][٣].

---

(١) يونس (٦٣).
(٢) البخاري، صحيح البخاري، رقم (٦١٣٧).
(٣) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٢٤).

المبحث الثاني

تَنَوُّعُ أساليب تربية النبي ﷺ لصحابته الكرام

تدل على مشروعية تنوع طرق التربية الصوفية

تبين معنا فيما سبق أن وظيفة الأنبياء – عليهم السلام – هي تزكية النفوس وإيصالُها إلى كمال طهارتها من الفواحش والآثام، وذلك يستلزم تعدد الوسائل والطرق التي تحقق هذه الغاية؛ لاختلاف الطبائع والأجناس والبيئات، ولأجل هذا نرى أن النبي ﷺ نوع وعدد وسائل تزكيته للصحابة الكرام، كما نبين في الأمثلة والنماذج التربوية الآتية:

أولاً: التزكية بترتيب الأولويات بناءً على الحال والحاجة الملحة:

أشار النبي ﷺ بتربيته لأصحابه إلى أهمية بر الوالدين عندما جاءه رجلٌ يستأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «أحي والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[(١)]، هذا مع ما عرف عنه ﷺ من الحض على الجهاد والهجرة والترغيب فيهما، ولكنه ﷺ لاحظ حال هذا السائل فرأى بره لوالديه أفضل له من حقه في الجهاد.

وفيه دليل على أن الدخول في السلوك والمجاهدات، السُّنَّةُ فيه أن يكون على يد عارف به، فيرشد إلى ما هو الأصلح فيه، والأسدُّ بالنسبة إلى حال السالك، لأن هذا الصحابي رضي الله عنه لما أن أراد الخروج إلى الجهاد لم يستبد برأي نفسه في ذلك حتى استشار من هو أعلم منه وأعرف، هذا ما هو في الجهاد الأصغر فكيف به في الجهاد الأكبر؟![(٢)].

ثانياً: التربية على العفة عما في أيدي الناس:

---

(١) رواه الإمام مسلم برقم (٢٥٤٩)، والبخاري برقم (٥٩٧٢).

(٢) بهجة النفوس (ج٣ / ص١٤٦).

ربَّى النبي ﷺ أصحابه على العِفَّة عما بأيدي الناس، والحرص على أن لا يسألوا أحداً شيئا، فعن أبي مسلم الخولاني، قال: حدثني الحبيب الأمين، أما هو فحبيب إلي، وأما هو عندي، فأمين عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: (ألا تبايعون رسول الله؟) وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله؟) فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله؟) قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: (على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئا) فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه [١].

ثالثاً: التربية بالنهي عن الغضب، والاكتفاءُ به:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: علمني شيئاً، ولا تكثر عليّ، لعلي أَعِيه، قال: (لا تغضب)، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول: (لا تغضب)[٢].

رابعاً: التربية من خلال اعتزال الفتن:

فعن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال: يا رسولَ الله ما النجاةُ؟ قال: (أَمْسِكْ عليك لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتِكَ)[٣].

وإنما يعتزل المسلم إذا خاف على نفسه الفتن، أو خاف أن يعتدي ويؤذي الناس، قال ﷺ: «يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ، يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقع القَطْر[٤]، يَفرُّ بدِينه مِن الفِتن»[٥]، وقال رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أفضَلُ يا رسولَ الله؟ قال ﷺ: «مُؤْمِنٌ مجَاهِدٌ بِنَفسِهِ

---

(١) رواه مسلم برقم (١٠٤٣).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٠٢٠).

(٣) رواه الترمزي برقم (٢٤٠٦).

(٤) شعف الجبال: حشيشه وكلأه، مواقع القطر: محل المطر والماء.

(٥) أخرجه البخاري رقم ١٩، عن أبي سعيد الخدري ﷺ. والحديث يشعر بأن الإنسان إذا لم يفعل ذلك في ظرف الفتنة فلا يخلو من أن يدخله المال الحرام.

وَمَالِهِ فِي سبيل اللَّه» قال: ثم من ؟ قال: «ثم رَجُلٌ مُعتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِن الشِّعَاب، يَعبُدُ رَبَّهِ ويَدَعُ النّاسَ مِنْ شَرّه»[1].

وأحاديث كثيرة جاءت فيها وصايا النبي ﷺ الجامعة المختلفة، مراعاةً لاختلاف أحول السائلين وحاجاتهم، ومن هذا القبيل أيضا أجوبة النبي ﷺ المختلفة لنفس السؤال، حول أفضلِ و أحبِّ الأعمال إلى الله تعالى، وأيِّ المسلمين خير، فقد أجاب كل سائل بما رآه مناسباً في حقه، أو بما هو أفضل له حين سؤاله، وبحسب ظرفه.

وفي بعض النصوص ذكر أن أفضل الأعمال الإيمان، وهو أفضل الأعمال القلبية، وذَكَرَ الصلاة، وهي أفضل العبادات، وذكر بر الوالدين، هو أفضل المعاملات في حق الأفراد، وذكر الجهاد، وهو أفضل ما يتعلق بالأمة.

وبهذا يلفت النظر إلى الأولويات في كل جانب.

خامسا: الوصية بإطعام الطعام وإفشاء السلام:

ذكر في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتَقرأ السلام، على من عرفت، وعلى من لم تعرف»[2].

وفي ذلك يربي النبي ﷺ أصحابه على أن يشكل الواحد منهم حالة إيجابية في المجتمع، بإحسانه، وبشاشة وجهه، على الأقل.

سادسا: التربية على ضبط اللسان وكف الأذى:

ورد أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أي المسلمين خيرٌ؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه ويده)[3].

وفي هذا يربي النبي ﷺ المسلمَ على تحقيق الأمنِ والسِّلْمِ المجتمعي.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٦٣٤ ومسلم رقم ١٨٨٨ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، واللفظ لمسلم، وفي روايةٍ للبخاري: «يتَّقِي الله، ويَدَعُ النَّاسَ مِن شَرِّهِ».

(٢) رواه البخاري برقم (١٢).

(٣) رواه مسلم برقم (٤٠).

سابعا: التربية على صلة الأرحام والإحسان إلى الناس:

قال رجل من خثعم: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو في نفرٍ من أصحابِه، و قلتُ: أنت الذي تزعمُ أنَّك رسولُ اللهِ ؟ قال: (نعم)، قلتُ: يا رسولَ اللَّه، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ قال: (إيمان بالله) قلتُ: يا رسول الله، ثم مَه ؟ قال: (ثم صلةُ الرحم) قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أبغضُ إلى الله ؟ قال: (الإشراك بالله)، قلتُ: يا رسول الله، ثم مَه ؟ قال: (قطيعةُ الرحم) قلتُ: يا رسول الله ثم مَه ؟ قال: (الأمر بالمُنكرِ ونهيٌ عن المعروف)(١).

وهناك أحاديث أخرى من هذا القبيل، مما تنوعت واختلفت فيها أجوبة النبي ﷺ، و يرجع هذا الاختلاف إلى **حكمة** النبي ﷺ بتربية أصحابة ومراعاته **للفروق الفردية** بين أفراد السائلين وجماعاتهم، فتنوعت أساليب تربية النبي ﷺ كلاً بما يحتاج إليه، بما لم يكمله بعد من دعائم الإسلام، ولم يبلغه علمه، أو بما له فيه رغبة، أو بما هو لائق به.

إن من الأمور التي تدل على فقه سيد الخلق عليه أفضل الصلاة و أتم السلام في تربية الصحابة، طريقة خطابه وحواره معهم، فقد كان ﷺ ينوع الأساليب الحوارية والخطابية، ويستخدم الاستعارات والصور الفنية لتقريب المعنى وإيصال الفهم، وذلك لاختلاف أحوال الحاضرين والسامعين.

ثامنا: التربية عبر استخدام الصور الفنية والتشبيهية:

فمن هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً، هل يُبْقي من درنه شيئاً؟)، قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: (كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)(٢)، فإن في مثل هذا الحديث تمثيل للمعقول بالمحسوس، ليزداد الشيء وضوحا في نفس المتعلم.

---

(١) أخرجه أبو يعلى برقم (٦٨٣٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٢٨).

تاسعاً: من أشهر أمثلة التربية والتعليم والتنويع في مراتب الدين، وبيان المراحل التي يمر بها السالك ليتطلع إلى الأعلى؛ حديث جبريل - عليه السلام - في تعلم أركان الدين:

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: " يا محمد أخبرني عن الإسلام "، فقال له: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)، قال: " صدقت "، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: " أخبرني عن الإيمان " قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: " صدقت "، قال: " فأخبرني عن الإحسان "، قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: " فأخبرني عن الساعة "، قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، قال: " فأخبرني عن أماراتها "، قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان) ثم انطلق فلبث مليا، ثم قال: (يا عمر، أتدري من السائل ؟)، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

تنوع أساليب النبي ﷺ رحمةً لأصحابه ومَن بعدهم، ممن اختار سبيل الحق له منهجاً وطريقاً، فمن السائلين من ينفعه الجواب المباشر، ومنهم من تنفعه الإجابة عن سؤاله بسؤال آخر قريب له، لِيَشْعُرَ بأثر الأمر على نفسه وقلبه، ويستشعر عظمة هذا الدين، وشفقة هذا النبي الكريم ﷺ.

عاشرا: التربية بالكلمة الطيبة والحوار العقلي واستثارة النخوة والدعاء:

---

(١) رواه مسلم برقم (٨).

عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال ﷺ: (ادنه)، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: (أتحبه لأمك؟)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)، قال: (أفتحبه لابنتك؟)، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لبناتهم)، قال: (أفتحبه لأختك)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأخواتهم)، قال: (أفتحبه لعمتك؟)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم)، قال: (أفتحبه لخالتك)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لخالاتهم)، قال: فوضع يده عليه، وقال: (اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه)، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء[1]، في هذا الحديث بيانٌ لِمَا كان عليه النبي ﷺ من مكارم الأخلاق وحسن السياسة، فهو بذلك ﷺ استأصل من نفسه التعلق بالزنا عن طريق المحادثة والمحاكمة النفسية والموازنة العقلية، فنبّه عقل الشاب من خلال هذه الأسئلة، ونأخذ من هذا قاعدة، أن من أعظم ما يزَكَّى به الإنسانُ الفكرةَ الصحيحة التي تُقنع الإنسان، وتُغْرَسْ في عقله وقلبه ثم دعا له النبي ﷺ، وهذا سبيل لتزكية الآخرين أيضاً، فخرج وقد طارت الشهوة من قلبه وفكره.

الحادي عشر: اتخاذ سبيل المداراة، عدم تفويت النصيحة على الرغم من المداراة:

عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: (بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة)، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة - رضي الله عنها -: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا عائشة، متى عهدتني فحاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه

---

(١) رواه أحمد برقم (٢٢٢١١).

الناس اتقاء شره)[١]، فعل النبي ﷺ معه ذلك، مداراةً واتقاءً لشره وفحشه، وهذا ليس من الغيبة المنهي عنها، بل هو من النصيحة، لتعريف الناس أمر هذا الرجل وزجرهم عن مثل مذهبِه، ولبيان مشروعية مدارة أهل السوء والشر اتقاءً لشرهم، ما لم يؤد ذلك إلى المُداهنةِ في دين الله تعالى.

الثاني عشر: التربية على تزكية القول والعبارة:

سمع رسول الله ﷺ بعض الناس يقولون: ما شاء الله وشئت، فقال ﷺ: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)[٢]، ومعلوم أن الصحابي حينما يقول: ما شاء الله وشئت يعلم أن مشيئة رسول الله ﷺ ليست كمشيئة الله - عز وجل -، وأن مشيئة الله غالبة، فإذا لم يشأ الله شيئاً فلا مشيئة لغيره، لكن ظاهر عبارته يُشعِر بأنه يُسوّي بين مشيئة الله ومشيئة غيره، فيُخشى أن يُظن به أنه يعتقد اعتقاداً باطلا، فصحح له ﷺ عبارته، وعلّمنا كيف نقول، بما لا يورث إشكالاً عند الآخرين إذا سمعوا هذه العبارة، فقال له: (قل: ما شاء الله ثم ما شاء فلان)، وفي هذا تطهيرٌ وتزكيةٌ لأقوال الإنسان وعباراته، وتزكية للاعتقاد من أن يدخله الباطل، وتنبيه إلى التأدب بعدم الإخلال بالتوحيد لله أدنى إخلال.

الثالث عشر: التربية عن طريق التدرج بالمأمورات:

قال ﷺ لأبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - حينما طلب منه أن يدله على عمل ينفعه ويدخله الجنة، فقال ﷺ: (عليك بالصيام، فإنه لا عِدلَ له)[٣]، والنبي ﷺ بهذا التوجيه يريد تزكيته، فيحركه إلى التزكية من خلال عمل ظاهر هو الصيام، مبيناً له أن لا عِدْلَ له، أي لا مثيل له في الأجر ولا مثيل له في أثره في تزكية النفس، إذ كل عبادة لها أثرها الخاص في تزكية النفس.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٣٢)، ومسلم برقم (٢٥٩١).
(٢) اخرجه النسائي برقم (١٠٨٢١).
(٣) أخرجه ابن حبان برقم (٣٤٢٦).

وقد عمل أبو أمامة بوصية رسول الله ﷺ فما رؤي أبو أمامة ولا امرأته ولا خادمه إلا صائمين، قال أبو أمامة: فلبثت بذلك ما شاء الله ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله أمرتنا بالصيام فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه، يا رسول الله فمرني بعمل آخر، قال: (اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة)[١]، وهذا أيضاً توجيه آخر إلى عمل يكون سبباً في التزكية، شجعه عليه بما ذكر من أجره العظيم وتطهير النفس به من الذنوب والخطايا[٢].

في هذين المثالين نلاحظ تدرج النبي ﷺ في التربية، فقد أمره أن يزكي نفسه بالصيام، ثم لما ظهر أثر ذلك فيه وجَّهه إلى باب يزداد فيه قرباً وتزكيةً، ألا وهو السجود والصلاة، ولأجل ذلك قال الصوفية: (على قدر الاستعداد يكون الإمداد).

الرابع عشر: التربية والتوجيه على الثبات في العمل:

قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[٣]، فوجهه إلى المحافظة على عمل كان يعمله، يريد تزكية عبد الله بذلك ودفعه إلى عمل صالح يزيده طهارة وقرباً من ربه، ويعلمه المحافظة على الأعمال لما فيها أيضاً من المحافظة على صلاح النفس[٤].

الخامس عشر: التربية بالتأثير الروحاني:

عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فَقَرأا، فحسّن النبي ﷺ شأنهما فسقط في

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٢١٩٤).
(٢) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٣٣).
(٣) أخرجه البخاري برقم (١١٠١).
(٤) معاذ حوى، كتاب التزكية (ص٣٤).

نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله - عز وجل - فرقاً، فقال لي: (يا أُبي أُرْسِلَ إليّ أن اقرأ القرآنَ على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم -رضي الله عنه-)(١).

وأنت ترى أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يستطيعوا أن يطببوا نفوسهم بمجرد قراءة القرآن الكريم وحده، ولكنهم لازموا مستشفى رسول الله ﷺ، فكان المزكيَ لهم والمشرفَ على تربيتهم.

فهاهنا كانت تزكية النبي ﷺ على سبيل المعجزة الخارقة، فبضربة من سيدنا نبي الله ﷺ على صدر أُبي انتقل أُبي من حالة شك وتكذيب تزيد على حالة الجاهلية إلى أعلى مقامات الإحسان وكأنه يرى الله، وحصل له فيها من تعظيم الله والهيبة منه شيئاً عظيماً وهو ما عبر عنه بقوله: « فَرَقاً » أي من شدة الخشية.

السادس عشر: الإقرار للخير مع التوجيه إلى الأفضل لمن يستطيعه:

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: دخل النبي ﷺ المسجد وقوم يذكرون الله عز وجل وقوم يتذاكرون الفقه، فقال النبي ﷺ: (كلا المجلسين إلى خير، أما الذين يذكرون الله عز وجل ويسألون ربهم فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يعلمون الناس ويتعلمون، وإنما بعثت معلما، وهذا أفضل)، فقعد معهم(٢)، فقد أقر النبي ﷺ تعدد الوسائل لتحقيق المقصود.

وفي كثير من النصوص والأمثلة التي ذكرناها في هذا المبحث ما يدل على أن طرق التربية تتعدد، ولا تكون تربية كل الناس على مِنوال واحد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٢٠).

(٢) رواه أبو داود برقم (٢٣٦٥)، وابن ماجه برقم (٢٢٩) وفيه ضعف.

وقد كانت أفعال رسول الله ﷺ وأقواله بجمالها وكمالها سبيلاً من أعظم سبل تزكيته لأصحابه، تدعوهم إلى متابعته والاقتداء به، لما يرون من حُسن حاله ومقاله وفعله فالقدوة الحسنة من وسائل تزكية الآخرين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

---

(١) الأحزاب (٢١).

الوحدة الثانية

المرشد، والمريد، والبيعة في طرق التصوف

وفيه ثلاثة مباحث:

كما أن رسول الله ﷺ كان من وظيفته أن يزكي أصحابه، فإن هذه الوظيفة تنتقل إلى وُرَّاثِ النبي ﷺ من بعده، الذين ورثوا من علمه وورثوا من عمله وورثوا من صلاحه وحاله ومن دعوته وجهاده ﷺ، فِمنْ واجب العلماء والصالحين والمربين والمرشدين أن يقوموا بتزكية الناس بالقول السديد والحال الطيب والقدوة الحسنة [١]، وقد سمي حامل هذه الوظيفة النبوية مرشداً.

المبحث الأول

المرشد

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول

تعريف المرشد

المرشد لغة: الواعظ[٢].

---

(١) التزكية (٣٣-٣٦).

(٢) المعجم الوسيط (٣٤٦/١)

ويطلق لفظ المرشد على الدليل، وهو الذي يلزم من العلم به العلمُ بشيء آخر(١).

اصطلاحاً عند الصوفية:

كثر عند علماء التزكية والتصوف استعمال لفظ **المرشد** للشيخ المربي، أخذاً من قوله تعالى: {ومَن يُضلِلِ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرشِداً}(٢).

والقرآن مُرْشِد: {قُل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱستَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعنَا قُرءَانًا عَجَبًا يَهدِيٓ إِلَى ٱلرُّشدِ}(٣).

والمؤمن راشد، قال تعالى: {وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ ٱلإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُم وَكَرَّهَ إِلَيكُمُ ٱلكُفرَ وَٱلفُسُوقَ وَٱلعِصيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ}(٤).

قال الجرجاني: "**المرشد**: هو الذي يدل على الطريق المستقيم قبل الضلالة"(٥).

والإرشاد: "بذل النصح للآخرين، ودلالتهم على الخير"، وقد استخدم هذا المصطلح الحارث المحاسبي في (رسالة المسترشدين)(٦).

وقد استخرج بعض العلماء معنى المرشد من كلام الغزالي رحمه الله، فقال الخادمي:

" (**مرشد كامل**) فيه صفة الإرشاد بأن يكون معرضا عن حب الدنيا وحب الجاه، وقد كان تابعا لشخص بصير، تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان محسنا لرياضة نفسه؛ من قلة الأكل والنوم وكثرة الصلاة والصدقة والصوم، وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة، كالصبر والشكر والتوكل واليقين والسخاوة والقناعة وطمأنية النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء

---

(١) الجرجاني، التعريفات (١٤٠)

(٢) الكهف (١٧)

(٣) الجن (١-٢)

(٤) الحجرات (٧)

(٥) التعريفات (٢٦٨)

(٦) سبعة مقالات في التربية الإسلامية د صالح بن علي أبو عراد (ص ١٠)

والوقار والتأني وأمثالها، فهو إذن نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، يصلح للاقتداء، لكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر ... ولا تخلو البلاد عنه"[١].

والمرشد هو الدعامة التي يقوم عليها صرح التصوف، ولا بد لكل من أراد سلوك الطريق من شيخ يدله عليه ويرشده إليه، يضع له العلامات وينبهه إلى المزالق والمخاطر، يبين له الدسم ويبعده عن السم، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله.

قيل في تعريف المرشد: هو طبيب الأرواح، وهو الإنسان البالغ في معرفة علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، إلى الحد الذي يتمكن معه من معالجة الأمراض الحاصلة في نفوس الطالبين للوصول إلى الله تعالى.

فالشيخ عند السالكين: هو الذي سلك طريق الحق، وعرف المخاوف والمهالك، فيرشد المريد ويشير عليه بما ينفعه ويضره [٢].

وسمي المرشد مرشداً لأن وظيفته الإرشاد، فهو مؤهل لذلك علمياً وعملياً وسلوكياً وحالاً وخبرة.

المطلب الثاني
أهمية المرشد والحاجة له والدليل على ذلك

الصحبة مع العاقل زيادة في الدين والدنيا والآخرة، والصحبة مع الأحمق نقصان في الدين والدنيا، وندامة عند الموت وخسارة في الآخرة[٣].

---

(١) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية (٣٧/٣).

(٢) السير والسلوك إلى ملك الملوك (ص١٢٢).

(٣) الموسوعة اليوسفية (٣٩٣).

يقول الحق - تبارك وتعالى -: (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[١] فدل على أن قضيةَ المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورةٌ لزومية طبعا وشرعا، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً)[٢]، ولم يدع الناس لأفكارهم وحدها وإن سمت، فإن العقل مهما بلغ فهو محل للخطأ، ولأن العلم وحده قد يكون طريق الهلاك، والأدلة شتى في تواريخ الفلاسفة والمفكرين العقليين وأصحاب المذاهب الاجتماعية المختلفة، ومن هنا وجِد الإشراف والتوجيه البشري في كل شيء سواء كان وظيفة أو تجارة أو تعليماً أو احترافاً أو إدارة أو غير ذلك.

ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ)[٣].

ومن الأدلة على صحبة الشيخ المرشد:

- قول الله تعالى: (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)[٤].
- وقول الله تعالى (وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)[٥].
- قول الله تعالى: (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)[٦].
- قول الله تعالى: (اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)[٧].
- وعندما ذكر الله أنماطاً من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى في سورة الأنعام قال لرسوله: (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[٨].

---

(١) الرعد (٧).
(٢) الإسراء (١٥)
(٣) الممتحنة (٤).
(٤) لقمان (١٥).
(٥) الأعراف (١٤٢).
(٦) غافر (٣٨) .
(٧) يس (٢١).
(٨) الأنعام (٩٠).

- وقال تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[١].
- وقوله تعالى: (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)[٢].
- وقوله تعالى: (الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)[٣].

ولو شاء الله لأنزل كتابا بغير نبي، ولكنه لم ينزل كتاباً إلا وأنزل معه نبيه ليبين للناس ما نزل إليهم.

ربما كان الأخذ السليم عن الكتاب السليم فيه الأجر فقط، أما الأخذ عن الشيخ ففيه الأجر وفيه الوصول معاً، لأن فيه بركة، وارتباط المريد بالنبي صلى الله عليه وسلم عبر سلسلة من الصالحين الذين ورثوا العلم والعمل والحال، بإسناد متصل، وذلك أشبه بالتيار الكهربائي لا ينتقل إلا بالموصِل.

وقد طلب سيدنا موسى الشيخ المعلم المرشد الهادي الدليل، وسعى إليه حتى وجده في العبد الصالح، وتتلمذ عليه، ولم يكتف مع أنه كان كليمَ الله.

إن اتخاذ الشيخ **مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**، كما رأيت طبعاً وشرعاً، ومؤيداً بالواقع العلمي والتاريخي والموضوعية التي لا تقبل النقاش، ومجال اتخاذ الشيخ إن خلا شَغَلَه الشيطانُ بيقين.

إن المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير، قد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن

---

(١) الأنبياء (٧).
(٢) فاطر (١٤).
(٣) الفرقان (٥٩).

بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فليتمسك المريد بشيخه المؤهَّل، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في أمور سيره إلى الله [(١)].

وإن المنهج التربوي يحتم وجود معلم ومتعلم، والسلوك الصوفي يؤكد بشكل قطعي وجود المربي المعلم والمرشد، ويشترط علماء التصوف في هذا المنهج وجود الشيخ المربي الذي سمت روحه إلى درجة الإحسان، وعرجت نفسه في معارج الكمال، وتهذبت أخلاقه، وتنامت قدراته الروحية والعقلية، إلى درجة القرب والأنس والطمأنينة الكاملة.

الشيخ العارف بالله والعالم بكتابه والمقتدي بسنة نبيه ﷺ هو الصادق الذي لابد لنا من الحياة معه، والاسترشاد بمواعظه، والتأدب في مجلسه، وحسن الاستماع له، والعمل بالوصايا التي يأمر بها، لا سيما إن كانت متقيدة بالدليل الشرعي القاطع.

إن للصحبة أثراً عميقاً فى شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والاقتداء العملي، والإنسان اجتماعي بالطبع لابد أن يخالط الناس ويكون له منهم أخلاء وأصدقاء، فإن اختارهم من أهل الفساد والشر والفسوق والمجون انحدرت أخلاقه، وانحطت صفاته تدريجياً دون أن يشعر، حتى يصل إلى حضيضهم ويهوي إلى دَرْكِهم.

وإذا اختار صحبة أهل الايمان والتقوى والاستقامة والمعرفة بالله تعالى؛ فلا يلبث أن يرتفع إلى أوج عُلاهم، ويكتسب منهم الخُلق القويم، والإيمان الراسخ، والصفات العالية، والمعارف الإلهية، ويتحرر من عيوب نفسه، ورُعونات خُلقِه، **ولهذا تُعرف أخلاق الرجل بمعرفة أصحابه وجلسائه.**

وما نال الصحابة رضوان الله عليهم هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة بعد أن كانوا في ظلمات الجاهلية إلا بمصاحبتهم لرسول الله ﷺ ومجالستهم له، وما أحرز التابعون هذا الشرف العظيم إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) الإحياء (ج٣ / ص٧٦).

وبما أن رسالة سيدنا محمد ﷺ عامةٌ خالدة إلى قيام الساعة، فإن لرسول الله ﷺ ورّاثاً من العلماء العارفين بالله تعالى، ورثوا عن نبيهم العلم والخلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، يقتبسون من نوره ليضيؤوا للإنسانية طريق الحق والرشاد، فَمَنْ جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله ﷺ، ومّنْ نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل برسول الله ﷺ، ومن استقى من هدايتهم وإرشادهم فقد استقى من رسول الله ﷺ.

هؤلاء الوراث هم الذين ينقُلون للناس الدين، مُمَثَلاً في سلوكهم، حياً في أحوالهم، واضحاً في حَرَكاتهم وسكناتهم، هم من الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1].

وهؤلاء الوراث المرشدون صحبتهم ترياق مجرب، والبعد عنهم سم قاتل، «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[2]، مرافقتهم هي العلاج العملي الفعّال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان، لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب، ومطالعة الكراريس، إنما هي خصال عملية وجدانية، تقتبس بالاقتداء، وتنال بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي.

فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق، أحسن منه حالاً، وأقوم خلقاً، وأقوى إيماناً، يصاحبه ويلازمه، فيريه عيوبه النفسية، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بِقالِه أو بِحالِه.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (المؤمنُ مِرآة المؤمن)[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٤١)، مسلم برقم (١٠٣٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أبو داود برقم (٤٩١٨).

فالطريق العملي الموصل لتزكية النفوس، والتحلي بالكمالات الخلقية هو صحبة الوارث المحمدي والمرشد الصادق، الذي تزداد بصحبته إيماناً وتقوى وأخلاقاً، وتشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية، وتتأثر شخصيتك بشخصيته التي هي صورة عن الشخصية المثالية، شخصية رسول الله ﷺ.

إن الكتاب والسنة قد جمعا أنواع الأدوية لمختلف العلل النفسية والقلبية، ولا بد معهما من طبيب يصف لكل داءٍ دواءَه، ولكل عِلَّة علاجَها.

وكم نسمع عن أناس متحيرين يقرأون القرآن الكريم، ويطلعون على العلوم الإسلامية الكثيرة، ويتحدثون عن الوساوس الشيطانية، وهم مع ذلك لا يستطيعون أن يتخلصوا منها في صلاتهم!.

وإذا ثبت في الطب الحديث، أن الإنسان لا يستطيع أن يطبب نفسه بنفسه ولو قرأ كتب الطب، بل لابد له من طبيب يكشف خفايا علله، ويطلع على ما عمي عليه من دقائق مرضه، فإن الأمراض القلبية، والعلل النفسية أشد احتياجاً للطبيب المزكي، لأنها أعظم خطراً، وأشد خفاء وأكثر دقة [١].

يرى الصوفية صحبة شيخ مُؤهّلٍ للتربية أمراً ضرورياً للسير إلى الله، فهو ركن من أركان التصوف، وليس شرط كمال فحسب، ويستدلون لذلك بأدلة عقلية وشرعية وعادية واقعية، وقد لخص ابن البنا السرقسطي الدليل بقوله:

وإنما القوم مسافرونا ... لحضرة الحق وظاعنونا[٢]

فافتقروا فيه إلى دليل ... ذي بصر بالسير والمقيل[٣]

قد سلك الطريق ثم عادا ... ليخبر القوم بما استفادا

---

(١) حقائق عن التصوف (ص٤١-٤٧).

(٢) (ظاعن): مرتحل.

(٣) (فافتقروا): إشارة إلى ضرورة الشيخ ووجوبه في السير، وعادة لا يبلغ السائر وحده من غير شيخٍ مبلغاً راقياً. (المقيل): موضع الراحة والنوم.

فشَبّه رحمه الله السيرَ إلى الله بالسفر، وكما أن المسافر يحتاج إلى دليل على الطريق، فالسائر إلى الله يحتاج إلى دليل، والحاجة إلى الدليل على طريق الله أكبر، لأن الله غيب، وطريق السفر أمر ظاهر.

إن النفس بطبيعتها أمارة بالسوء، يتجاذبها جانب الشر أكثر من تجاذب جانب الخير لها إلا إذا ارتقت من كونها أمارة إلى لوامة فملهمة فمطمئنة، وإذا كان هذا حالها فإنها لن تقف على ما هو خير لها ولن ينجلي عنها جانب الشر إلا بمن خلصت نفسه وزكت وترقت في أعلى مراتبها، ولهذا كان لازماً على طالبِ تزكيةِ نفسِه أن يبحث عن شيخ عالم بعيوب النفس، مدركاً حبائلها ومكائدها، لِيُحَذِّرَ المريدَ ويَدْعُوه إلى التخلص منها، وهذا الشيخ المربي مثل الطبيب يشخِّص المرض ويصف الدواء، فيحصل الاستشفاء بإذن الله تعالى.

قال أئمة الطريق: أوّل آداب الطريق الصّحبة وهي خدمة المرشد؛ وذلك لتنطبع طباع المريد على طباع المرشد، فتتبدل أخلاقه وطباعه من سوء الخلق إلى حسن الخلق.

هنالك ينظر المرشد استعدادَه وقابليته، ويُسَلِّكُه طريقة القوم؛ بالأوراد والأذكار والرياضات والمعاملات القلبية، فيندرج حينئذ في عداد السالكين[1].

حث أهل العلم على ضرورة صحبة الشيخ وملازمته:

قال الإمام الشعراني: ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ؛ ليرقيه إلى درجات المراقبة لله تعالى والخوف من عذابه، كما كان عليه العلماء العاملون.

قال الشيخ زكريا الأنصاري - رحمه الله تعالى -: كل فقيه لا يجتمع بالقوم فهو كالخبْزِ الجافِّ بلا أُدْمِه.

---

(١) أبو الهدى الصيادي، العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية (٤٧-٤٨).

وروى الطبراني مرفوعا: (كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به)[1]، وفي رواية له أيضاً مرفوعاً: (أشدُّ النّاسِ عذاباً يوم القيامّة عالم لا ينفعه الله بعلمه)[2]، وهذا الأمر لا يذوقه الطالب إلا بالسلوك على يد شيخ ناصح، فإذا أراد العمل به فليطلب له شيخاً يرشده إليه، وإلا فلا سبيل له إلى ذلك ولو عبد الله بعبادة الثقلين.

قال الفقيه المالكي عبد الواحد بن عاشر في منظومة العقائد وعبادات فقه مالك المسماة "المرشد المُعين" مبيناً ضرورة صحبة الشيخ المرشد وما تنتج من آثار طيبة:

يصحبُ شيخاً عارفَ المسالكْ ... يَقيهِ في طريقِهِ المَهَالِكْ
يُذَكِّرُهُ اللهَ إذا رآهُ ... ويوصلُ العبدَ إلى مولاهُ
يُحاسبُ النفسَ على الأنفاسِ ... ويَزِنُ الخاطرَ بالقِسْطَاسِ
ويحفظُ المفروضَ رأسَ المالِ ... والنَّفلَ رِبْحَهُ بهِ يوالي
ويُكثرُ الذِّكرَ بصفوِ لُبِّهِ ... والعونُ في جميعِ ذا بِرَبِّهِ
يجاهدُ النفْسَ لربِّ العالمينْ ... ويَتَحَلَّى بمقاماتِ اليقينْ
يَصيرُ عند ذاكَ عارفاً به ... حُرّاً، وغيرُهُ خَلاَ مِنْ قلبِهِ
فَحَبَّه الإلهُ واصطفاهُ ... لحضرةِ القدُّوسِ واجْتَبَاهُ

قال شارح هذه المنظومة الشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي في كتابه "النور المبين على المرشد المعين": (إن من نتائج صحبة الشيخ السالك، ما يحصل لمريده من أنه يذكِّرُهُ اللهَ، أي يكون سبباً قوياً في ذكر المريد ربه إذا رأى الشيخ لِمَا عليه من المهابة التي

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير رقم (١٣١) .

(٢) الطبراني في الأوسط (٥٠٧) . ويشهد له الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم برقم (٢٢٣): (القرآن حجة لك أو عليك).

ألبسه الله إياها، ويشهد لذلك ما أخرجه الحكيم عن أنس رضي الله عنه (أفضلكم الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله تعالى لرؤيتهم)[١].

ففائدة الشيخ مع المريد هي إظهار العيوب القاطعة عن الله تعالى للمريد، فيشخصها له، ويريه دواءَها، ولا يتم هذا إلا مع مريد صادق ألقى مقاليد نفسه لشيخه، وألزم نفسه ألاَّ يكتم خاطراً عن شيخه، وأما إذا كتمه ولو واحداً فلا ينتفع بشيخه البتة [٢]. يوصي العارفون بالله تعالى كل من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله ورضاه بالصُحبةِ، وروحُها الاعتقاد والتصديق بهؤلاء المرشدين الدالين على الله تعالى، الموصلين إلى حضرته القدوسية.

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: (الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام)[٣].

ويقول الغزالي: (إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخْفَ عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج. ولكنَّ أكثَرَ الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

منها أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلعٍ على خفايا الآفات، ويحكّمه في نفسه، ويتبع إشاراته في مجاهداته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرّفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرّفه طريق علاجها... الخ)[٤].

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٤٣٣٦). كنز العمال (١٧٨٤)، البزار (٣٦٢٦). وهو حديث صحيح بلفظ: «أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله».

(٢) النور المبين على المرشد المعين (١٧٨).

(٣) شرح الحكم لابن عجيبة (ج١ / ص٧).

(٤) الإحياء (ج٣ / ص٥٥).

وقال ابن عطاء الله السكندري: (لا تصحب من لا يُنهِضُكَ حاله، ولا يدلك على الله مقاله) (١).

قال العالم الرباني الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه (العهود المحمدية): (أُخِذَ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نواظب على الركعتين بعد كل وضوء، بشرط ألاَّ نحدِّث فيهما أنفسنا بشيء من أُمور الدنيا، أو بشيء لم يُشرع لنا في الصلاة. ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يَسْلُكُ به، حتى يقطع عنه الخواطر المشغلة عن خطاب الله تعالى) (٢).

وإقرار الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله تعالى عنه وأرضاه - لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه، وإقرار الإمام أحمد بن سريج - رحمه الله - لأبي القاسم الجنيد، وطلب الإمام الغزالي له شيخاً يدله على الطريق مع كونه كان حجة الإسلام، وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام له شيخاً مع أنه لُقِّبَ بسلطان العلماء، وكان - رضي الله عنه - يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه، فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة فغيرهما من أمثالنا من باب أولى (٣).

قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله في قواعده: (أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم (بل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صُدور الذينَ أوتوا العلمَ) (٤)، (واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ) (٥)، فَلَزِمَتِ المشيخةُ، سيما والصحابة أخذوا عنه - عليه الصلاة والسلام -، وقد أخذ هو عن جبريل، واتبع إشارته في أن يكون عبداً نبياً، وأخذ التابعون عن الصحابة.

---

(١) إيقاظ الهمم (ج١ / ص٧٤).
(٢) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ج١ / ص٥١).
(٣) لطائف المنن والأخلاق (ج١ / ص٥٠).
(٤) العنكبوت (٤٩).
(٥) لقمان (١٥).

فكان لكلٍّ أتباعٌ يختصون به كابن سيرين وابن المسيّب والأعرج في أبي هريرة، وطاوس ووهب ومجاهد لابن عباس، إلى غير ذلك. فأما العلم والعمل فأَخْذُه جَلِيٌّ فيما ذكروا كما ذكروا).

وقال الشيخ علي الخواص رضي الله عنه:

لا تَسْلكَنَّ طريقاً لَسْتَ تعْرفُها ... بلا دليلٍ فَتَهوي في مَهَاويها[١]

قال الشيخ محي الدين في كتابه (الوصايا): عليك بمجالسة من تنتفع بمجالسته في دينك من علم تستفيده منه، أو عمل يكون فيه، أو خلق حسن يكون عليه، فإن الإنسان إذا جالس مَنْ تُذَكِّرُ مُجالَسَتُه الآخرةَ، فلا بد أن يتحلى منها بقدر ما يوفقه الله لذلك[٢].

المطلب الثالث

كيف أهتدي إلى المرشد

ليس الذي يحكم على السائر أنه صار شيخاً وأنه تأهل للتربية عامة الناس، بل يحكم عليه الشيوخ والصالحون والربانيُّون، وإذا رأى شيخُه أنه تأهل لذلك أذنه في التربية والتوجيه والتسليك وجعله شيخاً.

ولكن لما ادعى المشيخة كثير من الناس في زماننا وفي أزمنة سابقة، ولما كان بعض المشايخ ليس أهلاً للمشيخة أصلاً، وهو يأذن بها من ليس أهلاً لها، احتاج الراغب في السير إلى الله أن يتأكد من تحقق الشيخ بالأهلية قبل أن يسلمه نفسه وقبل أن يتتلمذ عليه ويتعاقد معه على السلوك.

١. فيجالس الشيخ قبل أن يعاقده، ويستمع إليه، وينظر هل ينتفع من كلامه أم لا ويرى دلائل استقامته على الكتاب والسنة، وحرصه على الشريعة وعلى منهج أهل

---

(١) المنن للشعراني (ج١ / ص٥١).

(٢) الوصايا (ص٤٥).

السنة، ولا نفترض في الشيخ أن يكون معصوماً لكنه صحيح الاعتقاد، لا يقرب إلى الكبائر، ولا يُقَصِر في الفرائض، ولا يرضى بالصغائر، ولا يتأخر عن السنن والنوافل، ويسارع بالتوبة لو بدر منه شيء.

٢. ويتأكد مِن مشيخته، وإسناده، ومَنْ أَذِنَه بالمشيخة والتربية.

٣. ويعتمد على الله ويتوكل عليه أن يدله إن كان هذا الذي عرفه شيخاً أم لا، وإن كان ينتفع منه أم لا، فيلجأ الراغب بالسلوك إلى الله فيستخير الله ويصلي صلاة الاستخارة، ويدعو الله أن يَدُلّهُ على مَن يَدُلّه عليه.

٤. ويستشير من له خبرة في هذا الشأن.

٥. وينظر في حال تلاميذ الشيخ، ليزداد طمأنينة، مع أن حال التلاميذ لا يعد مؤشراً مضطرداً لكنه يستفاد منه.

فإذا ظَن به الخير والاستقامة والأهلية، وظن أنه ينتفع منه، ووجد من الصالحين من يوثقه ويُثني عليه وشرح الله صدره لصحبته؛ عندئذ يصحبه ويتلمذ عليه ويرجو من الله النفع والترقي.

٦. وربما وجد الطالب في الشيخ ما هو أكثر من ذلك، مما يزيده اطمئناناً إلى الشيخ وأهليته، فقد يجد حالاً صالحاً وشعوراً طيباً كلما جالسَه، ويشعر أن قلبه ارتاح واطمأن وسكن، ورغب في رضوان الله وفي السير إلى الله أكثر، ويُحِس أنه يخرج من مجلسه بحال أطيب وهمه أعلى، وربما يرى للشيخ كرامة فيطمئن أنه مَرضيٌّ عند الله تعالى.

٧. واْعْرِفِ الصفات التي يجب أن تكون في الشيخ المربي، فإن وجدتها لَزِمتَه.

وأحدقوا من حوله يمشونا ... وكلهم إليه يوزعونا[1]

فرتب القوم على مراتب ... ما بين ماش راجل وراكب

(١) أحدقوا: تجمعوا حوله وقصدوه كأنه الحديقة، يوزعون: مجتمعون منتظمون ومرتبون.

وحيث كَلَّتْ نُجُبُ الأبْدان   قال أحدها يا حاديَ الأظْعان[١]

فمن هنا يلقب القوّالا   حَادٍ لأجل حَدْوه الرجالا[٢]

والسفر المذكور بالقلوب   والشيخ في منزلة الطبيب

فلما عُرف الشيخ بأهليته توجه إليه السالكون بطلب السلوك على يديه ليتعلموا منه وليتبعوه في الحق والخير، واجتمعوا في مجلسه منتظرين نصيحته وتربيته، وانتظموا عنده بترتيب وأدب.

فهم يتأدبون معه فيطيعونه ويحترمونه ويتواضعون له، ولا يعترضون إلا فيما هو منكر لا خلاف بين العلماء في إنكاره، ولا يطيعونه فيه.

والشيخ يؤدي حق طلابه عليه، فيعلمهم وينصحهم، ويهتم بما ينفعهم، ويراقب أحوالهم، ويُذاكرهم بما يُصلحُ حالهم مع الله ويُعالج أمراض قلوبهم.

والشيخ يميز بين المبتدئ الذي كأنه يمشي، وبين المتقدم الذي هو كالراكب، وبين المتقدم الذي هو كالطائر، ويميز بين السائر الضعيف البطيء، وبين السائر القوي المقبل السريع، وَيُقَرِّبُ المتقدمين إليه في مجلسه، ويستعين بهم في تربية المبتدئين والضعفاء.

ولأن بعض السائرين ضعفاء في العمل، وفيهم كسل وهمتهم ضعيفة، فالشيخ يحتاج إلى ما يقويهم ويحرِّكهم وينشِّطهم فيتخذ الشيخ مُنْشِداً يقول الشعر ويغني به في المعاني الربانية، التي تُذَكِّرُ السالكَ بالله - عز وجل - وبرسوله ﷺ وتدعو إلى حبهما، وتَذْكُرُ ما يوجب حبَّهما وطاعتَهما، وتَذْكُرُ أعمال الصالحين ومراتبهم لينشط السامع إلى طلبها، ونحو ذلك من المعاني اللطيفة، مع التحميس والتحبيب من خلال العاطفة الشعرية والبلاغة الأدبية، فيصير المنشد كأنه يسوق السالكين إلى الله كما أن الحادي يَسُوق الجمال في

---

(١) كلت: تعبت، النُجُب: الرواحل من الإبل، الحادي: المنشد والمغني والمرتجز، الذي يغني القول الذي يهيج الرواحل على المسير، الأظعان: الرُحّل وحادي الأظعان: هو من يحدو للإبل التي تركب النساء على هَوادِجها.

(٢) القوال: هو المنشد.

السفر، لكن هذا سفر حسي، وذاك سفر معنوي، سفر بالقلوب إلى معرفة الله والقيام بحقه.

وقد ذكر الناظم الإنشاد سبيلاً لتحريك السالكين، وهو مثال وإلا فالشيخ لا يكتفي به، بل يحرص على كل ما يُعِين على السير إلى الله مُعالجَةً لضعف همم السالكين، وإسراعاً بالمريدين الصادقين، **فمن ذلك:**

١. من السالكين من تحركه العلوم والمعارف والمنطق والإقناع.

٢. ومنهم من يحركه الوعظ والتذكير، وإثارة عواطف القلوب.

٣. ومنهم من يحركه رؤية العاملين والقدوات، والاجتماع على العبادة كالقيام والتلاوة والذكر.

٤. ومنهم من تحركه قصص الصالحين.

٥. ومنهم من يحركه الإنشاد.

٦. ومنهم من تحركه مذاكرة الشيخ، ومراجعته في شؤونه وسيره.

والشيخ يحرص على استعمال ذلك كله، وللشيخ فراسته فيما يستعمل من ذلك، وكم يستعمل، وماذا يقدم من ذلك، وماذا يؤخر.

والسلوك إلى الله يحتاج إلى تشجيع وتحبيب، فإن النفوس تَكْسل وتَمل وتنسى، لذلك قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[١]، وقال ﷺ: (يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل)[٢].

وقال الشيخ عبدالقادر عيسى - رحمه الله تعالى - في كتابه حقائق عن التصوف متحدثاً عن الوارث المحمدي وشروطه: (ومما سبق يتبين أهمية صحبة الوارث المحمدي

---

(١) النحل (١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٥٢٣).

للترقي في مدارج الكمال وتلقي دروس الآداب والفضائل واكتشاف العيوب الخفية والأمراض القلبية.

ولكن قد يسأل سائل كيف الاهتداء إليه، والوصول إلى معرفته، وما هي شروطه وأوصافه.

فنقول: حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب عليه أن يصدق العزم ويصحح النية، ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر يناديه في جوف الليل، ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته: (اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك).

ثم عليه أن يبحث في بلده ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمن، فإذا لم يجد أحدا في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي، إذا لم يجد الطبيب المختص، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه ومعرفة دوائه، ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام.

وللمرشد شروط لا بدَّ منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

١. **أن يكون عالماً بالفرائض العينية.**
٢. **أن يكون عارفاً بالله تعالى.**
٣. **أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها.**
٤. **أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.**

أما الشرط الأول: فينبغي أن يكون المرشد عالماً بالفرائض العينية: كأحكام الصلاة والصوم، والزكاة إن كان مالكاً للنصاب، وأحكام المعاملات والبيوع إن كان ممن يتعاطى التجارة ... وأن يكون عالما بعقيدة أهل السنة والجماعة في التوحيد، فيعرف ما يجب لله

تعالى وما يجوز وما يستحيل، إجمالا وتفصيلاً، وكذلك في حق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهكذا سائر أركان الإيمان.

أما الشرط الثاني: فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة والجماعة عملا وذوقا بعد أن عرفها علما ودراية، فيشهد في قلبه وروحه صحتها، ويشهد أن الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، ويتعرف على حضرات أسماء الله ذوقا وشهودا، ويرجعها إلى الحضرة الجامعة، ولا يشتبه عليه تعدد الحضرات، إذ تعدد الحضرات لا يدل على تعدد الذات.

وأما الشرط الثالث: فلا بد أن يكون قد زكى نفسه على يد مربٍّ ومرشدٍ، فخَبَرَ مراتبَ النفس وأمراضها ووساوسها، وعرف أساليب الشيطان ومداخله، وآفات كل مرحلة من مراحل السير، وطرائق معالجة كل ذلك، بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

وأما الشرط الرابع: فلا بد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير، فمن لم يشهد له الأخصائيون بعلم يدعيه؛ لا يحق له أن يتصدر فيه.

فالإجازة: هي شهادةُ أهليةِ الإرشادِ وحِيازةِ صفاته، وعليها أسست الآن فكرة المدارس والجامعات، فكما لا يجوز لمن لا يحمل شهادة الطب أن يفتح عيادة لمداواة المرضى، ولا يصح لغير المجاز في الهندسة أن يرسم مخططا للبناء، وكما لا يجوز للذي لا يحمل شهادة أهلية التعليم أن يدرس في المدارس والجامعات، فكذلك لا يجوز أن يدعي الإرشاد غيرُ مأذونٍ له به مِن قِبَل مرشدين مأذونين مؤهلين، يتصل سندهم بالتسلسل إلى رسول الله ﷺ.

وكما أنه لا يصح من العاقل أن يتداوى عند جاهل الطب، كذلك لا يجوز للمرء أن يركن إلى غير المرشد المأذون المختص بالتوجيه والإرشاد، وكل من درس الوضع العلمي في الماضي يعرف قيمة الإجازة من الأشياخ، وأهمية التلقي عندهم حتى إنهم أطلقوا على من لم يأخذ علمه من العلماء اسم (الصحفي)؛ لأنه أخذ علمه من الصحف والمطالعة الخاصة.

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[(١)].

وقد أوصى رسول الله ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: (يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا)[(٢)].

وقال بعض العارفين: (العلم روح تنفخ، لا مسائل تنسخ، فلْيَتَنَبَّه المتعلمون عمن يأخذون، وليتنبه العالمون من يعطون).

ثم اعلم أن من علامات المرشد أمورا يمكن ملاحظتها:

أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية ونشوة روحية، لا يتكلم إلا بالله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع مِنْ بُعْدِه، كما تنتفع من قربه، تستفيد مِن لَحْظِهِ[(٣)]، كما تستفيد من لَفْظِه.

ومنها: أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المُثُلَ العليا من الحب والصدق والإيثار والأُخُوَّة الخالصة، وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شفوا على يديه وتخرجوا من مَصَحَّتِهِ بأوفر قوة وأتم عافية.

علماً أن كثرة المريدين وقلتهم ليست مقياساً وحيداً، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم، وتخلصِهم من العيوب والأمراض، واستقامتهم على شرع الله تعالى.

فالظَّفَرُ به؛ يدفع الطالب للأخذ بيده، والتزام مجالسه، والتأدب معه، والعمل بنصحه وإرشاده، في سبيل الفوز بسعادة الدارين[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٤/١)، وقوله: (العلم): يشمل علم العقيدة والفقه والحديث والسلوك وغيرها.

(٢) أخرجه الحافظ (١٥٢/٣).

(٣) اللحظ: النظر السريع، والانتباه، ويشهد لما ذُكِر قول النبي

(٤) حقائق عن التصوف (ص٧٦-٨١).

المطلب الرابع
صفات المرشد

إن الشيخ المرشد على الحقيقة هو الداعي إلى الله على بصيرة، بطريق الإرث المحمدي والتبعية المحمدية، التي ذكرها الحق تعالى في قوله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١)، وقد أصّل الإمام العارف السهروردي - قدس الله سره - في عوارف المعارف لشرعية رتبة المشيخة، في طريق الله تعالى وبيان حقيقتها بما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ: (والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة)(٢).

وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى؛ لأن الشيخ يحبب الله إلى عبادة حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة "المشيخة" من أعلى الرتب في طريق الصوفية، وهي نيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه، أنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مِرآة القلب، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية، ولاح فيه جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصيرة إلى مُطالعة أنوار جلال القِدَم، ورؤية الكمال الأزلي، فأحب

---

(١) يوسف (ص١٠٨).

(٢) ابن أبي الدنيا، الأولياء (٢٨)

(٣) آل عمران (٣١).

العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا)[١]، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى، وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها، ولاحت الآخرة ونفائسُها بكنهها وغايتها، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلين، فيحب العبدُ الباقِيَ، ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية والتربية، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين.

كذلك أثبت الإمام العارف ضياء الدين أحمد الكمشخانوي الخالدي في موسوعته (جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم) شروط الشيخ المرشد وعلاماته، فقال - قدس الله سره -: واعلم أنه يشترط في المرشد أن يكون عالماً بما يحتاج إليه المريدون من الفقه، وعقائد التوحيد بقدر ما يزيل به الشبهة التي تعرض للمريد في البداية، وأن يكون عالماً بكمالات القلوب وآدابها، وآفات النفوس أمراضها وكيفية حفظ صحتها على اعتدالها، وأن يكون رؤوفاً رحيماً بالمسلمين، خصوصاً بالمريدين، وأن يكون ناصحا لهم، فينظر في حال من يصحبه منهم، إن رآه قابلاً للسلوك سَلَّكَه وحسّن له الطريق، وعلى ترك الأسباب أعانه، ولكل ما أمكنه إعطاؤه من المال وغيره مَلَّكَه، وان رآه غير قابل لذلك رَدَّهُ إلى حِرْفَتِهِ، أو إلى تعاطي شيء من الأسباب هنالك، فإن الله تعالى لا يحب العبد البطال.

ثم قال: ومن علامات المرشد الأمين: أن يستر ما اطلع عليه من عيوب المريدين، وأن يكون في الحالة الوسطى في جميع أحواله من جوع وشبع ونوم وسهر وقبض وبسط، والحالة الوسطى هي ما بين الإفراط والتفريط، ولا يقدر عليها إلا الكُمَّل من الرجال، ولذا كان من اتصف بها صالحاً للإرشاد بلا محال، وأن يكون قد استوى عنده المأكل والملبس، وأن يكون غني النفس، وحسن الخلق لا يغضب إلا لله، وإذا جاءه أحد يريد الإرشاد لا يكون في وجهه عابساً.

ومن شروط المرشد أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وينبغي أن يكون موصوفاً بصفات أهل الكمال، ويكون معرضاً عن حب الجاه والدنيا وما أشبه ذلك،

(١) الشمس (٩).

ويكون قد أخذ الطريق عن شيخٍ محققٍ تسلسلاتِ متابعتِه إلى رسول الله ﷺ، وارتاض بأمره رياضة بالغة من قلة الطعام والكلام والنوم وقلة الاختلاط مع الأنام وكثرة الصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك، وبالجملة أن يكون متخلقاً بأخلاق النبي ﷺ.

وكان أبو القاسم القشيري - رحمه الله تعالى - يقول: قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، ولم يكن أحد في عصر من العصور إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته[(١)].

وقال الإمام أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى: من كان فيه خمس خصال لا تصح مشيخته:

١- الجهل بالدين.

٢- وإسقاط حرمة المسلمين.

٣- والدخول فيما لا يعني.

٤- واتباع الهوى في كل شيء.

٥- وسوء الخلق من غير مبالاة.

وقال ابن عطاء السكندري - رحمه الله تعالى -: سمعت شيخنا أبا العباس المرسي - رضي الله عنه - يقول: (العارف لا دنيا له ولا آخرة، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه)[(٢)].

وعرفه الشيخ الأكبر ابن عربي قدس الله سره فقال: الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل - عليهم الصلاة والسلام - في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء - عليهم السلام - غير أنه لا يشرعون، فلهم - رضي الله عنهم - حفظ الشريعة

---

(١) الأنوار القدسية للإمام الشعراني (٦٣).

(٢) تاج العروس (ص٩٠).

في العموم، وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب، وقد جمع الشيخ بين الأمرين(١).

ومن شروط الشيخ المربي:

ذوق صريح وعلم صحيح وهمة عالية وحالة مَرْضِيَّة وبصيرة نافذة، فمن كان فيه ما مضى من الوصف صحت مشيخته ويحق له التصدر للإرشاد، أما إن كان جاهلاً بالدين متهاوناً بحرمة المسلمين، يتدخل فيما لا يعنيه، متبعاً للهوى في كل شيء، سيء الخلق، مجالساً للأحداث يطمع بما في أيدي الناس، فهذا شيطان أخرس، ليس له حظ في المشيخة، والأَوْلى أن يرشد نفسه (٢).

وقد وضع الصوفية شرطاً أساسياً يجب أن يتحلى به المتصدر للمشيخة، لكي يكون أهلا لهذا التكليف الرباني، هذا الشرط هو ثابت في حق الشيخ المربي نظراً لخطر وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وهو: **الإذن، وهذا الشرط يعتبر ركيزة أساسية عند القوم فلا يجوز لأحد أن يتصدر للمشيخة دون حصوله على الإذن أو الإجازة من شيخه في الدلالة على الله تعالى.**

ونصوص الصوفية في اشتراط الإذن كثيرة، نظراً لخطورته، فالإذن شهادة على أن الشخص مؤهل لِسِلْكِ الإرشاد، لا رغبةً منه في التربُّع على ذلك المنصب استجابة لداعية هواه.

كما أن هذا الشرط يُطَمئِن المريدين عمن يأخذون سلوكهم وتربيتهم، حتى لا يقعوا في شِراك المدَّعين، لأن الشيخ إذا لم يكن عارفا بطريق السلوك ودواء المريدين وجلس

---

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية (٣٦٥/٢)

(٢) حقيقة الصوفية (ص٢٩-٣١).

يربي المريدين بما يأخذه بطريق الكتب طلبا للرئاسة أهلك نفسه وأهلك من تبعه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَقُصُّ على النّاسِ إلا أميرٌ، أو مَأْمورٌ، أو مُخْتالٌ»(١).

إذن فالإذن أساس التوفيق والهداية وحصانة للشيخ وللمريدين.

لكن الإذن المعتبر عند السادة الصوفية، هو الإذن: من الشيخ لمريده بأنه مؤهل لتربية المريدين، أما الإذن من الله ورسوله فيصعب التحقق منه لكثرة المدعين، وربما قد يلتبس على الشخص وهو لا يشعر، فيظن أنه أهل لذلك المنصب فيَهلك ويُهلك من معه (٢).

قال الشيخ السيد أحمد عز الدين الصياد - قدس الله سره -: اعلم أن من تصدر للمشيخة في هذه الطريقة العلية الرفاعية، فقد جلس على بساط النيابة عن شيخ الأمة سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه، فيجب عليه أن يكون عالماً بما أمره الله ونهاه عنه، فقيهاً في الأمور التعبدية، حسن الأخلاق، طاهر العقيدة، عارفاً بأحكام الطريقة، سالكاً مسلكاً كاملاً، شيخاً زاهداً متواضعاً، حمولاً للأثقال، صاحب وَجْدٍ وحال وصدقِ مَقال، ذا فراسة وطلاقة لسان في تعريف أحكام الطريقة، متبرءاً عن عوائق الشطح، طارحاً ربقة الدعوى والعلو، محباً لشيخه، حافظاً شأن حرمته في حياته وبعد مماته، يدور مع الحق أين دار، منصفاً في أقواله وأفعاله، متكلاً على الله في جميع أحواله.

وقد نُقل نحو ذلك من حضرة السيد الشيخ عبدالقادر الكيلاني - قدس الله سره - ومن كلامه - رضي الله عنه وأرضاه - في وصف الشيخ المرشد في هذه الأبيات الشريفات:

إذا لم يكن للشيخ خمس فوائد وإلا فدجالٌ يقود إلى جهل

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٣٦٦٥ وأحمد رقم ٢٤٠٢٠، عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٠١٨ بلفظ: «أو متكلف»، وأخرجه ابن ماجه رقم ٣٧٥٣ وأحمد رقم ٦٦٦١ والدارمي (٣١٩/٢)، بلفظ: «أو مُراءٍ»، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ.

(٢) موقع الطريقة البودشيشية.

عليم بأحكام الشريعة ظاهراً ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل
ويَظْهرُ للوُرّادِ بالبِشْر والقِرَى ويَخْضَعُ للمسكين بالقول والفعل
فهذا هو الشيخ المعظمُ قدرُه عليم بأحكام الحرام من الحِل
يُهذّب طلابَ الطريق ونفسُه مُهذَّبةٌ مِن قَبلُ ذو كَرَمٍ كُلِّي(١)

لقد بين الشيخ في هذه الأبيات بعض شروط الشيخ المربي وهي خمس. فإن لم تتوفر فيه فليس لديه الأهلية للإرشاد وهذه الشروط هي:

أن يكون عالماً بأحكام الشريعة والدين، عالم بالحلال والحرام، عالم بحدود الشرع وعالم بالسنة النبوية، وعالم بما علم من الدين بالضرورة، وهذا معنى قول الشيخ (عليم بأحكام الشريعة ظاهراً).

أن يكون عالماً بعلم الحقيقة والطريقة، وعالم بأحوال القلوب والنفوس وطرق تزكيتها، وخبير بأحوال السالكين وتدرجهم في الطريق إلى الله، ويكون قد أخذ هذا العلم من شيخ مرشد كامل، عبر سند متصل إلى رسول الله ﷺ، وهذا معنى قول الشيخ (ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل).

أن يكون كريماً سخياً مع ضيوفه، والسخاء من صفات رب العالمين ومن خلق الرسول الكريم ﷺ والصالحين، فلا يليق بالمرشد أن يكون بخيلاً، كما جاء في الحديث: ما جُبِلَ وَليٌّ الله إلا على السخاء(٢)، وحسن الخلق، فيكرم ضيوفه ورواد زاويته دون التقصير بحق ضيافتهم، وأن تدوم البسمة على وجهه، وأن يكون رحب الصدر، وهذا معنى قول الشيخ (ويَظهر للورّادِ بالبشر والقرى).

---

(١) السير والمساعي (ص٢٠٨-٢١١).

(٢) روي بهذا اللفظ بإسناد ضعيف، ولعله رواية بالمعنى لحديث: لا يجتمع البخل والإيمان في قلب عبد أبداً، فإذا كان كل مسلم لا يكون بخيلاً، فالولي من باب أولى.

أن يكون متواضعاً للمؤمنين يخضع لهم بالقول والفعل، وهذه الخصلة هي من خصال النبي ﷺ حيث أمره الله تعالى فقال له: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)(١)، وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني معروفاً بتواضعه للفقراء، وكان يجلس معهم ويطاعمهم، ويتجنب مجالسة الأغنياء والكبراء والأمراء والوزراء، إلا إذا أراد أن ينصح لهم وهذا معنى قول الشيخ (ويخضع للمسكين بالقـول والفعل).

أن يكون ناجحاً في تربية المريدين وتزكية نفوسهم، ولن يكون له هذا إلا إذا كان قد زكى نفسه قبل ذلك على يد شيخ خبير بارع، وأن يكون قد أذن له بالإرشاد والمشيخة من قبل شيخه وفق سند متصل وهذا معنى قول الشيخ (يهذب طلاب الطريق، ونفسه مهذبة من قبل، ذو كرم كلي)(٢).

ويجب الانتباه لمسألة الادعاء في الدلالة على الله، وتعريفِ الناس بطريق الله، فقد كثر المدَّعون الذين ليسوا بصادقين، وليسوا بأهل للطريق، أخذوا صورة في الدلالة على الله ولم يأخذوا حقيقتها.

والسبب في انبهار بعض الناس أو انخداعهم بأمثال هؤلاء الأدعياء أن مفهوم المشيخة عند البعض غير واضح، فمقياس المشيخة عندهم الكرامات، فكل ما يحصل من خوارق العادات يرونه كرامة، فيعظمون صاحبها ويَعُدُّونَه شيخاً.

ونحن نؤمن بالكرامات وخوارق العادات، وأهل السنة والجماعة يعتبرون إنكار الكرامة فِسقاً وخَلَلاً وبدعة في عقيدة من يُنكرها.

والكرامة ثابتة عند أهل السنة والجماعة بنص القرآن والسنة، كقصة السيدة مريم (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً)(٣)، وقصة جُريجٍ الراهب الذي اتُّهِم بالباطل، فخاطب الطفل الصغير، فأنطق الله له الرضيع.

---

(١) الحجر (٨٨).

(٢) الإبريز ص(١١٩-١٢١).

(٣) آل عمران (٣٧).

والصحابة كثرت عندهم الكرامات، فكلُّنا نؤمن بها، لكنها ليست هي المقياس لمعرفة الصالح فحسب، بل الأساسُ في تمييز الصالح والدَّالِّ على اللهِ الاستقامةُ، ولهذا قالوا: «الاستقامة أعظم كرامة»، و قال الإمام الجنيد: «لو رأيتم الرجل يطير في السماء أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تقيسوه على الأمر والنهي، أي أمر الله ونهيه، فإن رأيتموه ممتثلاً لأمر الله، منتهياً عما نهى عنه الله، فهو ولي صديق، وإلا فهو دَعِيٌّ زنديق».

يمكن أن تُخرَق العادة بِسِحْرٍ، يمكن أن تُخرَق العادة بجن، يمكن أن تُخرَق العادة بصورة فَهلوة ليست حقيقية، لكن خَرْق العادة إذا صَحَّتْ بالاستقامة، نعتبرها كرامة.

مقام الشيخ الذي يَدل على الله ويُرشِد، لا يُقاس بكثرة الكرامات التي تَجرِي على يديه، يقول الإمام الجنيد: «مَشى أقوامٌ باليقين على الماء، وماتَ أقوامٌ أعظمُ منهم يقيناً من شدةِ الظَّمأ»(١).

المطلب الخامس

بيان الحكمة من وجوب التزام المريد بشيخ واحد

مشايخ الطرق لا يمنعون أن يتردد المريد على أي إنسانٍ للتزود بالثقافة والعلم، ولكنهم يمنعون أن يجمع المريد بين عدة وسائل للسلوك، فإنه لا يجوز للمأموم أن يأتم إلا بواحدٍ في الفرض الواحد، ولا يجوز للمريض أن يتناول أدوية عدد من الأطباء في وقت واحد، والتربية شيء غير العلم؛ فالعلم مَطالِبُ تأتلف، والسلوك مَشاربُ تختلف، فهو أبوة روحية، ولا يمكن أن يكون للإنسان إلا أب واحد، وحب الأب لا يمنع حب الأعمام والأخوال وتوقيرهم.

فإذا توفى الشيخ قبل نضوج المريد، جاز للمريد أن يتخذ من يتم به رحلته.

---

(١) طبقات السلمي (١/١٣٥)، الرسالة القشيرية (١٣٢٠).

وإذا ثبت أن الشيخ جاهل أو منحرف؛ تعين أن يبحث المريد عن سواه، وهنا نكرر ونذكر أنه ينبغي على المريد أن يحتاط ويجتهد في معرفة الشيخ، أنه هل يصلح للمشيخة أم لا؟ فإن أكثر الطالبين هلكوا في هذا المنزل، بل هلاك كثير من الناس كان بالاقتداء بالأئمة المضلة.

فإذا تم للمريد مقامه، جاز أن يتلقى للتبرك عن عدد من الأشياخ، دون أن يدع طريقه الأصيل الذي كان سبب الفتح بحال من الأحوال، كشأن كبار الرجال، سلفاً وخلفاً، وكما هو مسجل في إثباتهم وإجازاتهم [١].

ومما يوجب الاكتفاء بشيخ واحد أن السالك إذا جعل لنفسه شيخين، فأمره كل واحد بشيء يتعارض مع أمر الآخر، أو لا يستطيع تطبيقهما معاً، فإنه يرجح بينهما، وعندئذ فقد جعل من نفسه شيخاً، وهو ليس بشيخ، فيكون كالذي رجع إلى هواه، أو إلى جهله، أو إلى الشيطان، من حيث لا يدري.

المبحث الثاني

المريد السالك وآدابه

صرح أئمة التربية الصوفية بما يجب أن يتحقق في مريد السلوك إلى الله تعالى من شروط وآداب، حتى يرتقي فى مدارج السير والسلوك إلى ملك الملوك، فلنتعرف أولاً على تعريف المريد كمصطلح صوفي، وما معنى الإرادة في عرف السادة الصوفية؟

---

(١) التصوف نهج لازم (٢٩٠).

المطلب الأول

تعريف المريد

تعريف المريد لغةً:

اسم فاعل مشتق من الإرادة، وهي بمعنى المشيئة والقصد والطلب [١].

تعريف المريد اصطلاحاً:

طلب القرب من الله تعالى، والقصدُ إلى رضوانه، والسعيُ إلى كمال طاعته.

وقد عرف علماء الصوفية المريد بعبارات مختلفة، تكاد تجتمع على معنى واحد:

١. طلب السلوك إلى ملك الملوك.

٢. قيل: هو صدق الوجهة إلى الله تعالى بإفراد القصد إلى حضرة مولاه.

٣. وقيل: هو نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالى، وهو أول منازل القاصدين إليه تعالى.

٤. وقيل: هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى، فلا يُعَرِّجُ عنه حتى يصل إليه.

٥. وقيل: هو رجل يعمل بين الخوف والرجاء، شاخصاً إلى الحب، مع صحبة الحياء[٢].

٦. قال الشيخ محيي الدين بن عربي: المريد من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار، وتجرد عن إرادته إذا علم أنه ما يقع في الوجود إلا ما يريده الله تعالى، لا ما يريده غيره، فيمحو إرادته في إرادته، فلا يريد إلا ما يريده الحق [٣].

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب رود، الجوهري، الصحاح، باب رود.

(٢) مدونة محب العترة.

(٣) تحفة أهل الفتوحات والأذواق (ص١٤٥).

المطلب الثاني

صفات المريد الصوفي

لا بد أن نحتكم إلى صفات عامة في كل من ينتمي إلى التصوف ومنها:

١. **ملازمة الكتاب والسنة كلزوم الظل للشاخص، ولا يتصدر أحدهم للإرشاد إلا بعد تبحره في علوم الشريعة المطهرة**، وقد كان سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيد - رضي الله عنه - يقول: كتابنا هذا - يعني القرآن الكريم - سيد الكتب وأجمعها وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا - يعني طريق أهل التصوف - مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيهما لا يصح الاقتداء به، وكان - رضي الله عنه - يقول لأصحابه: لو رأيتم رجلاً قد تربع في الهواء فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهي، فإن رأيتموه ممتثلاً لجميع الأوامر الإلهية مجتنباً لجميع المناهي فاعتقدوه واقتدوا به، وإن رأيتموه يخل بالأوامر ولا يجتنب المناهي فاجتنبوه[1].

٢. **تحري الإخلاصِ في علمهم وعملهم، وخوفُهم من دخول الرياء في ذلك**، قال النبي ﷺ: (من سَمَّع سَمَّعَ اللهُ به، ومن يُرائي يُرائي الله به)[2].

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى كثيراً ما يعاتب نفسه ويوبخها بقوله: تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين، وتفعلين فعل الفاسقين المنافقين المرائين، والله ما هذه صفات المخلصين[3].

٣. **هجرهم لأخيهم إذا خالط الأمراء وتردد إلى أبوابهم لغير ضرورة شرعية**، ولا لمصلحة كقيامه بالأمر بالمعروف ونحوه، عملاً بحديثه ﷺ: (إن في جهنم وادياً

---

(١))المعلمي، آثار عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٢٦٥/٢)

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩).

(٣) الصفاقسي، غيث النفع في القراءات السبع (٦٥٥/١).

يقال له هيهب أعده الله للجبارين وللقراء المداهنين الذين يدخلون على أمراء الجوّر) [١].

٤. **كثرة الصبر على جَوْر الحكام، وشهودهم أن ذلك دون ما يستحقونه بذنوبهم**، وكان صالح المري رحمه الله تعالى يقول: إذا لم تتساو سريرة الناس وعلانيتهم فلا يستغربوا ما يحل بهم من أنواع البلايا والآفات، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: كان الحجاج الثقفي بلاءً من الله وافق خطيئة، وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقول: إذا ابتليت بسلطان جائر نخرقت دينك بسببه، فرقعه بكثرة الاستغفار لك وله أيضاً، وقد كتب اخ لمحمد بن يوسف - رحمه الله تعالى - يشكو إليه من جور الولاة في بلاده، فأجابه محمد بقوله: قد بلغنا كتابك، ولا يخفى عن علمك يا أخي أنه ليس لمن عمل بالمعصية أن ينكر وقوع العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنب، والسلام.

وقد حَبَسَ هارونُ الرشيد رحمه الله تعالى رجلاً ظلماً فكتب إليه الرجل: اعلم يا هارون أنه ما من يوم يمضي من حبسي وبؤسي إلا ويمضي من عمرك ونعيمك مثله، والأمر قريب، والحاكم بيني وبينك الله تعالى، فلما قرأها الرشيد خلى سبيله وأحسن إليه.

وصبر الصوفية على الحكام لا يعني استباحةَ الظلم وإقرارَه، ولا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممن يستطيعه.

٥. **قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا**، بل كانوا ينقبضون بكل شيء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها ومناصبها، عكس ما عليه أبناء الدنيا.

كل ذلك خوفًا أن يكون من جملة ما عجل لهم من نعيم الآخرة، وكيف يفرح بشيء، من هو في السجن محبوس عن لقاء الله عز وجل، فكما يحزنُ المحبوسُ عن دارِه وعياله ويتكدرُ، كذلك يحزن أولياء الله تعالى على طول عمرهم وسجنهم في هذه الدار عن لقاء ربهم عز وجل.

---

(١) اخرجه النسائي برقم (١٨٩).

قال رسول الله ﷺ: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[١].

وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: عجبت من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت.

وكان الحسن البصري - رحمة الله تعالى - لا يراه أحد إلا ظن أنه قريبُ عهدٍ وأكفانُه قد خرجت من عند القَصّار.

وكان ابن مرزوق - رحمه الله تعالى - يقول: من ادعى أن الذنوب غمته وأحزنته، ثم جمع في إدامه بين عسل وسمن فهو كاذب.

٦. وإذا خرجت الدنيا من قلوب السالكين؛ عندئذ لا يضرهم ما توسعوا في المباح، مع الاعتدال، فإنهم ينظرون إلى الدنيا وزينتها من حيث هي نعمة، فيأخذون منها ما يوافق أمر الله، ويشكرون. **كثرة خوفهم من الله تعالى في حال بدايتهم وحال نهايتهم**، لكن في حال بدايتهم من الذنوب وخوف العذاب، وفي حال نهايتهم خوف الإجلال والتعظيم، ومِنْ لازِمِ خوفِهم الندمُ ضرورةً في الحالتين، وفي الحديث قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: (وأنذر عشيرتك الأقربين)[٢]، وقال: «يا معشر قريش - أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»[٣].

وقد كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: أربعٌ إذا أفرط فيها الرجل أهلكته واستهوته؛ كثرةُ الجِماع والصيدُ والقِمارُ والذنوب، وكان أبو تراب النَخشِبِي رحمه الله يقول:إذا أجمع الرجل على ترك الذنوب أتته الإمدادات من الله تعالى من

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٢)، والعبارة الأولى في البخاري ومسلم.

(٢) الشعراء (٢٤٠).

(٣) اخرجه البخاري برقم (٤٧٧١).

كل جانب، ومن علامة سواد القلب ثلاث: أن لا يجد للذنوب مَفْزَعاً، ولا للطاعة مَوقِعاً، ولا للموعظة مَنْجَعاً.

٧. **كثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة أحد**، وقد كان أبو هريرة - رضي الله عنه - إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك، فإنا على أثرك ماضون.

وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنا رائحون، موعظةٌ بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأولُ، والآخِرُ لم يعتبر، وكان يظل كأنه لا عقل له مدة أيام.

وكان أسيد بن حضير يقول: «ما حدثتني نفسي قط عند رؤية الجنازة إلا بما الميت صائر إليه»، وربما تَرَكَ الأكلَ والشرب أياماً، وخرج مرة في جنازة فلما أدخلوا الميت القبر غشي عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا في النعش.

٨. **النظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، لا بعين المحبة لها وشهواتها**، كما قد درج عليه جمهور السلف الصالح رضي الله عنهم، وكان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول: من أعمل الفكرة والعبرة في الدنيا لم ينقص له عمل صالح.

وقيل لحاتم الأصم متى يكون أحدنا من أهل الاعتبار في الدنيا فقال: إذا رأى كل شيء في الدنيا عاقبته إلى الخراب، وصاحبه يذهب إلى التراب، وكان يحيى بن معاذ يقول: ليكن نظرك إلى الدنيا اعتباراً، وسعيك لها اضطراراً، ورفضك لها اختياراً.

٩. **رؤيتُهم نفوسَهم أنهم مِن أفسق الناس، وأن مثلهم لا يستحق أن يجيب الله له دعاءً**، ولذلك كان احدهم يمتنع من أن يخرج مع الناس للاستسقاء ودفع الوباء، وقد كان سعيد بن جبير يقول: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فلم يسقوا، فقال الملك: إن لم يرسل الله علينا السماء وإلا آذيته، قيل: كيف تقدر أن تؤذيه وهو الحق تعالى، قال: أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك له أذى، فأرسل الله تعالى عليهم السماء فضلاً منه وحِلْماً[١].

---

(١))ابن حنبل، الزهد (٢٢٩٢).

وقالوا لمالك بن دينار: ألا تخرج معنا للاستسقاء، فقال: أخاف أن تمطر عليكم حجارة لأجلي، وكان يقول: إنكم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجر.

وكان وهب بن منبه يقول: خرج عيسى عليه السلام يستسقي فخرج فضجر ولم يسقَ، فقال: من أذنب منكم ذنباً فليرجع، فرجع الناس كلهم إلا واحدا، فقال له: أما لك ذنب، فقال: نعم نظرت مرة إلى امرأة فلما ولت أدخلت إصبعي في عيني فقلعتها[١]، فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله للقوم؛ فدعا فجللت السماء لوقتها وأمطروا.

وأصاب بني إسرائيل مرة أخرى قحْط، فاستسْقُوا فلم يُسْقَوا، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام؛ كيف أستجيب لهم وقد خرجوا بأبدان نجسة، ورفعوا إلي أكفّاً قد أكلوا بها الحرام، حتى ملئوا بطونهم، فلا يزدادون مني إلا بعداً وقحطاً، فليتوبوا وأنا أرفع عنهم القحط[٢].

١٠. **كثرة العفو والصفح عن كل من آذاهم،** بضرب أو اخذ مال أو وقوع في عِرْضٍ أو نحو ذلك، تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ، فإنه كان لا ينتقم لنفسه وإنما ينتقم إذا انتهكت حرمات الله. وكان جعفر بن محمد يقول: لأن أندم على العفو أحب إلي من أن أندم على العقوبة، وكان حاتم الأصم يقول: مِنْ عَدَمِ إنصافك أن تبغض الناس إذا عصوا ربهم، ولا تبغض نفسك إذا عصت ربها، المراد ببغض الإنسان نفسه معاقبتها بالجوع والعطش وعدم النوم على فراش ونحو ذلك، فيعاملها معاملة الشخص لمن يكره، بالغضب وعدم الشفقة، لا كمعاملة المحب لمحبوبه.

أدخلوا على ابن الزبير رجلاً قد أحدث (أي أذنب) فدعا بالسياط ليضربه فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذلَّ مني بين يديك؛ أَلَا عفوتَ عني، فنزل ابن الزبير عن سريره وألصق خده بالأرض، وقال: قد عفوت،

---

(١) وهذا الفعل لا يجوز في شريعتنا، فيجب عليه أن يصدق التوبة.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين (٣١١/١)

ولعل تركه للتأديب على من أقسم عليه لعذر شرعي، كان خاف من إقامته مفسدةً أعظمَ من إقامته التأديبَ عليه، والله أعلم.

١١. **كثرةُ تعظيمِهم حرمةَ المسلمين ومحبةُ الخير لهم،** لأنها من جملة شعائر الله تعالى، وقد نهى النبي ﷺ عن استصغار أحد من المسلمين فقال: «بحسب امرئٍ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم».

وقد كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه – يقول: لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وكان عبد الله بن عباس يقول: أفضل الحسنات إكرام الجليس، وكان ينظر إلى الكعبة ويقول: إن الله حَرَّمَكِ وشرفك وكرمك، ولَلْمُؤمِنُ أعظمُ حرمةً عند الله تعالى منك، وكان عكرمة رضي الله عنه يقول: إياكم أن تؤذوا أحداً من العلماء، فإن من آذى عالماً فقد آذى رسول الله ﷺ، وقيل لحاتم الأصم: لِمَ كانت يد السارق المسلم تقطع في خمسة دارهم مع أن ديتها بخمسمائة دينار، فقال: لِهَتْكِهِ السِّتْرَ، وفعله الجوْر، وتركه الحرمة.

١٢. فتأمل في نفسك هل عظمت حرمات المسلمين فضلاً عن العلماء والصالحين كما ذكرنا، أم احتقرتهم ووقعت في أعراضهم وصرت من الفاسقين بذلك، فاستغفر الله. **صبرهم على أذى زوجاتهم، وشهودهم أن كل ما بدا من زوجة أحدهم من المخالفات له صورةُ معاملتِه لربه،** فلما خالف ربه كذلك خالفته زوجته، وهي قاعدة أكثريةٌ لا كُلِّيَّة، فتخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذلك لعصمتهم. وكان عوام السلف إذا لم يشهدوا ما ذكرناه صبروا على أذاها لشهودهم أن نفعها أكثر من ضررها، وكانوا رضي الله عنهم يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال ولا يمنعهم مخالفتها لهم.

١٣. **ترك طلب الرياسة حتى تَفْجَأَهم، وتقديمُهم الناسَ على أنفسهم،** ويصير أحدهم يقول: ما أنا بأهل للإمامة مثلاً، فيقول الناس له: بل أنت أهل لذلك وزيادة، وقد كان سفيان الثوري يقول: من طلب الرياسة قبل مجيئها فرّت منه وفاته علم

كثير، وكان يقول: لا يطلبْ أحدُكم الرياسةَ إلا بعد مجاهدة نفسه سبعين سنة، وكان عيسى - عليه الصلاة والسلام - يقول: إذا جعلكم الناس رؤوسا فكونوا أذناباً.

وكان الأنطاكي يقول: الرياسة راس حب الرياء ومعشوق النفس وقرة العين للشيطان، وكان إبراهيم بن أدهم يقول: كونوا أذنابًا ولا تكون رؤساء، فإن الذنَب يَنجو والرأسُ يَهلِك، وكان الفضيل بن عياض يقول: ما أحب أحد الرياسة إلا لِحُبِّ ذكرِ الناسِ بالنقائص والعيوب، ليتميز هو بالكمال، ويَكْرَهُ أن يَذْكُرَ الناسُ أحداً عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه، وكان سفيان الثوري يقول: ترك الرياسة وترك محبة المرأة أَمَرُّ من الصبر.

١٤. **شدة خوفهم من الله تعالى أن يختم لهم بسوء**، فيكونوا من المحجوبين عنه في النار، وكان أحدهم يأخذ في التفكر والحزن حتى يغيب عن الحاضرين.

وكان الإمام أبو حنيفة - رضي الله عنه - يقول: أكثر ما يسلب من الناس الإيمان عند الموت، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات على الإسلام تعجبت الملائكة منه، وقالوا كيف نجا هذا من الدنيا وقد هلك فيها خيارنا، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول: تطلع روح العبد على ما كان الغالب عليه قبل موته، قال: وقد دخلْتُ على محتضر وكنت كلما أقول لا إله إلا الله، يحسب الدراهم.

وكان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك؟ وإنما أعجب ممن نجا كيف نجا، وما مَنَّ الله على عبد بنعمة أفضل من أن يميته على الإسلام.

١٥. **مواظبتهم على قيام الليل صيفًا وشتاء**، ورؤيتهم تأكده عليهم كأنه فرض، حتى قالوا: كل فقير نام في الليل من غير غلبة فلا يجيء منه شيء في الطريق، وقد أغفل هذا الخُلُقَ كثير من الفقراء، فينامون في الليل على طراريح كما ينام العامة وأبناء الدنيا، وبعضهم يدخل كل يوم الحمام فلا يخرج منه حتى تطلع الشمس من غير ضرورة بل تَرَفُّهاً، وما أقبح الشيخ وهو ذاهب إلى الحمام كل يوم بكرة النهار، والعامة

المريدون يرونه، وكان آخر من أدركت من فرسان الليل الشيخ محمد بن عنان، كان ورده كل ليلة خمسمائة ركعة، وفي الحديث: «عليكم بقيام الليل فإنه دَأَبُ الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»(١).

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جَنَّهُ الليل نام عني(٢).

١٦. أن يكون أحدهم هيئاً ليناً ينقاد، للصغير كما ينقاد الجمل.

١٧. عزمهم على العمل بعمل كل عالِمٍ رأوه، ثم يجعلون ثواب ذلك في صحائف هذا العالم ويطلبون أجرهم من الله تعالى، كما أنهم إذا قرءوا في علم من العلوم يجعلون ثواب ذلك للمؤلف ولا يزاحمونه في ذلك، لأن ثواب كل قول لقائله فافهم، و هذا الأمر لا يتحقق إلا بمن كان أشفق على المؤمنين من أنفسهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ.

١٨. رؤية محاسن الناس والتعامي عن مساوئهم، حتى أن أحدهم لا يكاد يرى في أخيه المسلم عيباً يهجُوْه به أبداً، ويصير الناس كلهم عنده صالحين، فعُلم أن الصالحين لا يعادون أحداً لحظ نفس، وإنما الناس هم الذين يعادونهم حسداً وعدواناً، والكامل يكني عند القوم أبا العيون، فلكل شيء عنده عين يراه بها، فيشهد سلامة أخيه من النقائص كالرياء والنفاق ونحوهما بعين، ويحتاط له كاحتياط من يتهمه بالنقائص فعلاً أو تقديراً بالعين الأخرى ويحذره منها(٣).

١٩. تقديمهم السلامة على الغنيمة، من حيث رفضُ الدنيا وفراغُ بدنهم منها، فكانوا يقدمون فراغ يدهم من الدنيا وإنفاقِها في سبيل الله تعالى خوفاً أن يَمنعوا منها

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٩).

(٢) البحر المديد (١٢٤/٥).

(٣) تنبيه المغترين (ص١١-٧٢).

حقها، حتى كان أحدهم يقول: يا طالب الدنيا لتَبَرَّ بها غيرَك، تَرْكُكَ لها أَبَرُّ وأَبَرك، وكان الجنيد رحمه الله يقول: تجريد العبد من الدنيا أفضل من جمعها و إنفاقها.

٢٠. عدم اهتمامهم بأمر الرزق وانشراح صدورهم إذا لم يبت عند أحدهم دينار ولا درهم، وكانوا يكرهون ادخار قوت غد، وإذا وقع أن أحدهم ادخر قوت الغد أو الجمعة أو الشهر أو نحو ذلك كان ذلك على اسم العائلة، لا على اسم نفسه، تسكيناً للاضطراب الذي ربما يقع في قلب العائلة إذا لم يكن عندهم شيء يأكلونه، فربما وقع أحدهم في سوء الظن بربه عز وجل، وقال بعضهم: ربما ادخر القوت الذي عَلِمَ مِن طريقِ كَشْفِهِ أنه رزقُه، ولا يصح لأحد غيره أن يتناول منه شيئاً، ولكن قد سمعت الشيخ علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من كمال العارف إذا أطلع على أن الشيء الفلاني من رزقه أن لا يخزنه، بل يصبر حتى يأتيه في الوقت الذي جعله الله تعالى فيه، إيثاراً لفراغ اليد من الدنيا على إمساكها، إذ لا فائدة للادخار.

وكان أويس القرني رحمه الله تعالى يقول: لا يقبل الله من عبده عملاً وهو يهتم بأمر رزقه، إذ المهتم بأمر رزقه مُتَّهِمٌ لله عز وجل، والمتهم لربه لا يُرْفَعُ له عمل.

قد يهتم العبد لرزقه ويسعى في طلبه بكل وجه اهتماما بأمر الله تعالى بالكسب، لا شكاً في أنه يضيعه.

قيل مرة لأبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: أنت من أين تأكل وتشرب، فقال: من حيث يرزق الله الذبابة والبعوضة أفتراه يطعمها وينسى أبا يزيد. قال: وصلى خلف إمام مدة فسأله الإمام يومًا وقال: إني أراك لا كسب لك فمن أين تاكل؟ فقال له أبو يزيد: دعني أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك فإنك لا تعرف الله تعالى ولا تصح صلاة من لم يعرف الله سبحانه وتعالى.

٢١. انشراح صدورهم إذا صرف الله تعالى عنهم الدنيا؛ وذلك لأنهم يحبون الله ورسوله ومن يحب الله تعالى ورسوله ﷺ كره الدنيا ضرورة؛ لأنها تشغل عن كمال العبادة، فلذلك كان من أكرم أخلاقهم انقباض قلوبهم من إقبال الدنيا عليهم،

وتأمل يا أخي لما كان الصحابة - رضي الله عنهم - أكثر الناس محبة لرسول الله ﷺ كيف كان أكثرهم يبيت ويصبح وليس عنده دينار ولا درهم، وقد دعا ﷺ لأهل بيته رضي الله عنهم لشدة محبته لهم ومحبتهم له فقال: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)(١) وذلك ليكون العبد مقبلاً على الله تعالى لا يعوقه عنه عائق، لا سيما إن كان ليس عنده صبر على الجوع مثلاً فإنه يصير مقبلاً على الله تعالى ليلاً ونهاراً يسأله قوته لا يفتر عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: الدنيا سجن المؤمن وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة وإنما دولته غداً في الآخرة.

ولا ينبغي أن تفهم مما سبق أن الصوفي يقصر عن الواجبات المالية، بل إذا وجب عليه كسب أو إنفاق فهو أسرع الناس إلى القيام بالواجبات.

٢٢. شدة الفرح كلما حيل بينهم وبين الوصول إلى شهواتهم في الدنيا، فيقولون: لولا أن الله تعالى يحبنا ما حال بيننا وبين ما يحجبنا عنه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: قال لي معلمي عبد الله الرازي رحمه الله تعالى إن أردت القرب من الله تعالى فاجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد، وقد أوحى الله تعالى إلى داود - عليه الصلاة والسلام - حرام عليَّ قَلبُ أحبَّ الشهوات أن أجعله إماما للمتقين.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: أميتوا الشهوات في أنفسكم ولا تميتوا أنفسكم في الشهوات، فإن من جعل شهوته تحت رجليه فر الشيطان من ظله، كما أن من جعلها في قلبه ركبه الشيطان فصرفه كيف شاء بتسليط الله تعالى.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: سيأتي على الناس زمان يكون هم أحدهم بطنه ودينه هواه وسيفه لسانه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: ليست الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام من نفسك.

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم، وابن ماجه برقم (٣٣٥٦)، وفي لفظ: كفافاً.

٢٣. عدم إسرافهم في الحلال إذا وجدوه، ورفضهم للحرام كله وللشبهات، وذلك لأن الحلال غريب في كل زمان بحسب تفاوت أهله في المقام، فربما كان حلالاً عند قوم وغير حلال عند قوم آخرين، وقد كان السلف يقدمون كسب الدراهم الحلال على سائر مهماتهم وذلك لأنهم من أبناء الآخرة بيقين، والأعمال الأخروية الخالصة لا تقع على يدي من أكل حراماً أو شبهات، إن من أكل حراماً نشأ عنه فعل الحرام ومن أكل شبهة نشأ عنه فعل الشبهة، حتى لو أراد من أكل الحرام أن يطيع الله لما قدر على ذلك، قال ﷺ: «كل جسم نبت من سحت، النار أولى به».

٢٤. كثرة الوصايا من بعضهم لبعض وقبولهم المواعظ وشكرهم الواعظ، وعدم رؤية أحدهم في نفسه أنه قام بواجب حق من نصحه ولو أحسن إليه مدى الدهر، وذلك لأن الأمور الأخروية لا تقابل بالأعراض الدنيوية، وقد قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: أوصني، فقال له: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك الله حيثما كنت، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: أوصني، فقال له: احذر أن تكون ممن يخالط الصالحين ولا ينتفع بهم أو يلوم المذنبين ولا يجتنب الذنوب أو ممن يلعن الشيطان في العلانية ويطيعه في السر.

٢٥. أنهم لا ينصحون ويوصون إلا من علموا منه بالقرائن قبول النصح والوصايا منهم، وأما من علموا منه أنه تتحرك نفسه إنا نصحوه نحو ذلك فالأولى الإعراض عنه وتأخير ذلك حتى يجد احدهم طريقا شرعيًا يدخل إليه منها، وكان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: لا تنصح أحدا إلا إن علمت منه القبول وإلا فربما أعقبك ذلك النصح ضرراً لا تطيقه، وإياك أن تطلب الرياسة على احد في هذا الزمان فإن كل أحد قد عد نفسه أبا فلان، وإياك أن تقتدي بكل أحد، فإن الأهواء قد انتشرت انتشارا عظيما وإياك أن تفشي سرك إلى أحد فإن الأمانة قد ارتفعت.

٢٦. تقليل أعمالهم في عيونهم، من حيث كسبُهم لها، ولو كانوا على عبادة الثقلين، فكانوا لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من حقوق الله عز وجل، وقد قام

رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه الشريفتان وقطر منهما الدم، فقالوا له: تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)[١]، وقد كانت امراة مسروق رحمهما الله تقول: كان مسروق رحمه الله يصلي حتى تنتفخ ساقاه من طول القيام حتى كنت أجلس خلفه أبكي رحمة له، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت أقوامًا كان أحدهم أشح على دينه وعمره من أحدكم على ديناره ودرهمه.

٢٧. **كثرة سؤالهم عن أحوال أصحابهم**؛ وذلك لأجل أن يواسوهم بما يحتاجون إليه من الطعام والثياب والنقود و وفاء الديون وتحمل الهموم، وهذا الخلق صار أهله غرباء في هذا الزمان فإن الناس اليوم على خلاف ذلك وربما يقول أحدهم لصاحبه إيش حالكم؟ فيقول: طيب ويكتم أمره لعلمه بفراغ قلب صاحبه منه، وإن قوله إيش حالكم؟ كلام بحكم العادة من غير ثمرة كما هو مشاهد، بل وكثيراً ما يقول المارّ على أخيه: أيش حالكم؟ ولا ينتظر الجواب؛ فلا السائل يتربص حتى ينتظر الجواب، ولا المسئول يكلف نفسه النطق بالجواب. ومن هنا كان الشيخ علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن لم يكن احدكم عازماً على مواساة أخيه أو تحمل همومه أو الدعاء له وإلا فلا يقولن له إيش حالكم؟ لأنه يصير نفاقاً، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إذا قلت لصاحبك كيف أصبحت؟ وقال لك إني محتاج إلى شيء فتلاهيت عنه ولم تعطه حاجته فقولك له: كيف أصبحت سخرية به، وهذا هو الغالب على إخوان هذا الزمان.

وقد سمعت الشيخ عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: إنما كانوا يسأل بعضهم بعضا عن أحوالهم؛ لينبهوا الغافل على شكر الله تعالى فيشكره، فيحصل له ولهم الخير بذلك، [٢]وقد قيل لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت عبداً ذليلاً لرب جليل أصبحت مأموراً بأمره.

---

(١) اخرجه البخاري برقم (٤٨٣٦).

(٢) اخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٦٧٦)، والطبراني في الدعاء (١٩٣٦).

٢٨. عدم الغفلة من محاربة إبليس والتجسس على معرفة مكائده ومصايده، وهذا الخلق قد أغفله غالب الناس، فإن إبليس كما لم يغفل عنا فينبغي لنا أن لا نغفل عنه، فإنه بالمرصاد حريص على وقوع العبد في سخط الله تعالى، {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً}.

٢٩. مجانبتهم للأمور التي فيها رائحة تكبر على الإخوان.

المطلب الثالث

آداب المريد السالك

نذكر هنا بعضاً من الآداب التي تُطلَب من المريد الصادق كي يتحقق له الوصول إلى مطلوبه، فقد اتفق أهل الله قاطبة على أن من لا أدب له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له، وأن صاحب الأدب يَبلغ في قليل من الزمن مبلغ الرجال.

وقد أفرد أئمة التربية الصوفية مصنفات برأسها لشروط المريد وآدابه [١]، نرصد هنا أبرز هذه الشروط والآداب:

أولاً: آداب المريد مع شيخه:

وهي نوعان: آدابٌ باطنة، وآداب ظاهرة.

أ. الآداب الباطنة:

١. **الاستسلام لشيخه وطاعته في جميع أوامره ونصائحه،** وليس هذا من باب الانقياد الأعمى الذي يهمل فيه المرء عقله ويتخلى عن شخصيته، ولكنه من باب التسليم لذوي الاختصاص والخبرة؛ بعد الإيمان الجازم بمقدمات فكرية أساسية، منها التصديق الراسخ بإذنه وأهليته واختصاصه وحكمته ورحمته، وأنه جمع بين الشريعة

---

(١) ينظر: المريد الصادق للإمام الشعراني، وآداب سلوك المريد للإمام الحداد وغيرهما.

والحقيقة.. الخ. وهذا يشبه تماماً استسلام المريض لطبيبه استسلاماً كلياً في جميع معالجاته وتوصياته، ولا يُعَدُّ المريض في هذا الحال مهملاً لعقله متخلياً عن كيانه وشخصيته، بل يعتبر منصفاً عاقلاً لأنه سلّم لذي الاختصاص، وكان صادقاً في طلب الشفاء.

٢. **عدم الاعتراض على شيخه في طريقة تربية مريديه**، لأنه مجتهد في هذا الباب عن علم واختصاص وخبرة، كما لا ينبغي أن يفتح المريد على نفسه باب النقد لكل تصرف من تصرفات شيخه، فهذا من شأنه أن يضعف ثقته به، ويَحْجُب عنه خيراً كثيراً ويقطع الصلة القلبية والمدد الروحي بينه وبين شيخه.

قال العلامة ابن حجر الهيثمي: (ومن فتح باب الاعتراض على المشايخ والنظر في أحوالهم وأفعالهم والبحث عنها، فإن ذلك علامة حرمانه وسوء عاقبته، وإنه لا ينتج قط)[١].

ومن ثم قالوا: من قال لشيخه لِمَ؟ لَمْ يُفلحْ أبداً[٢]، أي لشيخه في السلوك والتربية.

ولا حرج أن يسأل السالكُ عن الحكمة والدليلِ، طلباً للنفع، وإنما المقصود هنا أن يسأل على سبيل الإنكار، على الرغم من جهله.

إذا أورد الشيطان على قلب المريد إشكالاً شرعياً حول تصرف من تصرفات شيخه بغية قطع الصلة ونزع الثقة، فما على المريد إلا أن يُحسِن الظن بشيخه، ويلتمس له تأويلاً شرعياً ومَخْرجاً فقهياً، فإن لم يستطع ذلك فعليه أن يسأل شيخه مستفسراً بأدب واحترام [٣].

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص٥٥).

(٢) المقصود بهذا الأدب هو مريد التربية والكمال والوصول إلى الله تعالى، أما التلميذ الذي يأخذ علمه عن العلماء فينبغي له مناقشتهم وسؤالهم بصدق وحسن طوية حتى تحقق له الفائدة العلمية.

(٣) حقائق عن التصوف (ص٨٣-٨٤).

قال العلامة ابن حجر الهيثمي: (ومن فتح باب التأويل للمشايخ وغَضَّ عن أحوالهم، و وَكَلَ أمورَهم إلى الله تعالى، واعتنى بحال نفسه وجاهدها بحسب طاقته، فإنه يرجى له الوصول إلى مقاصده، والظفر بمراده في أسرع زمن)[١].

قال الشعراني: ومن شأنه أن لا يقيم ميزان عقله على كلام شيخه، حتى لو قال له لا تحضر مجلس فلان العالم أو الواعظ فلا ينبغي له حضوره، وذلك لأن شيخه أمين عليه في كل شيءٍ يرقِّيه أو يوقِفُه أو يُؤخِّرُه، وغير شيخه لم يلتزم ذلك معه فربما عَلَّمَه ما يَضُرُّه، ويورثه الإعجاب بنفسه مثلا فيهلكه.

وقال أيضاً: للشيخ أن يُخرِج المريدَ من وِرْدٍ إلى ورد آخر، فإذا نهاه عن ورد بادر إلى امتثال أمره، وليس له الاعتراض عليه بباطنه، ويقول: إن الورد خير فكيف ينهاني عن فعله؟ فربما رأى الشيخ في ذلك الورد ضرراً على المريد، بدخول علة قادحة في الإخلاص مثلاً [٢].

٣. **أن لا يعتقد فى شيخه العصمة،** فإن الشيخ وإن كان على أكمل الحالات فليس بمعصوم، إذ قد تصدر منه الهفوات والزلات، ولكنه لا يصر عليها، ولا تتعلق همته أبداً بغير الله تعالى، لأنه إذا اعتقد المريد في شيخه العصمة، ثم رأى منه ما يخالف ذلك، وقع في الاعتراض والاضطراب، مما يسبب له القطيعة والحرمان.

ولكن لا ينبغي للمريد حين يعتقد في شيخه عدم العصمة أن يضع بين عينيه دائماً احتمال خطأ شيخه في كل أمر من أوامره أو توجيه من توجيهاته، فذلك باب فساد وسوء، لأنه بذلك يمنع عن نفسه الاستفادة، كمثل المريض الذي يدخل إلى طبيبه وليس في قلبه إلا فكرة احتمال خطأ الطبيب في معالجته، فهذا من شأنه أن يُضعف الثقة ويُحدث الشكّ والاضطراب في نفسه.

٤. **أن يعتقد كمال شيخه وتمام أهليته للتربية والإرشاد،** وتكوين هذا الاعتقاد يكون بعد البحث والتدقيق بادىء أمره، فإذا ما وَجَدَ شروطَ الوارث المحمدي قد

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص٥٥).

(٢) الأنوار القدسية (ص٣٧).

تحققت في شيخه، ووجد أن الذين يصحبونه يتقدمون في إيمانهم وعباداتهم وعلمهم وأخلاقهم ومعارفهم الالهية [١]، فما عليه إلا أن يسلم الولاء له، ويذعن لتوجيهاته وإرشاداته.

٥. **اتصافه بالصدق والإخلاص في صحبته لشيخه**، فيكون جاداً في طلبه، منزهاً عن الأغراض والمصالح.

فيطلبُ تصحيحَ النية في الصلة بهذا الشيخ الأستاذ، أَفْهَمُ ماذا أُريدُ منه، أنا لا أبحث عن صنم وكهنوت، أنا أبحث عن دالٍ يدلني على الله عزوجل، أيضاً أنا لا أبحث عن مظهر وصورة أتباهى بها أمام الناس، أبحث عمن يعينني على التربية والسير إلى الله، عمن يبصرني بعيوبي وكيف أتخلص منها، وعمن يُبصرني بالصالحات من الأعمال والحَسَنِ من الصفات ويعينني على الأخذ بها، فبحثي عن الشيخ بحث عن سيري إلى الله.

أن أدرك أن صلتي بهذا المرشد صلةُ روح، ليست مجرد صلة جسد، ليست مجرد استماع أُذُنٍ لكلامٍ وأنصرف.. هي صلة روحية، مفاد هذه الصلة أن الشيخ هذا له صلة بشيخ قبله، والشيخ الذي قبله له صلة بشيخ قبله، وهكذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو نور ممتد من زمان إلى زمان إلى زمان إلى زماننا [٢].

٦. **تعظيمه وحفظ حرمته غائباً وحاضراً**، وتربية محبته في قلبه، وهو دليل صدقه، وعلى قدر التصديق يكون التحقيق، فمن لا صدق له لا سير له ولو بقي مع الشيخ ألف سنة.

---

(١) لا ينبغي للمرء أن يكون عاطفياً تغره المظاهر، فيقع في صحبة أدعياء التصوف دون أن يكون له ميزان شرعي صحيح وتفكير عقلي سليم، إذ ليس كل من ادعى التصوف صار صوفياً ومربياً، ولو تزيا بزي المرشدين . كما أنه ليس كل من لبس ثوب الأطباء في المستشفى صار طبيباً، لأن هذه الثياب يلبسها الممرضون والآذنون وغيرهم .

(٢) ينظر: سلسلة أيها المريد للشيخ علي الجفري الحلقة (٣٠).

قال إبراهيم بن شيبان: (من هتك حرمة المشايخ ابتلى بالدعاوي الكاذبة وافتضح بها)(١).

قال محمد بن حامد الترمذي رضي الله عنه: (إذا أوصلك الله إلى مقام ومنعك حرمة أهله والالتذاذ بما أوصلك إليه، فاعلم أنك مغرور مستدرج) وقال أيضا: (مَنْ لم تُرْضِه أوامر المشايخ وتأديبُهم، فإنه لا يتأدب بكتاب ولا بسنة)(٢).

وقال أبو العباس المرسي: (تتبعنا أحوال القوم فما رأينا أحداً أنكر عليهم ومات بخير)(٣).

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (من وقع في عِرْضِ وليّ ابتلاه الله بموت القلب)(٤).

٧. **أن يحب شيخه محبة فائقة بشرط ألا ينقص من قدر بقية الشيوخ**، وأن لا يصل غلوه في المحبة إلى حد فاسد، بأن يُخرج شيخه عن طور البشرية، وإنما تقوى محبة المريد لشيخه بموافقته له أمراً ونهياً، ومعرفته لله تعالى في سيره وسلوكه، فالمريد كلما كبرت شخصيته بالموافقة ازدادت معرفته، وكلما ازدادت معرفته ازدادت محبته.

قال الشعراني: عمدة الأدب مع الشيخ هو المحبة له، فمن لم يبالغ في محبة شيخه بحيث يؤثره على جميع شهواته لا يفلح في الطريق، لأن محبة الشيخ إنما هي مرتبة إيمان يترقى المريد منها إلى مرتبة محبة الحق عز وجل، ومن لم يحب الواسطة بينه وبين ربه التي من جملتها رسول الله ﷺ فهو منافق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار.

وأجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يُصِمَّ أُذُنَه عن سماع كلام أحد في الطريق غير شيخه، فلا يقبل عَذْلَ عاذل، حتى لو قام أهل مصر كُلُّهم في صعيد

(١) طبقات الصوفية للسلمي (ص٢٠٥).

(٢) طبقات الصوفية (ص ٢٨٣).

(٣) مدارج السلوك إلى ملك الملوك (ص١٢).

(٤) مدارج السلوك إلى ملك الملوك (ص١٢). وفي كلامه إشارة إلى قول الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: (مَن عادَى لي ولياً فقد آذَنْتُه بالحرب).

واحد، لم يقدروا على أن ينفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنهما بالنظر إلى شيخه في باله [١].

وقال أبوعلي الدقاق: من دخل في صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد ذلك فقد نقض عقد الصحبة ووجب عليه تجديد العهد [٢].

كيف كان الصحابة يتأدبون مع المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكيف كان التابعون يتأدبون مع الصحابة، وكيف كان تابعو التابعين يتأدبون مع التابعين، وكيف كان الشافعي يصفح الورق صفحاً رقيقاً حتى لا يُحدث صوتاً في حضرة مالك.

هذه الآداب.. الأدب مع الشيخ، مع الأستاذ، هو جزء من تهذيب النفس أولاً، ومن الاعتراف بالفضل لأهله ثانياً، أيضاً فائدة هذا الأدب أنه يعينك على أن تتقوى على نفسك، لأن النفس من طبيعتها التمرد، لا تحب أن يوجد من يوجهها إلى عمل الشيء، ولهذا تريد أن ترفض بأي طريقة، فلهذا كان سَوْقُها بالأدب تهذيباً للنفس.

ومراعاةُ الأدب مع من نأخذ عنه العلم، مع من نتربى على يده؛ له الأثر الكبير في تهيئة النفس لأن تواصل، لأن تأخذ، لأن تستفيد، أيضاً مع تصحيح النية ومع الأدب [٣].

٨. **انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا ما يرد عليه من قبل شيخه**[٤]، كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي عند ملاقاته شيخه، فهي سنة في طريقه، فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة فلابد أن يغتسل من علمه وعمله[٥] قبل أن يصل إلى

---

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية الباب الثاني (ص٣).

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية الباب الثاني (ص٧).

(٣) ينظر: سلسلة أيها المريد للشيخ علي الجفري الحلقة (٣٠).

(٤) ولا يعني هذا التقليدَ الأعمى، كما سبق.

(٥) أي لا يعتد بعلمه ولا بعمله، فذلك استكبار، والمستكبر مصروف عن الحق.

شيخه، لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي، فلا ينبغي للسالك أن يَعتدَّ بعلمه ولا بعمله، فذلك استكبار، والمستكبر مصروف عن الحق.

٩. **عدم الانتقال عنه إلى غيره**، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح، وأشنع كل شنيع، وهو سبب تسويس بذرة الإرادة، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم ولا يحتاج إلى إذن.. والله أعلم [١]، وعدم تطلعه إلى غير شيخه لئلا يتشتت قلبه بين شيخين، ومثال المريد في ذلك كمثل المريض الذي يطبب جسمه عند طبيبين في وقت واحد فيقع في الحيرة والتردد.

ب. أما الآداب الظاهرة:

١. **أن يوافق شيخه أمراً ونهياً**، كموافقة المريض لطبيبه، ولا يتوقف على معرفة الدليل على ما أمره به، فإن ذلك من أكبر قواطع الطريق، فإن علم الاستدلال إنما يكون للأشياخ والمجتهدين لا المقلدين [٢]، وعماد التربية الاتباع للشيخ المتبحر في الشريعة والحقيقة، ومن شأن المريد أن يقدم أمر شيخه على جميع أهوية نفسه، فإذا أمره بتنظيف المستراح وخدمة الفقراء في المطبخ وإعداد الطعام والضيافة، رأى ذلك مقدماً على كل ما يترجح عنده فعله؛ لأن الشيخ أعرف منه بطريق الترقي.

٢. **ومن شأن المريد جمع الهمة على قراءة الأوراد التي أمره بها شيخه.**

٣. **أن يلتزم السكينة والوقار في مجلسه**، فلا يتكئ على شيء يعتمده، ولا يمد رجليه إلا لمرضٍ، ويغطيها عندئذ، ولا يتثاءب ولا ينام ولايضحك بلا سبب، ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستأذنه، لأن ذلك من عدم المبالاة بالشيخ وعدم الاحترام له.

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص١٥٢).

(٢) الأنوار القدسية (ص٦٥).

ومن صحب المشايخ بغير أدب واحترام، حُرِمَ مددَهم[١] والانتفاع منهم، وثمرات ألحاظهم وبركاتهم.

٤. **المبادرة إليه بخدمته بقدر الإمكان، فمن خَدَم خُدِم** [٢].

كان الشيخ علي بن وفا يقول: من تقرب إلى أستاذه بالخِدَم، تقرب الحق تعالى إلى قلبه بأنواع الكَرَم، وكان يقول: من آثر أستاذه على نفسه كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن نزه حضرة أستاذه عن النقائض منحه الله بالخصائص، ومن احتجب عنه طرفة عين فلا يلومن إلا نفسه إذا أوبق بوائق البين، ولا يصل المريد إلى هذا المقام إلا إن جعل مراد شيخه مراده [٣].

وقال ابن عجيبة: نخدمة الرجال سبب الوصال لمولى الموالي [٤].

٥. **دوام حضور مجالسه،** فإن كان في بلد بعيد فعليه أن يكرر زيارته بقدر المستطاع، ولذلك قيل: (زيارة المربي ترقي وتربي)، وإن أمكنه أن يُراسِلَه بين حين وآخر، يراسلُه.

وإن السادة الصوفية بنوا سَيرهم على ثلاثة أصول: الاجتماع، والاستماع، والاتباع، وبذلك يحصل الانتفاع.

٦. **الصبر على مواقفه التربوية، كجفوته وإعراضه...** الخ، التي يقصد بها تخليص المريد من رعوناته النفسية وأمراضه القلبية.

قال ابن حجر الهيثمي: (كثير من النفوس التي يراد لها عدم التوفيق إذا رأت من أستاذ شدة في التربية تنفر عنه، وترميه بالقبائح والنقائص مما هو عنه بريء،

---

(١) مدد المشايخ، هو من عالم الأسباب، كتأثيرهم العلمي والروحاني، ودعائهم للتلميذ، وأثر قدوتهم، والتلميذُ الذي يَخْرُج من قلب شيخه، بسبب إساءة أدبه، لا ينتفع.

(٢) حقائق عن التصوف (ص٨٧).

(٣) الأنوار القدسية (ص٣٣).

(٤) شرح الحكم (ص١٧٥).

فليحذر الموفق من ذلك، لأن النفس لا تريد إلا هلاك صاحبها، فلا يطعها في الإعراض عن شيخه) [(١)].

قال الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه - فى أداب المريد - (ومن شأنه إذا سافر لشيخ ليأخذ عنه الطريق فقابله الشيخ بالجفاء والتعبيس فى وجهه، أن يصبر ولا يتزلزل، بل يجلس مطروح النفس على بابه حتى يرحمه شيخه، ولو مكث على ذلك الجفاء سنة وأكثر لا يبرح عنه، فإن الطريق عزيزة عند أهلها، لا يجوز لهم الترخيص فيها، لكل من ورد عليهم) [(٢)].

٧. **أن لا ينقل من كلام الشيخ إلى الناس إلا بقدر أفهامهم وعقولهم**؛ لئلا يسيء إلى نفسه وشيخه، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله ؟»[(٣)] [(٤)].

٨. **أن لا يكتم على الشيخ شيئاً من حاله**، ومِن مواهب الحق عنده، وما يظهر له من كرامة واجابة، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه،

وما يستحي من كشفه، يذكره إيماءً وتعريضاً، فإن المريد متى أخفى في ضميره شيئاً لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً، يصير على باطنه منه عُقْدَةٌ في الطريق، وبالقول مع الشيخ تحل العقدة وتزول[(٥)].

وهذه الآداب كلها إنما تطلب من المريد الحقيقي الذي يريد الوصول للحضرة الإلهية، وأما المريد المجازي فهو الذي ليس قصده من الدخول مع الصوفية إلا التزيي بزيهم، والانتظام في سلك عقدهم، وهذا لا يُلزم بشروط الصحبة ولا بآدابها، ومثل

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص٥٥).

(٢) الأنوار القدسية (ص٤٤).

(٣) البخاري (١٢٧).

(٤) حقائق عن التصوف (ص٨٨).

(٥) عوارف المعارف (ص٢٧٥).

هذا له أن ينتقل إلى طريق أخرى ولا حرج عليه، كما أن طريق التبرك لا حرج في الانتقال منها إلى غيرها.

قال صاحب العوارف: (ومن الأدب أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه، وأنه أقوم بالتأديب من غيره، ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ أخر، لا تصفو صحبته، ولا ينْفُذُ القولُ فيه، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته، والمحبة والتآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال، لأن المحبة علامة التعارف، والتعارف علامة الجنسية، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعضاً من حاله [1]، قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: (مَن علَّم عَبدًا آيَةً مِن كتاب اللهِ، فهو مولاه، لا يَنبغي لَه أَنْ يَخذُلَهُ، وَلا يَسْتأْثِر عليه، فإنْ هو فعل، قصم عروةً من عُرَى الإسلام)[2].

وبعض شروط المريد مع شيخه جاءت في القرآن العظيم مثل: قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضرعلى نبينا وعليهما الصلاة والسلام من قوله تعالى: (فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)[3]، فقد ذكر سبحانه ثلاثة شروط يجب أن تتوافر في المريد مع شيخه هي: الصبر والطاعة والتسليم، وذلك بعد أن ذكر مقومات الشيخ في قوله تعالى: (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)[4]، وهي التحقق بكمال العبودية لله تعالى، والتحقق برحمة الولاية لله عز وجل، وتحققه بالعلم اللدني، وهو الإلهام والكشف المباشر، وبذا صرح القرآن العظيم بمشروعية تبعية

---

(١) عوارف المعارف (ص٢٧٥). وهو يشير بذلك إلى حديث البخاري: (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف). وقصد بالجنسية: التجانس.

(٢) أخرجه البيهقي برقم (٢٠٣٠).

(٣) الكهف (٦٥).

(٤) الكهف (٦٩-٧٠).

المريد لشيخه بشروطها وبمقومات الشيخ وشروط الإرشاد، ألا فليتدبر أولوا الألباب (١).

ثانياً: آداب المريد مع إخوانه:

١. **حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين**، فلا يغتاب أحداً منهم، ولا يُنَقِّص أحداً.

٢. **نصيحتهم، بتعليم جاهلهم وإرشاد ضالهم**، وتقوية ضعيفهم.

وللنصيحة شروط ينبغي التزامها، وهي ثلاثة للناصح، وثلاثة للمنصوح.

فشروط الناصح:

أ. أن تكون النصيحة سراً.

ب. أن تكون بلطف.

ج. أن تكون بلا استعلاء.

وشروط المنصوح:

أ. أن يقبل النصيحة.

ب. أن يشكر الناصح.

ج. أن يطبق النصيحة، إن كانت حقاً.

٣. **التواضع لهم والإنصاف معهم وخدمتهم بقدر الإمكان**، إذ (سيد القوم خادمهم)، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

٤. **حسن الظن بهم وعدم الانشغال بعيوبهم**، ووَكْلُ أمورهم إلى الله تعالى.

ولا ترَ العيب إلا فيك معتقداً عيباً بدا بيِّناً لكنه استَتَرا

٥. **قبول عذرهم إذا اعتذروا.**

٦. **إصلاح ذات بينهم إذا اختلفوا واختصموا.**

٧. **الدفاع عنهم إذا أوذوا أو انتُهكتْ حرماتهم.**

٨. **أن لا يطلب الرئاسة والتقدم عليهم لأن طالب الولاية لا يُوَلَّى.**

---

(١) مدونة محب العترة. ويرى كثير من علماء التصوف أن الكشف ليس بشرط في الشيخ.

فهذه جملة من الآداب التي يجب على السالك مراعاتها والمحافظة عليها فإن الطريق كلها أداب، حتى قال بعضهم: (**اجعل عملَك مِلْحاً، وأدبَك دقيقاً**).

وقال أبو حفص النيسابوري رضي الله عنه: (التصوف كله آداب، لكل وقت آداب، ولكل حال آداب، ولكل مقام آداب، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حُرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يظن القبول)، وبالجملة فأدب المريد لا نهاية له مع شيخه ولا مع إخوانه ولا مع عامة الوجود (١).

وإذا ما تحقق المريد من هذه الشروط والآداب ارتقى إلى مقام (المراد) فالمريد – عند السادة الصوفية – هو المبتدىء، والمُراد هو المنتهِي، قال أبو علي الكاتب: إذا انقطع المريد إلى الله تعالى بكليته أول ما يفتح الله تعالى عليه الاستغناء به تعالى عمن سواه، وتلك هي السعادة الأبدية (٢).

المبحث الثالث

السند والبيعة

وفيه اثنا عشر مطلباً.

يقول الحق سبحانه وتعالى: (مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) (٣)(٤).

---

(١) حقائق عن التصوف (ص ٨٤-٩٠).

(٢))أبو الأسعاد، البيان الجازم أن التصوف نهج لازم

(٣) الكهف (١٧).

(٤) أي لن تجد له يا محمد خليلاً وحليفاً يرشده. الطبري، جامع البيان (ج١٧ / ص٦٢٣).

من هذه الآية الكريمة استنبط أهل المعرفة أن الدعوة إلى الله تعالى تكون أكمل وأتم ما تكون إذا وجد الولي المرشد، وعندما يضع الإنسان يده بيد الولي المرشد يكون ذلك أجود ما يكون في باب الهداية إلى الله وإلى طريقه.

واذا كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - في الأصل هم الهداةُ الحقيقيون إلى الله تعالى فالأولياء المرشدون هم الوراث الكاملون للأنبياء في باب الدعوة(١)، ومن هذا المعنى ندرك أهمية وجود الولي المرشد لصلاح الدعوة وكمالها وتمامها، وبفقدانه تكون ساحة الدعوة وميدان الإرشاد أقل في التأثير، هذا إن لم نقل أدعى للتنفير.

من المسائل التي أخذت اهتماماً كبيراً لدى فقهائنا وعلمائنا وكتابنا، ولا سيما المتخصصين في السياسة الشرعية(٢) **مسألة البيعة للخليفة**، وذلك لما لها من أهمية بالغة حيث ذكرت في القرآن الكريم فقال سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّه)(٣)، وقال أيضا: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)(٤).

كما أن نصوص السنة تشهد على كثرة ورودها وتنوع استعمالاتها وتعدد مجالاتها، إلا أن القارئ أو السامع ما يكاد يقرأ أو يسمع عن البيعة إلا وينصرف ذهنه إلى البيعة السياسية، ذلك لأن هذه الأخيرة حقيقة مما تفردت به الحضارة الإسلامية عن مثيلاتها من الحضارات الإنسانية (فنظام البيعة) أبدعته الحضارة الإسلامية، وكانت من أهم مميزات نظامها السياسي، لأنها وكما تعني الطاعة فإنها تعني من وجه آخر اشراك الرعية في المنظومة السياسية الحاكمة، ولعل هذا التفرد وهذا التميز جعل مفهوم البيعة مقتصرا عند الأغلب على أعمال السياسة، فغابت من جراء هذه النظرة العديد من صور البيعة لدرجة

(١) تربيتنا الروحية (ص٢١٧).
(٢) من أمثال الماوردي، وله الأحكام السلطانية، وكذا قوانين الوزارة، وكابن الحداد له الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، وكالجويني له غياث الأمم، وابن جماعة له تحرير الأحكام، وغيرهم.
(٣) الفتح (١٠).
(٤) الفتح (١٨).

أن البعض ظنوا بأنها دخيلةٌ على الدين الإسلامي، بصورتها الصوفية، في حين أن السنة النبوية طافحة بصور شتى ومجالات عدة لها سنوضح ذلك في مبحثه.

قال جنادة بن أبي أمية الدَّوْسي: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم، قال: دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أنْ بايَعَنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان(١).

ومن هذا يدرك بالبداهة أن الحبيب الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - كان يبايع أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - والقرآن شاهد بذلك، وقد أمرهم الله تعالى بالقيام بواجب العهد في الكلام القديم، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾(٣)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الحاثة على القيام بواجب العهد (٤).

المطلب الأول

مفهوم البيعة

البيعة لغةً:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٥٥).

(٢) النحل (٩١).

(٣) الإسراء (٣٤).

(٤) العناية الربانية ملخص الطريقة الرفاعية (ص٣٩-٤٠).

البيعة مشتقة من الأصل الثلاثي (باع) وهي الصفقة على ايجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة [١].

وجاء أيضا أنها مشتقة من (الباع) لأن كل واحد من المتعاقدين يمد باعه للأخذ والعطاء [٢].

وجاء أيضا أن البيعة إعطاء شيء مقابل ثمن معين أو إعطاء العهد بقبول ولاية أو خلافة [٣].

مفهوم البيعة اصطلاحاً:

يقول الراغب الأصفهاني: بايع السلطان إذا تَضَمَّنَ بَذْلَ الطاعةِ له [٤].

ويقول العلامة ابن خلدون: البيعة هي عهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم النظر في أمر نفسه [٥].

أما ابن الأثير فهو يعرف البيعة فيقول: البيعة معاقدة ومعاهدة [٦]، وتعريف ابن الأثير قارَبَه تعريف البسيوني حيث يعرف البيعة بأنها: عقد بين طرفين[٧]، إلا أن ابن الأثير يردفها بلفظة (معاهدة) ليزيد معنى زائداً عن مجرد العقد وهو التعهد الذي يتضمن الإشارة إلى الوفاء المصاحب للعقد.

ثم إن هذين التعريفين ليس فيهما اشارة إلى الهيئة التي عرفت بها البيعة كما أن جميع العقود يمكنها أن تدخل تحت مسمى هذا التعريف.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (ج٩ / ص٣٧١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (ج٨ / مادة (ب ي ع)).

(٣) المعجم العربي الأساسي (ص١٨٨).

(٤) المفردات في غريب القرآن / مادة بيع.

(٥) المقدمة (فصل ٢٩ / ص٢٠٩).

(٦) النهاية لابن الأثير (ج١ / ص١٧٤).

(٧) الفكر السياسي لصلاح الدين البسيوني (ص١٨٩).

وإن من التعاريف التي اقتربت إلى حد كبير من ضبط معنى البيعة في المفهوم الإسلامي تعريف الدكتور عدنان علي رضا النحوي حيث يقول:

(البيعة كلمات تعبر عن نية وعزيمة على الوفاء والأداء، ويصحب ذلك بسط يد ومصافحة توثق ذلك كله، ليتم العهد قلبا بقلب ويدا بيد، ومن هنا جاء التعبير بقوله ﷺ: (ولا تنزعوا يدا من طاعة)[(١)]، وكذلك في بيعة العقبة قال القوم: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه) [(٢)] [(٣)].

هذا التعريف اشتمل على معنى البيعة وهيئتها وصفتها ولم يخصصها ويحددها، لذلك كان جامعاً لجميع صور البيعات، ومانعاً من دخول العقود الأخرى كالبيع والزواج وغيرها فيه، فاستحق لقب التعريف الجامع المانع.

---

(١) يشير إلى قول عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدا من طاعة) /انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم حديث رقم(١٨٥٥).

(٢) قال ابن إِسْحَاق: حدثني عاصم بْن عمر بْن قتادة وعبد اللَّه بْن أَبِي بكر بْن حزم: أن العباس بْن عبادة بْن نضلة أخا بني سالم، قال: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكم تبايعونه عَلَى حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنها إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلًا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله، إن فعلتم، خزي الدنيا والآخرة، وَإِنما كنتم ترون أنكم مستضلعون به، وافون له بما عاهدتموه عليه عَلَى مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قال عاصم: فوالله ما قال العباس هذه المقالة إلا ليشد لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها العقد وقال عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي بكر، ما قالها إلا ليؤخر بها أمر القوم تلك الليلة، ليشهد عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي أمرهم، فيكون أقوى لهم. قالوا: فما لنا بذلك، يا رَسُول اللَّهِ، إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قَالُوا: أبسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، فقال عباس بْن عبادة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لئن شئت لنميلن عليهم غدًا بأسيافنا، فقال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لم نؤمر بذلك " / ابن الأثير، أسد الغابة (ج٣ / ص١٦٢)/ ابن كثير، البداية والنهاية (ج٤ / ص٤٠٦) وغيرهما.

(٣) كتاب العهد والبيعة للدكتور عدنان علي رضا النحوي (ص ١٠٧).

ومن خلال عرض التعاريف السابقة يتضح لنا جلياً أن البيعة عقد بين طرفين وعهد على الطاعة مع عزيمة على الوفاء يصحب ذلك بسط يد ومصافحة [١].

ويمكن تعريف البيعة في الاصطلاح الصوفي: بأنها **عقد بين شيخ مؤهل للتربية وبين سالك يريد تزكية نفسه، يلتزم فيه الشيخ بإرشاد السالك ما استطاع، ويلزم فيه السالك بالطاعة ما استطاع، سعياً للوصول إلى مقام الإحسان.**

المطلب الثاني

العقود في التشريع الإسلامي

يقول الحق سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) [٢].

يفسر سيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - العقود، فيقول: تعني العهود [٣].

ويقول ابن جرير الطبري: أوفوا بالعقود يعني أوفوا بالعهود التي عاهدتموها ربكم، والعقود التي عاقدتموها اياه وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقاً وألزمتم أنفسكم بها لله فروضا، فأتموها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموه منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تنكثوها فتنقضوها بعد توكيدها [٤].

(١) هذه هي الصورة الغالبة للبيعة (الكلام والمصافحة) إلا بيعة النساء ومن به عاهة فتكون بالكلام فقط كبيعته ﷺ للمجذوم حيث قال له: ارجع فقد بايعتك، رواه النسائي بيعة من به عاهة، حديث رقم ٤١٨٢. وقد تكون بالكتابة كبيعة النجاشي للنبي ﷺ ولجعفر حيث يقول فيه: قد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين .ذكرها الزيلعي في نصب الراية وابن طولون الدمشقي في إعلام السائلين.

(٢) المائدة (١).

(٣) تفسير ابن كثير (ج٢ / ص٧).

(٤) تفسير الطبري / سورة المائدة الآية (١).

وللفقهاء كلام طويل عريض في العقود والالتزامات وما يتفرع عن ذلك من أحكام.

وفي التشريع الإسلامي تنقسم العقود الى قسمين:

عقد بإرادتين: ويقصد به اجتماع طرفين فيه ويلتزم كل طرف بواجباته، ويدخل في هذا القسم عقد البيع وما شاكله من اجارة وشركة وسائر العقود التي يشترط فيها تلاقي الإيجاب والقبول، وتدخل فيها كذلك العهود والمواثيق.

عقد بإرادة واحدة: ويقصد به التزام من جهة واحدة، ويدخل في هذا القسم النذر واليمين والحَوالة والوعد والهبة والوصية على غير معين وعهد الأمان(١).

وعليه فمصطلح البيعة أو العهد كما يعبر عنه البعض ليس جديدا على الثقافة الإسلامية، وهو داخل كما رأينا في قسم العقد بإرادتين، ولكن هناك تغييب لبعض مجالات وصور البيعة، مما أدى بالبعض إلى الشك في مشروعية بعض صورها (كبيعة الولي المرشد) أو ما يعرف ب (أخذ العهد الصوفي) بل بلغ الحال عند البعض إلى القول ببدعيتها، لهذا أردت أن أوضح وأؤصل لهذه الصورة من صور البيعات من خلال السنة المطهرة وأقوال سلف الأمة حتى يتضح وجه الحق لمن أراد الحق ونتوصل إلى الفصل في الجدلية القائمة (هل بيعة الصوفية أو الولي المرشد من هدي السنة وسلف الأمة أم أنها بدعة لا أصل لها ؟).

---

(١) حقيقة العقد في الفقه الإسلامي والقانون / د عباس حسني محمد .المبحث الأول (ص٢٢)

المطلب الثالث

أقسام ومجالات البيعة في السنة النبوية

اشتملت السنة المطهرة على عدة أنواع من البيعات يمكن حصرها في قسمين رئيسيين:

القسم الأول: البيعة العامة.

وهي ما عرفت ببيعة الخلافة الإسلامية أو بيعة الحكام، وفيها يبايع المسلمون خليفتهم أو حاكمهم على السمع والطاعة في مقابل أن يحكم بما فيه مصلحتهم على أساس الشريعة الإسلامية، والطاعة في هذه البيعة تكون واجبة لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)(١)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ثم يقول فيما استطعتَ (٢).

القسم الثاني: البيعة الخاصة.

والأصح أن نقول البيعات الخاصة، وذلك لتعدد صورها ومجالاتها، وهي البيعات التي أخذها رسول الله ﷺ على بعض الخاصة من أصحابه في أمور خاصة.

نورد من ذلك:

١. البيعة على النصح.

عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم(٣). وبمقتضى هذه البيعة عمل جرير بن عبدالله البجلي حيث ورد أنه أمر مولاه

---

(١) النساء (٥٩).

(٢) رواه مسلم برقم (١٨٦٧).

(٣) رواه مسلم برقم (٣٩).

أن يشتري له فرساً، فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال ذلك إليك يا أبا عبدالله، فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائة فمائة وصاحبه يرضى وجرير يقول: فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم، فاشتراه بها فقيل له في ذلك فقال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم[(١)]، فجرير - رضي الله عنه - أدرك أنها بيعة وعهد يجب الوفاء والالتزام به، فنفذه على أكمل وجه.

وعلى الرغم من أن كل مسلم مُطالَب بالنصح لكل مسلم، فذلك من حقوق الأُخُوَّة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بايع بعض أصحابه على ذلك تأكيداً وإلزاماً لهم بذلك، والبيعة كالنذر لا تكون إلا على أمر مشروع.

٢. البيعة على عدم الشرك وعلى الصلوات.

عن عوف بن مالك - رضي الله عنه - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: (ألا تبايعون؟) رددها ثلاثا فقدمنا أيدينا فبايعناه، فقلنا: يارسول الله قد بايعناك فعلى ما؟ قال: (على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس)[(٢)].

٣. البيعة على القول بالعدل.

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالعدل أينما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم [(٣)].

٤. البيعة على الموت.

عن يزيد بن أبي عبيد الله قال: قلت لسلمة بن الأكوع على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال على الموت [(٤)].

---

(١) رواه الطبراني برقم (٣٣٤).
(٢) رواه النسائي برقم (٤٦٠).
(٣) رواه أحمد برقم (٢٢١٧٠).
(٤) رواه البخاري برقم (٧٢٠٦).

٥. البيعة على عدم الفرار.

عن أبي الزبير سمع جابراً يقول: لم نبايع رسول الله ﷺ على الموت وإنما بايعناه على أن لا نفر [١].

٦. البيعة على الجهاد.

عن يعلى بن أمية قال: جئت رسول الله ﷺ بأبي أَمَيَّةَ فقلت: يارسول الله بايع أبي على الهجرة، فقال رسول الله ﷺ: (بل أبايعه على الجهاد وقد انقطعت الهجرة) [٢].

٧. البيعة على الأثرة.

عن يسار ويحيى بن سعيد أنهما سمعا عبادة بن الوليد يحدث عن أبيه عن جده قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأَثَرَةٍ علينا [٣]، والأثرة: بفتح الهمزة والثاء أي يفضلون غيرهم عليهم في نصيبهم من الفيء والإمارة، وهي صورة من صور مجاهدة النفس إذ النفس ميالة إلى حب التملك

٨. البيعة على عدم مسألة الناس.

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: (ألا تبايعون رسول الله؟)، وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا قد بايعناك يارسول الله ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله؟)، فقلنا قد بايعناك يارسول الله ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله؟) فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يارسول الله فعلام نبايعك ؟ قال: (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا، وأسر بكلمة خفية، ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه) [٤].

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٥٩١).

(٢) رواه النسائي برقم (٧٤٨٤).

(٣) رواه النسائي برقم (٤١٥٤).

(٤) رواه مسلم برقم (١٠٤٣).

وهذه صورة أخرى من صور البيعة على ما فيه نوع من مجاهدة النفس، بأن يخدم الإنسان نفسه بنفسه، ولا يستعين بالآخرين، زوجة أو ولداً، أو عبداً، أو غيره.

٩. البيعة على الصدقة.

عن بشر بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترَط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن أقيم الصلاة وأن أؤدي الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يارسول الله أما اثنتان فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أنه من وَلَّى الدُّبُرَ فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت تلك جَشِعَتْ نفسي وكَرِهْتُ الموتَ، والصدقةُ فوالله مالي إلا غنيمة وعشر ذَوْدٍ، وهن رُسُل أهلي وحَمُولتُهم، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده ثم قال: (فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذاً؟) قال: قلت: يارسول الله أنا أبايعك قال: فبايعته عليهن كلِّهن[1].

١٠. البيعة على عدم النياحة.

عن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ البيعة على أن لا ننوح [2].

وهكذا تمضي بيعات النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه على أعمال الإسلام باختلافها وتعددها، فقد كان رسول الله ﷺ يأخذ البيعة على الدخول في الإسلام، وعلى أعمال من شعائر الإسلام، بل وحتى من **آداب وترك مباحات** كما تبين مما سلف.

وعليه يتضح لنا أن للبيعة صوراً غير الصورة السياسية، ولكن بعد وفاة النبي ﷺ وجدت صيغة وحيدة لها وهي البيعة السياسية بمعنى أنه لا توجد سوى بيعة واحدة وهي التي تعطى للأمير.

---

(١) رواه أحمد برقم (٢١٩٥٢). ومعنى جشعت: خافت وبخلت بنفسها، والذود: الإبل، وهي رسل أي يركبها الناس ويسافرون عليها، وحمولتهم: تحملهم.

(٢) رواه النسائي برقم (٤١٨٠).

يقول الشيخ سعيد حوى: ولما اختلفت الاتجاهات في الأمة الإسلامية بقيت البيعة تعطى على أساس الولاء لجهة في إطار سياسي مرتبطة بالحكم والسلطان، وبقي الأمر على ذلك حتى القرن الخامس الهجري حيث وجدت البيعة للشيخ في بعض الهيئات على أساس الالتزام بأعمال أو شيء من ذلك، وفُصِلَ هذا النوع من البيعات للشيوخ عن الإطار السياسي فأصبح بعض الناس لهم بيعتان: بيعة للسلطان في الأحوال العامة وبيعة للشيخ على الالتزام بالتقوى، وأصبح كل شيخ يأخذ البيعة على مريديه في هذا الإطار[١].

وتعضيداً لما ذكر من ظهور البيعة في القرن الخامس؛ يقول الشيخ أبو الحسن الندْوي: إن الشيخ عبدالقادر **الجيلاني** رضي الله عنه فتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، يجددون العهد والميثاق مع الله ويعاهدون على ألا يشركوا ولا يكفروا، ولا يفسقوا، ولا يبتدعوا، ولا يظلموا، ولا يستحلوا ما حرّم الله، ولا يتركوا ما فرض الله، ولا يتفانوا في الدنيا، ولا يتناسوا الآخرة.

وقد دخل في هذا الباب - وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني - خَلْقٌ لا يحصيهم إلا الله وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم، وعلى تقدمهم، فأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان [٢].

فالشيخ أبو الحسن الندْوي يرى أن من فتح باب البيعة على المشايخ أو بالأحرى أول من أحيي هذه السنة هو الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو أمر مشهور عنه، ولم ينكر عليه أحد في ذلك.

ويرى بعض الدارسين والباحثين أن البيعة الصوفية وجدت قبل القرن الخامس الهجري ولهم في ذلك تدليلات وتخريجات ليس هذا محلها.

---

(١) تربيتنا الروحية (ص٢٣٧).

(٢) رجال الفكر والدعوة للندوي (ص٢٠٩).

المطلب الرابع
أخذُ العهد سنةُ السلف

لقد تبين مما سلف أن البيعة على عمل من أعمال الإسلام أو طاعة من الطاعات له أصله في السنة وذلك بقوله وفعله ﷺ، ثم إن البيعة الصوفية أو (أخذ العهد من الشيخ المرشد) أمر تلقته الأمة بالقبول [١]، ودرج عليه السلف ولم ينكروه.

يقول صاحب تفسير (روح البيان): المبايَعون ثلاثة: الرسلُ والشيوخُ الورثةُ والسلاطين، والمبايَع في هؤلاء الثلاثة على الحقيقة هو الله تعالى وهؤلاء الثلاثة شهود الله على بيعة هؤلاء الأتباع [٢].

فبيعة الشيوخ الورثة هي تبع لبيعة الأنبياء والرسل؛ ذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء، وفيما يلي نورد أقوالاً لبعض العلماء المتقدمين والمتأخرين في أخذ العهد.

أقوال العلماء المتقدمين.

قول العلامة ابن الحاج[٣].

---

(١) ما مر من قبل أن الشيخ عبد القادر الجيلاني أول من فتح هذا الباب ولم ينكر عليه أحد من العلماء بل أثنوا عليه، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن كما قال سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه، ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة حديث رقم (٩١٤)، وقال: حديث موقوف حسن.

(٢) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي في تفسير قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

(٣) هو الشيخ محمد بن محمد أبو عبد الله العبدري المعروف بابن الحاج المغربي الفاسي المالكي قال عنه ابن فرحون: هو من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين من أصحاب أبي محمد بن أبي جمرة كان فقيها عارفا بمذهب مالك سمع من بعض شيوخه بالمغرب وقدم القاهرة وسمع بها توفي سنة ٧٣٧هـ، الديباج المذهب ج٢ .

يقول رحمة الله عليه في كتابه المدخل: ولا يظن ظان أن ما تقدم ذكره فيه إنكار لأخذ العهد من أهله بشرطه المعتبر عندهم إذ أنه عليه درج السلف الصالح نفعنا الله بهم، ولا ننكر أيضا الانتماء إلى المشايخ بشرطه وهو أن يكون عند المريد شيخه وغير شيخه بالسواء بالنسبة إلى الاتباع وترك الابتداع، ويكون إيثاره لشيخه بسبب أنه كان وصوله إلى الله تعالى على يديه، فيرى ذلك له فبهذا الاعتبار يقع التفضيل لشيخه والاختصاص به دون غيره(١).

ولقد ذكرت قول ابن الحاج هنا بالذات لأن كتابه المدخل كتاب تعرض فيه لرد ما أحدثه الناس وابتدعوه، وهو مع هذا يقر بأن أخذ العهد على المشايخ لا إنكار عليه بل هو مما درج عليه السلف الصالح كما مر.

الحافظ ابن أبي جمرة (٢).

يقول ابن الحاج في كتابه المدخل: كان الشيخ أبو محمد رحمه الله يأبى أن يأخذ العهد على أحد فسألته ما الموجب لذلك أهو بدعة ؟ قال:لا ولكن عبد الله يعني نفسه ليس كغيره فأخاف إن أخذت العهد على أحد فقد لا يوفي بما أخذ عليه من العهد فيقع له التشويش وأكون السبب في ذلك فأتركهم رحمة بهم وشفقة عليهم (٣)، فالحافظ ابن

---

(١) كتاب المدخل ج٢ ص ٣٥٣/٣٥٤.

(٢) هو الحافظ المشهور الإمام المحدث الكبير عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي يمتد نسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري ويكنى بأبي محمد من العلماء بالحديث عالما بمذهب مالك توفي بمصر ٦٩٥هـ .له كتاب جمع النهاية وبهجة النفوس والمرائي الحسان عرف ابن أبي جمرة كثيرا بمختصره لصحيح البخاري، وهو من بيت علم، وكان يروي عن أبيه . ولقد تناول كتابه هذا الكثيرون بالشرح والتفسير ...انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٤ص ٨٩ ونيل الابتهاج ص ٢١٦:وكان ابن حجر العسقلاني يسميه بالشيخ القدوة، وكثيرا ما يقول عقب ذكره (نفع الله ببركته) كما في فتح الباري .

(٣) المدخل (ج٢ / ص٣٥٤).

أبي جمرة رحمة الله عليه وهو كما علمنا من كبار الحفاظ والمحدثين يصرح بعدم بدعية أخذ العهد ولكنه ترك ذلك خوفا وشفقة على الناس.

أبو اسحاق الشاطبي.

أبو اسحاق الشاطبي الأصولي المحقق والنظار المدقق في كتابه الموافقات يؤصل لمسألة أخذ العهد عند الصوفية، ويدرجها في المسألة الثامنة من مسائل النوع الرابع في بيان قصد الشارع من الأعمال دوام المكلف عليها، فيقول: من هنا يؤخذ حكم ما ألزمه الصوفية أنفسهم من الأوراد في الأوقات وأمروا بالمحافظة عليها [١].

ومن المعلوم عند العامة فضلا عن العلماء وخاصة في زمن الشاطبي وعصره أن التزام الصوفي بالأوراد[٢] يتم عن طريق البيعة (أخذ العهد) بل إن الشاطبي أوضح ذلك - وإن لم يصرح باللفظ - بقوله: وأمروا بالمحافظة عليها وما يوضح ذلك أكثر أنه كان يراسل الشيخ الجليل صوفي زمانه ابن عباد النفري الرندي، وفي ذلك إشارة إلى تسليم الشاطبي لمشايخ التربية.

جاء في إحدى هذه الرسائل قوله: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه ؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟[٣]، كما أنه تحدث في الموافقات عن خطورة من سلك وحده بدون شيخ تربية وسلوك[٤].

ويقول أيضا في كتابه الاعتصام: إن كثيراً من الجهال يعتقدون أن الصوفية متساهلون في الاتباع وأن اختراع العبادات والتزام مالم يأت الشرع بالتزامه مما يقولون به

---

(١) كتاب الموافقات (ج٢ / ص٤٠٥).

(٢) الورد في المصطلح الصوفي هو: «الذكر الذي يعاهد المريد شيخه في بيعة كاملة التشريفات على ملازمته مدى الحياة». من كتاب التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، د.محمد بن بريكة (ص٣١٥).

(٣) على هامش رسالة المسترشدين /عبد الفتاح أبو غدة (ص ٣٩).

(٤) كتاب الموافقات بحث خوارق العادات (ج٢ / ص١٨٩).

ويعملون عليه وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها[١].

شهادات لبعض العلماء المتأخرين.

العلامة المفسر الفقيه أحمد الصاوي:

يقول رحمة الله عليه في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[٢]: هذه الآية وإن كان سبب نزولها بيعة الرضوان إلا أن العبرة بعموم اللفظ فيشمل مبايعة الإمام على الطاعة والوفاء بالعهد، ومبايعة الشيخ العارف على محبة الله ورسوله والتزام شروطه وآدابه[٣].

الشيخ المحدث الكاندهلوي[٤].

يقول - رحمة الله عليه -: إن البيعة المعمول بها عند السادة الصوفية حاصلها أنها معاهدة للالتزام بالأحكام والاهتمام بالأعمال الظاهرة والباطنة ... إلى أن قال: فثبت أن إنكار هذه البيعة جهل[٥].

الشيخ سعيد حوى.

يقول في كتابه غذاء العبودية: ونحن نرى أن أخذ العهد من الدعاة الكمل فيه بركة للآخذ والمعطي [٦].

---

(١) الإعتصام (ج١ / ص٨٩).

(٢) الفتح (١٠).

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٩٤).

(٤) هو العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي ولد سنة١٣١٥هـ أحد كبار المحدثين في العالم الإسلامي له من المؤلفات ما يزيد عن ١٤٠مؤلفا توفي سنة١٤٠٢هـ بالمدينة المنورة انظر ترجمته في (تذكرة حياته) لأبي الحسن الندوي.

(٥) كتاب الشريعة والحقيقة (ص١٢٢-١٢٣).

(٦) غذاء العبودية (ص٧).

هذه بعض من أقوال الفقهاء والمحدثين والأصوليين المتقدمين منهم والمعاصرين الذين ارتضتهم الأمة وأخذت عنهم.

أما عن أئمة الصوفية المقتدى بهم فنذكر منهم:

الولي الصالح الشيخ عبد القادر الجيلاني[١].

وهو كما أشرنا من قبل أنه أول من فتح باب تجديد البيعة وأخذ عليه الكثير من الخلق العهود، وأفرد له تأليفاً خاصاً بعنوان (الطريق إلى الله) يتحدث فيه خاصة عن الخلوة والبيعة والأسماء السبعة[٢].

العلامة الإمام عبد الوهاب الشعراني.

قال رحمه الله: من ترك الذكر فقد نكث عهد شيخه [٣]، كما أن له كتاب العهود المحمدية وكذا كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود.

---

(١) سلطان الأولياء وإمام الأصفياء، أحد الأقطاب الأربعة، عبد القادر بن موسى بن عبد الله ابن جنكي دوست الحسني، أبو محمد محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي - رضي الله عنه -: مؤسس الطريقة القادرية قدس الله سره: من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ فاتصل بشيوخ العلم و التصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب واشتهر. وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد وتوفي بها، له كتب منها: «الغنية لطالب طريق الحق» و «الفتح الرباني» و «فتوح الغيب» و «الفيوضات الربانية». انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن ص ١ ٤ و «الأعلام» للزركلي ٤/٤٧.

(٢) وقد ذكر الجيلاني في كتابه الطريق إلى الله: أنهم يذكرون في طريقتهم ثلاثة عشر اسماً، من أسماء الله تعالى؛ سبعة أصول، وستة فروع: الأسماء السبعة الأصول: (لا إله إلا الله) يقولونها ١٠٠٠٠٠ مرة، (الله) يتلونه ٧٨٠٨٤ مرة، (هو) يتلونه ٤٤٦٣٠ مرة، (حي) يتلونه ٢٠٠٩٢ مرة، (واحد) يُقرأ ٩٣٤٢٠ مرة، (عزيز) يقرأ ٦٤٦٤٤ مرة، (ودود) يقرأ ١٠١٠٠ مرة، والأسماء الفرعية: حق، قهار، قيوم، وهاب، مهيمن، باسط. وقد استفادت بعض الطرق كالشاذلية والنقشبندية ذلك من الطريقة القادرية على اختلافات قليلة أحياناً.

(٣) الأنوار القدسية (ص٧٠).

الخلاصة:

يتبين لنا من خلال هذا السرد أن مسألة البيعة للولي المرشد ليست أمرا جديدا على الثقافة الإسلامية، وليس ابتداعا في دين الله تعالى، وأن لها أصولها من السنة المطهرة ارتضاها أئمة الدين ولم ينكروها، بل ومن خلال مطالعتنا المحدودة وجدنا تسجيلات لكبار علماء الأمة في أخذهم وتلقيهم البيعة الصوفية، نذكر طرفاً منها، ليستيقن القارئ أن أخذ العهد مما درج عليه علماء الأمة وسلفها.

المطلب الخامس

أخذ العهد عن الولي المرشد

لقد شاعت بين الصوفية مصطلحات عديدة تدل على عمق العلاقة بين الشيخ والمريد كمصطلح **الرابطة، العهد، البيعة، التحكيم، الخرقة، الطريق،** وغيرها، وهي ألفاظ ذات دلالات تربوية تعني بحسب الظاهر ابتداء الرابطة بين المريد السالك والشيخ الوارث الكامل، وبحسب الحقيقة ربط المريد بالمراد وهو الحق سبحانه وتعالى.

ويرجع **العهد في اللغة** إلى عدة معاني منها: **الوصية والضمان والرؤية** وكل ما عوهد الله عليه وكل مابين العباد من المواثيق هو عهد، وأمر اليتيم من العهد، وكل أمرٍ أمرَ به الله عهد، وكل نهيٍ نهى عنه فهو عهد، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ (١)، ويأتي بمعنى **العقد والميثاق والأمانة والنذر والبيعة**(٢).

والعهد في الاصطلاح على ما عرفه الشريف الجرجاني وهو: حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال (٣).

---

(١) يس (٦٠).

(٢) نظر كتاب العهد والميثاق / الدكتور ناصر بن سليمان العمر.

(٣) التعريفات حرف العين (ص١٧٥).

وهذا المعنى متحقق في **العهد عند الصوفية** حيث يقصد بأخذ العهد عندهم:

محافظة المريد على الواجبات والآداب الشرعية، ويراعي ما يلقنه شيخُه من الأذكار والأوراد والمجاهدات حالا بعد حال ولا يهملها أو يغفل عنها.

والمقصود بالعهد عندهم هو التأكيد على المريد السالك بالانتقال من حياة الغفلة وغلبة الشهوات إلى حياة اليقظة والتوبة والأخذ بالعزم والجد.

وفي معنى العهد كذلك عندهم مدخل الصحبة المباركة بين الشيخ والمريد التي كان أول ابتدائها المعاهدة على طاعة من الطاعات أو كلها، وإلى هذا أشار السهروردي بقوله: «العهد والبيعة مترادفان وهما ارتباط بين الشيخ والمريد»[١].

وفي معنى العهد عند الصوفية يدخل كذلك الشعور بالتلمذة، وهذا الشعور يخلق في النفس تواضعا وتذللا، وهما من الآداب المطلوبة شرعا بل ومن أصعب ما يجاهد به المرء نفسه.

ثم إنه لا يكفي عند الصوفية في سلوكهم مجرد العلم فقراءة كتب التهذيب والتصوف بلا معاناة لتهذيب النفس ومجاهدتها تعد متعة ذهنية وثقافة عقلية قد تشارك فيها النفس الأمارة بالسوء فتكون طريقا إلى الضلال بدل الهدى، ولا يستقيم السير إلا بدليل وهو الأستاذ المتصف بكمال الوراثة والمتابعة لسيدنا محمد ﷺ.

ولا بد من شيخ يُرِيك شُخوصَها   وإلا فنِصفُ العلم عندك ضائع

المطلب السادس

معنى لبس الخرقة

خرقة التصوف وتسمى لباس الفتوة أو المرقعة وهي: ما يلبسه المريد من شيخه الذي دخل في إرادته.

(١) عوارف المعارف للسهروردي (ص٧٨).

وفي لُبسها معنى المبايعة ودخول المريد تحت تربية شيخه، يقول الإمام السهروردي عن لبس الخرقة (وفيها معنى العهد والمبايعة)[١]، ويقول العلامة ابن علان الصديقي: لبس الخرقة فيه نوع من المبايعة [٢] .

وذكر الشيخ العارف العلامة ناصر السويدي البغدادي في كتابه معراج السالكين إلى المقام الأمين، وهو الكتاب الذي استفاده من شيخه العارف المكين الشيخ حسين برهان الدين - قدس سره - ما نصه: سألته - أحياه الله الحياة الطيبة - **عن معنى لبس الخرقة ؟**

فقال: حقيقة التزيى بزي المرشد في الأفعال والأحوال، وقد وصفوا هذا الأمر بوصف الكسوة وعظموا شأنه، وجعلوه كالمحسوس، وأتبعوه بالمحسوس أيضاً، ليتعين عند من سلك طريق القوم أنّ الشرط عندهم أن يزيا صاحبهم بزيهم، فمتى تَزَيّا بزِيّهم ترتب عليه العمل بأعمالهم والتخلق بأخلاقهم، والوقوف معهم في أحواله، ألا ترى الرجل الجندي متى لبس كسوة الجند تعين عليه خوض المعامع والمعارك واختراق الصفوف والوقوف أمام السهام، وإذا رآه أحد عرف بالبداهة أنه ممن ترتب عليه هذه الأفعال بدليل كسوته لا غير، وإذا لَبِسَ لُبْسَ العامة لم يُنظر من راءٍ بذلك النظر، ولا تمر على خاطر من يراه هذه الأفعال، وتنسلخ عنه واجباتها بمجرد تجرده من كسوة الجند، وكذلك من لبس الخرقة، ولذلك قال سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي - رضي الله عنه - لفقير رأى عليه جبة صوف: يا ولدي انظر بزِيّ من تزييت وبخلعة من تلبست، لبست لباس الأنبياء والمرسلين، وتزييت بزي الأولياء والصالحين، فاحفظ حق زيهم بالتخلق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم وإلا فاخلعه عنك.

وإنّ للقوم خوافي حكم قلبية في إلباس الخرقة يطوونها حالة الإلباس للمريد، فيصلح الله تعالى شأنه بما طوى رسول الله ﷺ الأمن والإيمان في بردته الشريفة التي ألبسها كعباً

---

(١) الطريق الصوفي/ يوسف زيدان.

(٢) يؤصل لها في كتابه الفتوحات الربانية في شرح الأذكار النواوية (ج١ / ص٣١٠).

الصحابي صاحب (بانت سعاد)[١]، وهناك وراثة محمّديّة أخذها أهل القلوب عن الرسول المحبوب ﷺ، لأن مقاصد القوم محكمة بالنيات لا دخل للمحسوس بها، وإن كان المحسوس، فالأصل قائم بالنية لا غير[٢].

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سُلمى بضم أوله المزني الشاعر المشهور والصحابي المعروف، وأخرج ابن قانع من طريق الزبير بن بكار عن بعض أهل المدينة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال: لما انتهى إلى كعب بن زهير قتل ابن خطل، وكان بلغه أن النبي ﷺ أوعده بما أوعد به خطل، قيل لكعب: إن لم تدارك نفسك قتلت، فقدم المدينة فسأل عن أرق أصحاب رسول الله ﷺ فدل على أبي بكر - رضي الله عنه -، فأخبره خبره فمشى أبو بكر وكعب على أثره وقد التثم حتى صار بين يدي النبي ﷺ فقال: رجل يبايعك فمد النبي كَل يده فمد كعب يده فبايعه وأسفر عن وجهه. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فكساه النبي ﷺ بردة له، فاشتراها معاوية من ولده فهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد. انظر: (الإصابة) لابن حجر رقم (٤٧٤/٤١٠٧٤،٤).

(٢) معراج السالكين (ص٦٩-٧٠).

وقد صحح الجلال السيوطي[١] - قدس سره - لُبسَ الحسن البصري – رضي الله عنه - الخرقة من سيدنا الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - كما صرح بذلك الإمام عبد الوهاب الشعراني[١] في «طبقاته الوسطى».

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو 600 مصنف منها: الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيماً مات والده وعمره خمس سنوات، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنّه لا يعرف أحدًا منهم، فألف أكثر كتبه، وبقي على ذلك إلى أن توفي. من كتبه: «الإتقان في علوم القرآن»» و «الجامع الصغير» و «جمع الجوامع» ويعرف بالجامع الكبير و«الحاوي للفتاوى» وغير ذلك. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣٠١/٣.

وإليك ما صححه الإمام السيوطي في الحاوي للفتاوى١٤٩/٣ قال: مسألة: أنكر جماعة من الحفاظ سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب، وتمسك بهذا بعض المتأخرين نخدش به في طريق لبس الخرقة، وأثبته جماعة وهو الراجح عندي لوجوه، وقد رجحه أيضاً الحافظ ضياء الدين المقدسي في المختارة، فإنه قال: الحسن بن أبي الحسن البصري عن علي وقيل لم يسمع منه، وتبعه على هذه العبارة الحافظ ابن حجر في أطراف المختارة.

الوجه الأول: إن العلماء ذكروا في الأصول في وجوه الترجيح أن المثبت مقدم على النافي؛ لآن معه زيادة علم.

الثاني: إن الحسن ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر باتفاق، وكانت أمه خيرة مولاة أم سلمة - رضي الله عنها - فكانت أم سلمة تخرجه إلى الصحابة يباركون عليه وأخرجته إلى عمر فدعاله: «اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس» ذكره الحافظ جمال الدين المِزّي في التهذيب، وأخرجه العسكري في كتاب المواعظ بسنده وذكر المزي أنه حضر يوم الدار وله أربع عشرة سنة، ومن المعلوم أنه من حين بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، فكان يحضر الجماعة ويصلي خلف عثمان إلى أن قتل عثمان وعلي إذ ذاك بالمدينة فإنه لم يخرج منها إلى الكوفة إلا بعد قتل عثمان، فكيف يستنكر سماعه منه وهو كل يوم يجتمع به في المسجد خمس مرات من حين ميز إلى أن بلغ أربع عشرة سنة، وزيادة على ذلك إن عليا كان يزور أمهات المؤمنين ومنهن أم سلمة والحسن في بيتها هو وأمه.

الوجه الثالث: إنه ورد عن الحسن ما يدل على سماعه منه أورد المزي في التهذيب من طريق أبي نعيم؛ قال: حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا، حدثنا أبو حنيفة محمد بن صفة الواسطي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا ثمامة بن عبيدة، حدثنا عطية بن محارب عن

وبطريق الاستئناس ذكر جماعة أن عمر بن الخطاب وعلياً - رضى الله عنهم - ألْبَسا أُويساً القَرَني خِرقة بإذن نبوي.

قلت: وإن صح هذا فلا يكون إلا استئناساً للقوم؛ لأن خرقة الصوفية تصل إليهم أسانيدها من الحسن البصري - رضي الله عنه -، فلذلك يكون ما صححه الحافظ السيوطي دليلاً وحجة للقوم وذلك لأنْ علياً - كرم الله وجهه - كساه رسول الله ﷺ بشيء من أثوابه الشريفة، فعلى هذا اتصلت أسانيد الخرقة.

ومن العلماء الذين لبسوا خرقة التصوف:

الشيخ الفقيه الحنبلي ابن قدامة المقدسي[٢].

قال العليمي في كتابه المنهج الأحمد (يقول الموفق [ابن قدامة]: لبست أنا والحافظُ عبد الغني الخرقة من يد شيخ الإسلام عبد القادر - رضي الله عنه -)[٣].

يونس بن عبيده قال: سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد إنك تقول قال رسول الله ﷺ وإنك لم تدركه؛ قال: يا ابن أخي، لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك أني في زمان كما ترى - وكان في عمل الحجاج - كل شيء سمعتني أقول قال رسول الله ﷺ فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً.

(١) هو الشيخ الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد بن الحنفية، الشعراني، أبو محمد: من علماء الصوفية. ولد في قلقشندة (بمصر) ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته: (الشعراني) ويقال: الشعراوي، وتوفي في القاهرة، له تصانيف. منها: «الأنوار القدسية» في معرفة آداب العبودية، و«الكبريت الأحمر» في علوم الشيخ الأكبر و«كشف الغمة» عن جميع الأمة و«لطائف المنن» و«لواقح الأنوار» في طبقات الاخيار يعرف بطبقات الشعراني الكبرى، و« لواقح الأنوار القدسية» في بيان العهود المحمدية وغير ذلك. «الأعلام» للزركلي ١٨١/٤.

(٢) هو موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة .... بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قيل فيه: ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه منه ولد سنة٥٤١هـ حفظ القرآن ومتون المذهب الحنبلي كما أنه أقام مدة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني توفي سنة ٦٢٠هـ له مؤلفات عدة كالمغني واللمعة والكافي ...إلخ.

(٣) المنهج الأحمد (ج١ / ص١٩١).

العلامة المقرئ ابن الجزري(١).

يقول في كتابه مناقب الأسد الغالب: وأما لبس الخرقة واتصالها بأمير المومنين علي - كرم الله وجهه - فإني لبستها من جماعة ووصلت إلي من طريق ... ثم ساق سنده إلى الشيخ عز الدين الفاروثي [الفقيه الشافعي الصوفي]، ثم قال: وللشيخ عز الدين المذكور له في لُبسها ثلاث طرق: أحمدية وقادرية وسهروردية (٢).

الشيخ الشافعي المحدث ابن الصلاح (٣).

يقول جلال الدين السيوطي في كتابه تأييد الحقيقة العلية: (... ويقول ابن الصلاح: لي في لُبس الخرقة اسناد عالي) (٤)، ونقل العلامة ابن علان الصديقي قولاً لابن الصلاح حيث يقول: (مِن القُرَب لُبْسُ الخِرقة) (٥).

سلطان العلماء الفقيه الأصولي الشافعي العز بن عبد السلام (٦).

---

(١) هو الحافظ الحجة الثبت المدقق والرأس المحقق قاضي القضاة وشيخ القراء بلغ الذروة في علوم التجويد وفن القراءات وصار فيها إماما لا يدرك شأوه ولا يشق غباره اسمه محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الدمشقي الشافعي ولد سنة ٧٥١هـ وتوفي سنة ٨٣٣هـ له مصنفات فاقت التسعين مصنفا في القراءات وأصول العديد من المواطن في الدرر الكامنة.

(٢) مناقب الأسد الغالب (ص ٨٤-٨٥)

(٣) أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين بن عبد الرحمان الكردي أحد علماء الحديث تفقه على والده ودرس بالمدرسة الصلاحية قال عنه ابن خلكان: كان أحد فضلاء عصره في الحديث والتفسير والفقه وأسماء الرجال واللغة وفنون عديدة وهو أحد أشياخي توفي ٦٤٣هـ، انظر: ترجمته في وفيات الأعيان (ج٣ / ص ٢٤٣).

(٤) تأييد الحقيقة العلية (ص١٣).

(٥) الفتوحات الربانية في شرح الأحاديث النواوية (ج١ / ص٣٠٨).

(٦) هو سلطان العلماء كما يلقب أشعري شافعي برز زمن المماليك والحروب الصليبية وعاصر الدولة المنشقة عن الخلافة العباسية وهومغربي الأصل من أسرة فقيرة مغمورة كان مهابا متقيدا بوضع العمامة على عادة الفقهاء حفظ التنبيه في مدة وجيزة كان ينكر على الصوفية ثم عدل عن ذلك ولزم أبا الحسن الشاذلي له مؤلفات عديدة توفي ٦٦٠هـ، انظر ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي ج١.

يقول عنه الإمام السيوطي: (لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي)[1].

الإمام شمس الدين الذهبي [2].

يقول عن نفسه في سير أعلام النبلاء: (ألبسني خرقة التصوف المحدث الزاهد ضياء الدين الأنصاري بالقاهرة وقال: ألبسنيها شهاب الدين السهروردي بمكة عن عمه أبي النجيب ...)[3].

وفي ذكر هذا القدر من العلماء والصلحاء كفايةٌ لطالبي الحق ومريدي الإنصاف.

المطلب السابع
علماء أخذوا العهد عن شيوخ التصوف

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري [4].

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي (ج١ / ص٢٧٣).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، محدث وحافظ طلب العلم وهو ابن ثمان عشرة، كان من تلامذة ابن تيمية، شافعي المذهب، لكنه كان شديد الميل إلى الحنابلة، وهو تركماني الأصل، له رحلات كثيرة ومؤلفات عديدة، منها سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام، توفي ٧٤٨هـ، انظر ترجمته: الوافي بالوفيات (١١٤/٢)، طبقات الشافعية (١٠٠/٩).

(٣) السير (ج٢٢ / ص٣٧٧).

(٤) هو شيخ الإسلام ووحيد عصره زين الدين أبو يحيى زكرياء بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري الخزرجي الازهري الشافعي محدث وفقيه ومفسردرس جميع العلوم:جمع أنواع العلوم والمعارف والمؤلفات وكان على ما عليه من الاجتهاد في العلم والاشتغال به وعلى ما عليه من الإفتاء وأمور القضاء لا يفتر عن الطاعة ليلا نهارا وكان مهاب الجناب ...توفي سنة ٩٢٦هـ، ودفن قرب الشافعي، ترجمته في الكواكب السيارة للغزي، وانظر: الأعلام، للزركلي.

يقول عن نفسه: وقد ألبسني الخرقة ولقنني الذكر - يعني شيخه علي النبتيتي - من طريق الشيخ محمد الغمري، وذكر لي أنه سافر إلى المحلة الكبرى فأخذ عنه لبس الخرقة وتلقين الذكر(١).

الإمام الحافظ السخاوي(٢).

يقول في كتابه الضوء اللامع: وقد اجتمعت به كثيرا - يعني مدين بن أحمد الأشموني - وتلقنت منه الذكر على طريقتهم(٣).

الإمام المفسر عماد الدين بن كثير(٤).

كان ابن كثير ممن ينكرون على الصوفية ويشددون على أهلها إلا أنه في آخر عمره رجع واعترف بالتصوف، ودخل في صف الطريقة الشاذلية.

يقول تلميذه العلامة الصفدي(٥): ورأيت شيخنا عماد الدين بن كثير قد فتر عنه في الآخر - يقصد أبو الحسن الشاذلي - وبقي واقفاً في هذه العبارات حائرا في الرجل

---

(١) كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ص ٤٦٠ وزاد نجم الدين الغزي في كتابه الكواكب السيارة اسنادا آخر له في الذكر عن أحمد بن علي الأتكاوي ومحمد بن أحمد الغزي وقال: تلقن منهم الذكر وأذنوا له بالتلقين والإلباس .

(٢) هو شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي نسبة إلى سخا شمال مصر مؤرخ كبير وعالم بالحديث والتفسير والأدب عاش بالقاهرة ومات بالمدينة المنورة سافر في البلدان سفرا طويلا وصنف أكثر من مئتي مصنف منها كتابه الضوء اللامع ترجم فيه لنفسه في ثلاثين صفحة توفي سنة ٩٠٢هـ.

(٣) الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع (ج١٠ / ص١٥١).

(٤) هو أبو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصري ثم الدمشقي المعروف بابن كثير حافظ فقيه مفسر ومفت مؤرخ وعالم بالرجال مشارك في اللغة ولد سنة ٧٠٠هـ سمع الكثير من الشيوخ وتلمذ في بدئه على الشيخ ابن تيمية توفي سنة٧٧٤ه انظر ترجمته في الدرر الكامنة.

(٥) هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي الدمشقي الشافعي حفظ القرآن في صغره وبرع في الأدب والنحو والشعر وأخذ عن العديد من العلماء في صفد ودمشق سمع من الشيخ ابن جماعة والتاج السبكي والمزي والذهبي وابن تيمية وابن كثير وتولى العديد من الوظائف الإدارية

لأنه قد تصوف على طريقته، وأخذ عن نجم الدين الأصفهاني ونجم الدين صحب أبا العباس المرسي صاحب الشيخ أبي الحسن الشاذلي [١].

الشيخ الفقيه ابن الحاج المالكي:

يقول عنه الشيخ ابن فرحون المالكي: صحب جماعة من الصلحاء وأرباب القلوب وتخلق بأخلاقهم وأخذ عنهم الطريقة [٢].

الشيخ الفقيه أبو بكر الموصِلِيّ[٣].

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: كان يلقن الذكر ويلبس الخرقة[٤].**الشيخ أحمد شمس الدين الأقصرائي[٥].**

ذكر ابن حجر العسقلاني سند تلقيه للذكر حتى سيدنا علي - كرم الله وجهه - ثم نقل قول قطب الدين الحلبي عن هذا السند وقال: إنه اشتمل على جملة من المشايخ الصلحاء[٦].

أما من المتأخرين:

والمالية له من التصانيف الشيء الكثير منها الوافي (في ٣٠مجلدا) توفي٧٦٤هـ انظر ترجمته في طبقات الشافعية ج١٠.

(١) يقصد عباراته في الحقيقة لأن الصفدي ذكر أن الشاذلي له عبارات تكلف الكثير الاعتذار له فيها لعدم فهم الناس لها والأولى تركها ثم ذكر سبب توقف شيخه ابن كثير عن التعليق عنها لأنه كان على طريقته.

(٢) الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب (ج٢ / ص٣٢٢).

(٣) أبو بكر بن علي بن عبد الله الموصلي ثم الدمشقي قرأ القرآن الكريم وحفظ الحاوي ثم سكن الشام وحفظ التنبيه وتمهر في الفقه وكان يقرئ منازل السائرين ويتكسب من حرفة الحياكة، وأطال ابن حجر في ترجمته انظر: الدرر الكامنة (ج١ / ص١٥١).

(٤) الدرر الكامنة (ج١ / ص١٥١).

(٥) هو أحمد بن تركان شاه بن أبي الحسن شمس الدين أبو محمد الأقصرائي الصوفي كان أولا صوفيا بسعيد السعداء ثم انتقل إلى القرافة كانت له يد في التصوف انظر الدرر الكامنة (ج١ / ص٣٦).

(٦) الدرر الكامنة (ج١ / ص٣٦).

الشيخ الفقيه أبو البركات أحمد الدردير[١].

يقول عنه الشيخ محمد حسنين مخلوف: أخذ عن الملوي والحنفي وبه تخرج في طريق القوم وصار أكبر خلفائه في الخلوتية وعنه أخذ جملة منهم: الدسوقي والعقباوي والصاوي والسباعي وجماعة [٢].

الإمام المحدث محمد بن علي الشوكاني[٣].

يقول عن نفسه في كتابه البدر الطالع في ترجمة السيد عبد الوهاب بن محمد شاكر: وقد تلقيت منه الذكر على الطريقة النقشبندية [٤].

الشيخ محمد متولي الشعراوي.

يقول في قصيدة له حينما دخل إلى الطريقة الهبرية البِلْقائدية[٥]:

نورُ القلوبِ ورِيَّ رُوح الوارد ... هِبْرِيةٌ تُدْني الوصولَ لعابد
تزهو بسلسلة لها ذهبيةٍ ... من شاهد للمصطفى عن شاهد
طوفتُ في شرق البلاد وغربِها ... وبحثت جهدي عن إمام رائد
أشفي به ظمأ لغيب حقيقة ... وأهيم منه في جلال مشاهد
فهدانيَ الوهاب جل جلاله ... حتى وجدت بتِلِمسانَ مقاصدي
واليوم آخذ نورها عن شيخنا ... محيي الطريق محمد بِلْقائد

---

(١) هو أحمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي أحد أبرز الفقهاء والأصوليين له تآليف عديدة في اللغة والفقه والتصوف توفي سنة ١٢٠١هـ أفرد له شيخ الأزهر عبد الحليم محمود بترجمة خاصة في كتاب عنوانه أبو البركات الشيخ أحمد الدردير.

(٢) شجرة النور الزكية (ج١ / ص ٣٥٩).

(٣) هو محمد بن علي الشوكاني أحد أبرز علماء اليمن ولد سنة١١٧٣هـ وتوفي ١٢٥٥هـ من مؤلفاته نيل الأوطار وفتح القدير وارشاد الفحول ترجم لنفسه في البدر الطالع.

(٤) البدر الطالع (ج١ / ص ٤٠٦).

(٥) ألقاها في صيف ١٩٧٢ بعد خروجه من الخلوة وهي مسجلة صوتيا بصوته رحمة الله عليه.

ذُقنا مواجيد الحقيقة عنده وبه عرجنا في صفاء مَصاعِد
عن شيخه الهبري دُرَّ كنوزِه فَاغْنَمْ لآلِئَهُ وجُدَّ وجاهد
دَنْدِنْ بما لُقِّنْتَهُ من وِرْدِه بصفاء نفسٍ مُتَيَّمٍ متواجد
إياك مِن لَفْتِ الفؤاد لغيره واجعل سبيلك واحداً للواحد

المطلب الثامن

سبب كتابة الشيوخ أسانيدهم للمريدين

وقال صاحب معراج السالكين: سألته - يعني شيخه حسيناً برهان الدين الصيادي الرفاعي رضي الله عنه - عما اصطلح عليه القوم من كتابة سلاسلهم لإخوانهم ومحبيهم وعن أسبابه.

فقال: كما أنّ حفظ أسماء آبائك في النسب من المروءة، فكذلك حفظ أسماء آبائك في القلب من المعرفة والصدق، وما اصطلح عليه القوم إلا ليدرك المريد صحة وصل يده ببيعة رسوله - عليه الصلاة والسلام -، وصحّة ربط قلبه بحضرته، وصلاً وربطاً انقطعت دونهما حبال الشك والرّيبة وتوهم الكيفية الباطلة؛ لأنّ المريد يقول: وصلت يدي بيد فلان، وفلان وصل يده بيد فلان إلى اليد الكريمة العظيمة التي قال فيها الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[١].

ويقول المريد أيضاً: ربطت قلبي بقلب فلان، وفلان بقلب فلان إلى القلب الذي أنزل فيه رافع السماء باسط الثرى: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ)[٢]

وهذا أصح للقلب، وأقرب لطمأنينته، وأتم لحاله من القول بوصلة مجهولة التسلسل وربط مجهول التوصل، ألا ترى أنّ المحدثين يهتم أحدهم لصحة سند الحديث وصدق

---

(١) الفتح (١٠).

(٢) النجم (١١-١٢).

رواته بأسمائهم، لتحصل له الطمأنينة فيما نقل له عن لسان نبيه أنّه كلامه - عليه الصلاة والسلام - وإن كان الحديث المنقول موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما هو إلا لنيل بركة النّفس المطوي في الحديث المروي.

وفي هذا حال من أحوال المعرفة، وسر من أسرار الصدق لا يخفى على صاحب بصيرة، وأنشد - قدس سره -:

ربطوا القلوب بحبه فتنورت	وتطهرت من لوث داهية العَما
وتسلسلت أيدي الرجال بِوَصْلَةٍ	ليد بصاحبها تشرفت السَّما
فَلِسِرِّ (ما كذب الفؤاد) أَفِقْ تَرَى	سِرّاً بقلبك كم إلى العَلْيا سَما
وترى بِطَرْزِ يَدٍ اتّصالِكَ مُنتَهَى	(إن الذين يبايعونك إنما)[1]

لما كان الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، ولما كان مشرب القوم - رضوان الله عليهم أجمعين – أبلغ المشارب في التحقيق، وأسنى المعارج في التدقيق، تعين على كل منتسب إليهم أن يحقق نسبته على الوجه الأحق، لأن الحقائق لا تؤخذ من كل ذي دعوى إلا بعد تحقق صحة دعواه على الوجه الأكمل [2].

المطلب التاسع
فوائد أخذ العهد

ذكرنا في مبحث (معنى العهد ودلالاته) أنه يتضمن معنى الصحبة المباركة، كما أنه يوجد في النفس الشعور بالتلمذة الذي من شأنه أن يحطم من كبرياء النفس وعتوها، لكن بقي أن نشير إلى فائدتين رئيسيتين جليلتين لأخذ العهد تتفرع منها فوائد كثيرة وهما:

---

(١) معراج السالكين (ص٧٧-٧٨). وهو يشير إلى الآية من سورة الفتح، لِتُكْمِلَهَا وترى دلالتها.

(٢) حقائق عن التصوف.

أ. وسيلة من وسائل إصلاح المجتمع.

لا يخفى على أحد هذا التزايد المذهل والنمو المتسارع للمجتمع في العمران والبنيان والإنسان ولقد بدا جليا، كذلك انفتاح الدنيا على الخلق، وغدا العالم قرية صغيرة في ظل هذا التقدم، وتنوعت الفتن وتفننوا فيها وكثرت روافد الانحراف وسبل الضياع الفكرية والخُلُقية، مما أدى إلى عسر في إصلاح المجتمع ولم تعد المدارس والمعاهد تجدي على تعددها وكثرتها، ولم تعد الكتب تسعف على تنوعها ووفرتها، حتى أعلن بعض الدعاة اليأس والاستسلام، في حين دعا بعض الكتّاب والدعاة والمصلحين إلى ضرورة الرجوع بأخذ العهد واعتبروه أنجع طريق لإصلاح المجتمع.

ولقد أجاد العلامة أبو الحسن النَّدْوي في توصيف ذلك فقال: (وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التي تخضع لقيود وتقاليد كثيرة قاصرة عن إصلاح شعبي وتربية عامة، وبقيت منحصرة في نطاق ضيق لا تفيد ولا تسعف إلا القليل ممن يلتحق بها، فلا صلة لها بالشعب ولا صلة للشعب بها، إلا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك، وكذلك المؤلفون المثقفون الكبار، فالفجوة الثقافية والعقلية بينهم وبين الشعب واسعة، ثم إن صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلفين صلة علمية عقلية، لا تخضع لها القلوب والنفوس، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع إلا في النادر، ولا يتقيد بها الناس ولا يرتبطون بها ارتباطاً روحياً، لذلك فالمسلمون في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعة تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس، وتجدد صلتها بالله والرسول ﷺ، و تُجدّد لها الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعاً، وما عاهدت وبايعت عليه النبي ﷺ.

ولكن للأسف اشتغل جل العلماء بالفتوى والوعظ والتدريس والعلم والتأليف، وإذا أرادوا لم تخضع لهم العامة؛ لأنهم لا يرون فيهم إلا النادر القليل من الإخلاص والزهد، وهكذا ضعف الشعور عند العامة والسوقة والفلاحين والعملة، بل و حتى عند كثير من الخاصة والمتعلمين؛ بأن الإسلام عهد وميثاق وبيع وشراء بين العبد وربه وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم، جامحين عاتين في شهواتهم هملاً وقطعاناً، لا يضبطهم راع،

وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات، وتفلتوا من الالتزامات ناهيك عن بلوغ درجة الإحسان والحصول على نور اليقين وبشاشة الإيمان، وتقاصرت الهمم، وخمدت النفوس، وأقبل الناس، إلا من عصم ربك، على اللذات والشهوات.

عندها قام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ الربانيون، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام، واستردوا بذلك حلاوة الإسلام ولذة الإيمان، وخرجوا من سلطان الهوى ورق الشهوات، ونشطوا في العبادات والطاعات) [١].

وإلى هذا أشار كذلك الدكتور محمد القهوجي في كتابه نظرات في التصوف حيث قال: (نحن في عصرنا هذا أشد الناس حاجة إلى متصوف يعمل بنظام المتصوف الحقيقي، وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء وسيطرت على قلبه، فأصبحت دور السينما من المغريات وأشد الوسائل جلبا لها، والمجلات الفارغة والإذاعات اللاهية اللاعبة أصبح كل هذا يستهويه، وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال، أصبحت خطب الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتّاب لا تجدي ومواعظ الوعّاظ لا تجدي، وحكم العلماء لا تجدي وكل وسائل الهداية لا تجدي شيئا ....إذاً لابد لنا من طريق آخر للإصلاح، هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب وهذا لا يكون إلا عن طريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل قرية وفي كل حي وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية أو سياسية، رجال يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه [٢].

ب. بركة اتصال السند.

لقد غدا معلوما عند العام والخاص أن الإسناد من خصوصيات الأمة المحمدية، ولم توجد أمة من الأمم أولت العناية بالإسناد مثلها، لذلك قال ابن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، وهو يقصد الإسناد في رواية الحديث لأنه

---

(١) رجال الفكر والدعوة العامة للعلامة أبو الحسن الندوي (ص٢٠٨-٢٠٩).

(٢) نظرات في التصوف الإسلامي للدكتور محمد القهوجي (ص٥٢).

بالإسناد تميز صحيح الخبر من سقيمه، وبه حفظ الدين وسنة النبي - عليه الصلاة والسلام -، كما اعتنى بذلك القراء في إسناد قراءاتهم حتى قالوا: لا تأخذ القران من مصحفي (أي الذي قرأه من المصحف دون شيخ متصل السند إلى النبي ﷺ).

بل وإنه من شدة العناية بالسند، وجد في الأمة ما يسمى بالمسلسلات الحديثية، وفيها تُنْقَلُ حتى الهيئات ويتم تلقيها وأخذها بهيئتها كالمسلسل بالمصافحة والمسلسل بالمشابكة والمسلسل بوضع اليد على الرأس وغيرها، فيأخذها طالب الحديث بهيئتها تلك طالبا بذلك بركة اتصال السند.

ولما كان للإسناد هذه الأهمية البالغة درج علماء الصوفية على غرار علماء الحديث والقراءات في إسناد الأحوال القلبية والمجاهدات شيخا عن شيخ حتى يتصل السند بسيدنا علي - كرم الله وجهه- الذي تنسب إليه جميع طرق المجاهدات والتصفية، وهو أخذ هذه الأحوال من النبي ﷺ، ويشهد لتلقي سيدنا علي - رضي الله عنه - لهذه العهود والمجاهدات الكثير من الأحاديث [١]، وللحافظ أحمد بن الصديق الغماري كتاب نفيس في إثبات اتصال السند الروحي والخرقة الصوفية إلى سيدنا علي - كرم الله وجهه - سماه (علي بن أبي طالب إمام العارفين).

فأخذ العهد عند الصوفية ما هو إلا توصيف فعلي لاتصال السند السلوكي، والذي أرادوا أن يكون أول بدء له عن طريق المعاهدة، كإشعار للسالك أنه بدأ طريق المجاهدة، وها هو يعاهد ويلزم نفسه بالتوبة والذكر وغيرها، مما يشترطه عليه المربي يقول الشيخ

---

(١) منها ما أخرجه الطبراني في الصغير وأبو نعيم في الحلية بسند حسن إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهدها إلى غيره وفي رواية أبي نعيم ثمانين عهدا.

الزمزمي[١]: وطريقة الصوفية في ذلك - أي أخذ الأوراد - طريقة المحدثين في رواية الحديث مسلسلاً بشيخ عن شيخ إلى النبي ﷺ [٢].

لذلك فمن شروط الصوفية أن يكون الشيخ متصل السند والا فلا يجوز الأخذ عنه وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون في كتابه شفاء السائل: من رام أن يتصوف دون شيخ قد رباه شيخ آخر بسند سلوكي إلى المعلم الأول والمرشد الحق صلى الله عليه وسلم فقد رام أمرا صعبا ورمى مرمى بعيدا [٣][٤].

المطلب العاشر

سر البيعة

وقال صاحب معراج السالكين: سألته - يعني شيخه السيد حسيناً برهان الدين الصيادي الرفاعي - عن سر البيعة؟

فقال: حد من حدود الحقّ يقف عنده أهل الصدق، الذين صدقوا ما بايعوا الله عليه، وعاهدوا الله نخافوا سؤاله، وعظَّموا جلالَه فتَغَلَّبَ على قلوبهم سلطان الهيبة، وأخذهم من علّة نفوسهم إلى حضرته العليّة فانطمست قوابس أوهامهم بأشعة أنوار عظمته.

---

(١) محمد الزمزمي بن محمد بن الصديق الغماري يعتبر من كبار مناهضي الفكر الصوفي، حتى إنه تبرأ من والده وإخوته ورد عليهم، وعلى الرغم من أنه كان متعصباً إلا أنه ألف كتابه الانتصار لطريق الصوفية، وهو لا ينكر العهد كما رأينا، كما أنه كان يحتفل بالمولد، وقيل إنه أعلن بهذا الكتاب توبته .

(٢) الانتصار (ص١٧).

(٣) الشفاء السائل لتهذيب المسائل (ص٦٧).

(٤) انظر: كتاب البيعة عند الصوفية للأستاذ علي الغريسي.

فإذا سوّل لهم الشيطان خروجاً أو دخولاً وقفوا على قدم الاستقامة ذاكرين الله قائلين: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)[١]، أولئك (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)، وانحجبت بصائرهم عن غيره فأبصروه بها، وعن الأغيار تعاموا، وعلى طريق رضاه قعدوا، وإلى داعيه قاموا، وما البيعة إلا بيع النفس وقطع علائقها إلا عنه: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)[٢].

فإن انطبع المبايع على الصدق ودخل حضرة قوم تجردوا من علائق رطبهم ويابسهم فقد لوحظ من النبي ﷺ بمعونة: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ)[٣]، [وإذا كان الإنسان يكرم لصلاح أبيه، (وكان أبوهما صالحاً)، فكيف إذا صحت نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم روحاً واتباعاً].

وعلى ذلك يقوم منار الأمر ويتم نظام الخير، وتصح الوصلة إلى الله ويأخذ القلب عن الله ويصير مَظهَرَ صفة من صفات الله يصل بالله ويقطع بالله، ويتكلم عن الله ويستهدي بالله، ويسير إلى الله، ويعان من الله، أجل قال الله لحبيب الله: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[٤]، [والآية في آخرها أشارت إلى بركة البيعة، إذ قال سبحانه (ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)، فرتب الأجر العظيم على الوفاء بالعهد، وليس على مجرد الأعمال، وذلك كالنذر، فهو ليس بواجب، لكن من أوجب على نفسه قُرْبةً كان له مزيد أجر لوفائه بنذره].

وإن بيعة الإمام المبين والصادق الأمين – عليه الصلاة والسلام - نافذة سارية باقية هي هي تتلقاها الأنفس السليمة، وتعقد عليها الأكف الكريمة: (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ

---

(١) الاسراء (٣٤).
(٢) التوبة (١١١).
(٣) الاحزاب (٦).
(٤) الفتح (١٠).

اللّه)(١)، وأهل الله نواب رسول الله ﷺ وبهذا سبقت إرادة الله، فنوّر بصدق البيعة مضمونك، وانتشق نسمة قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾(٢)(٣).

المطلب الحادي عشر

مضمون العهد ومقوماته

من جملة الأصول التي يعاهد الشيخ مريده عليها ما ذكره الشيخ أحمد زروق في أصوله(٤):

١. تقوى الله في السر والعلانية.

٢. إتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣. الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤. الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

٥. الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء(٥).

فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة.

وتحقيق السنة بالتحفظ(٦) وحسن الخلق.

وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل.

وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض.

---

(١) يونس (٦٤).

(٢) الفتح (١٨).

(٣) معراج السالكين (ص٦٥-٦٦). وما بين معكوفتين [ ] ضمن النقل؛ من تعليق الدكتور معاذ حوى.

(٤) وقد أخذها الإمام زروق عن الإمام النووي من كتابه المقاصد النووية الفصل السابع، وزاد عليها.

(٥) وزاد عليها بعض المتأخرين: الناجي يأخذ بيد أخيه.

(٦) وهو الالتزام، مأخوذ من قوله تعالى: (والحافظون لحدود الله)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (احفظ الله يحفظك).

وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر في السراء والجأ إليه في الضراء.

وأصول ذلك كله خمسة:-

١. علو الهمة.

٢. حفظ الحرمة.

٣. حسن الخدمة.

٤. نفوذ العزيمة.

٥. تعظيم النعمة.

من علت همته ارتفعت رتبته.

من حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته.

من حسنت خدمته وجبت كرامته.

من أنفذ عزيمته دامت هدايته.

من عظمت النعمة في عينه شكرها.

من شكرها استوجب المزيد من المنعم بها حسبما وعده الصادق.

وأصول العلامات[١] خمسة:-

١. طلب العلم للقيام بالأمر.

٢. صحبة المشايخ والإخوان للتبصر.

٣. ترك الرخص والتأويلات للتحفظ.

٤. ضبط الأوقات بالأوراد للحضور.

٥. إتهام النفس في كل شيْ للخروج عن الهوى والسلامة من العطب والغلط.

---

(١) العلامات: هي ما يدل على وجود أمر، فذكر علامة الصدق في خمسة أمور أنها تتوقف على وجود خمسة أمور. والعنوان في كتاب زروق: وأصول المعاملات، لكنه في كتاب النووي: وأصول العلامات، وهو أصح.

فطلب العلم آفته صحبه الأحداث سناً أو عقلاً أو ديناً ممن لا يرجع لأصل ولا قاعدة.وآفة الصحبة الاغترار والفضول.

وآفة ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النفس.

وآفة ضبط الأوقات اتساع النظر في العلم لعلة ذي الفضائل.

وآفة اتهام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها.

وقد قال الله تعالى (وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا)[١]، وقال الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب - صلوات الله وسلامه عليهما -: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)[٢].

وأصول ما تُداوَى به علل النفس خمسة أشياء:-

١. تخفيف المعدة من الطعام.

٢. اللجوء إلى الله مما يعرض عند عروضه.

٣. الفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه.

٤. دوام الاستغفار مع الصلاة على رسول الله ﷺ بخلوة واجتماع.

٥. صحبة من يدل على الله أو على أمر الله[٣].

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه -: أوصاني حبيبي[٤] فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصطحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تَصْطَفِ لنفسك إلا من تزداد به يقيناً، وقليل ما هُمْ.

---

(١) الأنعام (٧٠).

(٢) يوسف (٥٣).

(٣) إلى هنا كلام الإمام النووي، ثم ذكر أهم أوراد السالك في يومه.

(٤) يقصد شيخه الإمام عبد السلام بن مشيش ت ٦٢٥هـ.

وقال أيضا - رضي الله عنه -: مَن دَلَّكَ على الدنيا فقد غَشَّكَ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك.

وقال أيضا - رضي الله عنه -: اجعل التقوى وطنك ثم لا يضرك مرح النفس ما لم ترض بالعيب، أو تصر على الذنب، أو تسقط منك خشية الله بالغيب.

قلت: وهذه الثلاثة هي أصول العلل والبلايا و الآفات.

وقد رأيت فقراء هذا العصر ابتلوا بخمسة أشياء:-

١. إيثار الجهل على العلم.

٢. الاغترار بكل ناعق.

٣. التهاون في الأمور.

٤. التعزز بالطريق.

٥. استعجال الفتح دون شرطه.

فابتلوا بخمسة(١):-

١. إيثار البدعة على السنة.

٢. اتباع أهل الباطل دون الحق.

٣. العمل بالهوى في كل أمر أو جُلِّ الأمور.

٤. طلب الترهات دون الحقائق.

٥. ظهور الدعاوي دون صدق.

فظهروا بذلك بخمسة أشياء هي:-

١. الوسوسة في العبادات.

---

(١) أي ما سيذكره من نتائج أدى إليه ما ذكره من الخمسة التي قبلها، ثم سيذكر خمسة ثالثة تنتج عن هذه في مظاهرهم.

٢. الاسترسال مع العادات.

٣. السماع والاجتماع في عموم الأوقات.

٤. استمالة الوجه[1] بحسب الامكان.

٥. صحبة أبناء الدنيا حتى النساء والصبيان.

واغتروا بوقائع القوم في ذلك وذكروا أحوالهم، ولو تحققوا **لَعَلِمُوا** أن الأسباب رخصة الضعفاء، والمقام بها بقدر الحاجة من غير زيادة، فلا يسترسل معها إلا بعيدٌ من الله.

وأن السماع رخصة المغلوب أو راحة الكامل، وهي انحطاط في بساط الحق إذا كان بشرطه من أهله في محله وأدبه.

وأن الوسوسة بدعة أصلها جهل السنة أو خَبَل في العقل.

وأن التوجه لإقبال الخلق إدبار عن الحق، لاسيما قاريءٌ مداهن أو جبار غافل أو صوفي جاهل.

وأن صحبة الأحداث ظلمة وعارٌ في الدنيا والدين، وقبول إرفاقهم أعظم وأعظم.

وقد قال الشيخ أبو مدين - رضي الله عنه -: الحدث من لم يوافقك على طريقتك، وإن كان ابن تسعين سنة.

قلت: وهو الذي لا يثبت على حال ويقبل كلما يلقى إليه فيولع به، وأكثر ما تجد هذا في أبناء الطوائف وطلبة المجالس فاحذرهم بغاية جهدك.

وكل من ادعى مع الله حالاً ثم ظهرت منه إحدى خمسٍ فهو كذاب أو مسلوب:-

١. إرسال الجوارح في معصية الله.

٢. التصنع بطاعة الله.

---

(١) أي التذلل لصاحب الجاه ليعطيهم دنيا.

٣. الطمع في خلق الله[١].
٤. الوقيعة في أهل الله.
٥. عدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله.

وقلما يختم له على الإسلام.

وشروط الشيخ الذي يلقي المريد إليه نفسه خمسة:-

١. ذوق صريح.
٢. علم صحيح.
٣. همة عالية.
٤. حالة مرضية.
٥. بصيرة نافذة.

ومن فيه خمسة لا تصح مشيخته:-

١. الجهل بالدين.
٢. إسقاط حرمة المسلمين.
٣. دخول فيما لا يعني.
٤. اتباع الهوى في كل شي.
٥. سوء الخلق من غير مبالاة.

وآداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة:

١. اتباع الأمر وإن ظهر له خلافُه[٢].

---

(١) أي الرغبة في مدحهم ومالهم ونحو ذلك.

(٢) لأن الشيخ أعلم بالشريعة وهو منضبط بأحكامها، وأعلم بالتربية وخفايا النفس، وهذه القاعدة تطبق ما لم يظهر مخالفة شرعية لا خلاف في حرمتها.

٢. اجتناب النهي وإن كان فيه حَتْفُه[١].

٣. حفظ حرمته، إن كان حاضراً أو غائباً، حياً أو ميتاً.

٤. القيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير.

٥. عزل عقله وعمله ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه[٢].

ويستغنى عن ذلك بالإنصاف والنصحية وهي معاملة الإخوان، إن لم يكن له شيخ مرشد.

أو وجد ناقصاً عن شروطه الخمسة، اعتُمِدَ فيما كَمُلَ فيه، وعُومِل بالأخوة في الباقي.

قال أهل العلم: إنما حرموا الوصول من تضييع الأصول[٣].

وفيما يلي صيغة العهد[٤]:

" استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه " (٣ مرات).

" لا إله إلا الله " (٣ مرات).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)[٥].

إن ورد الطريقة الشاذلية ـ مثلاً ـ أن يقول المريد صباحاً ومساءً:

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثلاثاً

---

(١) كأن يكون كسبه من عمل حرام أو عمل في بنك ربوي، فيأمره الشيخ بتركه.

(٢) أي إنه يسترشد دائماً بشيخه، ولا يجعل من نفسه شيخاً.

(٣) أصول الطريق للشيخ ابن زروق. من ص (١٥٨ إلى ١٦٦)

(٤) وهو نموذج من الطريقة الشاذلية، وليس ملزماً بكل تفاصيله، وتختلف الطرق في بعض هذه التفصيلات، والأمر واسع.

(٥) الفتح (١٠).

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١).

ثم تقول:

"أستغفر الله" (٩٩ مرة).

وفي تمام المائة تقول:

"أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيوم وأتوب إليه".

ثم تقول:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (٢).

ثم تقول:

" اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم " (٩٩ مرة).

وفي تمام المائة تقول:

" تسليماً كثيراً بقدر عظمة ذاتك في كل وقت وحين ".

ثم تقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه) (٣).

ثم تقول:

" لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير "(٩٩ مرة).

---

(١) المزمل (٢٠).
(٢) الأحزاب (٥٥).
(٣) محمد (١٩).

وفي تمام المائة تقول:

" لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله ﷺ ".

ثم تقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، وسورة الفاتحة مرة واحدة، ثم تدعو الله لك ولشيخك ولأهلك وإخوانك المسلمين.

ثم يقول الشيخ للتلميذ:

إخواني العهد الذي بيننا وبينكم تقوى الله تعالى، والمحافظة على الصلوات، وكثرة ذكر الله تعالى، والناجي منا يأخذ بيد أخيه إن شاء الله(١).

المطلب الثاني عشر

بيعة النساء

أما بيعة النساء والفتيات للشيخ المربي، فهي جائزة بشروطها وآدابها، لأن المرأة تحتاج إلى السلوك إلى الله كالرجل، والأمَّةُ بحاجة إلى صالحات مُصلِحات ومربيات ومرشدات.

وإلى أن يوجد في مجتمعنا مرشداتٌ ومصلحات بالعدد الكافي، فلا بد أن تكون العلاقة بين المربي والطالبة؛ علاقة نزيهة واضحة عفيفة ظاهرة، لا تفتح مجالاً لشبهة ولا لتهمة، ولا تترك مدخلاً لفتنة وانحراف وانزلاق، ولا تحوم حولها الشكوك، ولا تكون مثاراً للجدل(٢).

---

(١) وتزيد بعض الطرق: أن يقول الشيخ: الطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا، وقد يقرأ الشيخ سورة الشرح والقدر، وغالباً يبدؤون بقراءة الفاتحة للأنبياء والصالحين، ويختمون بذلك أيضاً.

(٢) قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله في جند الله تخطيطاً صفحة ١٥٨: «فالعمل في صفوف النساء إذا لم يرافقه الورع والدقة فقد يكون مثاراً للجدل، وقد يكون مثاراً للفتنة، وقد يكون مجالاً للشبهة».

يحرص فيها الشيخ على النزاهة والتورع، مع الالتزام بالضوابط الشرعية، في أعلى معاييرها، ويتعامل بحذر، فليس في العلاقة خلوةٌ ولا اتصالاتٌ خاصة ولا مجاملات ولا عواطف.

ويفضل أن يكون للنساء مجلس خاص تسأل فيه النساء عن شؤونها، ولا تكون المتابعات شخصية أو عبر وسائل الاتصال، ويفضل أن يكون مع الشيخ زوجته، وأن يكون التواصل معه عند الضرورة عبر الهاتف ووسائل الاتصال من خلال زوجته أو بنته.

أو يكون تواصل المرأة السالكة مع الشيخ من خلال زوجها أو ولدها أو أخيها.

وتحرص السالكة على عفتها وحيائها، ولا تسمح بالتجاوز مهما كان، من أي أحد، ولو كان شيخَها، ولا تَقبَلُ الخلوَةَ، ولا تتواصل تواصلاً خاصاً مباشراً مع الشيخ المربي، لِتحميَه وتحميَ نفسها، ولتكون التربية في جو نظيف؛ لا تسمح للدجالين والفاجرين وأدعياء المشيخة أن يستغلوا ذلك للإفساد والاستدراج، وعندئذ سيكون ذلك مُشجِّعاً لجميع نساء المجتمع وفتياته أن يمشين في طريق التربية، لما يَرَيْنَ مِن نفعِه وأثره وطهارته.

ولقد حذر أئمة التصوف وعلماؤه من فتنة النساء التي قد تدخل بسبب أخذ الطريق، والتي تنشأ عن التهاون في أحكام الله، وتنشأ عن دعوى التنزه عن الحرام بحجة العلاقة الروحية والعلاقة الأبوية بين السالكة وشيخها، ومن ذلك نجد التحذير الشديد الذي ذكره الإمام الشعراني.

قال الشعراني[١] بعد أن بين وجوب حفظ الفروج والعورات، وحذر من التساهل في النظر والاختلاط والخلوة، قال:

«فإياكَ يا أخي أن تتهاون بمثل ذلك، أو تُمَكِّنَ جارِيتك أن يَأخُذَ أحدٌ من فقراء الأحمدية أو البُرْهامية عليها العهد؛ إلا مع المحافظة على آداب الشريعة، فإن كثيراً من

---

(١) ج١، ص ٦٠٢-٦٠٣، الشعراني، عبدالوهاب بن أحمد، أبو المواهب، لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، تحقيق: صهيب ملا محمد نوري علي، دار التقوى، دمشق، ٢٠٢١م.

الفقراء يعتقد أنه صار والدَها، يجوز له النظر إليها، وترى هي كذلك أنها صارت ابنتَه، ولها أن تُظهِر وجهَها له، وكل ذلك خروج عن الشريعة المطهرة، وربما جعل إبليس ذلك مقدماتٍ للزنا، وقد قال الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ في حق أزواج رسول الله المطهرات الطاهرات المُبَرَّءاتِ من فوق سبع سماوات: {وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن} [الأحزاب: ٥٣].

فإذا كان هذا في هؤلاء مع عُلوِّ مقامِهم، فكيف بمن نفسُه عاكفةٌ على الشهوات المحرمة، كعكوف الذُّبابِ على العسل.

فاترك يا أخي جميع الأبواب التي تَتَوَصَّل منها إلى الزنا، ولا تدخل منها، وَتَطْلُبَ السلامةَ، فإن ذلك لا يكون، والله يحفظ من يشاء، كيف شاء».

وقد تساهل بعض الصوفية في ذلك فشَنَّع عليهم الإمام الشعراني، قال[1]:

«أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ من رسول الله ﷺ أن لا نَخْتَلي قَطُّ بأجنبية، نخاف منها الفتنة، أو لا نخافُ، ولو كُنّا من أصلح الصالحين.

وهذا العهدُ يُخِلُّ به كثيرٌ من الفقراء السَّاذِجين، لا سيما طائفةُ الفقراءِ الأحمدية والبرهانية والقادرية[2]، فيأخذون العهد على المرأة بآداب طريقهم، ثم يصيرون يدخلون عليها في بيتها في غَيْبة زوجها، وهذا من المنكر الصريح.

وقد قُتِلَ خَلْقٌ كثيرٌ مِن جَرَّة النساءِ[3]، فيدخل أحدهم على المرأة فيختلي بها.

ومن قال من الفقراء: نحن بحمد الله محفوظون من مثل ذلك، فنقول له: لا يخلو حالُك من أمرين: إما أن يكون قلبك ساذجاً، لا حَذَرَ عندك من الوقوع في محظور، أو حاذِقاً تدرك الأمور، فإن كنت ساذجاً، عَمِلَ إبليسُ عليك الحِيلةَ، كما عمل على أبيك

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) الأحمدية: نسبة إلى الشيخ أحمد بن علي البدوي، والبرهانية أو البرهامية نسبة إلى الشيخ إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي، والقادرية: نسبة إلى الشيخ عبد القادر بن موسى الجيلاني.

(٣) أي قتل معنوياً وضاع إيمانياً.

آدم، حين حَلَفَ له إنه له لمن الناصحين، وإن كنت حاذقاً تدرك الشيطنة؛ فأنت من حزب إبليس، فوقوعك في الفواحش أقربُ ما يكون.

فتحريم الشريعة عام في حق جميع الناس، ومن ادعى شيئاً يخرجه عن ذلك العموم كَذَّبْناه، فإن الله سبحانه وتعالى لا يُحَرِّمُ شيئاً على لسان نبيه ﷺ، ويُسِرُّ إلى أحدٍ من أتباعه شيئاً يخالف شرع نبيه ﷺ أبداً، فاعلم ذلك، واحذر مما حذرك الله تعالى منه.

وقد رأى الشيخُ أبو بكر الحديدي[١] رضي الله عنه ونفعنا الله ببركاته الشيخَ محمداً العَدْل[٢] وهو يضع يده على بطن امرأة يَرقِيها من مرض كان بها، فصاح بأعلى صوته: وادِيناه، وامُحَمَّدَاه، تضع يدك على بطن أجنبية ؟! هل أنت معصوم ؟!

هذا مع كونهما كانا من أولياء الله تعالى، فإياك والخلوة بأجنبية، ثم إياك، وإن دَخَلَتْ عليك على غَفلةٍ فازجرها، حتى تأتي بامرأة معها أو مَحْرَمٍ، {والله عليم حكيم}[٣].

روى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: (إياكم والدخول على النساء)[٤].

وروى الديلمي مرفوعاً: (لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأة؛ إلا كان ثالثَهما الشيطانُ)[٥].

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: (لا يَخْلُوَنَّ أحدُكم بامرأة إلا مع ذي مَحْرَمٍ)[٦].

وروى الطبراني مرفوعاً: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرمٌ)[٧].

---

(١) هو الشيخ أبو بكر الحديدي، من أصحاب أحمد بن مصلح المنزلاوي، ت ٩٢٥هـ، انظر: الطبقات الكبرى، للشعراني، ج٢، ١٨١.

(٢) هو الشيخ محمد العدل الطناحي، انظر: الطبقات الكبرى، ج٢، ١٧٣.

(٣) لعله أراد الإشارة إلى آيتي الاستئذان في سورة النور ٥٨-٥٩.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٢٣٢، ومسلم رقم ٥٦٧٤، وأحمد ١٧٣٤٧، عن عقبة بن عامر ﷺ.

(٥) أخرجه الترمذي رقم ٢١٦٥، والنسائي رقم ٩٢٢٥، وأحمد رقم ١١٤، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٢٣٣، ومسلم رقم ٣٢٥٨، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم ١١٤٦٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٢٠/١: فيه يحيى بن أبي سليمان المدني؛ ضعفه البخاري وأبو حاتم، ووثقه ابن حبان.

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد جيد مرفوعاً: (لَأَنْ يُطْعَنَ في رأس أحدِكم بمِخْيَطٍ من حَديدٍ، خَيْرٌ له مِن أنْ يَمَسَّ امرأةً لا تَحِلُّ له)(١).

والمخيط: ما يخاط به كالإبرة والمِسَلَّة ونحوهما.

وروى الطبراني: أن رسول الله ﷺ قال: (إياكم والخلَوةَ بالنساء، فوالذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دَخَلَ الشيطانُ بينهما، ولَأَنْ يُزاحِمَ الرجلُ خِنْزيراً مُتَلَطِّخاً بِطِينٍ، أو حَمْأَةٍ، خيرٌ له مِن أن يُزاحِم مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ امرأةٍ لا تحلُّ له)(٢).

والحَمْأة: هو الطين الأسود المنتن.

فانظر يا أخي في هذه الأحاديث وإطلاقِه فيها لفظ المرأة والنساء، فإنه يشمل مَن يخافُ منها الفتنةَ، ومَن لا يخاف، والله تعالى أعلم».

ولقد كان من وصية الشيخ الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله قبل وفاته بشهر أن قال لطلابه، كما روى عنه الشيخ يعقوب بن كراز: «فليخبر الحاضرُ الغائبَ أن أحمدَ يقول، وأنتم تسمعون: مَن خلا بامرأة أجنبية فأنا منه بريء، والشيخ منصور منه بريء، والنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم منه بريء، وربنا سبحانه منه بريء، ومن خلا بأمرد كذلك، ومن نكث البيعة فإنما ينكث على نفسه»(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٤٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٥٤٥٥، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال المنذري في الترغيب والترهيب ٢٦/٣: رجاله ثقات، رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٧٨٣٠، عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال المنذري ٢٦/٣: حديث غريب.

(٣) طبقات الشافعيين (٦٧٩/١).

الوحدة الثالثة

الطرق الصوفية؛ تعريف المصطلح، والنشأة، والمراحل، والشبهات، والأساليب المتفق عليها، والمصطلحات

وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول

التعريف بالطرق الصوفية

وفيه تمهيد وستة مطالب.

تمهيد:

ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى علماء عاملين، مجاهدين، مكافحين في سبيل إحياء ما اندرس من تعاليم الإسلام، نصحاء أمناء للأمة، يبينون لها طريق الخير وطريق الشر، يميزون الحلال من الحرام، والباطل من الحقّ، والمفاسد من المحاسن، والغث من السمين، لا يخافون في الله لومة لائم، لأن المسلمين أصبحوا اليوم ولا ناصح ينصحهم، ولا مرشد إلى تعاليم دينهم يرشدهم، ولا هاد إلى مكارم الأخلاق والآداب الاسلامية يهديهم، بل على العكس من ذلك فإننا نجد أصحاب الضلالات والفساد يتصدّرون للوعظ والارشاد، كما نشاهد تزاحم الناس على أرباب الدنيا وأصحاب المصالح.

فإلى أين بالأمة هم سائرون ؟ وإلى أي المهالك بها واصلون؟

ومما لا ريب فيه أنه لو تهيأً للأمة علماء حكماء ومرشدون أخيار يقومون بمهمة التذكير والنصح بما جاء في القرآن والسنة النبوية لتحسنت أحوال المسلمين، ولارتقوا المقامات التي أرادها لهم رب العالمين.

هذه المهمات قام بها مشايخ الصوفية المخلصون الصادقون، فمن المعلوم أن الزهد الإسلامي الذي كان مزدهراً في القرن الأول الهجري قد تحول شيئاً فشيئاً إلى مدرسة لها قواعدها ونظمها وأسسها التي يسير عليها الشيوخ مع السالكين.

ثم ظهر في العالم الإسلامي أنواع متعددة من الصوفية: فمن معتدل التزم باتباع الكتاب والسنة، إلى متفلسف نادى بعقائد فاسدة كالحلول والاتحاد وغيرها من الشطحات، وذلك في القرنين السادس والسابع الهجريين، لكن تيار المعتدلين ما لبث أن ازدهر بفضل جهود مشايخ الطرق الصوفية التي تأسست خلال القرنين.

وأصبحت لفظة الطرق الصوفية تطلق على **مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويَحْيَون حياة جماعية في الزوايا، أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام.**

واختلفت أسماء الطرق باختلاف أسماء مؤسسيها، والخلافات التي كانت وما زالت بين الطرق تنحصر في الرسوم العملية فقط، كالزِّي والأوراد والأحزاب التي يرددها الأتباع وما إلى ذلك.

والغاية القصوى من الطريق الصوفي تمثل في غاية خُلُقية هي إنكار الذات[١]، والصدق في القول والعمل، والصبر والخشوع، ومحبة المسلمين والتوكل على الله، وغير ذلك من الفضائل التي دعا الاسلام إليها.[٢]

---

(١) إنكار الذات: مصطلح معاصر، ويَعْنُون به عدم تعظيم النفس، وترك مدحها، والزهد في شهواتها، والتعبير الأدق أن يقال: إصلاح الذات.

(٢) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٢٣٥)، بتصرف يسير.

لقد كان مشايخ الطرق يطلبون من المريدين التوبة عن المعاصي والذنوب، والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع السنة، وتطهير القلب، وتزكية النفس، واصلاح المعتقد، كما كانوا يلقنونهم الأذكار المأثورة، ويبثون فيهم الفضائل والأخلاق الحسنة، ويحذرونهم من الآفات الاجتماعية كالكبر والحسد والرياء، وكانوا يحضون المريدين على حب الله سبحانه، والسعي لنيل رضاه، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم والصالحين، لذلك كانوا الشموع التي أنارت ظلمات الدرب، والمداميك التي قام عليها بناء مجتمع فاضل تسوده روح التضحية والإيثار، والسهام المرصدة في محاربة المنكرات والانحرافات، والمُثل الحية في الصلاح والتقوى والبعد عن الشهوات والهوى، لقد كانت الدنيا طوع بنانهم، لكنها لم تدخل قلوبهم التي ادخروها لحبّ المولى سبحانه، وحب حبيبه صلى الله عليه وسلم.

لقد رفضوا المناصب وهدايا الأمراء وزهدوا في كل ذلك محافظين على عزة نفوسهم، ومتوكلين على خالقهم، مؤمنين أن الرزق بيد الله وحده.

ولئن قبل بعض الصوفية الهدايا والأموال من الأغنياء؛ فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا ليوزعوها على الفقراء؛ فكانوا بذلك نقطة الاتصال بين طبقتي المجتمع: الأغنياء والفقراء لتقليل الفوارق بينهما، وإشاعة جو من الألفة والمحبة، فيحنو الغني على الفقير، ويجد لذة عظيمة في إحسانه وصدقته، ويُشعر الفقير بإنسانيته وبحبه للغني واحترامه.

وكثيراً ما كانت الزاوية في المنطقة الفقيرة بلسماً لجراحات العديد من الفقراء والمعوزين الذي رزأهم الدهر بمصائبه وويلاته فأفقدهم المال والمعيل، أو تقدمت بهم السنون فتضجر أولادهم من العناية بهم والاهتمام بأمرهم، فكان هؤلاء وغيرهم يجدون في الزاوية ما يسدُّ رمقهم، ومن يكفكف دمعاتهم، ومن يربت على أكتافهم، ومن يعلمهم ويربيهم احسن التربية التي تتخذ مناهجها من روح الاسلام وجوهره، وتسترشد بتعاليمه وأوامره، فكان اليتيم الصغير يتخرج من الزوايا مواطناً صالحاً متفانياً في فعل الخير، وكان الكبير يتخرج منها وهو على أتم الاستعداد لتقبل الأذى بكل رحابة صدر.

لكن بعض الزوايا قد انحرفت عن أهدافها الأصيلة، فكانت تجري فيها بعض المنكرات، الأمر الذي لطخ سمعة الصوفية عموماً.

وفي الواقع يجب أن يميز المرء بين الصوفي الحقيقي وبين المدعي الذي يتخذ من التصوّف تجارة أو رداءً يتستر به، لتحقيق أطماعه وشهواته.

كذلك فإن مشايخ الطرق الصادقين لم يقصروا في ميدان الجهاد، وكتب التاريخ حافلة بأسماء الصوفية المجاهدين الذين كرسوا حياتهم لمقارعة الأعداء، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإعادة المنحرفين، فهؤلاء الصوفية كانوا الدليل الساطع على أن التصوف لا يعني الكسل والخمول والفرار من معترك الحياة.

المطلب الأول

تعريف الطريق والطريقة لغة

الطريق: المسلك الذي يسلكه الانسان في فعل، محمودا كان، أو مذموما، وفي الكتاب العزيز: (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم)[١].

والطريقة: أماثل القوم، هؤلاء طريقة قومهم (قدوتهم)، والجمع طرائق[٢].

الطريق: الشارع أو السبيل، يذكر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم، والطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق.

وطريقة الرجل: مذهبه. يقال: ما زال فلانٌ على طريقة واحدة، أي على حالة واحدةٍ[٣].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة (٤٥٥/١) مادة طرق .

(٣) الفارابي، الصحاح تاج اللغة (١٥١٣/٤) .

والطريقة الحال، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة[١].

فالطريقة لغة تشمل المسلك والسبيل، محمودا أو مذموما، حسياً أو معنوياً.

المطلب الثاني

تعريف الطريق والطريقة اصطلاحاً

يُقال: أخذ الطريق، ويُقال: بايع على الطريقة: أي بايع شيخاً والتزم بطريق التصوف، لإصلاح النفس وترقيتها.

ولفظ الطريق والطريقة يترادفان في الغالب في إطلاق الصوفية.

وفيما يأتي نذكر بعض التعريفات، والتي من خلالها تدرك معانيَ وحقائقَ هذا المصطلح عند الصوفية:

عرف الجرجاني الطريقة فقال: هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى، من قطع المنازل والترقي في المقامات[٢].

ويستعمل علم الطريقة بمعنى آخر، وهو الإشارة إلى مناهج الصالحين والمربين في تزكية النفوس.

والطريقة في المصطلح الصوفي هي: التزامُ الوِرْدِ وآدابٍ مخصوصة؛ للتطهير الباطني، ومعرفة الله[٣].

والطريقة هي التطبيق العملي للشرع قولاً وعملاً وسلوكاً وأخلاقاً، بإصلاح ظاهر السالك وباطنه قال تعالى: (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)[٤]، وذلك بصحبة الشيخ الوارث

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (٢٢١/١٠) .

(٢) الجرجاني، التعريفات (١٤١/١).

(٣) كتاب التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان د/ محمد بن بريكة (ص٢٩٤).

(٤) الأنعام (٦).

المربي الذي لا يكتفي بتعليم مريده أمور دينه بصورة نظرية بحتة، وإنما يأخذ بيده لتطبيق أحكام الشرع عملياً، يثني عليه إذا أحسن، وينبهه إذا زلّ، ويتفقده إذا غاب، ويذكّره إذا نسي، ويزكّي قلبه إذا قسا، ويحفزه إذا فتر، ويحنو عليه، ويحبه محبة الوالد لولده، قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وبذلك يكتسب المريد الصفات الحميدة، ومعرفة الله، ويداوي عيوب وآفات نفسه(١).

الطريق هو تعبير عن المسلك الذي يسلكه الإنسان في تربية نفسه، أو يُدرّج فيه المُرَبّي المربَّى في تربيته، فهو بمعنى علم السلوك، ولا يشمل كل جوانب التزكية.

وجازت تسمية التربية والتزكية بالطريق، لأن الله تعالى سمى دينه طريقاً بقوله: (يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)(٢)، وقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)(٣)، فالجنة لها طريقها، والنار لها طريقها، وهو الإشارة إلى طرق الصالحين والمربين في تزكية النفوس(٤).

وأما اسم الطريقة فمقتبس من القرآن في الآية: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً)(٥).

إن لفظ طريق، في التصوف، يَختصِر جُملةَ: (الطريق الى الله)، وهو شامل للتجربة الصوفية بكاملها، ابتداء من تَنَبُّهِ القلبِ من غفلته، ومروراً بمجاهدة النفس ورياضتها، ووصولاً الى المعرفة والفتح الروحاني(٦).

---

(١) موقع الطريقة الخلوتية.

(٢) الأحقاف (٣٠) .

(٣) النساء (١٦٨-١٦٩) .

(٤) مقدمات في التربية والإصلاح الشرعي (ص٢٢) .

(٥) الجن (١٦).

(٦) المعجم الصوفي (ص٧٢٠-٧٢٢) .

الطريقة هي المعراج الروحي، وهي التي أطلق عليها اسم السفر و السلوك و المعراج والتي تعرض لهم فيها باسم الأحوال. يرى السالك في هذا الطريق أشياء لا يراها غير الصوفي، وتعترض سبيله عقبات لا تعترض سبيل غير الصوفي، وتعتريه أحوال لا يعانيها غير الصوفي [١].

والطريقة كما جاء في كتاب إبراهيم الراوي هي الأسلوب الخاص الذي يعيش المتصوف بمقتضاه في ظل جماعة من جماعات التصوف تابعة لأحد كبار الشيوخ.

والطريقة مجموعة التعاليم والآداب والتقاليد التي تختص بها جماعة من هذه الجماعات، وهي الحياة الروحية التي يحياها السالك أياً كان، باعتبارها المعراج الروحي.

تعريف الطرق الصوفية:

والطرق الصوفية كما يقول عبد العزيز البخاري هي: اجتهادات شخصية لمشايخ وأتقياء وعلماء قد فتح الله عليهم فتوح العارفين، وقد أخذوا الأذكار وطَوَّرُوها، بحيث تتسم بالمرونة واللين، وتلائم المريدين.

فهي لفظة تدل على **مجموعة أفراد من الصوفية ينتمون إلى شيخ معين**، ولهم نمط سلوكي روحي وحياة؛ تهدف إلى إصلاح الذات، لهم زوايا ولهم مجالس علم وذكر، إضافة إلى ذلك فإن هناك اجتماعات دورية خاصة بهم.

فالطريقة **عقد بين المريد والشيخ**، يتولى فيها الشيخ مهمة إرشاد المريد، وعلى المريد أن **يلتزم بالطريقة التي لها علم وذكر**، وتختلف كل طريقة عن الأخرى في أداء مهماتها، ويسود التنافس بين تلك الطرق، وهي بمثابة **مدارس تعليمية** تهدف إلى بث أفكار ومبادئ ترى أنها **ضرورية لحياة وتربية الأجيال** في المجتمعات الإسلامية.

ويعرف خالد قرقور الطرق الصوفية بأنها مدارس سلوكية **تربوية وتعليمية**، وهي تشكل منهجاً قائماً بذاته، وتهدف إلى **تعليم المريدين وتزكية نفوسهم** وأخلاقهم، والترفع

---

(١) التصوف، ابو العلا العفيفي (ص١١٧-١١٨)

عن كل ما هو دني، **والتحلي بالأخلاق الكريمة**، أما عن اختلاف المسالك والسبل؛ فإنه راحة للسالك(١).

وهذه الطرق الصوفية لا تقتصر مهمتها على ذكرٍ وزهدٍ ومجاهدة وصحبة، وإنما تسعى لإصلاح الفرد، لِيُمَثِّلَ الشخصيةَ الإسلامية الكاملة بأفضلَ ما يمكن، ولينعكس ذلك على المجتمع، عند صلاح أفراده، ليكون مجتمعاً يطبق الإسلام بكل تفاصيله وكمالِه.

المطلب الثالث

تعريف التصوف

قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: (التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية) (٢).

ويقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول «علم التوحيد» لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك) (٣).

وقال بعضهم: (التصوف كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف) (٤).

---

(١) الطرق الصوفية وتراثها في فلسطين (ص٤٧-٤٨) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٧).

(٣) قواعد التصوف (ص٦).

(٤) النصرة النبوية (ص٢٢)، منقول عن حقائق عن التصوف للشيخ عبدالقادر عيسى.

وقال أبو الحسن الشاذلي: (التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)[١].

وسئل الجنيد عن التصوف؟ فقال: (تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية[٢]، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة).

ونقل القشيري في رسالته عن سعيد بن عثمان يقول: سمعت ذا النون المصري: (من علامات المحب لله: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه).

ويحكى عن السري أنه قال: (التصوف اسم لثلاثة معانٍ، وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة» ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله).

وقال بهاء الدين محمد النقشبندي: (طريقتنا هي الأدب)[٣].

قال الدكتور محمد الصادق عرجون في تعليل تعدد تعريفات الصوفية للتصوف إلى مئات التعريفات التي تختلف اختلافاً بيناً: (إن كل سالك في الطريق إلى الله تعالى له حال أو أحوال، وله ذوق ومشرب، بل أذواق ومشارب تتجدد معه بتجدد سيره وهمته في السير، وما يُكشف له من معالم الطريق في سيره، فإذا أراد أن يعبر عن مشاهده وحاله، عبّر بما يمليه عليه حاله في وقته، فإذا جاوزه تغيرت المشاهد والمعالم، ولا بد أن

---

(١) نور التحقيق (ص٩٣).

(٢) (ومفارقة الأخلاق الطبيعية): كالشهوة والكِبر والحسد، (وإخماد الصفات البشرية): كالعجلة والحرص والطمع، (ومجانبة الدواعي النفسانية): كالرياء والنفاق، (ومنازلة الصفات الروحانية): كالصفاء والطمأنينة والتوكل والخشية.

(٣) التزكية (ص٣٧-٣٨).

يتغير التعبير، ومن هنا يمكن فهم ما يُرى في علوم القوم وكلماتهم من اختلاف في التعبير)[١].

التصوف أشهر من أن يحتاج في تعريفه إلى قياس لفظ، واحتياج اشتقاق. وإنكار بعض الناس على هذا اللفظ بأنه لم يُسمع في عهد الصحابة والتابعين مردود، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستعملت ولم تنكر، كالنحو والفقه والمنطق.

وعلى كل فإننا لا نهتم بالتعابير والألفاظ، بِقَدر اهتمامنا بالحقائق والأسس، ونحن إذ ندعو إلى التصوف إنما نقصد به **تزكية** النفوس وصفاء القلوب، وإصلاح **الأخلاق**، والوصول إلى مرتبة **الإحسان**، نحن نسمي ذلك تصوفاً، وإن شئت فسمه **الجانب الروحي** في الإسلام، أو **الجانب الإحساني**، أو **الجانب الأخلاقي**، أو سمه ما شئت مما يتفق مع حقيقته وجوهره، إلا أن علماء الأمة قد توارثوا اسم التصوف وحقيقته عن أسلافهم من المرشدين منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا فصار عرفاً فيهم[٢].

المطلب الرابع

تعريف الصوفية ووصفهم

إتماما لتصور مصطلح الطرق الصوفية وبعد ما عرفت الطريق ثم التصوف أذكر بعض التعريفات عن الصوفية أنفسهم:

يقول الإمام **الغزالي**: إني علمت يقيناً أن **الصوفية** هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سِيَرَتَهم أحسنُ السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سِيْرَتِهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن

---

(١) التصوف في الإسلام (ص٦).

(٢) حقائق عن التصوف (ص٢٣).

جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟![١].

وقال ابن جبير الكناني[٢]: الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان. فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة، وهم على طريقة شريفة، وسنّة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوّق جميلة، وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا[٣].

وعرفهم السيد **محمود أبي الفيض المنوفي**: هم المجتمعة على الله هممهم، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم، الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم، فهم أحكم الناس وأعقلهم، وأقرب الخلق إلى الحق وأكرمهم، لأنهم أتقاهم[٤].

وذكر تعريفهم الإمام **الطوسي** فقال: إنهم علماء قاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل، فجمعوا بذلك بين العلم والحقيقة والعمل[٥].

وقال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: "إن التصوف والبيئات الصوفية هي القادرة على إيجاد الانسان في كمالاته كلها، الإنسان الذي يقوم بفرائض العبودية لله، والإنسان

---

(١) الغزالي، المنقذ من الضلال (١٧٧).

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني، (٥٤٠-٦١٤هـ)، رحالة أديب، انظر: الأعلام للزركلي ٥/ ٧١٩.

(٣) رحلة ابن جبير (٢٣١).

(٤) نقلا من كتاب الصوفية والحياة المعاصرة لفوزي أبو زيد (٢٢) .

(٥) الطوسي، اللمع (١٩) .

الذي يقدم أعظم العطاء في باب التعامل مع الآخرين، فيقوم بذلك مجتمع كله ادب، وكله تراحم، وكله عطف، وكله مودة، وكله إيثار، وكله لطف"[١].

وقال الدكتور حسن الأشموني في كتابه: (التعبئة الروحية في بناء المجتمع): "نحن لا نجانب الصدق إن قلنا: إن التصوف يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها، فليس من شك في أن بناء المجتمع بناء قويا متينا عزيز الجانب يرجع إلى مدى ما يكون لأفراده من صفاء النفوس، ومتانة الخلق، واستعداد للتضحية، وإنكار الذات، وهي كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها، ويروضون مريديهم عليها"[٢].

ونحن حينما نتكلم عن التصوف لا نقصد التصوف الذي ظهر في بعض الأزمان والأمكنة، والذي كان أهم مظاهره الشعبذة[٣] والصياح، والذي ليس فيه روح التصوف، وإنما همُّه الخروجُ بالمواكب والأعلامِ في الطرقِ، واللَّعِبُ بالثعابين، وابتلاعُ النِّيران، ولكننا نتكلم عن الصوفية الذين اتخذوا العبادة شعاراً للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة، واستدرار أموال الناس، أو العبث بالعوام والجهلة.

فقد ظهر التصوف قويا في القرون الأولى حتى القرن السابع الهجري، وبعد ذلك أخذت الشكليات تطغى على الجوهر، فالجوهر كان قائما مع الأشكال في القرون الأولى، وبه كانت الدعوات الدينية المخلصة، واستمر الجوهر قائما إلى اليوم، وإن اختفى وراء المظاهر، وهذا ما نسعى لإحيائه، فحديثنا إذاً عن الصوفية الذين حملوا الدعوة الإسلامية، وليس الذين اتخذوها أشكالاً ومظاهرَ، وهم الصفوة المختارة الذين صفت نفوسهم وربَّوا

---

(١) تربيتنا الروحية (١٣).

(٢) الأشموني، حسن، التعبئة الروحية في بناء المجتمع.

(٣) قال في المصباح المنير (٣٣٧/١): والشعوذة مثل الشعبذة وزناً ومعنىً؛ لَعِبٌ يرى الإنسان منه ما ليس له حقيقة كالسحر.

مريديهم وتلاميذهم على الخير والعمل، كالشيخ عبد القادر الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وابن عطاء الله السكندري، وغيرهم(١).

المطلب الخامس
أئمة التصوف ومرجعيتهم السُّنِّيَّة

اشتهر أئمة صالحون في علم التزكية وفي تربية الناس، كما اشتهر علماء مجتهدون أئمة في علم الفقه أو علم العقيدة أو علم الحديث، أو غيرها من العلوم، فنسبت التزكية إليهم فقيل مثلاً: طريقة الجنيد، وطريقة الرفاعي، وطريقة الجيلاني، وطريقة الغزالي، وطريقة الشاذلي، وطريقة النقشبندي، وغيرهم كثير، ومع أن هذه الطرق التربوية **راجعة إلى الكتاب والسنة** في اجتهاداتها في التربية وتزكية النفوس، لكنها لا تخلو من اختلاف كاختلاف الفقهاء في اجتهاداتهم وأصولهم، على وجه أضيق، وهي كما قال البوصيري: (وكلهم من رسول الله ملتمس).

وكما أن المجتهد الفقيه يجتهد فيصيب وقد يخطئ؛ كذلك المجتهدون في التربية قد يقع منهم الخطأ في العلم أو الوسيلة أو العمل، لكنهم معذورون كالفقهاء، وقول الإمام المجتهد في أمر اجتهادي لا يعتبر قولاً ساقطاً، إنما يعتبر قولاً مرجوحاً في حق مجتهد آخر، أما العامة فليس لهم الحكم على إمام مجتهد، إنما لهم نقل كلام المجتهد مع الأدب.

مدارس الأئمة المجتهدين في التربية مقبولة في الأمة، ومعمول بها، والناس سائرون عليها، وعامة ما ترى من انحراف عند الطرق الصوفية فهو من الأتباع لا من المشايخ الذين نسبت إليهم الطرق(٢).

---

(١) فوزي أبو زيد، الصوفية والحياة المعاصرة (٢٤)، بتصرف يسير.

(٢) فأنت تجد مثلاً الإمام الرفاعي في كتابه: «البرهان المؤيد» ينكر الشّطحات والقول بالوحدة المطلقة إنكاراً شديداً، ويعتبرها ثلمة في الدين، وتجده ينكر البدع ويحذّر منها، وينكر دعاوى الشيوخ وترفعهم

وإنما **تبع الناس** أصحاب الطرق الصوفية لِما عُرِف عنهم من منهج في التربية، وقدرة على تزكية المريدين السالكين، ولما غلب على الظن من صلاحهم، مع ظهور قبولهم عند كثير من الخلق.

وقد يكون بعض المشايخ الذين انتسبوا إلى الطرق منحرفين، لكن ظنهم الناس على خير، وإنما يحكم الناس بحسب ظنهم، والحكم لله أولاً وآخراً، وواجبنا إذا وجدنا شيئاً فيه خلل أن نرد ذلك إلى الكتاب والسنة، فما كان منها أو لم يخالفها قبلناه، وانتفعنا منه، وما ظهر لنا خطؤه ومخالفته **رددناه**، فالطريقة التي تعبدنا الله بها هي **طريقة رسول الله** ﷺ، وهو ﷺ المرجع الذي يَتشرف بالانتساب إليه أصحاب الطرق وغيرهم.

مع التأكيد أن العامة ليسوا هم من يحكمون من المُخطئ ومن المصيب، وأين الخطأ وأين الصواب، بل أهل التخصص والعلماء والمربون.

وقد طرأ على كثير من الطرق بدع وانحرافات ونقص وزيادات، فواجبنا أن نصلحها ونردها إلى صوابها، وإنما **تعددت الطرق** مع أن الدين واحد وسنة النبي ﷺ واحدة، لاختلاف السبل والطرائق في تربية النفوس، وخاصة في بداية السير إلى الله، وإلا **فنتائج السير** واحدة في الاستقامة وحسن الأحوال.

فمن أصحاب الطرق:

١. من يهتم ـ في بداية السير ـ بالمعارف والعقائد ويرسخها في النفوس لتنشئ سيراً صحيحاً ورغبة قلبية سليمة.
٢. ومنهم من يهتم بالآداب الظاهرة والباطنة.
٣. ومنهم من يهتم بمجاهدات النفس ومخالفة أهوائها
٤. ومنهم من يهتم بالذكر.
٥. ومنهم من يهتم بترك المعاصي والتحذير منها.

على تلامذتهم، ويحث على التواضع والعبودية والاتباع والأخذ بالسنة، بينما تجد كثيراً من المنتسبين إلى طريقته قد وقعوا فيما أنكره وحذر منه.

٦. ومنهم من يذكر بالآخرة ويحبب الجنة ويخوف من النار.

٧. ومنهم من يهتم بالعلم الشرعي بتعليم العقيدة والفقه في أول السير.

٨. ومنهم من يعطي القلب اهتماماً.

٩. ومنهم من يعطي الظاهر اهتماماً في البداية، وهكذا.

كما اختلفت الطرق بحسب ترتيب الأوراد، فيما وراء الفرائض والرواتب، فما ندب إليه الشرع الشريف من غير أن يربطه بوقت معين؛ فقد جعل بعض أصحاب الطرق لتلاميذهم حداً معيناً أو عدداً معيناً يلازمونه ويتخذونه ورداً لا يتركونه، ليكون مع الفرائض والسنن الرواتب سبيلاً للتقرب إلى الله تعالى[1].

الطرق الصوفية عموماً هي مدارس ومناهج في التزكية والتربية، **متصلة السند** إلى سيدنا رسول الله ﷺ، فكما أن هنالك أسانيد لقراءة القرآن الكريم يعرفها القراء، وهنالك أسانيد الحديث الشريف يعرفها أهل الحديث؛ هنالك أسانيد في التربية والتزكية، يعرفها أهل الطرق الصوفية، ويحفظونها بكل عناية.

الطرق الصوفية ليست فرقاً إسلامية، بل هي من نسيج الإسلام الجامع فجميعها تتبنى عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة أو الماتريدية أو فضلاء الحنابلة، وتتبع أحد المذاهب الأربعة، والاختلاف بينها إنما هو في طريقة التربية والسلوك إلى الله عز وجل، وهي الأدوات التي يستعملها الشيخ حتى يصل بمريديه إلى الإخلاص والتقوى والصلاح وحسن الخلق وتحويل الصفات الذميمة للنفس إلى صفات حميدة، فيحصل له صفاء السريرة ونقاء القلب وسمو الروح ليكون أهلاً لنظر الله وعنايته.

قال القشيري: (اعلموا - رحمكم الله - أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله: التوحيد

---

(١) مقدمات في التربية والإصلاح الشرعي (ص٢٣-٢٤).

إفراد للقدم من الحدث، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، كما قال أبو محمد الجريري - رحمه الله -: من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده، زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف)[١].

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: (الصوفي الحق ليس له عقيدة خاصة به، بل عقيدته هي عقيدة أهل الحق، ولكنه سائر في الطريق التي تصبح فيها هذه العقيدة شعوراً عنده، فلا يكون انفصام بين فكره وقلبه، ومن ثم فهو لا يستحدث عقيدة، بل يستشعرها، وإذا تحدث فإنما يتحدث عن شعور، ويسجل تجربة، فإذا تجاوز هذا فقد ظلم، وإذا لم يحمل كلامه على هذا مع اعتقاده عقيدة الحق، فإنه مظلوم، والعدل طيب)[٢].

وقال أيضاً: (ومن ههنا نعلم أن التصوف مبني على مذاهب أهل السنة والجماعة في الاعتقاد والفقه، فالصوفي مقيد في العقائد بمذهب أهل السنة والجماعة، ومقيد في الفقه بفتاوى أهل السنة والجماعة، والسير على مذاهبهم الاعتقادية، ويحكم ذلك كلَّه الكتابُ والسنة، فهو يمتاز على غيره بالعمل والتحقق)[٣]، ثم ذكر نماذج على ما ذكر من كلام أئمتهم، ومن ذلك: وقال الشيخ أحمد زروق في قواعده: (فنكفر من آل قوله لمحال في معقول العقائد، ونبدع من آل به لذلك في منقولها[٤]، إن التزم القول باللازم، وإلا نظر في شبهته، فنجري له حكمها على خلاف بين العلماء، في لازم القول).

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢).

(٢) جولات في الفقهين الكبير والأكبر (ص١٠٧) .

(٣) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين (ص٦) .

(٤) معنى كلامه أن من أثبت في العقائد أمراً مستحيلاً عقلاً، فإنه يكفر، ومن استند إلى نص قطعي الثبوت ففهمه على وجه مستحيل عقلاً، فإنه مبتدع، أضاف إلى عقائد الدين ما لا يصح، أما إن فوض معناه إلى الله تعالى فلا إشكال، ومثل ذلك يكون مبتدعاً، من أنكر شيئاً من نصوص الشرع الآحاد، لا ينفيه العقل ولا يثبته، فهو مبتدع مخالف لطريق أهل السنة والجماعة.

والشيء الذي أخذناه عن شيوخنا في الله، أنهم كانوا وهم يدرسوننا كتب عقائد أهل السنة والجماعة يقولون: ما ترونه مخالفاً لهذه العقيدة الحق، فارم به ورده[١].

المطلب السادس

أسباب الطعن في التصوف

إن الذين طعنوا في التصوف الإسلامي، وتهجموا عليه، واتهموه بشتى أنواع الأكاذيب والافتراءات، ورموه بالانحراف والزيغ، إما ان يكون باعثهم على ذلك الحقد والعداوة المتأصلة للإسلام، وإما أن يكون سبب وقوعهم في هذا الإثم جهلهم المطبق بحقيقة التصوف:

أما الصنف الأول: فهم أعداء الإسلام من الزنادقة المستشرقين وأذنابهم وعملاؤهم، الذين صنعتهم الصليبية الماكرة والاستعمار البغيض لطعن الإسلام، ودكِّ حصونه، وتشويه معالمه، وبث سموم الفرقة والخصام بين صفوف أبنائه، لقد كشفهم السيد محمد أسد في كتابه "الإسلام على مفترق الطرق" في بحث شبح الحروب الصليبية.

وقد عكف هؤلاء المغرضون على دراسة الإسلام دراسة دقيقة مستفيضة، كي يعرفوا سر قوته، وليعلموا من أي باب يَلِجُون، وفي أي طريق يسيرون للوصول إلى أهدافهم الماكرة، ومآربهم الخبيثة، ومن أشهر كُتَّابهم نيكلسون الإنجليزي، وجولدزيهر اليهودي، وماسينيون الفرنسي، وغيرهم، فتارة يدسون السُّمّ في الدسم، ويمدحون الإسلام في بعض كتبهم كي ينالوا ثقة القارئ، فإذا اطمأن إليهم وركن إلى أقوالهم شككوه في عقائده، وحشوا قلبه بأباطيل ألصقوها بالإسلام زورا وبهتنا، وتارة ينتحلون صفة الباحث العلمي المتجرد، أو يلبسون ثوب الغيور على الدين المتباكي على تراثه، فيشنون حملة شعواء على التصوف، وقد عرفوا أنه روح الاسلام وقلبه النابض، فيدعون أنه مقتبس من اليهودية

---

(١) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين (ص٧) .

أو النصرانية أو البوذية، ويتهمون رجاله بعقائد مكفرة وأفكار محرفة ضالة كالقول بالحلول والاتحاد، ووحدة الأديان وغير ذلك.

ونحن لا نعتب عليهم لأنهم أعداء، وهذا شان العدو الماكر، ولا ندخل في تفاصيل الرد عليهم، وتفنيد افتراءاتهم بعد أن علمنا أغراضهم ومآربهم الخبيثة، ولكننا نعتب على جماعة يدعون الإسلام ثم يتبنون آراء هؤلاء الخصوم الألداء، وخصوصا في طعن الاسلام في روحه وجوهره ألا وهو التصوف، فهل يصح لمسلم عاقل أن يتخذ أقوال الأعداء المتحاملين المغرضين الكافرين حجة لطعن إخوانه المؤمنين!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولو كان هؤلاء المستشرقون صادقين في دفاعهم عن الإسلام، مخلصين في زعمهم بتنقيته من الشوائب وغيرتهم عليه وحبهم له فلماذا لم يعتنقوه؟ ولِمَ لم يتخذوه منهجا لهم في حياتهم؟

وأما الصنف الثاني: فهم الذين جهلوا حقيقة التصوف الإسلامي، ولم يأخذوه عن رجاله الصادقين، وعلمائه المخلصين، بل نظروا إليه نظرة سطحية، بعيدة عن التمحيص والتبين وهؤلاء أقسام:

قسم أخذوا فكرتهم عن التصوف من خلال أعمال وسلوك المنحرفين والدخلاء من أدعياء التصوف، دون أن يفرقوا بين التصوف الحقيقي الناصع وبين بعض الوقائع المشوهة التي تصدر عن الدخلاء على الصوفية، والتي لا تمتُّ الى الاسلام بصلة.

وقسم خدعوا بما وجدوه في كتب السادة الصوفية من أمور مدسوسة أو مسائل دخيلة، فأخذوها على أنها حقائق ثابتة دون تمحيص وتدقيق أو تثبت، أو أنهم أخذوا الكلام الثابت في كتب الصوفية ففهموه على غير مراده، حسب فهمهم السطحي وعلمهم المحدود وأهوائهم الخاصة، دون أن يرجعوا إلى كلام الصوفية الواضحة الذي لا يحيد عن لب الشريعة، والذي يعطي الضوء الناصع والنور الكاشف لتأويل هذا الكلام المتشابه، مَثَلُهم في ذلك كمثل الذي في قلبه زيغ ومرض، فأخذ الآيات القرآنية المتشابهة في القرآن الكريم، فأولها حسب هواه وانحرافه، دون أن يلتفت إلى سائر الآيات القرآنية المحكمة التي تلقي النور على معاني هذه الآيات المتشابهة، وتوضح معانيها، وتبين أغراضها،

قال الله تعالى في حقهم: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)(١).

لهذا ولئلا يلتبس الأمر على أحمق أو مغرض متحامل، وضع علماء الصوفية عقائدهم صريحة واضحة، لا تحيد عن مذهب أهل السنة والجماعة، ومنهم الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى، فقد ذكر عقيدته واضحة مفصلة في مطلع كتابه الفتوحات المكية، وكذلك صاحب الرسالة القشيرية وغيرهما.

وقسم هم المغشوشون المخدوعون الذين أخذوا ثقافتهم وعلومهم عن المستشرقين، كما بيّنّا سابقاً، وتبنوا مزاعمهم وأباطيلهم كأنها بديهيات لا تقبل الجدل، أو تنزيل من حكيم حميد، ولم تسعفهم الفطانة والذكاء إلى إدراك حقيقة هؤلاء المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم وجندوا ثقافتهم لهدم الإسلام بتشويه معالمه وطعنه في جوهره وروحه.

إلا أن هذه الأمة الإسلامية لا تزال فيها طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل الضلال والعمى، اهتدوا بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.. استضاءوا بنوره على مر الازمان والدهور(٢).

وبعض الناس يرجع إنكارهم إلى الحسد:

تحت عنوان: الصوفية الحقة، قال صاحب كتاب الصوفية والحياة المعاصرة: وفي الحقيقة نجد أن المنكرين على الصوفية يرجع سبب إنكارهم إلى الجهل بما عليه أهل الطريق، وعدم المعرفة الصحيحة بأحواله؛ أو إلى حقد دفين عند البعض على الصوفية بسبب

---

(١) آل عمران (٧).

(٢) الشيخ حازم نايف أبو غزالة، أسئلة وأجوبة عن التصوف (ص ٢٠٢).

التفاف الناس حولهم، ومحبة القلوب لهم، وقد يكون مرد ذلك إلى خلط البعض بين الصوفية الحقيقيين والأدعياء.

وبعض الناس يرجع إنكاره إلى التسمية بالصوفية، وبالتالي يكره كل شيء ينسب إليها، بدون أن يكلف نفسه عناء البحث أو الاطلاع على أحوالهم،

وعن هؤلاء **يقول الأستاذ سعيد حوى في كتابه تربيتنا الروحية:**

" وإني لأظن أن أكثر ما يذهب الانكار علي فيه في هذه السلسلة هو قضية الاسم فهناك ناس لا يطيقون أن يسمعوا اسم تصوف وصوفية، ولهؤلاء أقول: على رِسلكم فهذا التاريخ بيني وبينكم، إنه لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس، لأنه اصطلاح على علم كعلم النحو والبديع والمعاني والفقه وغير ذلك، ولا مشاحة في الاصطلاح - كما يقول العلماء - وحتي في عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق ولم أرعلي ذلك منكرا، فأرجو التأني في الإنكار على قضية لا مبرر للإنكار فيها أصلا، إذ ما مبرر الإنكار على اسم مباح أُطلِق على عِلْم من العلوم حتى أصبح عَلَماً عليه، فإذا تجاوزوا هذه النقطة -وينبغي تجاوزها- فإن المضمون هو الذي ينبغي أن يكون محل النقاش، فليكن همنا هو الوصول إلى الحق في المضمون، بدلاً من مناقشة في جانب لا يترتب على النقاش فيه أي طائل"[١].

---

(١) تربيتنا الروحية (١٣).

المبحث الثاني

نشأة الطرق الصوفية ومراحلها

إن التصوف الإسلامي مر بعدة مراحل على سبيل المقاربة:

أولاً: مرحلة النشأة (من بعثة النبي ﷺ - ١٠٠هـ)**: فقد وُجدت بِذرته الأولى في الصَّدر الأول، والتي امتدت إلى آخر القرن الأول.**

ثانياً: مرحلة الزهد (١٠٠ - ٢٥٠هـ): والتي تمتاز بالبساطة، وغلبةِ فكرةِ مجانبة الدنيا والخوفِ عند الزاهدين، والطابع العملي للزهد، مع الاجتهاد في الطاعات والعبادات، دون اهتمام بوضع قواعد نظرية، وإن كانت إرهاصات ذلك قد بدأت بالظهور في أواخر هذه المرحلة عند زُهّاد خراسان تمهيداً للمرحلة التالية.

ثالثاً: مرحلة النضج العلمي والتربوي (٢٥٠ - ٥٠٠هـ)، ويمكن تسميتها: مرحلة **ظهور المدارس**[١]، والطابع الغالب عليها هو الطابع النفسي الأخلاقي، وتمتاز هذه المرحلة:

١. ببداية التأصيل والتنظير للأخلاق والنفْس والسلوكِ ومقاماتِه وأحوالِه، والبحثِ عن طرق اكتسابها والترقي من خلالها عملياً.
٢. وظهور حركة التدوين في التصوف.
٣. وظهرت مصطلحات للتصوف، ورمزيةٌ في التعبير الصوفي، وظهرت بواكيرُ الشعر الصوفي.
٤. والتمييز بين علمي التصوف كعلم للأخلاق الدينية أساساً، والفقه كعلم للأحكام الشرعية، على أساس منهجي.
٥. وأصبح التصوف طريقاً للمعرفة أيضاً، وليس للعبادة فحسب، بل صار التفكر والتدبر وإمعان النظر له أهمية كبيرة أكثر من القيام بالرياضات الصوفية والمجاهدات.

---

(١) وهذه المرحلة تشابه في مراحل علم الفقه مرحلة الأئمة المجتهدين.

٦. وفي هذه المرحلة أيضاً: ظهرت الشطحات قليلاً، وبوادر تأثر بعض الصوفية بمؤثرات أجنبية، وهو ما لقي نقداً واسعاً من شيوخ التصوف السني، والذي كان له الغلبة والانتشار.

ويمكن القول إنه بنهاية هذه المرحلة ظهرت الناحية النظرية للتصوف واضحة، فكانت محل اهتمام كبير، دون أن تلغي الاهتمام بالناحية العملية.

والتوجهات والمدارس العلمية والعملية في هذه المرحلة هي التي تطورت فيما بعد إلى ما عُرِفَ وسُمِّيَ **بالطرق الصوفية،** كما نراه في المرحلة التالية.

وكانت أهم المدارس في هذه المرحلة:

١. الجنيدية نسبة للجنيد (٢٩٧هـ).

٢. والبسطامية أو الطيفورية نسبة إلى أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (٢٦١هـ).

وهما الأكثر انتشاراً وبقاءً إلى اليوم، من خلال الطرق الصوفية الممتدة سَلاسِلُها وأسانيدها إليهما.

بالإضافة إلى اتجاهات أخرى نالت حظوظاً متفاوتة من الانتشار والبقاء:

٣. كالمحاسبية المنسوبة للمحاسبي (٢٣٤هـ).

٤. والقصارية المنسوبة إلى أبي صالح حمدون القصار شيخ الملامتية (٢٧١هـ).

٥. والخرازية نسبة إلى أبي سعيد الخراز (٢٧٩هـ).

٦. والسهلية المنسوبة إلى سهل التستري (٢٨٣هـ).

٧. والنُّورِيّة المنسوبة إلى أبي الحسين النوري (٢٩٥هـ).

٨. والحكيمية نسبة للحكيم الترمذي (٣٢٠هـ تقريباً).

٩. والسَّيّارية نسبة إلى السياري (٣٤٢هـ).

١٠. والخفيفية نسبة إلى أبي عبد الله بن خفيف (٣٧١هـ).

فهذه الاتجاهات تمثل نواة الطرق الصوفية، والتي تعتبر تطوراً بالغ الأثر على الصعيد المؤسسي، الذي ضمن استقرار الظاهرة الصوفية، مع تنوعاتها التربوية، وهذه عشرة

اتجاهات صوفية في هذه المرحلة، يمتاز كل اتجاه منها بسمات صوفية خاصة به ليس هنا محل تفصيلها.

ويعتبر الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) بما ألفه في التصوف، ولا سيما إحياء علوم الدين، تتويجاً لهذه المرحلة، وقد اتخذتْ بعضُ طرقِ الصوفية كُتُبَه منهجاً ومدرسة للسلوك.

رابعاً: مرحلة الازدهار والانتشار الجماهيري، على يد شيوخ الطرق الصوفية الكبرى (٥٠٠هـ - ٨٠٠هـ)، ويمكن تسميتها: مرحلة **ظهور الطرق الصوفية**، والتي نُسِبَتْ إلى أئمة وشيوخ مربين، عُرِفُوا بإسناد متصل، أو سلسلة من الشيوخ تمتد إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ظهرت العديد من الطرق الصوفية في هذه الفترة، والتي هي امتداد للتصوف السني الذي تم تأسيسه ونضجه في المراحل السابقة، فكان التصوف في هذه المرحلة فلسفةِ حياةٍ لِقطاع كبير من الناس، يخضعون خلالها لنظام دقيق في السلوك الروحي.

ولعل من **أهمها وأكثرها انتشاراً** عشر طرق:

١. القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ).
٢. واليسوية المنسوبة إلى الشيخ أحمد اليسوي (٥٦١هـ).
٣. والسهروردية المنسوبة إلى الشيخ ضياء الدين أبي النجيب السهروردي (٥٦٣هـ) وابن أخيه أبي حفص عمر السهروردي (٦٣٢هـ) صاحب العوارف.
٤. والنقشبندية والتي أسس قواعدها الشيخ عبد الخالق الغَجْدَواني (٥٧٥هـ) وإن كانت قد ارتبط اسمها في النهاية بالشيخ بهاء الدين شاه نقشبند (٧٩١هـ).
٥. والرفاعية المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي (٥٧٨هـ).
٦. والكُبرَوية المنسوبة إلى الشيخ نجم الدين الكُبرى (٦١٧هـ).
٧. والشِّشْتِيَّة المنسوبة إلى مُعين الدين الشِّشتي[1] (٦٢٧ أو ٦٣٣هـ).
٨. والشاذلية المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ).
٩. والمولوية المنسوبة إلى جلال الدين الرومي (٦٧٢هـ).

---

(١) ويطلق عليه الجِشْتي، أيضاً.

١٠.والأحمدية البدوية المنسوبة إلى الشيخ أحمد البدوي (٦٧٤هـ).

١١.والبُرْهامية[١] المنسوبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي (٦٩٦هـ).

وفي هذه الفترة أيضا نشط التصوف الفلسفي الذي يجمع بين الذوق الصوفي والنظر العقلي، ويناقش قضايا الفلسفة من وجهة نظر صوفية.

وقد حاول المستشرقون ـ وتأثر بهم عدد كبير من المشايخ والكُتّاب المعاصرين ـ أن يصوروا التصوف في هذه المرحلة على أنه تحول إلى علم فلسفي، وأنه تأثر بمدارس فلسفية كالأفلاطونية، وأديان غير الإسلام كالبوذية والنصرانية، وأن التصوف تحول من طريق إلى العبادة والزهد والمعرفة إلى مجرد نظرية في الوجود، مبنية على دعائم من الذوق الصوفي، كما يقولون.

والصحيح أن ما يتحدثون عنه ليس ظاهرة عامة في تلك المرحلة، وإنما هو وصف ينطبق على عدد قليل جداً ممن ألفوا في التصوف، ولم يكن شأن الصوفية ومشايخهم وسالكيهم هكذا في عموم الأمر، فوجود نحوِ خمسةِ كُتبٍ ينطبق عليها هذا الوصف؛ لا يجعل ذلك صفة وظاهرة للتصوف في تلك المرحلة.

كما أن بعض تلك الكتب المُشار إليها فُهِمَتْ بعض عباراتها على وجه غير سليم، ومن ناحية ثانية لم يكن أهلها منفصلين عن العبادة والزهد والمعرفة، ومن ناحية ثالثة لا تخلو من دسٍّ وتحريف، وبعض ذلك التحريف أدخله المستشرقون، وليس قديماً.

وكل ذلك بينه علماء التصوف، وبينوا الأدلة عليه، ما لا مجال لتفصيله هنا.

خامساً: مرحلة الاستقرار والتقليد (٨٠٠هـ - ١١٠٠هـ)، وقد صار التصوف في هذه المرحلة واضح المعالم، لا يحتاج إلى اجتهاد علمي، بقدر ما يحتاج إلى تطبيق عملية تربوي.

ولم تخل من شخصيات صوفية كبيرة، لها أثرها الواسع، كابن البنا السَّرَقُسْطِي (ت ٨٢٢هـ)، وأحمد زروق (٨٩٩هـ)، والسيوطي (٩١١هـ)، والشعراني (٩٧٣هـ)، والسرهندي (١٠٣٤هـ).

---

(١) وتسمى الدسوقية، وتسمى البرهانية أيضاً.

وقد رافقت هذه المرحلة ظهور كثير من البدع والشكليات عند بعض الصوفية، مما جعل طائفة من العلماء والعامة يُنكرون ويَنفِرون[١]، وتجشم علماءُ لتحرير التصوف الحق من الباطل، وتمييزِ السالك الصادق من الكاذب، والتنبيهِ إلى ما فيه انحراف واختلال.

سادساً: مرحلة النهضة والصحوة الحديثة (١١٠٠هـ - ١٤٠٠هـ)، وفي هذه المرحلة انتشر التصوف حتى كادت بعض البلاد والشعوب تجدها صوفية وسالكة لطريق من طرق التصوف بأكملها.

وكان من أهم أسباب ذلك، قوة دولة الخلافة وتمددها، وثانياً: أنه اجتمع في مشايخ التصوف الصلاح وأهلية التربية مع العلم الشرعي، فقامت الحجة بهم، وأذعن الناس لأهل الطريق بسببهم، وكثير منهم جمع بين التربية والتأليف، فنفع الله به العباد.

فعلى سبيل المثال نجد الشيخ أحمد الدردير العدوي الصعيدي (١٢٠١هـ) كان شيخ المالكية، وشيخَ الطريقة الخَلْوَتيّة في عصره، وكان سبباً أساسياً في انتشار الطريقة الخلوتية بين علماء الأزهر، وبين أهل الصعيد بمصر العليا، وازدانت طريقته وفروعها المنتشرة بربوع مصر بالعديد من كبار علماء الأزهر الشريف على توالي أجيالها حتى يومنا هذا.

بالإضافة إلى أعلام صوفية آخرين أَثَّرَوا الحياة الصوفية في هذه الفترة في شتى أقطار الإسلام:

١. كالشيخ عبد الله الحداد الشافعي (١١٣٢هـ) في اليمن.
٢. والشيخ عبد الغني النابلسي الحنفي (١١٤٣هـ) بالشام.
٣. والشيخ مصطفى البكري الحنفي (١١٦٢هـ) في الشام.
٤. والشيخ شاه ولي الله الدهلوي (١١٧٦هـ) في الهند.
٥. والشيخ الدردير المالكي (١٢٠١هـ) في مصر.

---

(١) وربما بسبب ذلك عَدَّ بعض المعاصرين هذه المرحلة مرحلة فتور.

٦. والشيخ أحمد التيجاني (١٢٣٠هـ) والذي انتشرت طريقته في المغرب وإفريقيا.
٧. والشيخ عثمان بن فودى القادري (١٢٣٢هـ) صاحب الأثر الواسع في نيجيريا وغرب إفريقيا.
٨. والشيخ السَّنُوسِي (١٢٧٥هـ) في ليبيا.
٩. والأمير عبد القادر الجزائري (١٣٠٠هـ) في الجزائر ثم في الشام.
١٠. والشيخ محمد أحمد المهدي (١٣٠٢هـ) في السودان.
١١. والشيخ محمد أبو الهدى الصيادي الحنفي (١٣٢٧ هـ) في الدولة العثمانية.
١٢. والشيخ عبد المجيد الشرنوبي المالكي (١٣٤٨هـ) في مصر.
١٣. والشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٣٥٠هـ) في الشام.
١٤. والشيخ أحمد العلاوي المُسْتَغانِمي (١٣٥٣هـ) في الجزائر.
١٥. وبديع الزمان سعيد النَوْرَسي (١٣٨٠هـ) بتركيا.

سابعاً: مرحلة التَّشويش والتَّخَلُّف الأخلاقي (١٤٠٠هـ - اليوم)، وقد صار التصوف مذموماً عن كثير من المسلمين، وصار التصوف عند كثير من أهله مجهولاً وضعيفاً في مراتب الترقي فيه، وصار مليئاً بالخلل والانحرافات والدعوى عند كثيرين.

ولا يخلو في الأمة مَن يقوم بحقه، ويسير على نهجه السويّ.

إنه بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية بداية القرن الماضي، والتي هي المظلة السياسية للمسلمين، وبعد حلول الاستعمار في ديارنا؛ عَمَّ في الأمة الإسلامية جهل كبير، حتى شُوِّشَتْ عليها عقائدُها، وابْتَعَدَتْ عن فِقهِ أئمتها.

وكان من ذلك الجهل أن المسلمون حاربوا بأنفسهم مناهج التربية الإسلامية، والتي تتمثل بالتصوف النقي السني.

ووُجِدَ من يحارب التصوف وطرقَه بِاسْم الدين، فاغتر العامة بهم، فأُهْمِلَ التصوف، وفُقِدتِ التربية، وماتت أخلاق الإسلام عند كثير من المسلمين، وقل أن تجد من يفقه شيئاً عن أمراض القلوب وإصلاحها وأحوالها ومقاماتها.

وهذا يوجب على أئمة التصوف وعلمائه، أن يُجَدِّدُوا التصوف، ويُحَرِّرُوه، ويُدافعوا عن الحق الذي فيه، وأن تعمل دول المسلمين على صناعة المربين والاهتمام بالجانب التربوي.

المبحث الثالث

شبهات حول الطرق الصوفية وتساؤلات

الشبهة الأولى: الطرق الصوفية أمر مبتدع وليس من الدين:

وإنما يقول ذلك من لم يفهم أن التصوف هو التزكية، ومن لم يفهم أن طرق التصوف هي مناهج تربوية ترجع إلى الكتاب والسنة.

قال الدكتور صلاح أبو الحاج وهو يعدد الجوانب التي اعتنى بها أهل السنة والجماعة، فذكر الفقه والعقيدة والسلوك، فقال: (والثاني: الجانب السلوكي: ويمثله طرق عديدةٌ كالرّفاعية والقادرية والنقشبندية والشاذلية والتيجانيّة، وكلّها تسلك سبلاً تعين على تزكية النفس وتخليصها من رذائلها، وتعمق الأدب والإخلاص لله تعالى، معتمدة في ذلك على الهدي القرآني والنبوي وما أُثر عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين في تطهير النفس وتنقيّتها) (١).

ومن المعلوم أن من أعظم أعلام التصوف المجمع على إمامتهم عند المسلمين: الجنيد، والجنيد نفسه كان على مذهب أبي ثور في الفقه، أي لم يكن مجتهداً، ومن ثم فالصوفي في العقائد محكوم بكلام الأصوليين، وفي الفقه محكوم بكلام أئمة الاجتهاد، فالتصوف مبني على العلم، ولكن هو علم التحقق بما ذكره الأصوليون والفقهاء، أو علم التحقق بالكتاب والسنة على ضوء الفهم الصحيح.

الشبهة الثانية: لماذا لم تكن هذه الطرق الصوفية زمن الصحابة والسلف:

يقول الدكتور أحمد عَلوش: (قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام، وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين، والجواب عن هذا: إنه لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول؛ لأن أهل هذا

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة (ص٦٥) .

العصر كانوا أهل تقوى و ورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمّة ما يَدَعَوَ إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمرٍ هُم قائمون به فعلاً.

وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القُح، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر، حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة، دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون – وإن لم يَتَسَمَّوا باسم المتصوفين – كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات.

فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم.

وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بحديث رقم (٦٦٩٥).

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقاسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ - بعد تدوين النحو في الصدر الأول - علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض [الميراث] والتجويد، وغيرها.

الشبهة الثالثة: هل تأليف كتب التصوف في القرن الثالث يدل على أنه علم لم يكن موجوداً؟

بعد قرن الصحابة والتابعين أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم - كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين - بل كان يجب أن يكون سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى(١).

فكما نشأت سائر العلوم الشرعية، كان لا بد أن ينشأ علم التصوف لأنه من علوم االشريعة الإسلامية.

الشبهة الرابعة: من أنشأ علم التصوف؟

قال الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله، وقد سئل عن أول من أسس التصوف ؟ وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعد ما بيّنها واحداً

---

(١) حقائق عن التصوف (ص٢٤).

واحداً ديناً بقوله: (هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم)[١] وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ...

ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته "الانتصار لطريق الصوفية": (فإنه كما في الحديث عبارةً عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) الذي هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان، بعد تصحيح الإسلام والإيمان)[٢].

قال الإمام القشيري: (اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية عِلم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس و تباينت المراتب، فقيل لخواص الناس - ممن لهم شدة عناية بأمر الدين - الزهاد والعبّاد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله – سبحانه وتعالى – الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)[٣].

الشبهة الخامسة: هل التصوف مستمد من ديانات سابقة، أو متأثر بها؟

قال الشيخ عبد القادر عيسى: التصوف مأخوذ من سيرة الرسول ﷺ وحياة أصحابه الكرام، وليس مستقى من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا: هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي ... يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه رجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن

---

(١) سبق تخريجه

(٢) الانتصار لطريق الصوفية (ص٦)

(٣) مقدمة الرسالة القشيرية، وانظر: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (ج١/ ص٤١٤)

الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية، ولا يقع بأحابيلهم الماكرة، ويتبين الأمور، ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب[١].

وأصل الطرق الصوفية يرجع إلى عهد سيدنا رسول الله ﷺ عندما كان يخصّ كلاً من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله، وكانت أكثر طرق التصوف ترجع في أسانيدها في التربية والذكر إلى سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ، وسيدنا علي بن أبي طالب ﷺ، فقد أخذا من النبي ﷺ، ثم أخذ عنهما التابعون، وهكذا توارث التربية والأخلاق والاجتهاد في العبادة وطريق إصلاح النفوس جيل بعد جيل، والتقت طرق التربية عند الإمام أبي القاسم الجنيد، ثم تفرعت عدد من الطرق، واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة السيد أحمد الرفاعي والسيد عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد البدوي والسيد إبراهيم الدسوقي، وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة، وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم، المستمدة من الشريعة، وتوجد اليوم طرق عديدة جدًا في أنحاء العالم، ولكنها في الغالب مستمدة من هذه الطرق الأربعة.

الشبهة السادسة: لماذا لا يهتم الصوفية بجوانب الدين الأخرى، كالدعوة والجهاد؟

لقد اختلفت مدارس التصوف حسب الزمان والحاجة، فعندما كانت الدولة الإسلامية ذات منعة وقوة، ركز الصوفية جهدهم على الأوراد والمجاهدات للترقي، كما هي حال ساداتنا الدسوقي والشاذلي وغيرهم.

وعندما كانت حدود الدولة مستباحة والدولة ضعيفة؛ خرج المريدون من زواياهم وجاهدوا في الله لرد الأعداء، كما كان حال سيدنا أحمد البدوي.

وعندما كان هناك أعداء متربصون بالأمة بنى الصوفية الربط، وهي تقوم بدور الزوايا والمراقبة على الحدود، ومنها نشأت دولة المرابطين.

---

(١) حقائق عن التصوف (ص٢٧)

وعندما تزدهر الدولة الإسلامية وتنمو عناصر الحضارة فيها يسمو التصوف إلى مراتب الذوق والوجد والأنس، كما كان حال مولانا جلال الدين الرومي وطريقتِه المولوية.

الشبهة السابعة: أليس في التصوف أدعياء يستغلون جهل الناس، ويعملون لمصلحة أعداء الأمة؟

إننا حينما نتكلم عن التصوف، **نتكلم عن التصوف الصحيح، لا عن أدعياء التصوف** الذي استغلوا جهل الناس، وادَّعَوا الكرامات وخوارق العادات، ليدلسوا على الناس، لمآرب مادية أو جاه أو سلطان، أو لدور عمالة يقوم به خدمة لأعداء الدين. وجميع هؤلاء لا يمثلون التصوف، ولا حتى الإسلام، ومحاربتهم وكشف ضلالاتهم واجب شرعي وأخلاقي(١).

وقد نبه أئمة التصوف في كل زمان من هؤلاء الفاسدين والأدعياء والحاسدين وأمثالهم.

والتصوف الحق هو منهج التربية الروحي والسلوك الذي يرقى به المسلم إلى مرتبة الإحسان التي عرفها النبي ﷺ قائلًا: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٢)، والتصوف برنامج تربوي، يهتم بتطهير النفس من كل أمراضها التي تحجب الإنسان عن الله - عز وجل - وتقويم انحرافاته النفسية والسلوكية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع الله ومع الآخر ومع الذات، وعلى هذا بنيت الطرق الصوفية.

الشبهة الثامنة: أليس تعددُ الطرق مدعاةً لتفرق الأمة واختلافها؟

إن الصحيح الذي يعرفه ويشاهده كل ذي عقل ونظر أن الطرق إثراء للحركة الفكرية الإسلامية، وهي روافد تغذي نهر الحضارة والعلم، ومن البديهي أنه يستحيل أن يكون

---

(١) موقع الطريقة الخلوتية الجامعة الرحمانية.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (٩)

كل الناس نسخاً مكررةً من بعضهم البعض؛ أي لابد أن يتمايزوا، هكذا أخذ كل منهم بما رأه يناسبه مذهباً أو طريقةً أو اجتهاداً.

الطرق الصوفية جمعاء هم أهل السنة، وهم على المَحَجَّة البيضاء، يسيرون على ما سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار من قبل، يقتفون أثرهم وينتهجون نهجهم، ملتزمين رحاب المحجة البيضاء التي ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته واستأمنهم عليها: (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)[1].

ومهما تعددت سبلهم وتنوعت مشاربهم فالمقصد واحد والمَنْهَل واحد، قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[2].

ولتعدد الطرق إلى الله تعالى حكمة يوضحها ويجليها الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى قائلا:

وكل إنسان وصل الى الله تعالى بطريقة من الطرق أو صيغة من الصيغ، يعتقد أن الطريق الذي سلكه إلى الله هو أقصر الطرق، ولذلك اختلف الناس لأن وسائل عبادة الله متعددة، **فإذا دخل إنسان من باب وطريق وأحس أنه نقله وأوصله إلى الله، بادر إلى نقله لمن يحب.**

فهذا معنى أن هناك طرقاً صوفية، وأن أناساً وصلوا إلى حالة الصفاء مع الله سبحانه وتعالى، فجاءتهم الإشراقات والفيوضات التي تدل على ذلك في ذواتهم، فعلموا أن الطريق الذي سلكوا فيه إلى الله صحيح، وكلما زادوا في العبادة زاد الله في العطاء.

ويزيد الأمر وضوحاً فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم قائلاً:

فالطرق الصوفية الشرعية على تعددها هي سُبُلٌ تعددت إلى الله؛ لتلائم حاجات كل سالك إليه، فيجد فيها كل مريد ما يناسب طاقته ووقته وبيئته قطعاً لأعذار القاعدين

---

(١) رواه ابو داود برقم (٤٠٦٧).

(٢) العنكبوت (٦٩).

عن الهجرة إلى الله عز وجل، فليس كل الناس سواء في الطاقة و الملكات وإذاً فتأمل بإمعان قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)(١) إذاً هناك سبل شتى توصل إليه تعالى.

كما قال تعالى: (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)(٢).

وهذه السبل المتعددة القويمة تمضي متوازية متحاذية في اتجاه واحد **كأنها طريق واحد،** ولذلك جاءت بأكثر من آية بلفظ مفرد نحو (ادع إلى سبيل ربك)، (قل هذه سبيلي) (في سبيله)، لاتحاد البداية والنهاية، فهي مجتمعةً صراطُ الله المستقيم الواحد المتبع أي أقرب مسافة بين العبد وربه [من حيث السير والمعرفة].

وذلك أن الطرق الشرعية جميعاً تبدأ من التوبة وتنتهي بالمعرفة، فإذا فرضنا دائرة ذات مركز كانت كل الطرق الشرعية خطوطاً داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز، وكيفما كان اتجاه نقطة البداية فلا خلاف في النهاية ولا في الأصول العامة ولكن في فروع كيفية الوصول.

وبهذا يندفع اعتراض الباحثين عن المشكلات، المفرقين بين الجماعات، والمحتجين زوراً وعدواناً بقوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)(٣)، فالمنهي عنه سبل الشيطان والكفران التي تتقاطع وتتعارض مع سبل الرحمن، **وأما سبل الرحمن** فالله ذكرها كما بينا ووعد المجاهدين فيه بهدايتهم إليها قال تعالى: (لنهدينهم سبلنا) وسماها تعالى (سبل السلام)، واعتز بها الأنبياء فقالوا: (وقد هدانا سبلنا)، فكلها متوازية متحاذية وكلها شرائح يتكون منها (سبيله) تعالى، فهي وإن تعددت فإنها سبيل واحدة للاتحاد في البداية والنهاية والنية والهدف الأعظم.

---

(١) العنكبوت (٦٩).

(٢) المائدة (١٦).

(٣) المائدة (١٥٣).

إن الحق واحد لا يتعدد ولكن السبل تتعدد في إدراكه أو الوصول إليه، فلو تصورنا مصباحاً معلقاً فقد تصورنا ان النظر إليه وإدراك وجوده ممكن من الجهات الست وما بينها، وهكذا تعددت سبل رؤية المصباح فهو واحد مستقر في مكانه غير مكرر، وهذا شأن الناظرين إلى الشمس والقمر في كافة أقطار الدنيا.

يختلف موقع الطالب ويتعدد، ولا يختلف المطلوب المحدد.

وفي ذهابك إلى الكعبة مثلاً تستطيع الوصول بالطائرة والباخرة أو السيارة وركوب الدواب والمشي على الاقدام، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد.

وفي موقف المسلمين حول الكعبة في الصلاة تختلف الاتجاهات اختلافا تاماً ولكنها جميعاً تلتقي في نقطة المركز الواحد الذي ترمز إليه بناية الكعبة الشريفة الموحدة.

أما حديث عبد الله، قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله فقال: (هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) ثم تلا (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)[1].

فإن فهم هذا الحديث محكوم بفهم كل ما يتعلق به مما قد فصلناه وبيناه هنا، فلا تعارض بين القرآن والقرآن، ولا بين السنة والقرآن.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الخط المستقيم، وخط عن يمينه خطوطاً متعارضة أو متقاطعة معه، فلا هي محاذية له ولا متوازية معه، بل مخالفة عنه، والفرق هائل جداً بين هذا وبين سبل الله المتوازية المتحاذية المتوحدة البداية والنهاية، فلا تقاطع فيها ولا تعارض.

ألا ترى إلى الشارع الواحد أو الطريق الواحد، وقد قسم إلى حارات او مَسارات، تتعاون في الخدمة ولا تختلف، (ولله المثل الأعلى).

ألا ترى إلى كابل الكهرباء أو التلفون وقد جمع عشرات الأسلاك والحبال متناسقةً جميعاً في أنبوب أو ماسورة واحدة، كذلك شأن سبيل الله وتعدد الطرق إليه.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٤١)، وأحمد برقم (٤٤٣٧).

أما ما عسى أن يصيب بعض هذه الطرق من أمراض المبتدعاتِ والمَناكِر والمحرمات؛ فأمر طارئ دخيل أو مدسوس، لا يغير من نقاء الخامة الأصلية، وحكمُها الشرعيُّ معروفٌ.

وما يقال في المذاهب الأربعة يقال في اختلاف الطرق الصوفية، فهي فهوم مقبولة في دين الله، تؤدي هدفاً واحداً.

الشبهة التاسعة: كيف نُوَجِّه حديث افتراق الأمة؟ أليست اختلاف الطرق من ذلك؟

هذا الحديث يكثر الاستدلال به بعض الغلاة والتكفيريين؛ الذين يصدون عن سبيل الله، ويسدون منافذ الرحمة عن جموع الأمة، فيطبقونه على الجماعات الصوفية، وعلى الجماعات العاملة للإسلام، افتئاتاً على الله، أو جهلاً بالمراد.

وللحديث ألفاظ مختلفة منها: (افترق اليهود والنصارى) إلى (كذا) فرقة، وستفترق أمتي إلى (كذا) فرقة كلهم في النار إلا ما عليه أنا وأصحابي.

والحديث رواه الحاكم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[1].

هذا الحديث تكلم فيه بعض المحدثين في سنده ومتنه وأَعَلُّوه.

وعلى تقدير صحته فقد بينا من نصوص القرآن، ثم من المسلمات البديهية؛ أن تعدد السبل إلى المقصود الواحد أمر طبيعي وشرعي، فلا ينسحب عليه حكم تعدد الفرق، لأنه الذي يطلق عليه مجازاً اسم الفرق الآن في الإسلام كلها دائرة في فلك الكتاب والسنة فهي على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه.

فهي (مذاهب) أو (مشارب) أو (سبل) تبتدئ من الشهادتين وتنهي عند حقهما وأثرهما.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم رقم (٤٤١).

فالسادة المالكية والأحناف والشافعية والحنابلة والغالبية العظمى من أفراد الطرق الصوفية يقلدون أصحاب هذه المذاهب الفقهية رضي الله عنهم، كل هؤلاء وأمثالهم يسيرون في طريق واحد على أساليب مختلفة من الفهم والاستنباط والمقارنة والبحث.

ويلحق بهؤلاء جميعاً سائر الهيئات والجماعات والجمعيات الإسلامية السليمة المنتشرة في بقاع الأرض وهي ألوف لا تحصى.

وما كان تعدد الطرق مما يفرق بين المسلمين فها هي أمة الإسلام تتعبد ربها بمذاهب متعددة من شافعي إلى حنفي إلى حنبلي إلى مالكي إلى غيرها منذ صدر الإسلام الأول وحتى يومنا هذا فهل كان هذا في يوم من الأيام مدعاة للتفرقة أو مشتتاً لجماعة المسلمين؟

وقِسْ عليه المذاهب العلمية المتنوعة في اللغة و التاريخ والأصول وغيرها، بل والجماعات المجتهدة حتى داخل المذهب والمدرسة الواحدة.

وإنما ينطبق الحديث (على فرض صحته) على ولاة الخوارج والباطنية والقرامطة والبهائية والقاديانية، ونحو هؤلاء من الفرق التي ذكرها أصحاب الملل والنحل، ممن خالفوا الأصول وأنكروا المعلوم من الدين بالضرورة، وليس في طوائف الصوفية من خالف الأصول عمداً أو أنكر المعروف من الدين بالضرورة.

ربما كان فيهم المقصرون أو المنحرفون أو العصاة، وهذا لا يحرمهم من الدين، ولا يَنْسَحِبُ عليهم حُكْمَ الفِرق الكافرة، فالمعصية شيء، والردة شيء آخر[1].

---

(١) انظر: التصوف نهج لازم (ص٢٦٣-٢٦٩)، فأكثر ما ذكرناه في رد هذه الشبهات من هذا الكتاب.

المبحث الرابع

أساليب التربية والأمور التي تتفق عليها الطرق الصوفية

تتفق الطرق الصوفية في أساليب التربية ووسائلها وأدواتها بشكل عام، والاختلافات في الغالب في فرعيات أو جزئيات أو شكليات، واختلاف الطرق الصوفية فيما بينها هو أقل من اختلاف المذاهب الفقهية فيما بينها.

ونختار أن نتحدث هنا عن أهم المعالم في السلوك، والتي لا تختلف عليها الطرق، في ستة مطالب:

المطلب الأول

التمسك بالكتاب والسنة

إذ إن الطريقة الصوفية هي الإسلام، وهي منهج الكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو ليس من الطريقة، بل إن الطريقة ترفضه وتنهى عنه.

يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي: " إذا عارض كَشْفُكَ الكتابَ والسنة، فتمسَّك بالكتاب والسنة، ودَعِ الكشفَ، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب، والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام، ولا المشاهدة، وقد أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة"[١].

(١) إيقاظ الهمم (٢٠٣/٢).

وها هو **الطوسي** - وهو من علماء التصوف في القرن الرابع - يذهب إلى تقييد التصوف بأربعة أشياء:

١. متابعة كتاب الله عز وجل.
٢. الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.
٣. التخلق بأخلاق الصحابة والتابعين.
٤. التأدب بآداب عباد الله الصالحين[١].

وقال الإمام **الرفاعي**: " من لم يزن أقواله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، لم يثبت في ديوان الرجال"[٢].

وقال أيضا: " طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، ونفس بلا شهوة، وقلب عامر بالمحبة"[٣].

وهذا **ابن خلدون** يقول في كتابه "ديوان المبتدأ والخبر":

" هذا العلم من العلوم الشرعيّة الحادثة في الملّة وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمّة وكبارها من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم طريقة الحقّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، والزّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عامّا في الصّحابة والسّلف. فلمّا فشا الإقبال على الدّنيا في القرن الثّاني وما بعده وجنح النّاس إلى مخالطة الدّنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصّوفيّة والمتصوّفة"[٤].

وقال الإمام عبد القادر الجيلاني: " كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة"

---

(١) اللمع (٢١).
(٢) حكم الرفاعي (٢٠).
(٣) نقلا عن كتاب أقطاب التصوف الثلاثة (١٥).
(٤) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر (٦١١/١).

وله أيضا: " طر إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة"[١].

وقال الشيخ أحمد البدوي:" علامات الولي اثنا عشر علامة: أن يكون عارفا بالله، ومراعيا لله، **متمسكا بسنة نبيه**، وأن يكون دائم الطهارة، راضيا عن الله، موقنا بما وعده الله، يائسا مما في أيدي الناس، وأن يتحمل أذى الناس، ومبادرا لأوامر الله، وأن يكون شفوقا على خلق الله، ومتواضعا للناس"[٢].

المطلب الثاني

السعي للتحقق بركن الإحسان

الإحسانُ الذي عرفه النبي ﷺ قائلًا: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٣].

وهو مقصد الصوفية، ومن أهم المقاصد التي يسير عليها أصحاب الطرق لتحقيق هذا الركن خمسة أمور:

١. **صفاء النفس ومحاسبتها**: فكل من أراد أن يدخل في سبيل المقربين ليعد الجواب لسؤال الحق تعالى فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة ويصفي نفسه من شوائبها ووساوسها قال سيدنا عمر رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا)[٤].

---

(١) الفتح الرباني (٢٩).

(٢) الأقطاب الثلاثة.

(٣) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (٩)

(٤) رواه أحمد في الزهد (ص١٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (ج١/ ص٥٢).

٢. **قصد وجه الله**: فالمتصوف لابد أن يقصد وجه ربه في جميع أقواله وأفعاله، غاسلاً قلبه بماء الإخلاص لوجه الله تعالى، قال الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[1]، وقال عز من قائل: (وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى)[2].

٣. **التمسك بالفقر والافتقار**: وذلك بالزهد في الدنيا ومتاعها، عزوفاً بالنفس عما يلهيها ويشغلها، فإن التمسك بالفقر دليل التقشف الذي هو الآلة القاطعة حبل الوصال بين العبد والشيطان، فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة وعدم العلو والفساد في الأرض لهذه الخصلة التي تصعد بهمم الإنسان نحو الروحانية والبعد عن كدورة الإنسانية

أما الافتقار فهو تجرد المرء عن زينة الحياة الدنيا لينقطع إلى تقوى الله تعالى، وأنه لا حول ولا طَوْل إلا به، طالباً منه الكرم بالإمداد والتجليات، وذلك هو منتهى الإقرار بالعبودية، التي هي مركز التصوف وعقيدة الإيمان.

وصفوة القول: أن الفقر أساس التصوف وقِوامه، وأن التحقق بأحوال التصوف ومقاماته مبني على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع؛ أي أن تكون الدنيا في يده، لا في قلبه، بمعنى أن يكون أغنى بما عند الله منه بما عنده.

٤. **توطين القلب على الرحمة والمحبة**: فيجب على كل صوفي أن يلزم محبة كل المسلمين ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير، فإن رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدريب عليها أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضى وألبسه ثوب القبول؛ فينال مما ورثه النبيون من المحبة والرضى حظا وافرا، قال الله تعالى في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[3]، وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

---

(١) الكهف (٢٨).
(٢) الليل (١٩-٢٠).
(٣) الانبياء (١٠٧).

٥. **التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإتمامها:** وهذه القاعدة زبدة الدين وحقيقة أحق الصوفيين، وذلك بأن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع المسلمين قال الله تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ »(٢)، وفي دعاء النبي ﷺ «اللهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق على أمتي فاشقق عليه»، فالله تعالى يعامل عبده في وصفه وخلقه.

وفي الحديث القدسي: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين!؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي)(٣)، ذلك هو الحديث القدسي الذي جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين الناس، وهو القانون الإلهي الذي سلك منهاجه رجال في حياتهم الدنيوية والعملية، فمن رسخت قدمه منهم في هذه المقامات، صارت أحواله ومعاملاته مع الرب في كل شيء، فلا يراقب غير الله تعالى في حركاته وسكناته(٤).

---

(١) البقرة (٨٣).

(٢) رواه أحمد والترمذي ٢٦٧٦، وهو حديث حسن.

(٣) رواه مسلم برقم (٢٥٦٩).

(٤) الصوفية والتصوف (٤٠-٤٢).

المطلب الثالث

الذِّكْر

الذكر هو العمدة في الطرق كلها، وهو أعظم الأركان نفعاً، حتى قيل إن الطريقة هي الذكر، لقوله تعالى: (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) [١]، وقوله ﷺ: (مثل الذي يذكر والذي لا يذكر مثل الحي والميت) [٢].

فالذكر هو منشور[٣] الولاية، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل[٤]، وبه يصل العبد إلى معرفة الله تعالى، فما من وقت إلا والعبد مطالب فيه بالذكر إما وجوبا أو ندبا، بخلاف غيره من الطاعات، كما قال بعضهم:

والذِّكْرُ أعظمُ بابٍ أنتَ دَاخِلُه ... للهِ فَاجْعَل لَه الأنفاسَ حُرّاسا

وأهل التصوف ينظرون إلى الذكر على أنه صفة، ينبغي التحقق بها، لقوله تعالى: (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات)، وحقيقة الذكر لا تكون باللسان وحده، بل مع التَّذَكُّرِ للمذكور والحضورِ معه.

وقد أمر الله تعالى عباده بالذكر الكثير فقال: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) [٥]، وقال تعالى: (وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً) [٦].

---

(١) العنكبوت (٤٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٠٧)، ومسلم برقم (٢١٢).

(٣) أصل المنشور: ما يكتب لمن يولى ناحية أو ولاية؛ ليعلم أهل تلك الناحية أنه تحققت ولايته.

(٤) الإمام القشيري في الرسالة (٤٩٩) عن شيخه الأستاذ أبي علي الدقاق.

(٥) الأحزاب (٤١).

(٦) الكهف (٢٤).

والواقع أن الإنسان إذا تدبر في الآيات القرآنية الواردة في الذكر فإنه يجدها تستغرق الأوقات والحالات، فأينما كان الإنسان وكيفما كان عليه دائما أن يكون ذاكرا لله تعالى، فالذكر يُطَمْئِن القلب ويرفع الغفلة ويذهب الرَّيْن ويدعو للاستغفار عن بعض الذنوب وينهى عن الفحشاء والمنكر، فيمنع الذاكر من الوقوع في المعاصي، وهو يجلو الفهم ويدعو إلى التوحيد والحضور[١].

قال رسول الله ﷺ: (سبق المفردون) قالوا: ومن المفردون، قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[٢].

ويروى عن أبي الدرداء، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم)؟ قالوا: بلى. قال: (ذكر الله تعالى).

وقال معاذ بن جبل: (ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله)[٣].

وقد أوصى نبينا عليه الصلاة والسلام سيدنا معاذاً رضي الله عنه بسؤال الله العون على الذكر، لأنه مفتاحٌ ووسيلة لكل أبواب الخير.

عن معاذ بن جبل، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوما ثم قال: (يا معاذ، والله إني لأحبك)، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك قال: (أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[٤].

---

(١) القشيري (أسماء الله الحسنى).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٧٦) وغيره.

(٣) الترمذي (٣٣٧٧) .

(٤) رواه النسائي برقم (٩٨٥٧).

قال الإمام أبو القاسم القشيري: " والذكر عنوان الولاية، وبيان الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعةٌ إلى الذكر، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر"(١).

وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى، ولو لم يرد فيه الا قوله تعالى في كتابه العزيز: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(٢) وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)(٣) ، لكان في ذلك اكتفاء وَغُنيَةً، وهذا الحديث متفق على صحته.

قال ابن عطاء: أكرمك كرامات ثلاثاً، جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك(٤)، وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك(٥)، وجعلك مذكوراً عنده(٦) فتمم نعمته عليك.

قالوا: ومن خصائصه أنه غير موقت بوقت، فما من وقت الا والعبد مطلوب به: إما وجوبا وإما ندباً، بخلاف غيره من الطاعات.

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدّاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدا ينتهي اليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها، فقال

---

(١) لطائف الإشارات (٣٠٥/١) .

(٢) الكهف (١٥٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٤) كما ورد في الحديث: الحمد لله الذي أذن لي بذكره.

(٥) في الحديث الصحيح: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله.

(٦) قال تعالى: (فاذكروني أذكركم).

عز من قائل: (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم)[١] وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)[٢] أي بالليل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، وفي الصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال [٣].

وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه: الذكر الكثير ألا ينساه أبدا، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكثروا ذكر الله، حتى يقولوا مجنون)[٤]، وليس معناه أن نفقد عقولنا، وإنما معناه أن يكون انتباهنا إلى الله أكبر من انتباهنا والتفاتنا إلى الخلق.

قال الإمام الرفاعي رحمه الله تعالى: عليكم بذكر الله فإن الذكر مغناطيس الوصل وحبل القُرْب، فمن ذكر الله طاب بالله، ومن طاب بالله وصل إلى الله[٥].

والذكر على قسمين: **ذكر العامة، وذكر الخاصة.**

أما **ذكر العامة:** فهو ذكر الأجر والثواب، وهو الذي **يريد الحسنات**، وهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من ذكر، مع بقاءه في صفاته المذمومة، كالرياء والكبر والعجب والغرور وغير ذلك.

وأما **ذكر الخاصة:** فهو ذكر الحضور، وهو الذي **يريد المحسن**، وهو أن يذكر العبد مولاه بأذكار معلومة على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه وتعالى، بطهارة نفسه من كل خلق ذميم، وتحليتها بكل خلق كريم، طلباً للخروج من ظلمة الحس، وطمعاً في إدراك الأسرار الروحانية، وهذا مقصد السادة الصوفية [٦].

---

(١) النساء (١٠٣).

(٢) الأحزاب (٤١).

(٣) الطبري، جامع البيان (ج٩ / ص١٦٤).

(٤) رواه ابن حبان برقم (٨١٧).

(٥) البرهان المؤيد (٤٩).

(٦) انظر: التصوف نهج لازم (ص٣٦٥).

تخصيص الذكر بعدد عند الطرق الصوفية، وحُكم السُّبْحَة

مما تشترك به الطرق الصوفية توجيه مريديهم بأذكار وأوراد معينة ومحددة بعددٍ شحذاً لهمتهم وحرصاً على التزامهم بالذكر.

وقد حدد عليه السلام أوراداً بعد الصلوات وأوراداً مطلقة بالأعداد، وأحياناً مع الإشارة إلى استحسان الزيادة، كقوله: " إلا من زاد على ذلك " في حديثه ﷺ: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسي ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد **عمل أكثر من ذلك**، ومن قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر)[١].

جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كان عمله ديمة)[٢]، ولا يمكن للعبد أن يداوم على شيء إلا إذا حدده وبيّنه وألزم به نفسه.

فالشيخ المربي يتدرج مع المريد بالذكر على حسب همته، فيبدأ معه مثلاً بمائة مرة تهليلاً أو تحميداً أو تسبيحاً أو صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكراً آخر، ثم يزيد العدد إذا ما استقر على ما كلف به أولاً وهكذا، وربما يصل معه إلى أن يثبت على آلاف المرات من الأذكار، فبعضهم قد وصل إلى أن يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم عشرة آلاف مرة وبعضهم زاد على ذلك وكما قالوا: الثبات نبات، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل)[٣].

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٩١)، والبخاري برقم (٦٤٠٣).
(٢) رواه البخاري برقم (١٩٨٧).
(٣) رواه البخاري، وأبو داود برقم (١٥٨٢)، وأحمد برقم (٢٤٩٤١).

وورد عن أم المؤمنين صفية - رضي الله عنها - أنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بها، قال: (لقد سَبَّحْتِ بهذه، ألا أُعَلِّمُكِ بأكثر مما سبحتِ؟) فقلت: بلى علمني، فقال: (قولي: سبحان الله عدد خلقه)(١).

وليس في الحديث إنكار على العدد، وإنما توجيه إلى أن فائدة الذكر بالمدد من الله، وليس بالعدد منا، فإذا ذكرنا فلنتوكل على الله، ولنستشعر أن الفضل من الله تعالى.

وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع النبي - صلى الله عليه وسلم - على امرأة وبين يديها نوى أو حصا تسبح به فقال: أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل، فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض وسبحان الله عدد ما بين ذلك وسبحان الله عدد ما هو خالق والحمد لله مثل ذلك والله أكبر مثل ذلك ولا إله إلا الله مثل ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك(٢).

قال ابن نجيم في البحر الرائق: «لم ينهها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وإنما أرشدها إلى ما هو أيسر وأفضل، ولو كان مكروها لبين لها ذلك.

ثم هذا الحديث ونحوه مما يشهد بأنه لا بأس باتخاذ السبحة المعروفة، لإحصاء عدد الأذكار، إذ لا تزيد السبحة على مضمون هذا الحديث إلا بضم النوى ونحوه في خيط، ومثل هذا لا يظهر تأثيره في المنع، فلا جرم إن نقل اتخاذها والعمل بها عن جماعة من الصوفية الأخيار وغيرهم، اللهم إلا إذا ترتب عليها رياء وسمعة فلا كلام لنا فيه، وهذا الحديث أيضا يشهد لأفضلية هذا الذكر المخصوص على ذكر مجرد عن هذه الصيغة ولو تكرر يسيراً»(٣).

قال علي القاري: «وهذا أصل صحيح لتجويز السبحة بتقريره - صلى الله عليه وسلم - فإنه في معناها، إذ لا فرق بين المنظومة والمنثورة فيما يعد به، ولا يعتد بقول من عدها

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (١٥٠٠).

(٣) ابن نجيم، البحر الرائق (ج٢ / ص٣١).

بدعة، وقد قال المشايخ: إنها سَوْط الشيطان[1]، وروي أنه رئي مع الجنيد سبحة في يده حال انتهائه، فسئل عنه فقال: شيء وصلنا به إلى الله، كيف نتركه؟» [2].

والشرع أمر بالمداومة على الخير، فكيف يداوم المرء إذا لم يحص عدد الأذكار.

وفي استعمال المسبحة تنشيط الهمة وتأكيد الالتزام.

وقد كان لأبي هريرة سلك فيه ألف عقدة.

وروى عبد الله بن أحمد، عن أبي هريرة، أنه كان له خيط فيه اثنا عشر ألف عقدة، يسبح به قبل أن ينام. وفي رواية: ألفا عقدة، فلا ينام حتى يسبح به [3].

وعن أبي نضرة، حدثني شيخ من طفاوة قال: تَثَوَّيْتُ [4]أبا هريرة بالمدينة فلم أر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشد تشميرا، ولا أقوم على ضيف منه، فبينما أنا عنده يوما، وهو على سرير له، ومعه كيس فيه حصى أو نوى، وأسفل منه جارية له سوداء وهو يسبح بها، حتى إذا أنفد ما في الكيس ألقاه إليها، فجمعته فأعادته في الكيس، فدفعته إليه، فقال: ألا أحدثك عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم [5].

والسبحة لا تَعْدُو أن تكون وسيلة تعين حاملها؛ إن نوى أن يذكر الله بها، في أمر مشروعٍ مأمورٍ به، ألا وهو ذكر الله عز وجل ذكرا كثيراً، كسائر الوسائل المعينة على العبادة.

وقد قال بعض المشايخ: من أعد سبحة ليذكر الله بها عدّ من الذاكرين، ذكر الله أم لم يذكره، وهذا القول بناءً على أن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

---

(١) أي يُضرَب بها.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (ج٤ / ص١٦٠١).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (ج١١ / ص٣٨٤).

(٤) تثويت: أي أقمت ونزلت عنده.

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٢١٧٤)، وأحمد برقم (١٠٩٧٧).

الذكر بالاسم المفرد (الله)

من الأذكار التي يتخذها عامة الطرق الصوفية؛ الذكر باسم الله المفرد (الله)، وهو مقبولٌ لغةً ومشروعٌ شرعاً.

أما لغةً فإن هذا الاسم أحد جزئي جملة خبرية، تقديرها مثلا: الله الرازق، أو الله القوي، أو نحو ذلك، فالاسم المجرد هنا خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف، كما يجوز أن يكون مفعولاً لفعل محذوف، تقديره: أذكر الله الرزاق، وقد يكون الذاكر ملاحظاً ياء النداء، فيكون الاسم المجرد منادى حذفت منه ياء النداء بلاغةً إن لم يكن قد نطق بها فعلاً، ولكل ذلك أشباه في القرآن والسنة معروفة عند أهل اللغة.

وقد يعجز العبد عن إدراك ما يستحقه المذكور سبحانه وتعالى من صفات كاملة تليق بجلاله وكماله فيكتفي بذكر اسمه الجامع لكل الصفات فيكون كل لفظ خبرا لما قبله، فقول الذاكر

(الله) مبتدأ وخبره ما بعده (الله) وبه تتم الفائدة، وهو مستعمل في اللغة كما قالوا: شعبة شعبة، أي شعبة هو شعبة. أي معروف قدره.

يُحكى أن سيبويه لما أراد تعريف اسم الله قال: أعرف المعارف لا يُعَرَّفُ، وقد رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيرا كثيرا، لجعلي اسمه أعرف المعارف[١].

وأما شرعاً؛ فقوله تبارك وتعالى: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)[٢]، ويقول تعالى: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[٣]، وقوله تبارك وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ)[٤]، والنص بيّنٌ لا يحتاج إلى بيان من السنة.

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل (ج١ / ص٩٤).

(٢) المزمل (٨).

(٣) الإنسان (٢٥).

(٤) الأعلى (١٤-١٥).

وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله)[١]، فهذا اسم مفرد، ورد ذكره مكرراً في هذا الحديث.

قال العلامة علي القاري في شرح هذا الحديث: أي لا يُذكر الله فلا يبقى حكمة في بقاء الناس، ومن هذا يعرف أن بقاء العالم ببركة العلماء العاملين والعباد الصالحين وعموم المؤمنين، وهذا المراد بما قال الطِيبي رحمه الله تعالى: معنى حتى لا يقال الله، الله: أي حتى لا يذكر اسم الله ولا يعبد[٢].

وفي الحديث الثابت أيضاً كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (الله، الله ربي لا أشرك به شيئاً)[٣] ولم يعترض على هذه الرواية سلف ولا خلف.

وثبت في كتب السِّير أنه صلى الله عليه وسلم كان يمر على سيدنا بلال بن رباح - رضي الله عنه - وهو يعذب ويقول، أحدٌ أحد، وكان يكررها، فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم وهو المشّرع الأعظم، وهذا أوضح الأدلة على صحة هذا الذكر، أعني الذكر بالاسم المفرد.

والله تعالى يقول: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)[٤]، والدعاء ذكرٌ، والذكر دعاءٌ، وكلاهما يشمل ترديد ذكر اسمه تعالى مفرداً مجرداً، كما جاءت الأسماء الحسنى بالنص الصحيح الجاري على الألسن في كل الروايات مفردة مجردة.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (١٤٨).

(٢) مرقاة المفاتيح (ج٨ / ص٣٥٠٠).

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن حبان برقم (٨٦٤).

(٤) الأعراف (١٨٠).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدعُواْ ٱلرَّحمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدعُواْ فَلَهُ ٱلأَسمَاءُ ٱلحُسنَىٰ﴾(١)، أي اذكره تعالى باسمه الله أو اسمه الرحمن أو غيرهما من أسمائه الحسنى، وكلها أسماء مفردة مجردة، وحكم واحد منها يجري عليها جميعاً(٢).

بيان استحسان الحركة في الذكر

الحركة في الذكر أمر مستحسن، لأنها تنشط الجسم لعبادة الذكر، وهي جائزة شرعاً، لأنها تحقق العون على مقصود الذكر، وهو الحضور، ولأن فاعلها لا يراها واجباً ولا سنة، وإنما يفعلها على سبيل الإباحة بحيث تحقق مقصود الذكر، والذكر شرع من غير هيئة، فأي هيئة قارنته جازت، ما لم تكن تلك الهيئة أو الحركة محرمةً بذاتها.

ويُستأنَس لجواز الحركة في الذكر بما أخرجه الإمام أحمد في مسنده والحافظ المقدسي برجال الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه قال: (كانت الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله ﷺ، ويقولون بكلامٍ لهم: محمد عبد صالح، فقال ﷺ: ماذا يقولون؟ فقيل: إنهم يقولون: محمدٌ عبدٌ صالح)(٣)، فلما رآهم في تلك الحلة لم ينكر عليهم، وأقرهم على ذلك، والمعلوم أن الأحكام الشرعية تؤخذ من قوله ﷺ وفعله وتقريره، فلما أقرهم ﷺ على فعلهم ولم ينكر عليهم تبين أن هذا جائز.

وفي الحديث دليل على صحة الجمع بين الاهتزاز المباح ومدح رسول الله ﷺ وأن الاهتزاز بالذكر لا يسمى رقصاً محرماً، بل هو جائز لأنه ينشط الجسم للذكر، ويساعد على حضور القلب مع الله تعالى، إذا صحت النية، فالأمور بمقاصدها، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى.

ولنستمع إلى الإمام علي - رضي الله عنه – كيف يصف أصحاب النبي ﷺ، قال أبو أراكة: صليت مع علي صلاة الفجر، فلما انتقل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتى

---

(١) الإسراء (١١٠).

(٢) التصوف نهج لازم (ص ٣٣٢ -٣٣٥).

(٣) رواه الإمام أحمد برقم (١٢٥٤٠).

إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى ركعتين، ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفراً شعثاً غبراً، بين أيديهم كأمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا (أي تحركوا) كما يَمِيد الشجر في يوم الريح، وهَمَلَتْ أعينُهم حتى تَبْتَلَّ - واللهِ – ثيابُهم)[١].

ويهمنا من عبارة الإمام علي - رضي الله عنه - قوله: (مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح)، فإنك تجده صريحاً في الاهتزاز، ويبطل قول من يدعي أنه بدعة محرمة، ويثبت إباحة الحركة في الذكر مطلقاً.

وقد استدل الشيخ (عبدالغني النابلسي) رحمه الله تعالى بهذا الحديث في إحدى رسائله على ندب الاهتزاز بالذكر، وقال: هذا صريح بأن الصحابة كانوا يتحركون حركة شديدة في الذكر، على أن الرجل غير مؤاخذ حين يتحرك ويقوم ويقعد على أي نوع كان، حيث إنه لم يأت بمعصية ولم يقصدها، كما ذكرنا.

إلا أن هناك جماعة من الدخلاء على الصوفية نسبوا إليهم وهم منهم براء شوهوا جمال حلقات الأذكار بما أدخلوا عليها من بدع ضالة، وأفعال منكرة، كالغناء الفاحش.

ومما يؤسف له أن بعض أدعياء العلم قد تهجموا على حلق الذكر ولم يميزوا بين هؤلاء الدخلاء المنحرفين وبين الذاكرين السالكين المخلصين الذين يزيدهم ذكر الله رسوخاً في الإيمان، واستقامة في المعاملة، وسمواً في الخلق واطمئناناً في القلب.

وهناك علماء منصفون قد ميزوا بين الصوفية الصادقين السائرين على قدم الرسول الاعظم ﷺ، وبين الدخلاء المارقين، وأوضحوا حكم الله في الذكر، وعلى رأسهم العلامة (ابن عابدين) في رسالته (شفاء العليل)، فقد ندد بالدخلاء على الصوفية، واستعرض

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) في الحلية (ج١ / ص٧٦)، وابن كثير في البداية والنهاية (ج٨ / ص٦).

بدعهم ومنكراتهم في الذكر وحذر منهم ومن الاجتماع بهم، ثم قال: ولا كلام لنا مع الصُّدُقِ من ساداتنا الصوفية المبرئين من كل خصلة ردية[١].

فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواماً يتواجدون ويتمايلون؟

فقال: دعوهم مع الله يفرحون، فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم، ومزق النصب فؤادهم، وضاقوا ذرعاً فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم، ولو ذقت مذاقهم عذرتهم ثم قال: وبمثل ما ذكره الإمام الجنيد أجاب العلامة النحرير (ابن كمال باشا) لما استفتي عن ذلك حيث قال:

ما في التواجدِ إن حققتَ من ... ولا التمايلِ إن أخلصتَ من باسِ
فقمت تسعى على رِجْلٍ وحُقَّ لمن ... دعاه مولاه أن يَسعى على الراس

فإذا كان التواجد جائزاً ولا حرج فيه كما نص الفقهاء، فالوَجْد من باب أولى، وما وَجْد الصوفية وتَواجُدُهم إلا قَبَسٌ مما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

وها هو مفتي السادة الشافعية بمكة المكرمة العلامة الكبير أحمد زيني دحلان رحمه الله يورد في كتابه المشهور في السيرة النبوية مشهداً من إحدى حالاتهم، ويعلق عليه فيقول: وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلاً، فتلقى النبي ﷺ جعفر وقبل جبهته وعانقه وقام له - وقد قام لصفوان بن أمية لما قدم عليه، ولعدي بن حاتم رضي الله عنهم – ثم قال ﷺ: ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر؟ أم بقدوم جعفر؟ وقال ﷺ لجعفر: أَشْبَهْتَ خَلقي وخُلقي، فقام

---

(١) ابن عابدين، شفاء العليل (٣٧/١)

جعفر وحَجَلَ[1] حول النبي ﷺ[2]، فلم ينكر عليه رَقْصَه، وجَعَلَ ذلك أصلاً لرقص الصوفية عندما يجدون من لذة المواجيد في مجالس الذكر والسماع[3].

عن علي قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وجعفر وزيد فقال لزيد أنت أخونا ومولانا قال فحجل ثم قال لجعفر أنت أشبهت خلقي وخلقي قال فحجل وراء حجل زيد ثم قال لي أنت مني وأنا منك فحجلت وراء حجل جعفر[4].

والخلاصة: ان الحركة في الذكر مباحة شرعاً هذا بالاضافة أن الأمر بالذكر مطلق يشمل جميع الاحوال فمن ذك الله تعالى قاعدا أو قائماً جالساً أو ماشياً متحركاً أو ساكناً، فقد قام بالمطلوب ونفذ الأمر الإلهي، فالذي يَدّعِي تحريم الحركة في الذكر أو كراهتها هو المطالب بالدليل، لأنه يخصص بعض الحالات المطلقة دون بعض بحكم خاص.

وعلى كل فإن غاية المسلم في دخوله حلقات الأذكار، قيامه بعبادة الذكر، وإن الحركة في ذلك ليست شرطاً، ولكنها وسيلة للنشاط في تلك العبادة، وتَشَبُّهٌ بأهل الوجد إن صحت النية.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

---

(١) الحجل: أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرى من الفرح، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (ج٢ / ص١٤)، وابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٥٠٧/٧): هو رقص بهيئة مخصوصة. والحجل يشبه في زماننا ما يسمى بالدَّبْكَة، والله أعلم.

(٢) أصل الحديث: أشبهت ... رواه البخاري، ومع ذِكْر الحَجَل رواه أبو داود بإسناد حسن، وابن أبي شيبة والبيهقي في كتاب الآداب، وذكره الذهبي في المهذب في اختصار السنن الكبير ٤٢٤٠/٨ وعنون له: من رخص في يسير الرقص بلا تكسر وتخنث، ورواه ابن كثير وقال: ويقال إنه حجل فرحاً، انظر السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٣/٣. وفي رواية أن جعفر قال: شيء رأيته في الحبشة يفعلونه لملوكهم.

(٣) السيرة النبوية والآثار المحمدية

(٤) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن برقم (٨٥٧)، والأحاديث المختارة للمقدسي (ج٢ / ص٣٩٣) وقال حديث حسن، ورواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى.

المطلب الرابع

الوِرْدُ اليومي

اتفقت جميع الطرق الصوفية على أن الورد اليومي الراتب من الذكر هو: استغفارٌ لله، ثم صلاة وسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تكرار الكلمة المُشَرَّفةِ لا إله إلا الله.

فالاستغفار للقلب طهور، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عطر وبخور، والتهليل عبور إلى النور، عسى أن تكون جوابر للنقص والفتور والقصور.

إذن فالورد يضم ثلاث صيغ من صيغ الذكر المطلوب شرعاً، التي دعا إليها كتاب الله تعالى، وبينت السنة الشريفة فضلها ومثوبتها:

١. الاستغفار بصيغة (استغفر الله) مثلاً، مائة مرة، بعد محاسبة النفس على الزلات لتعود صفحة الأعمال نقية بيضاء، وقد أمرنا الله تعالى بذلك بقوله تبارك وتعالى: (وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّن خَير تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيرا وَأَعظَمَ أَجرا وَٱستَغفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور رَحِيم)[(١)].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستغفار تعليماً لامته وتوجيهاً، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: (والله إني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[(٢)].

وروي في الحديث الصحيح أنهم كانوا يعدون له ﷺ في المجلس الواحد؛ يستغفر مائة مرة.

---

(١) المزمل (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٧)، والترمذي برقم (٣٢٥٩).

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً)[١].

٢. الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مائة مرة، وقد تكون بالصيغة المختصرة: (اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم)، وقد تكون بصيغة أخرى، ومن أشهر الصيغ: (اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم)، مع استحضار عظمته صلى الله عليه وسلم، في رتبة النبوة والرسالة، وتَذَكُّرِ صفاتِه وشمائلِه وسيرته، والتعلقِ بجَنابه الرفيع، محبة وتشوقاً.

وقد أمرنا الله تعالى بذلك بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا)[٢].

وكذلك رغّب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا)[٣].

وروي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، وحُطَّتْ عنه عشر سيئات، ورُفِعَتْ له عشر درجات)[٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة)[٥].

٣. كلمة التوحيد بصيغة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)، أو (لا إله إلا الله) مائة مرة، مع التفكير بأنه لا خالق ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا قابض ولا باسط ... إلا الله وحده، مع محاولة محو

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٣٠٩٣).
(٢) الأحزاب (٥٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٤٠٨).
(٤) رواه النسائي (١٢٩٧).
(٥) رواه الترمذي برقم (٤٨٤).

ما يسيطر على القلب من حب الدنيا والاهواء والشهوات والوساوس والشواغل والعلائق حتى يكون القلب لله وحده لا لسواه، ولهذا دعانا الله تعالى لهذا التوحيد الخالص فقال: ﴿فَاعلَم أَنَّهُۥ لا إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الذكر لا إله إلا الله) (٢).

يقول العلامة ابن علان في شرح هذا الحديث: إنها - أي لا إله إلا الله - أي دُمْ على عِلْم ذلك، قال الرازي في أسرار التنزيل: وقد ذكر الله تعالى كلمة التوحيد في سبعة وثلاثين موضعاً في التنزيل اهـ، ولأنها تؤثر تأثيراً بيناً في تطهير القلب عن كل وصف ذميم راسخ في باطن الذاكر وسببه أن لا إله نفي لجميع أفراد الآلهة، وإلا الله إثبات للواحد الحق، الواجبِ الوجود لذاته، المنزهِ عن كل ما لا يليق بجلاله، فبإدمان الذاكر لهذه ينعكس الذكر من لسان الذاكر إلى باطنه حتى يتمكن فيه فيصلحه ثم يضيء ويصلح سائر الجوارح، ولذا أمر المريد وغيره بإكثارها والدوام عليها(٣): (جددوا إيمانكم)، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا، قال: (أكثروا من قول لا إله إلا الله) (٤).

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده. في يوم مائة مرة، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر) (٥).

---

(١) محمد (١٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣).

(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن علان الصديقي (ج١ / ص٢١٣).

(٤) رواه احمد برقم (٨٧١٠).

(٥) رواه البخاري برقم (٣٢٩٣)، ومسلم برقم (٢٦٩١).

وقد اختارت بعض الطرق صيغاً من الاستغفار، واردة في السنة، فاختار بعضهم أن يستغفر المريد بصيغة: رب اغفر لي وتب علي، وبعضهم: أستغفر الله العظيم، أو بصيغتها الأطول الواردة في السنة، واختار بعضهم صيغة: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ومثل ذلك في الصلاة على النبي ﷺ، وقد يختارون صيغة معينة لمزية معينة وتجربة معينة وعدد معين، منها ورد في السنة، فصيغة الصلاة الإبراهيمية وردت بأكثر من عشر ألفاظ مختلفة، وقد تكون الصيغة من اجتهاد الصالحين، وذلك مشروع في الجملة، لأمرين: لأن الله يصلي على العبد إذا صلى على النبي ﷺ، فقد يُذكَر في الصلاة على النبي ﷺ بعض أوصافه، طلباً لأن يُصَلِّيَ الله علينا بمثلها.

والثاني: لأن الصلاة على النبي ﷺ دعاء، والدعاء يصح بكل كلام صحيح المعنى، ولا يشترط فيه موافقة ألفاظ الكتاب والسنة.

ومن القصائد التي تجمع بعض فوائد ذكر لا إله إلا الله.

بها يثبت الإيمان بها يحصل الأمان	كرّر أيّها الإنسان لا إله إلاّ الله
تكرارها ما أحلاه ما أبهاه ما أعلاه	تُدني العبد من مولاه لا إله إلاّ الله
قد أتانا في الأخبار عن النّبيّ المختار	أن أفضل الأذكار لا إله إلاّ الله
جمعت معنى التّوحيد و دلّت بلا مزيد	كرّر أيّها المريد لا إله إلاّ الله
ذاكرها لا يشقى لا ينال فَرَقا	هي العروة الوثقى لا إله إلاّ الله
هي حصنك الحصين هي درعك المتين	ذكر ربّ العالمين لا إله إلاّ الله
فيها الفوز و النّجاة فيها كلّ البركات	تنجي من كلّ الآفات لا إله إلاّ الله
بها تمحى السّيّئات بها تنمو الحسنات	بها تهلّ الخيرات لا إله إلاّ الله
فيها للسَّقْم دوا فيها للضّعف قوّة	هي كِلْمة التّقوى لا إله إلاّ الله
هي شفاء الصّدور هي نور على نور	ذكر ربّنا الغفور لا إله إلاّ الله
هي النّعمة العظمى هي المقام الأسمى	ليست تُبْقِي أَلَما لا إله إلاّ الله

هي شفاء العلل فيها إصلاح الخلل أذكر لا تخشى الملل لا إله إلاّ الله
قد أتانا في الأصول عن النّبي الرّسول أنّ خير ما نقول لا إله إلاّ الله
قد أتانا في السّنّة عن النّبي ذي المنّة أنّ مفتاح الجنّة لا إله إلاّ الله
لازموها يا إخوان نوّروا بها الجَنان إنّ مفتاح الجِنان لا إله إلاّ الله
لازموها بالأسحار والعشيّ و الإبكار تستمدّوا من أنوار لا إله إلاّ الله
نوّروا بها القلوب محّصوا بها الذّنوب إن أعظم المطلوب لا إله إلاّ الله
هي الرّحمة الكبرى في الدّنيا وفي الأخرى أعلى الأذكار أجرا لا إله إلاّ الله
لا تغفل عنها ولا تترك تنزيه المولى إنّ المثل الأعلى لا إله إلاّ الله
حافظوا على الأوقات داوموا على الطّاعات تنجي من كلّ الآفات لا إله إلاّ الله
يقارنها الإقرار برسالة المختار من حبانا من أنوار لا إله إلاّ الله
خير الخلق عند الله صاحب العزّ والجاه خاتم رسل الله لا إله إلاّ الله

ويستحب كثير من الصالحين والمرشدين تكرار هذه القصيدة واستحضار فوائدها ومعانيها في كل يوم، كورد يتخذه المريد لنفسه، ولا سيما أول السلوك.

تنبيهات:

١. لا ينبغي للسالك في طريق أهل الله أن يكون ورده مقصوراً على العدد المذكور، بل ينبغي أن يزيد ذكره لله تعالى، لأن قلب السالك في ابتداء سيره كالطفل الصغير، فكما أن الطفل كلما كَبُر زيدت له كمية الغذاء، كذلك كلما كَبُر المريد في سيره إلى الله زاد ذكره لله، لأن الذكر غذاء لقلبه وحياة له.

ولما كان الورد سبيل السالكين إلى الله تعالى قعد الشيطان في طريقهم يصدهم عن ذكر الله بحجج شتى ومغالطات خفية وتلبيسات منوعة فقد يترك بعض المريدين قراءة أورادهم محتجين بكثرة أعمالهم وعدم فراغهم لها، ويوحي إليهم شيطانهم أن هذا عذر مشروع ومبرر مقبول وأنه لا بأس بتأجيل الأوراد لوقت الفراغ.

ولكن السادة الصوفية حذروا السالكين من الإهمال والتسويف وانتظار الفراغ لأن العمر سرعان ما ينتهي والمشاغل لا تزال تتجدد.

٢. قد يزين الشيطان لبعض السالكين أن يتركوا الذكر، بحجة أن ذكرهم لا يسلم من الوسواس، وبحجة أن الذكر لا يفيد إلا إذا كان الذاكر حاضر القلب مع الله تعالى، لكن مرشدي الصوفية حذروا مريديهم من هذا المدخل الشيطاني الخطير فقال ابن عطاء الله السكندري: لا تترك الذّكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشدّ من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عمّا سوى المذكور وَما ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[1].

٣. قضاء الورد العام: إن المريد إذا ترك ورده لسبب من الأسباب، ثم عاد إلى يقظته والتزام عهده؛ فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله نتيجة تقصيره وإهماله، بل عليه أن يتوب إلى الله تعالى، ثم يقضي ما فاته من الأوراد، إذ الأوراد تقضى كسائر العبادات والأوراد.

قال الإمام النووي: ينبغي لمن كان له وظيفةٌ من الذكر في وقت من ليل أو نهار، أو عقب صلاة أو حالة من الأحوال ففاتته أن يتداركها ويأتي بها إذا تمكن منها ولا يهملها، فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرّضها للتفويت، وإذا تساهل في قضائها سَهُلَ عليه تضييعها في وقتها.

وقد عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ نامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شئ منه فقرأه ما بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من اللَّيل)[2][3].

---

(١) الحكم العطائية، حكمة رقم (٤٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٧٧٤).

(٣) كتاب الأذكار للنووي (ص١٣).

المطلب الخامس

المجاهدة

من الأمور المتفق عليها، وأنه لا بد منها في السير إلى الله تعالى؛ مجاهدة النفس.

فالله تعالى رتَّب الهداية، وهو الوصول إلى المطلوب، وهي مقصد السائرين؛ رَتَّبَها على المجاهدة، فقال سبحانه: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}.

وقد بينت الآية أن شرط المجاهدة أمران: أن تكون خالصة لله (فينا)، وأنها ينبغي أن تكون موافقة لأحكام الشريعة (سبلنا).

لذلك لا تكون المجاهدة إلا بما شُرِعَ، ولا تكون لمجرد تعذيب النفس.

وللمجاهدة جانب ظاهر بإجبار النفس على ترك ما نهى الله عنه، وإلزام النفس على فعل ما أمر الله به، وجانب باطن: وهو منع النفس مما تهوى، ومقاومة محبوباتها التي تخالف الشريعة، حتى لا تهوى إلا ما يريد الله، لذلك عرفوا المجاهدة فقالوا:

هي حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى على كل حال[(١)].

ومن لم يقدر على جهاد نفسه ليمنعها من الباطل؛ لا يقدر على جهاد عدوه ليمنعه من الباطل، لأنه لو كان يمنع عده لله؛ لمنع نفسه أولاً لله، لذلك رأى الصوفية صحة معنى الحديث الذي روي؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقوم قَدِموا من الجهاد: (مرحبا بكم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر، يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: جهاد النفس)[(٢)].

---

(١) ابن عربي، اصطلاحات الصوفية.

(٢) رواه البيهقي في الزهد (٣٧٣).

فلن يكون جهاد العدو صحيحاً إلا ممن جاهد نفسه، فأمات هواه، بمخالفة الجهالة والضلالة، وصار حياً بالاتباع والإيمان والمعرفة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المجاهد من جاهد نفسه)[١].

ومن حكم السادة الصوفية: " نفسك كالدابة إِنْ ركبْتَها حَمَلَتْك، وإن ركبَتْك قَتَلَتْك "، وكما يقولون: النعمة العظمى الخروج من النفْس، لأن النفس أعظم حجاب بين العبد وبين الله عز وجل، فالصوفي إذا دفن نفسه أي أمات شهواته وحظوظها فلم يبق له حظ ظاهر، بقي قلبه فوق العرش، أي متجها بكليته إلى ملكوت الله، وفضل الله ونعم الله، لأن مخالفة النفس ومفارقة أهوائها يجعل قلب الإنسان مع الله، وفي الله، ولله[٢]، وكأنه ميت حي؛ نفسُه ميتةٌ مع الخلْق، وقلبه حي مع الله[٣].

بيان مراحل المجاهدة:

وأول مرحلة في المجاهدة عدمُ رضا المرء عن نفسه، وإيمانُه بوصفها الذي أخبر عنه خالقها ومبدعها؛ (إن النفس لأمارة بالسوء)[٤]، وعِلْمُه أن النفس أكبر قاطعٍ عن الله تعالى.

والقواطع عن الله أربعة: النفس، والدنيا، والشيطان، والخلق

أما عداوة النفس والشيطان فظاهرة، وأما الخلق فملاحظة مدحهم وذمهم تعرقل سير السالك إلى ربه، وأما الدنيا فالاهتمام بها وانشغال القلب بتقلباتها قاطع كبير عن الله تعالى، ففي حالة الفقر تكثر هموم المرء وتشغله عن الله، وفي حالة الغنى ينشغل بزينتها وزخرفها عن الله تعالى، أما إذا أخرج حبها من قلبه فإنها لا تضره، كما قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: " أخرج الدنيا من قلبك وضعها في جيبك أو في يدك فإنها لا تضرك".

---

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٣٩٥١)، والترمذي (١٦٢١).

(٢) مع الله: ذاكراً حاضراً، وفي الله: في طاعته متفانياً، ولله: مخلصاً.

(٣) حسن محمد الشرقاوي، ألفاظ الصوفية ومعانيها.

(٤) يوسف (٥٣).

وكما أن النفس قاطعة عن الله؛ فهي أيضاً أعظم موصل إليه، وذلك أن النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات، ولكنها بعد مجاهدتها وتزكيتها تصبح راضية مرضية، لا تُسَرُّ إلا بالطاعات والموافقات ولا تستأنس إلا بالله تعالى.

وإذا اكتشف المسلم عيوب نفسه وصدق في طلب تهذيبها؛ لم يعد عنده متسع من الوقت للانشغال بعيوب الناس، وإضاعةِ العمر في تعدد أخطائهم، وإذا رأيت أحداً من الناس قد صرف وقته في إحصاء أخطاء الآخرين، غافلاً عن عيوب نفسه؛ فاعلم أنه أحمق جاهل.فإذا عرف المسلم ذلك أقبل على نفسه يَفطِمها عن شهواتها المنحرفة وعاداتها الناقصة، ويلزمها بتطبيق الطاعات والقربات.

ويتدرج في المجاهدة على حسب سيره، فهو في بادئ الأمر يتخلى عن المعاصي التي تتعلق بجوارحه السبعة، وهي:

اللسان والأذنان والعينان واليدان والرجلان والبطن والفرج[١].

ثم يحلي هذه الجوارح السبعة بالطاعات المناسبة لكل منها[٢]، فهذه الجوارح السبعة منافذ على القلب إما أن تصب عليه ظلمات المعاصي فتكدره وتمرضه، وإما أن تدخل عليه أنوار الطاعات فتشفيه وتنوره.

---

(١) لكل جارحة من الجوارح السبعة معاصي تتعلق بها: فمن معاصي اللسان الغيبة والنميمة والكذب والفحش، ومن معاصي الأذنين سماع الغيبة والنميمة والأغاني الفاحشة، ومن معاصي العينين النظر للنساء الاجنبيات وعورات الرجال، ومن معاصي اليدين إيذاء المسلمين وقتلهم وأخذ أموالهم بالباطل ومصافحة النساء الأجنبيات، ومن معاصي الرجلين المشي إلى محلات المنكرات والفجور، ومن معاصي البطن أكل المال الحرام وأكل لحم الخنزير وشرب الخمور، ومن معاصي الفرج الزنا واللواطة.

(٢) فمن طاعات اللسان قراءة القرآن الكريم، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن طاعات الأذنين سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية والنصائح والمواعظ، ومن طاعات العينين النظر إلى وجوه العلماء والصالحين وإلى الكعبة المشرفة والنظر التأملي لآيات الله في الكون، ومن طاعات اليدين مصافحة المؤمنين، وإعطاء الصدقات، ومن طاعات الرجلين المشي إلى المساجد وإلى مجالس العلم وعيادة المريض، والإصلاح بين الناس، ومن طاعات البطن تناول الطعام الحلال بنية التقوي على طاعة الله تعالى، ومن طاعات الفرج النكاح المشروع بغية الإحصان وتكثير النسل.

ثم ينتقل في المجاهدة إلى الصفات الباطنة فيبدل صفاته الناقصة كالكبر والرياء والغضب.. بصفة كاملة كالتواضع والإخلاص والحلم.

وبما أن طريق المجاهدة وعر المسالك متشعب الجوانب، يصعب على السالك أن يلجه منفرداً، كان من المفيد علمياً صحبة مرشد خبير بعيوبها، عالم بطريق معالجتها ومجاهدتها، يستمد من صحبته خبرة عملية بأساليب تزكية نفسه، كما يكتسب من روحانيته نفحات قدسية تدفع المريد إلى تكميل نفسه وشخصيته، وترفعه فوق مستوى النقائص والمنكرات.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المرشد الأول والمزكي الأعظم الذي ربى أصحابه الكرام وزكى نفوسهم بقاله وحاله، كما وصفه الله تعالى بقوله: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[1]، ومن هنا نجد أن التزكية شيء وتعليم الكتاب والحكمة شيء آخر، لذلك قال الله تعالى (وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، ففرق كبير بين علم الصحة وحالة الصحة، إذ قد يكون الطبيب الماهر الذي عنده علم الصحة فاقدا حالة الصحة ومصابا بالأمراض والعلل الكثيرة.

وكذلك الفرق ظاهر بين علم الزهد وحالة الزهد، كالمسلم الذي عنده علم واسع بالآيات والأحاديث والشواهد المتعلقة بالزهد ولكنه يفقد حالة الزهد ويتصف بالطمع والشره والتكالب على الدنيا الفانية.

والذي يحقق النفع للمريد هو استقامته على صحبة مرشده، واستسلامه له كاستسلام المريض للطبيب، فإذا ما أدخل الشيطان على قلب المريد داء الغرور والاكتفاء الذاتي فأعجب بنفسه واستغنى عن ملازمة شيخه باء بالفشل ووقف وهو يظن أنه سائر، وقُطع وهو يظن أنه موصول.

---

(١) الجمعة (٢).

قال ابن عجيبة: (لابد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مظهر ومجلاة للنهايات، فمن احترقت بداياته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادّاً في طلب الحق باذلاً نفسه وماله وروحه وعزه وجاهه، ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصراً علمنا قُصورَه عما هنالك)(١).

والخلاصة: إن المجاهدة أصل من أصول طريق الصوفية، وقد قالوا: من حقق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حرم الوصول.

وقالوا أيضا: من لم تكن له بداية محرقة (أي بالمجاهدات) لم تكن له نهاية مشرقة، والبدايات تدل على النهايات.

المطلب السادس

الخلوة

من وسائل التربية المشتركة عند عامة الطرق الصوفية ما يسمى بالخلوة.

تعريف الخلوة:

هي: انقطاعٌ عن البشر **لفترة محدودة**، وترك للأعمال الدنيوية **لمدة يسيرة**، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم **ذِكر لله** بقلب خاضع خاشع، **وتفكر** في آلائه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وذلك **بإرشاد شيخ** عارف بالله، يعلمه إذا جهل، ويذكره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوسواس وهواجس النفس.

قال الشيخ أحمد زروق في قواعده: الخلوة أخص من العزلة، وهي بوجهها وصورتها نوع من الاعتكاف، ولكن لا في المسجد، وربما كانت فيه، وأكثرها عند المُجِدّ لا حَدَّ له، لكن السنة تشير للأربعين بمواعدة سيدنا موسى عليه السلام، والقصد في الحقيقة

---

(١) إيقاظ الهمم شرح الحكم.

ثلاثون، إذ هي أصل المواعدة، وجاور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بحراء شهراً كما في صحيح مسلم(١).

مشروعية الخلوة من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة

أصل الخلوة عند الصوفية هو استحباب الاعتكاف، كما جاء الندب إليه في الإسلام، والخلوة نوع من الفرار إلى الله، وقد ألزمنا الله به، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾(٢).

وهي هجرة إليه تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(٤).

وقد كان الاعتكاف أو الخلوة سُنَّة ماضية في الأديان السابقة، فسيدنا موسى عليه السلام واعد ربه ثلاثين ليلة ثم تمت بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، والسيدة مريم ابنة عمران كان لها اعتكافها وميقاتها في المحراب وكان لسيدنا زكريا عليه السلام اعتكافه وميقاته ثلاثُ ليالٍ سوياً، وكل ذلك ثابت في كتاب الله.

---

(١) قال الاوزاعي: سمعت يحيى يقول: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: {يا أيها المدثر}، فقلت: أو {اقرأ}؟ فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: {يا أيها المدثر}، فقلت: أو {اقرأ}؟ قال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحدا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء، يعني جبريل عليه السلام، فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا علي ماء، فأنزل الله عز وجل: {يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر} [المدثر: ١ - ٤]، أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٤)، ومسلم برقم (١٦١).

(٢) الذاريات (٥٠).

(٣) العنكبوت (٢٦).

(٤) الصافات (٩٩).

فالخلوة ذهاب وفرار وهجرة إلى الله، كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكما أمر الحق جل في علاه حبيبه ومصطفاه حيث قال تعالى: (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)[١]، قال العلامة أبو السعود مفسراً هذه الآية الكريمة: (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ) أي: ودم على ذكره تعالى ليلا ونهارا على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم، (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) أي: وانقطع إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته، ولا يكون ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادة عن مراقبة الله تعالى وقطع العلائق عما سواه[٢].

وكل أمرٍ أُمر به صلى الله عليه وسلم هو تشريع له ولأمته إلا فيما خص به، وخصوصياته صلى الله عليه وسلم معروفة، وهذا الامر في هذه الآية عام له ولامته.

وأما الدليل على الخلوة من السنة، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها انها قالت: أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء[٣].

قال ابن أبي جمرة في شرحه لهذا الحديث: في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما اعتزل عن الناس وخلا بنفسه، أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية.

مع التنبيه إلى أن مقام النبوة لا يتوقف على ا لخلوة ولا على الأسباب، وإنما هو اصطفاء من الله سبحانه.

---

(١) المزمل (٨).

(٢) تفسير العلامة أبي السعود على هامش تفسير الرازي (ج٩ / ص٥١).

(٣) رواه البخاري برقم (٣).

قال القسطلاني في شرحه لحديث السيدة عائشة المذكور: وفيه تنبيه على فضل العزلة، لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا وتفرغه لله تعالى فيتفجر منه ينابيع الحكمة، والخلوة: أن يخلو عن غيره بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خليقًا بأن يكون قالبه ممرًّا لواردات علوم الغيب، وقلبه مقرًّا لها[١].

وقال الإمام النووي في شرح حديث السيدة عائشة عند قوله (حبب إليه الخلاء): أما الخلاء فممدود وهو الخلوة وهي شأن الصالحين وعباد الله العارفين، قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: حببت العزلة إليه صلى الله عليه وسلم، لأن معها فراغَ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه[٢].

وقال شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني في شرحه على حديث السيدة عائشة عند قوله: (ثم حبب إلي الخلاء): والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له... إلى أن قال: وإلا فأصل الخلوة قد عرفت مدتها وهي شهر، وذلك الشهر كان رمضان[٣].

وما أحسن قول الإمام البوصيري في همزيته حيث يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدايته:

أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَةَ وَالْـ   ـخَلْوَةَ طِفْلاً، وَهَكَذَا النُّجَبَاءُ

قال سليمان الجمل شارحاً للهمزية: وكان تعبده صلى الله عليه وسلم أنه يخرج إلى حراء شهراً في كل عام يتنسك فيه، حتى إذا انصرف من مجاورته في حراء لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، فكان يعبد الله في حراء بالذكر والفكر، وكان يكثر الخلوة في غير حراء أيضاً.

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (ج١ / ص٦٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (ج٢ / ص١٩٨).

(٣) فتح الباري لان حجر العسقلاني (ج١ / ص٢٣).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (ومن أحب أن يفتح الله قلبَه، ويرزقه العلم، فعليه بالخلوة وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاءِ وبعضِ أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب)[١].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: (وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل، وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها، ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر. وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض، والأنهار مفتوحة إليه؟ فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة)[٢].

وعندما يَسْلَم من علله وأمراضه وتعلقاته ومشاغله، وخواطر الشيطان ووساوسه، يستحق نعيم قربه ويستعد لتلقي العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والنفحات النورانية.

وذكر الغزالي أنه انكشف له في أثناء الخلوات أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أَصْوَبُ الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة [٣].

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي - رحمه الله تعالى -: (فإن المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفرَّغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى، ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: (عبْداً مِنْ عِبادِنا آتيناهُ رحمَةً مِنْ عندِنا وعَلّمْناهُ مِنْ لَدُنّا علماً)[٤]، وقال تعالى: (واتّقوا اللهَ

(١) بستان العارفين لأبي زكريا النووي (ص٤٧).
(٢) الإحياء للغزالي (ج٣ / ص٦٦).
(٣) المنقذ من الضلال (ص١٣١-١٣٢).
(٤) الكهف (٦٥)

ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ)(١)، وقال تعالى: (إنْ تتّقوا اللهَ يَجعَلْ لكُمْ فُرقاناً)(٢)، وقال: (ويجعلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به)(٣).

وقيل للجنيد: بم نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة.

وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت(٤).

فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله وبه ـ جلّت هيبته وعظمت منته ـ من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان، ليست له هذه الحالة(٥).

وقال العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى شارحاً قصيدة (منظومة الآداب)، وقد أكثر الناس من مدح الخلوة، وكفِّ رِجْلِ الرَّجُلِ عن الاختلاط بالناس:

أنستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي   فدام الأَنسُ لي ونما السرورُ(٦)

وقال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في كتابه (مذكرات في فقه السيرة): يجب على الداعية إلى الله أن تكون له بين الفَيْنة والفَيْنة أوقات يخلو فيها بنفسه، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه، وتصفو فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة والحياة المضطربة من حوله. ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت في خير، أو زلت في اتجاه، أو جانبت سبيل الحكمة، أو أخطأت في منهج أو طريق، أو انغمست مع

---

(١) البقرة (٢٨٢).
(٢) الأنفال (٢٩).
(٣) الحديد (٢٨).
(٤) وقد بنى بعض المعاصرين على هذه العبارة ظناً أن الصوفية يعتقدون الوحي من الله، كالأنبياء، وهذا غير صحيح، وغير مقصود، وإنما المعنى التفهيم والتوفيق، ومعرفة حقائق الأمور، والمقصودُ المعنى الذي في قوله تعالى: (وعلمناه من لدنا علماً).
(٥) الفتوحات المكية (ج١ / ص٣١).
(٦) غذاء اللباب شرح منظومة الأدب للإمام محمد السفاريني (ج٢ / ص٣٨٨).

الناس في الجدال والنقاش، حتى أنْسَتْهُ تذكُّرَ الله والأنس به، وتذكر الآخرة وجنتها ونارها والموتِ وغصصه وآلامه. ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضاً في حق النبي صلى الله عليه وسلم، مستحباً في حق غيره، وأحق الناس بالحرص على هذه النافلة هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته.

وللخلوة والقيام لله بالعبودية في أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها. وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول في أعقاب تهجده وعبادته: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها(١).

ويقول الشيخ الإمام عماد الدين أحمد الواسطي: وليكن لنا جميعاً من الليل والنهار ساعة نخلو فيها بربنا جل اسمه وتعالى قدسه، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ونطرح أشغال الدنيا عن قلوبنا، فنزهد فيما سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الإنسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربه حال، تحركت في تلك الساعة عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطالت إلى العلا زفراته وكوامنه.

وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خُلُوِّهِ عن ماله وولده، فمن لم يخل قلبه لله ساعة من نهار؛ لِمَا احتوشته من الهموم الدنيوية ذواتُ الآصار؛ فلْيعلمْ أنه ليس له ثَمَّ رابطةٌ علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبك على نفسه، ولا يرض منها إلا بنصيب من قرب ربه وأُنسه. فإذا خلصت لله تلك الساعة؛ أمكن إيقاع الصلوات الخمس على نمطها من الحضور والخشية والهيبة للرب العظيم في السجود والركوع، فلا ينبغي أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة، بساعة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الصلوات على ذلك النهج(٢).

إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحمية، وهو قلة موادها، ومنعها من كثرة الأخلاط (المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء). وكذلك

---

(١) مذكرات في فقه السيرة للدكتور مصطفى السباعي (ص١٨).
(٢) غذاء اللباب (ج١ / ص٤٧).

القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض، وربما مات، ولا ينفعه إلا الحمية منها، والفرار من مواطنها، وهي الخلطة، فإذا اعتزل الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه، واستقام قلبه، وإلا بقي سقيماً حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة، نسأل الله العافية.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: أشرف المجالس الجلوس مع الفكر في ميدان التوحيد(١).

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ثمارُ العزلة؛ الظفرُ بمواهب المنة، وهي أربعة: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقيق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة(٢).

أنواع الخلوة:

تختلف حالات الخلوة عند الصوفية باختلاف حالات الأحباب، وباختلاف ما يراه المرشد الطبيب الرباني، ملائماً لكل أخ لاختلاف الظروف والمناسبات والقابليات وغيرها، فعندهم الخلوة الكاملة، الخلوة الجزئية، وخلوة الجلوة.

١. **الخلوة الكاملة المرحلية:** انعزال مطلق للعبادة إلى مدة ما ولو في العمر مرة إن لم يمكن التكرار لتحصيل الفضل.

وتكون في مكان صالح لذلك، والمسجد أولى على أساس الذكر المعهود به إلى المختلي بشروطه المقررة من شيخه.

وأقلها من ثلاثة أيام إلى أسبوع، وأوسطها بين أسبوع وثلاثة اسابيع، وأكثرها بين أربعين وسبعين يوما، فإذا كان في رمضان فالسنة الثابتة بين عشرة أيام أو العشرين الأخيرة وهي ميقات النبي صلى الله عليه وسلم، أما ميقات سيدنا موسى عليه السلام فكان كما ذكره القرأن أربعين ليلة، وميقات سيدنا زكريا عليه السلام ثلاث ليال.

٢. **الخلوة الجزئية:** هي الانعزال للعبادة يومياً، في مكان معين لوقت معين ولو بعض ساعة، بعد الفراغ من قضاء مطالب الحياة اليومية المعتادة.

---

(١) المناوي، فيض القدير (٣١٤/٢).

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣٤٠/٣).

وشروطها: حفظ الجوارح والقلب تماما عن محارم الله تعالى أثناء الوجود مع الناس، والإسراع بالتوبة لمجرد الشك في مقارفة مخالفة مع الانشغال الدائم بالذكر المختار أيا كان، وأين كان، إنْ صَمَتَ اللسانُ فالقلبُ على ذكرِه مقيمٌ مع دقاته لا ينقطع، والتدريب على ذلك يسير بإذن الله.

٣. **وخلوة الجلوة:** هي استمرار انشغال القلب بالذكر مع القيام بمطالب الحياة المعتادة مع عدم مغايرة شيء منها (قَلْبٌ مع الخالقِ، وجِسْمٌ مع المخلوق)، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: صحبوا الدنيا بأبدان قلوبها معلقة بالمحل الأعلى[1]، حتى يكون الجّمع في جَنانِه والفَرقُ في لِسانه.

قالت رابعة العدوية[2]:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي[3]

وهذه الخلوة هي في معنى المراقبة لله، ويُطلِقُ عليها بعض الشيوخ في زماننا: العزلة الشُّعورية.

وشروطها: حفظ الجوارح أثناء الوجود مع الناس، وليس فيها عزلة على الإطلاق لا كلية ولا جزئية، إلا بقدر مقدور كلما أمكن ذلك، بحسب ظروف المريد وطاقاته، وهذا متروك له، ويكفي أن ينوي العبادة بكل قول وعمل.

فوائد الخلوة:

١. السلامة من آفات اللسان، فإنّ مَنْ كان وحده لا يجد معه من يتكلم، ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من آثَرَ الخلوة على الاجتماع.

---

(١) حلية الأولياء (١٠/١٠٧).

(٢) وهي امرأة صالحة من البصرة، توفيت في القدس سنة ١٨٥هـ.

(٣) انظر صفوة الصفوة لابن الجوزي ٤/٣٠١، والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٦٣٣.

٢. السلامة من آفات النظر، فإنَّ من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إلى ما هم مُنْكَبُّون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال بعضهم: (من كثرت لحظاته دامت حسراته).

٣. حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

٤. حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله.

٥. السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم.

٦. التفرغ للعبادة والذكر، والعزم على التقوى والبر.

٧. وُجْدانُ حلاوة الطاعات، وتمكن لذيذ المناجاة بفراغ سره، قال أبو طالب المكي في (قوت القلوب): (ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية).

٨. راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب.

٩. صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة.

١٠. التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة[١].

الخلوة هي السبيل العملي الذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس، كي يقوي إيمانهم، وتصفو نفوسهم، وتسمو أرواحهم، وتتطهر قلوبهم، وتتأهل لتجليات الله تعالى.

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[٢].

وأخيراً فلعل القارىء الكريم بعد هذه النصوص الصريحة والنقول الكثيرة عن العلماء الأعلام الذين نأخذ عنهم تعاليم ديننا تبيَّنَ له أن الخلوة مشروعة في الإسلام، وليست مبتدعة، وأنها ليست غاية تقصد، بل وسيلة لشفاء القلب من علله وأمراضه، حتى

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ج١ / ص٣٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٠).

يكون سليماً، فينجو صاحبه يوم الحساب الأكبر، يقول الله تعالى: (يومَ لا ينْفَعُ مالٌ ولا بنونَ ، إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ)[١].

وليست الخلوة عزلة دائمة، وانزواءً مستمراً عن الناس، فكما أن المريض يقضي فترة يسيرة من الوقت في المستشفى كي يتخلص من أمراضه الجسدية، ثم يخرج للعمل بصحة أوفر ومناعة أقوى، متلذذاً بنعيم العافية؛ فكذلك المسلم يقضي في الخلوة فترة يسيرة، يخرج بعدها للحياة العملية، قوي الصلة بربه، عامر القلب بالإيمان واليقين متمتعاً بالمناعة القوية من تسرب بهارج الحياة الخادعة ومفاتنها المغرية إلى نفسه، وخصوصاً بعد أن اطلع على حقائقها الفانية، وتَذَوَّقَ معنى قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عليها فانٍ)[٢].

فكم نرى من الناس من يهتم بجسمه الفاني ويوفر له أسباب الصحة، ويفرغ له كثيراً من وقته للاستجمام والاستشفاء والراحة، فإذا دُعي إلى تطبيب قلبه وتهذيب نفسه، في فترة وجيزة يخلو فيها بربه، إذا به يُعرض ويستغرب، ويعتبر ذلك - لجهله - ضياعاً للوقت، وابتداعاً لا أصل له في الدين. فمثل هذا ينطبق عليه قول بعْضِهم:

تُطبِّبُ جسمَكَ الفاني ليَبْقى ... وتتركُ قلبَكَ الباقي مريضاً

فلو فَهم حقيقة الإسلام، وأنه دعا لإصلاح الأبدان والقلوب معاً لاهتم بقلبه، كما يهتم بجسمه:

يا خادمَ الجسمِ كم تَسْعى لخدمته ... أتطلُبُ الربحَ مما فيه خسرانُ

أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

فعلى المؤمن أن تكون له خلوات يراقب بها ربه، ويحاسب نفسه على ما قدمت من خير أو شر، وحينئذ ينفذ الذكر إلى سويداء قلبه؛ فيرتسم الاسم المفرد فيه، وترتحل عنه الغفلة، وتزول الأغيار، ويشعر بحلاوة الأنس بالله عز وجل، ويترقى في مدارج الأذواق والمعارف مما لا يستطيع البيان أن يعبر عنه.

---

(١) الشعراء (٨٨-٨٩).

(٢) الرحمن (٢٦).

وخلاصة القول إن الخلوة قسمان:

خلوة عامة: ينفرد بها الإنسان المؤمن ليتفرغ لذكر الله تعالى بأية صيغة كانت، أو لتلاوة القرآن الكريم، أو محاسبة نفسه، أو ليتفكر في خلق السماوات والأرض.

وخلوة خاصة: يقصد منها الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمدارج المعرفة، وهذه لا تكون إلا بإشراف مرشد مأذون، يلقن المريد ذكراً معيناً ويكون على صلة دائمة به ليزيل عنه الشكوك ويدفعه إلى آفاق المعرفة، ويرفع عنه الحجب والأوهام والوسواس، وينقله من الكون إلى المكوِّن.

ولا يظنن إنسان أن الخلوة خاتمة السير، بل وهي أول خطوة في طريق الوصول إلى الله تعالى، فلا بد أن نتلوها خلوات ومجاهدات طويلة ومذاكرة متواصلة للمرشد بهمة وصدق واستقامة، وملازمة على ذكر الاسم المفرد في الصباح والمساء، وعند كل فراغ، حتى يكون على اتصال دائم بالله تعالى، قد جمع بين مرتبتي الإحسان: المراقبة والمشاهدة، اللتين أشار إليهما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

ولقد كان الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله تعالى يُرغِّبُ مُريديه بالخلوة، حيث يجلس المريد منفرداً في مكان منعزل عن الناس بعيداً عن صخب الدنيا وضوضائها، ثم يأذن له الشيخ بذكر الاسم المفرد (الله)، ليردده مستغرقاً جميع أوقاته في الليل والنهار، لا يتوقف إلا لصلاة أو طعام أو نوم، ولا يشغل نفسه بالتحدث إلى الناس، بل يتفرغ للذكر موافقة لقوله تعالى: (واذكر اسم ربِّكَ وتبَتَّلْ إليه تبتيلاً)[2].

ويواصل الذكر ملاحظاً قلبه طارداً عنه أنواع الوساوس والخواطر وصور الأكوان، جامعاً قلبه على الله تعالى، مستعيناً بما يمنحه شيخه من خبرته ومعارفه وأحواله وتوجيهاته.

فيجد ثمرة خلوته قرباً وحباً وصفاءً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٧).

(٢) المزمل (٨).

وأهم آداب الخلوة:

تمام إخلاص النية واستحضار ما يلزمه من طعام وشراب ومتاع ضروري مدة الخلوة، ثم ملازمة الصوم، والاكتفاء بالقليل من الطعام، والمنام، والانصراف بكليته عن مشاغل الحياة الدنيا، اعتماداً على الله وتوكلاً عليه وتفرغاً لعبوديته.

فإذا عزم، فمن آدابه قبل دخول الخلوة:

أولاً: حلل نفسه من حقوق الناس عليه.

ثانياً: جهز لأهله كل ما يحتاجونه في مدة خلوته، كأنه بينهم.

ثالثاً: دبر أمر عمله أو وظيفته أو تجارته، حتى لا تتوقف أو تضطرب

رابعاً: اغتسل بنية الاعتكاف والخلوة، وتعطر، ثم صلى ركعتي التوبة.

وبقية شروط الخلوة هي شروط السنة في الاعتكاف الشرعي، والبدء من صباح الجمعة أفضل.

خامساً: ثم يخرج إلى المسجد منيباً خاشعاً ضارعاً، فإذا دخله صلى ركعتيه صلاة مطمئنة متقنة، وقرأ الكهف لما ورد من أنها السنة في هذا اليوم، أو قرأ ما تيسر من القرآن، ويكفي قراءة سورة الإخلاص لمن لا يجيد غيرها من القرآن.

سادساً: ويلازم العابد بعدها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مستحضراً روحه الشريفة وأرواح أشياخه معه، مقبلاً في موكبهم بلا حجاب، على الله الكريم الوهاب، حتى يؤذن للجمعة، وتنتهي شعائرها، وعندها يختم الصلاة ويدعو بالمغفرة والتوفيق والقبول.

سابعاً: ثم يودع مرافقيه، ويتجه إلى خلوته (حيث تكون الخلوة) محافظاً على ألا يقع في مخالفة أثناء الذهاب إليها، ليقضي فيها ما شاء الله.

طريقة التعبد في الخلوة، أهم آداب الخلوة بعد دخولها:

يذكر الإمام الغزالي رحمه الله طريقة الخلوة ومراحلها ومقاماتها، فيبين: أن الشيخَ يُلْزِمُ المريدَ زاويةً ينفرد بها، ويوكّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال

- فإن أصل الدين القوت الحلال - وعند ذلك يُلَقِّنُه ذكراً من الأذكار، حتى يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلاً:

الله، الله، أو سبحان الله، سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الأذكار أو الآيات[١]، فلا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن لسانه، وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرةً معه، غالبة عليه، قد فرغ عن كل ما سواه، لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره، فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود، خلا لا محالة عن غيره.

وعند ذلك يلزمه أن يراقب وسواس القلب، والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد قضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه، ولو في لحظة، خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان ذلك نقصاناً، لذلك قالوا: "ذكر الجفاء في وقت الصفاء جفاء".

فليجتهد في دفع ذلك، ومهما دفع الوساوس كلها، وردّ النفس إلى هذه الكلمة، جاءته الوساوس من هذه الكلمة، ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً، وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يَرِدُ عليه مِن وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارهاً لذلك، ومُشَمِّراً لإماطَتِه عن القلب لم يضرَّه ذلك[٢].

---

(١) وأكثر الشاذلية يختلون بالاسم المفرد (الله)، وبعض السادة الصوفية يقسمون الأسماء السبعة أو الأسماء الحسنى على أيام الخلوة، أو بأعداد معينة، إذ يرون أن كل اسم يعالج خللاً في النفس، والأسماء السبعة في الطريقة القادرية هي: لا إله إلا الله، الله، هو، حي، حق، قيوم، قهار، وبعض المشايخ يجعل بدلاً عن الثلاثة الأخيرة: واحد، عزيز، ودود، وبعضهم يجعل الذكر بكل ذلك مع زيادة: وهاب، مهيمن، باسط، فتكون ثلاثة عشر اسماً.

(٢) ينظر: كتاب البيان الجازم في أن التصوف نهج لازم، فصل في الخلوة.

المبحث الخامس

مصطلحات علم التصوف

لكل طائفة من العلماء ألفاظ يستعملونها، وقد انفردوا بها عمن سواهم وتعارفوا عليها: لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المتخاطبين بها، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها، وهم يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من باينهم في طريقتهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب؛ غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، اذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف أو مَجْلُوبَة بِضَرْبٍ من التصرف، بل هي معاني أودعها الله تعالى في قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم.

ومن ناحية أخرى فإن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم كالفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والطب والفلسفة اصطلاحات خاصة به، لا يعلمها إلا أرباب ذلك العلم، فهل يفهم الطبيب اصطلاح المهندس؟ أو هل يفهم المهندس اصطلاح الطبيب؟ حين يعبر كل منهما آلاته ومسميات فنه.

وما من شك أن من يقرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته، او يطلع على رموزه وإشاراته، فإنه كثيراً ما يؤول الكلام تأويلات مغايرة لما يقصد العلماء، بل تكون أحياناً مناقضة لما يريده الكاتبون فيتيه ويضل.

ولنضرب لك مثلاً في جانب من جوانب اللغة العربية، لتستبين أنه من المُسلّمات أن يكون لكل علم ما يميزه من الاصطلاحات.

وهاك البيان:

يقال لمن قال بسم الله الرحمن الرحيم (بسمل) ونطق بالبسملة.

ومثله (حوقلة) والمراد بها قول: لاحول ولا قوه الا بالله العلي العظيم.

وكذلك (هلل) لمن قال: لا اله الا الله.

و(سبحل) لمن قال: سبحان الله.

و(حمدل) إذا قال: الحمد لله

و(حيصل) إذا قال: حي على الصلاة.

و(جعفل) إذا قال: جعلني الله فداك.

و(طبقل) إذا قال: أطال الله بقاءك.

و(دمعز) إذا قال: أدام الله عزك.

وهذا هو المعروف بالنحت في اللغة العربية.

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم، فلا بد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم، ويتعرف على اشاراتهم ومصطلحاتهم فيستبين له أنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة، ولم يحرفوا عن الشريعة الغراء، وأنهم هم الفاهمون لروحها الواقفون على حقيقتها والحارسون لتراثها.

قال الشيخ أحمد بن زروق في قواعده: (في كل علم ما يخص وما يعم، فليس التصوف بأولى من غيره من عمومية وخصوصية، بل يلزم بَذْلُ أحكام الله المتعلقة بالمعاملات مِن كُلٍّ عُموماً، وما وراء ذلك على حسب قابِلِه، لا قُدرةِ قائلِه[١]، لحديث: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٢].

---

(١) ومعنى القاعدة: أن هناك أشياء من العلوم تعطى لكل الناس، وهناك أشياء يخص بها بعض الناس، فما وجب معرفة الناس له في معاملة الخالق والخلق وجب تعليمه، لكل بحسبه، واستعمال المصطلحات وتعليم المعاني؛ يعطى بحسبب السامع وحاله وقدرته على الفهم، لا على حسب القائل العالم والعارف والصالح وقدرته وفهمه، الذي قد لا يستوعبه كثير من الناس.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

وقيل للجنيد: يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا ؟ فقال الجواب على قدر السائل، قال صلى الله عليه وسلم: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[(١)] [(٢)].

ولهذا ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في الباب الرابع والخمسين من الفتوحات ما نصه: اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التي اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم، فإنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك، وإنما وضعوها منعا للدخيل بينهم، حتى لا يعرف ما هم فيه، شفقة عليه أن يسمع شيئاً لم يصل إليه فينكره على أهل الله، فيعاقب بحرمانه فلا يناله بعد ذلك أبداً.

قال: ومن أعجب الأشياء في هذا الطريق بل لا يوجد إلا فيه، أنه ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين والفلاسفة، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم، لابد من ذلك.

إلا أهل هذه الطريق خاصة فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه وجلس معهم وسمع منهم ما يتكلمون به من الاشارات، فَهِمَ جميع ما تُكُلِّم به، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح وشاركهم في الخوض في ذلك العلم.

ولا يستغرب هو ذلك من نفسه، بل يجد علم ذلك ضرورياً لا يقدر على دفعه، فكأنه ما زال يعلمه ولا يدري كيف حصل ذلك.

هذا شأن المريد الصادق، وأما الكاذب فلا يعرف ما يسمع ولا يدري ما يقرأ[(٣)].

ولم يزل علماء الظاهر في كل عصر، يتوقفون في فهم كلام القوم وناهيك بالإمام أحمد بن سريج حضر يوما مجلس جنيد فقيل له ما فهمت من كلامه؟ فقال لا أدري ما

---

(١) أخرجه الديلمي برقم (١٦١١).

(٢) قواعد التصوف لابن زروق (قاعدة ١٧).

(٣) وشاهد ذلك في قوله تعالى عن المنافقين: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ فبين أنهم يسمعون كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يفهمون.

يقول ولكن أجد لكلامه صولة في القلب ظاهرة، تدل على عمل الباطن وإخلاص في الضمير وليس كلامه كلام مبطل.

ثم إن القوم لا يتكلمون بالإشارة إلا عند حضور من ليس منهم، أو في تأليفهم لا غير.

ثم قال: ولا يخفى أن أصل الإنكار من الأعداء المبطلين إنما ينشأ من الحسد، ولو أن أولئك المنكرين تركوا الحسد وسلكوا طريقة أهل الله، لم يظهر منهم إنكار ولا حسد وزادوا علمهم، ولكن هكذا كان الأمر، ولا حول ولا قوه الا بالله العلي العظيم[١].

ومرادنا بشرح هذه الألفاظ؛ تسهيلُ الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم، من سالكي طريقتهم، ومبتغي صحبتهم، ولعل أن يَفهم المبغضُ فضلَ اللهِ عليهم.

١. الولي.

يطلق اسم الولي إطلاقاً عاماً على كل مسلم، قال تعالى: {والله ولي المؤمنين}، {والله ولي المتقين}، وهذه ولاية عامة، إذ تولاه فهداه إلى الإسلام.

ويطلق اسم الولي اطلاقاً خاصاً، وهذا الاطلاق هو الذي يقصده الصوفية، وهو الوارد في قوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة}، وهو الوارد في الحديث القدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[٢].

فيطلق الصوفية اسم الولي على الرجل الذي وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته، وبَقِيَ بالإرادة الإلهية، ومن هنا فالولاية عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به، ولا نهاية لكمال الولاية فمراتب الولاية غير متناهية[٣].

---

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) السيد الدحلان، كتاب تقريب الوصول.

فالولي له علم وتجربة روحية يرقى فيها للوصول إلى الحق، مستمداً من الأوصاف الإلهية، ومتخلِّقاً بالأخلاق الربانية، فهو الفاني عن وجوده، الباقي بالحق.

كما يطلق الصوفية اسم الولاية الكبرى، على من بلغ مبلغاً كبيراً في الصلاح والقرب والمعرفة والفتح، بحيث يكون محفوظاً من الذنوب، طاهراً من العيوب والخواطر الفاسدة، كأنما صار جسده روحاً.

٢. العارف.

المعرفة في اللغة إنما تعني: العلم؛ أي معرفة المعلوم على ما هو عليه، فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله عارف، وكل عارف بالله عالم[١].

كما قيل في الفرق بين العلم والمعرفة: العلم دليل إلى الله، والمعرفة دالة على الله، فبالعلم تنال المعلومات، وبالمعرفة تنال المعروفات، والعلم بالتعليم، والمعرفة بالتعرف، فالمعرفة تقع بتعريف الحق[٢]، والعلم يدرك بتعريف الخلق[٣].

وقيل: حقيقة المعرفة مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة[٤]، وهي مشاهدة معنوية علمية ذوقية، وليست بالبصر والحِسِّ.

وسئل بعض العارفين: متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة بالله؟

فأجاب: إذا لم يجد في قلبه مكاناً لغير ربه.

فالعارفون في الدنيا ينسون نعيم الدنيا، لما يجدونه في قلوبهم وأرواحهم من التلذذ بمشاهدة الحق سبحانه وتعالى، لذلك قال بعض السلف: «إن في الدنيا جنة لو دخلتها لم تَشْتَقْ إلى جنة الآخرة، ألا وهي معرفة الله».

---

(١) الكهف والرقيم للجيلي.

(٢) كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «فاستهدوني أهدكم».

(٣) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء.

(٤) الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين.

وقد ذكرت المعرفة في كتاب الله في مثل قوله تعالى: {وإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}(١)، وقوله سبحانه: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}(٢).

وورد في القرآن العالم والخبير، {ويعلمون أن الله هو الحق المبين}، {الرحمن فاسأل به خبيراً}، ويرجح بعض علماء الصوفية أن رتبة العالم أعلى من العارف، والخبير أعلى منهما.

٣. الرجال.

ورد لفظ (رجال) في القرآن الكريم في قوله تعالى: (**مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**)(٣)، وفي قوله سبحانه: {رِجالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}(٤).

ولقد قيل: الناس أربعة رجال:

الرجل الاول: رجل لا لسان له ولا قلب، وهو العاصي.

الرجل الثاني: رجل له لسان بلا قلب، فينطق بالحكمة ولا يعمل بها.

الرجل الثالث: رجل له قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله عز وجل عن خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصَّره بعيوب نفسه، ونور قلبه، وعرفه غوائل مخالطة الناس.

---

(١) المائدة (٨٣).

(٢) البقرة (١٤٦).

(٣) الأحزاب (٢٣)

(٤) النور (٣٧-٣٨).

الرجل الرابع: رجل هو في الملإ الأعلى عظيم[١]، وهو العالِم بالله عز وجل وآياته، شَغَله بطاعته، واسْتَوْدَعَ اللهُ عز وجل قلبَه غرائب علمه، وأطلعه على أسرارٍ طواها عن غيره.

والرجل عند الصوفية: الثالث والرابع.

٤. السالك.

وهو السائر إلى الله تعالى، المتوسط بين المريدِ والمنتهِي، مادام في السير[٢].

وبعض الصوفية يجعل مصطلح المريد أعلى من مصطلح السالك، فالبداية السلوك، والتوسط الإرادة.

والسالك: الذي تنصرف همته لله، فيزيد انفراد قلبه بمولاه، فيعمل على تصفية قلبه من العيوب التي تحجبه عن الله، وتصرفه عن باب مولاه، ويتأدب بآداب العبودية، حتى يتأهل بذلك لحضرة الربوبية، وهي أخلاقه صلى الله عليه وسلم، وبالتخلق بها امتاز الصوفية عن غيرهم كما قيل:

يتبعه العالم في الأقوال ... والعابد الناسك في الأفعال
وفيهما الصوفي في السِّباق ... لكنه قد زاد بالأخلاق[٣]

قال الشيخ زروق: **السالك**: هو المتوجه لطلب الحق على سبيل التدريب والتهذيب.

وقيل: **السالك**: هو الذي يشهد الأثر، أي ما يدل على الله، فإن كان يشهده في نفسه فهو سالك فقط، وهو في حالة السير، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب[٤].

---

(١) كما قال الله في موسى عليه السلام: {وكان عند الله وجيهاً}.

(٢) الكاشاني، اصطلاحات الصوفية، والكاشاني مؤلف هذا الكتاب سني، ويسمى الكاشي والقاشاني، (ت٧٣٠هـ)، واسمه عبد الرزاق (جمال الدين) بن أحمد (كمال الدين) ابن أبي الغنائم، وهو عالم صوفي مفسر، وهو غير الكاشاني الشيعي.انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٣٥٠.

(٣) المباحث الأصلية، لابن البنا السرقسطي.

(٤) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (٩٢/١).

٥. المجذوب.

هو من اصطفاه الحق سبحانه وتعالى، واختصه بحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه، فحاز جميع المقامات، بلا كُلْفَة المكاسب والمتاعب(١).

فالمجذوب هو من يجذبه الله إليه، حيث يتجلى له مباشرة، ويمنحه أعلى درجات المعرفة اليقينية، فيفنى المجذوب عن نفسه، ولا يرى في تلك الحالة سوى الله تعالى(٢)، فإذا رُدَّ إلى البقاء تواردت عليه أنوار المعارف الأخرى(٣).

وليس معنى الجذب خاصة بفقد الحس والتميز، كما يفهمه كثير ممن لا علم عنده؛ بل مرجعه إلى ما ذكر من الاصطفاء والاجتباء، وهو مَوْهِبة مَحْضة، فيُخْطَفُ ويُطافُ به على المقامات كما وقع لكثيرين، وكما هي طريقة النبوءة والولاية الكبرى(٤).

والجذب بهذا الاعتبار؛ هو علامات من علامات حب الله تعالى.

واختُلف أيهما أكمل: السالك أم المجذوب؟

فذهب الأكثر إلى أن من تقدم جذبه على سلوكه، بأن رجع إلى سلوك المقامات أفضل وأعلم؛ وعليه صاحب العوارف وصاحب بداية السلوك(٥) حيث قال:

وأفضل الرجال دون رَيْبِ ... من سلك الطريق بعد الجذبِ

وذهب جمع من المحققين إلى أن من تقدم سلوكُه على جَذْبِه، بأن ترقى من سلوكه إلى الجذب؛ أعلى وأكمل في التربية، وعليه قول أبو بكر ابن شهاب الحضرمي في ديوانه:

---

(١) الحكيم الترمذي، ختم الأولياء.

(٢) والمقصود بالتجلي والرؤية هنا الرؤية القلبية، بحيث يكون كأنه يراه، ويقع في قلبه من المعرفة، كما لو أنه رآه سبحانه.

(٣) ابن الصباغ، درة الأسرار وتحفة الأبرار.

(٤) أبو يزيد الفاسي، ابتهاج القلوب. ومعنى قوله: وكما هي طريقة النبوة والولاية الكبرى، أي إن النبوة لا تتوقف على أسباب وسعي واجتهاد، وكذلك الجذب، هو فضل من الله عز وجل.

(٥) عوارف المعارف للسهروردي، وبداية السلوك، لعبد الله العثماني، (ت ١٠٢٧ هـ)، وهو فقيه مالكي، توفي في فاس، انظر: الأعلام للزركلي ٤/ ٩٧.

والجذبُ إنْ جاءَ مِن بعدِ السلوكِ، فضلٌ عن الجذب مما السَّعيُ تالِيهْ

٦. الحال.

يطلق مصطلح الحال عند الصوفية على أكثر من معنى.

فتارة يطلقونه على ما يَرِدُ على القلب من الله، من فَهْم أو مُشاهدة أو ذَوْق، من غير استجلاب بعمل ولا كَسْب، فهو موهبة بهذا الاعتبار.

وتارة يطلقونه على مُقدِّمات المقام، فإذا كانت الصفة القلبية تأتي وتذهب، فهي تحول، وهي حال، وإن ثبتت فهي مقام، كالتوكل إن غفل عنه حيناً واستحضره حيناً، كان حالاً، حتى إذا استمر لديه صار مقاماً، والحال بهذا الاعتبار أمر كسبي يتصنعه ويسعى إليه السالك.

قال الجرجاني: **الحال**: معنى يردُ على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب أو حزن، أو بسط أو قبض، أو شوق، أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من محض الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكَّن في مقامه، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله[١].

وقالوا: الأحوال كاسمها، يعني أنها كما تحل بالقلب تزول، وأنشدوا:

لو لم تحل ما سميت حالا وكل ما حال فقد زالا

وهذه الأحوال التي هي مواهب، وهي وإن زالتْ وذهبت، لكنها أبقت علماً عند صاحبها، وبقي ذَوْقُها معروفاً، كما لو ذقت طعاماً فإنك تتذكر طعمه ولو بعد سنين.

٧. المقام.

---

(١) التعريفات.

يطلق المقام اصطلاحاً **في حق الواصلين**: ما يتحقق به العبد من الآداب والمقامات القلبية، مما يَتوصَّل إليه بنوع تَصَرُّف، يتحقق به بِضَرْب تَطَلُّبٍ ومجاهدة وعمل، ومُقاساة تَكَلُّفٍ(١).

أما عند السالكين: فالمقام هو الوصف الذي يثبت عليه العبد ويقيم فيه، فإن لم يثبت سمي حالاً، وهو مقام العبد بين يدي الله تعالى فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله.

ولذلك يقال: ما سمي المقام مقاماً إلا لإقامة صاحبه فيه.

٨. الوقت.

يهتم الصوفية بالوقت، لأنه هو العُمُر، فلا يقبلون تضييع لحظة منه، في حرام ولا لَهْوٍ، واللَّهو حرام، وشأن المؤمنين ليس كشأن الكافرين والغافلين، }لنا أعمالنا ولكم أعمالكم{.

وقد استعمل الصوفية الوقت بهذا المعنى، كما استعملوا الوقت بمعنى اللحظة التي يعيشها الإنسان، فعلى الإنسان أن يعتني بحكم الله فيها وحق الله فيها، وأن لا يشغله المستقبل عن لحظته وحاضره، ولا أن ينشغل بالماضي والتفكير بأمجاده أو بأحزانه عن الاستفادة من وقته، وعرفوا الوقت بهذا المعنى فقالوا:

هو لحظة من الزمن بين الماضي والمستقبل، وينبغي أن يكون العبد فيها فارغاً من الماضي والمستقبل؛ بأن يقوم بحكم الله الذي يَلْزمه ذلك الوقتَ والظَّرْف الذي هو فيه، ويَجمعُ قلبَه وسِرَّه على الله عز وجل.

ولا يدخل الوقت تحت اكتساب العبد، ولا يحصل بالتكلف، والإنسان ليس حراً في جلبه، كما أنه ليس حراً في دفعه، لأن الوقت هو الزمن الذي يجري علينا.

---

(١) الرسالة القشيرية.

وقد قالوا: الوقت سيف قاطع، لأنه يقطع جذور المستقبل والماضي، ويمحو من القلب همَّ الأمس والغد(١).

ويقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك: أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحِين.

وقيل: الفقير لا يهمه ماضي وقتِه وآتيه، بل يَهُمُّه الذي هو فيه، فلا يشغل قلبه بالمستقبل الذي قد لا يأتي، عن الآن الذي هو قائم.

٩. الفقير.

سُمِّي الصوفيُّ والسالك فقيراً، فصار مصطلح الفَقْر يعني التصوف، ويعني التزكية.

وقد اشتهرت هذه التسمية عند الصوفية، رغبةً منهم في تذكير السالك أنه مفتقر إلى الله عز وجل، وأنه يكون أقربَ إلى الله بقدرِ افتقاره، وبقدر اعترافِه بحقيقة حاجته وفقره إلى ربه، وبقدر استمدادِه الخيرَ والهداية والعطاء من الله.

قالوا: الفقير: هو المُتَيَقِّنُ فقرَه إلى الله، وهو الغنيُّ حقيقةً بالله.

فما لم يكن يرى مع فقرِه أنّ غِناهُ بالله، فليس بصوفي ولا سالكٍ.

ولا ينبغي للمسلم أن ينسى حقيقته، والفقر حقيقة كل المخلوقات.

قال تعالى: (أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)(٢)، وقال تعالى: (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ)(٣)، لقد بين الحق سبحانه وتعالى أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونَه سبحانه غنياً حميداً ذاتيٌّ له.

ومقام الفقر عند الصوفية شِعار الأولياء، لأن الغِنَى أو المُلْكَ قد يكون حجاباً يحول بين المريد وبين اشتغاله بالله.

---

(١) انظر: قاسم غني، تاريخ التصوف الإسلامي.

(٢) فاطر (١٥).

(٣) محمد (٣٨).

وليس الفقر عند الصوفية أن لا يملك المريد شيئاً، وإنما الفقر ألا يملكه شيء، فيعيش الصوفي في غنى بالله، وهو في فقر ظاهراً، حيث لا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً، ولا يَشكو ولا يُظهِر أثَرَ الفاقة، وإنما يُظهر الغنى في غير تصنع[١].

قال ﷺ: «ليس الغنى عن كَثرةِ العَرَض، إنما الغنى غِنى النفس»[٢].

وقد حرص الصوفية لترسيخ مفهوم الافتقار على تذكير السالك بأن يتذكر أربع صفات لله، وأربع صفات للعبد تقابلها، صفات الله: الغني القوي العزيز القادر، وصفات العبد: الفقير الضعيف الذليل العاجز.

ومن أدام تَذَكُّرَها انتفعَ كثيراً وترقَّى بسرعة، في سيره إلى الله.

١٠. المحبة.

وصف الله المسلمين بقوله {يحبهم ويحبونه} وبقوله: {والذين آمنوا أشد حباً لله}، وبين النبي ﷺ أن الإيمان لا يصح إلا إذا كانت محبة الله عز وجل ورسولِه ﷺ أقوى من محبة أي شيء سواهما، من النفس والمال والأهل والناس أجمعين.

وقد حرص الصوفية على أعلى درجات المحبة ومعانيها وحقائقِها.

فالمحبة عند الصوفية: حال يجده المرء في قلبه، لا يستطيع التعبير أو الإفصاح عنه، لأنه ذوق وشعور وإحساس قلبي.

وقد قيل: المحبة ميل دائم بقلب هائم، فالمحبة شعور لا ينقطع.

وقيل: إنها موافقة المحبوب في المشهد والغيب، أي هو محب في باطنه، وعلامات الحب بادِيَة على ظاهره.

وقد قيل: المحبة ميلك إلى الشيء بكُلّيَتِك، ثم إيثارُك له على نفسك وروحك ومالِك، ثم موافقتك له سراً وجهراً، ثم عِلْمُك بتقصيرك في حبه[٣].

---

(١) السراج الطوسي، اللمع.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/٤٩٠).

والحب في منطق الصوفية أسمى العبادات وأزكاها، ومعراج المعرفة، وبُراقُ القُرْب، ولا تصح عبادة إلا إذا كان فيها الحب.

يقول فريد الدين العطار: (ما لم أتجه بقلبي إليك في صلاتي، فلا أَعُدُّها صلاةً)(١).

١١. الشوق.

هو حال شريف، يتضمن الحب، ويزيد في الرغبة بلقاء المحبوب، وشدةِ التعلق به، وانجذاب القلب إلى الحبيب.

ومن هنا قالوا: الشوق ثمرة المحبة، من أحب الله اشتاق إلى لقائه.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعائه: (أسألك لذةَ النظر إلى وجهك الكريم، والشوقَ إلى لقائك)(٢).

ويقول أحد الصوفية متحدثاً عن الشوق: هو نار الله تعالى، أشعلها في قلوب أوليائه، حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات(٣).

فالشوق إذا حل في القلب، لم يعد يستطيع صاحبه أن يفكر في سوى الله.

وسئل بعضهم عن الشوق، فقال: هَيَمان القلب عند ذكر المحبوب.

وهذه علامة من علامات المشتاق.

١٢. الإرادة.

الإرادة في اللغة: تعني القصد أو المشيئة، ويفرق بينها وبين الاختيار، بأن المختار يلاحظ الطرفين ويميل لأحدهما، أما المريد فيلاحظ الطرف الذي يريده(٤).

---

(١) طه عبد الباقي سرور، الحلاج.

(٢) رواه النسائي (١٣٠٥)، والإمام أحمد (١٨٣٢٥).

(٣) السراج الطوسي، اللمع.

(٤) لسان العرب (٢٢٨/٧).

والإرادة في عُرْف الصوفية: تطلق على من لا إرادة له؛ أي لا اختيار له في نفسه، ولا تمييز لمراده عن مراد الله عز وجل، فقد أسقط إرادته لإرادة الله سبحانه، فجميع إرادة الصوفي تخضع لِمُرادِ الحقّ سبحانه وتعالى.

وسواء في ذلك مُراد الله الشَّرْعيّ أو القَدَرِيّ، فلا يريد العبد غير ما أراد الله من أحكام شرعية، ولا يريد غير ما قضى الله من مَقادِير كَوْنِيَّة، فيُسَلِّم لله فيهما.

وإرادة الصوفي هي تمنيه ورغبتُه فيما يريده الله، والله يريد منك أن تكون قريباً منه، طائعاً له، قائماً بحقه، محتكماً إلى أحكامه.

كما أن إرادة الصوفي رضاه واستسلامُه لما يقضيه الله عليه من غنى أو فقر، أو صحة أو مرض، أو إقامة أو سفر، أو عطاء أو منع، وغيرِها، ولا يعني ذلك أن تستسلم للمرض، فلا نتداوى، وللفقر فلا تسعى، بل تسلم لله الذي أمرضك، وتسلم لله في أمره أن نتداوى، فتجمع بين الخضوع لفعل الله وحكم الله.

ولقد أوحى الله تعالى إلى سيدنا داود عليه السلام، فقال: يا داود: تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سَلَّمْتَ لي ما أريد؛ أتيتك بما تريد، وإنْ لم تُسَلِّمْ لي ما أريدُ؛ أتعبتُك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أُريد[1].

١٣. المُريد.

استعمل الصوفية مصطلح المريد لمعاني عديدة، فأحياناً يطلقونه بمعنى الصوفي، فإذا قال: فلان مريد، أيْ صوفي، أو سالك.

وأحياناً يطلقونه بمعنى أنه يريد وجه الله ويتوجه إليه ويطلب عفوه وهدايته ورضاه {يريدون وجهه}.

وأحياناً يطلقونه على رتبة في السلوك، فهو فوق المبتدئ وأدنى من المتحقق.

وأحياناً يطلقونه على معنى التلميذ، فيقال: فلان مريد الشيخ فلان.

---

(١) ابن عجيبة، إيقاظ الهمم.

ومن تعريفات علماء الصوفية للمريد:

المريد عند الصوفية: هو الذي انقطع إلى الله سبحانه وتعالى عن نظرٍ واستبصار [أي عن فهم واقتناع ورغبة]، وتجرد عن إرادته، إذ علم أنه لا يقع في الوجود إلا ما يريده الله تعالى، لا ما يريده غيره، فيمحو إرادته، فلا يريد إلا ما يريد الحق[١].

والمريد: هو الذي يستعين بشيخه الذي يُرْشِدُه ويُعَرِّفُه طريقَ المواجِيد، ويُبَصِّرُه بآفات النفوس، ويستسلم لرأيه في جميع تصرفاته، بما يحققه بمراد الله، لا بما يخالف أمر الله.

١٤. المُراد.

هو العارف بالله الذي لم يَبق له إرادة، وقد وصل إلى النهاية، وعَبَر الأحوال والمقامات، أو هو المجذوب عن إرادته، والمراد هو الذي سِير به رغماً عنه[٢].

فيطلق المراد على من بلغ نهايات السلوك، وهي التحقق بمقامات القرب مع الاستقامة، **ويطلق** على من جذب الله قلبه؛ فهداه الله واجتباه من غير أسباب من العبد.

قال تعالى: {الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب}، فالمُنِيبُ رَجَع إلى حُكْم الله وسَلَك واجتهد، والمُجْتَبَى أراده الله فهو مُراد.

ويذهب الإمام الجنيد متحدثاً عن المريد والمراد فيقول: المُرِيدُ: تتولاه سياسة العلم، أي المجاهدة والرياضة النفسية، والمُرادُ: تتولاه سياسة الحق سبحانه وتعالى، لأن المريد يسير، والمرادَ يطير، فمتى يلحَقُ السائرُ الطائرَ؟![٣].

١٥. الوارد.

---

(١) الجرجاني، التعريفات (٢٠٨/١).

(٢) ابن عربي، الحكم الحاتمية.

(٣) محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي.

هو الحال الذي يَرِدُ على قلب المريد من المعارف الربانية، واللَّطائف الإلهية، والعلوم الوَهْبِية، والأنوار العرفانية، والمواهِب الرحمانية(١).

والوارد: هو حلول المعنى في القلب، وهو كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تَعمُّد أو كسبٍ من العبد.

والوارد الرباني رسول من الحضرة الإلهية، أي إنه شيء أراد الله إعطاءه لعبده أو تعليمه إياه أو فتحه عليه أو تذويقه إياه.

والواردات إما أن تكون روحانية، وهي الملكية، وتُسَمَّى علوية، وتسمى نورانية، وإما نارية، وهي الشيطانية، وتسمى سفلية، وتسمى ظلمانية.

والفرق بين الوارد الملكي والشيطاني: أن المَلَكِيّ يُورِدُ بَرْداً ويُحدِث لذةً، ولا يترك ألماً، والشيطاني يوجد في القلب تشويشاً وانزعاجاً وقبضاً، ويعقبه ألم.

والملكي: لا يخالف الشريعة، بل يؤيدها، والشيطاني: فيه معصية أو تَوَصُّلٌ إلى معصية.

وقد يطلق الوارد على ما يأتي من خاطرٍ مِن قِبَلِ النفس، شراً كان أو خيراً.

وقد يطلق على الشعوريات والذوقيات، فقد يكون واردَ سرور، أو وارد حزن، أو وارد قبض، أو وارد بسط، إلى غير ذلك(٢).

والإلهام يعتبر من الواردات، سواء كان قُذِفَ في القلب مَعْنىً، أو سمعه بأذن قلبه كلاماً.

ويطلق الوارد أحياناً على مُطلَق الوارِدات، سواء كانت ربانية أو ملائكية أو نفسانية أو شيطانية.

والغالب أن يطلق على ما كان خيراً، سواء كان من الله أو من الملك أو من نفسك الملهمة المطمئنة، وسواء كان علماً وفهماً، أو ذوقاً وشعوراً.

---

(١) ابن عطاء الله السكندري، الحكم بشرح محمد مصطفى أبو العلا.

(٢) انظر: ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف.

١٦. الخاطر.

هو ما يرد على القلب والضمير من الخطاب، ربانياً كان أو ملكياً أو نفسانياً، أو شيطانياً، من غير إقامة(١)، أي لا يستمر، فيذهب بخاطر آخر، بغض النظر عَمِلْتَ به أم لم تعمل، صَدَّقْتَه أم لم تصدقه.

وقد قيل: الخاطر الرباني هو أول الخواطر، ويسميه سهل التستري: السبب الأول، وهو لا يخطئ أبداً، وقد يُعرَف بالقُوة والتَّسَلُّط، وعدم الاندفاع بالدفع.

ويسمى خطاباً، وهو قاهر، لا يمكنك مخالفته، فتجد نفسك مندفعاً إلى تحقيقه.

والخاطر الملكي: هو الباعث على مندوب أو مفروض، وفي الجملة هو الباعث على كل ما فيه صلاح، ويسمى إلهاماً.

والخاطر النفساني: هو ما فيه حظ النفس وشهواتها، ويسمى هاجساً، وقد يسمى وسواساً، قال تعالى: }ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه{.

والخاطر الشيطاني: وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق، ويسمى وسواساً.

قال تعالى: }من شر الوسواس الخناس{، وقال سبحانه: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ)(٢).

١٧. الضمير.

الضمير من الكلمات التي شاع استعمالها بين كثير من علماء النفس وفلاسفة الأخلاق، على أساس أنها: **تعبير يدل على القوة الباطنة**، التي يختار بها الإنسان طريق الحق والخير والجمال، أو عكسَ ذلك، في علاقته بنفسه وبغيره من الناس.

ويختلف تحديد العلماء والفلاسفة لمصطلح **الضمير** وفق معتقداتهم الدينية، فالمؤمنون بالله تعالى يعلمون أن هذه القوة الباطنة وثيقة الصلة بفطرة الله في خلقه، ناشئة عن الإيمان، فهي عند المؤمن ليست ناشئة من الفكر البشري، وليست مختلفة باختلاف

(١) ابن عربي، اصطلاحات صوفية.

(٢) البقرة (٢٦٨).

البيئات والعصور، وإنما هي حقيقة ثابتة ينتفع بها الإنسان على قدر ما يجتهد في معرفتها، وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي أوجدها الله من أجلها.

وأما الذين لا يؤمنون، فليس عندهم ثوابت، لأن مبادئهم من أفكارهم أو أوهامهم أو شهواتهم، وهي قابلة للتقلب، ومن هنا تعلم عدم صدق التعبير بالضمير الإنساني، فليس للإنسان إذا لم يؤمن بالله والآخرة، ضميرٌ حَيٌّ ولا ثابت، ولا شيء يمنعه من الجريمة والإفساد.

١٨. **الغفلة.**

هو مصطلح يضاد الذكر ويختلف عن النسيان، لذلك كان هناك فرق بين الغفلة والنسيان، وهو أن الغفلة ترك باختيار العاقل، والنسيان ترك بغير اختياره، قال تعالى: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)(١).

وقال تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)(٢).

وبداية السير إلى الله تعالى: الخروج عن الغفلة، بيقظة العقل والقلب إلى حق الرب سبحانه، فاليقظة أول درجات السير إلى الله، وعرفه بعضهم بالاعتصام بالله، إشارة إلى قوله تعالى: {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}.

قال أبو بكر بن أبي سعدان: الاعتصام بالله هو الامتناع به عن الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات(٣).

وقال أبو بكر الكتاني مبيناً أهمية اليقظة: رَوْعَةُ [أي خَوْفُ] عبدٍ عند انتباهٍ من الغفلة، وارْتِعادٌ من خطيئته أَعْوَدُ على المريد مِن عبادة الثقلين(٤).

---

(١) الأعراف (٢٠٥).

(٢) الكهف (٢٨).

(٣) أبو عبدالرحمن السلمي، طبقات الصوفية.

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/٢٣).

ولقد قيل: لا تَدْخُلُ الغفلةُ إلا مِن الأَمْن من مكر الله، ولا يوجد المزيد إلا من الحذر، ومن هنا قيل: حَذِرَ قومٌ فسَلِموا، وأَمِنَ قومٌ فعَطِبوا، أي هلكوا.

١٩. المذاكرة.

وهي استفادة المريد من خِبرة مُرشِده، بسؤاله عن أحكام شرعية تتعلق بتصحيح العقائد أو العبادات أو المعاملات، أو بأن يَعْرِضَ له ما يحدث معه من أحوال قلبية وخواطر نفسية وشيطانية قد تلتبس عليه وتوقعه في شكوك وأوهام، كالشكوك في العقائد الإيمانية، وكالتعلقات الدنيوية التي يقف حيالها حائراً مضطرباً.

أو بأن يكشف له عن أمراضه القلبية كالكِبْر والحسد والنفاق وحب الرئاسة، وعن رعونته النفسية كالتحدث عن كراماته ومَرائيه بُغْيَةَ الثناء والشهرة، وغير ذلك من الصفات الناقصة، **بُغيةَ معرفة طريق الخلاص منها.**

وهكذا يرجع المريد لمرشده في جميع أحوال سيره، لاجتياز العقبات التي تعترض طريقه.

وقد يُذاكِر المريدُ شيخَه في أحواله الطيبة ومقامات سيره، واستشراف روحه للحضرة الإلهية، وما يرد على قلبه من واردات رحمانية أو ملكية ومفاهيم قرآنية وعلوم وهبية.. والقصد من ذلك الاستيثاق من صحتها حتى يكون المريد على بصيرة من مراحل سيره، وللحماية من التكبر والعجب بها.

فالمذاكرة لها أهمية كبرى في سير المريد إلى الله تعالى، وهي ركن عظيم من **أركان الطريق** الخمسة:

الذكر، والمذاكرة، ومجاهدة النفس، والعلم، والمحبة.

ومَثَل المريد مع مرشده كمثل المريض الذي يكشف لطبيبه كل ما يلقاه من أعراض مرضية، كما يخبره عن جميع مراحل تحسن جسمه وصحته.

ومن جهة أخرى فإن المذاكرة تقوي الصلة بين المريد والمرشد، فتزداد المحبة ويقوى التجاوب، كما أن المريد يستفيد بالمذاكرة من شيخه علما وحالا ومعرفة، لأن العلم رُوْحٌ تُنْفَخْ لا مَسائل تُنْسَخ.

فالمذاكرة إذن تطبيق عملي لأدب من آداب الشرع، وخلق أساسي من أخلاق الإسلام، وهو الشورى التي مدح الله بها المؤمنين بقوله: (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)[١] والتي دعا إليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله (المستشار مؤتمن)[٢].

وإذا كانت الشورى هي للاستفادة من خبرة أهل الاختصاص في أي جانب من جوانب الحياة، كالمريض الذي يستفيد من خبرة الطبيب، والبنَّاء الذي يستفيد من خبرة المهندس، والمظلوم الذي يستفيد من خبرة المحامي.. إلخ.

فإن المذاكرة هي للاستفادة من خبرة المرشد في ميدان التطبيق العملي لدين الله تعالى، وقد نوه الله تعالى لهذه الاستفادة بقوله: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[٣]، وبقوله (الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)[٤].

الفرق بين المذاكرة وبين الاعتراف عند غير المسلمين

قد يتوهم بعض الناس بأن هناك تشابه بين مذاكرة المريد لمرشده وبين الاعتراف عند غير المسلمين، ولكن العاقل المنصف لا يتسرع في الحكم، ولا يلقي الكلام جزافا دون تفكير أو تدبير، بل يفرق بين من يأتي لإنسان مثله فيكشف له عن آثامه وجرائمه بغية أن يغفر له، كما هو الأمر (كرسي الاعتراف) عند غير المسلمين، وبين من يأتي لخبير عالم فيكشف له عن أمراضه وأحواله؛ بغية أن يدله على الطريق العملي للتخلص منها، كما يكشف المريض عن أمراضه، ولو كانت مما يستحي منها، من أجل تشخيص الداء، ووصف الدواء الناجع.

---

(١) الشورى (٣٨).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٦). وغيره.

(٣) النحل (٤٨).

(٤) الفرقان (٥٩).

الفرق بين المذاكرة وبين المجاهرة بالمعصية

وقد يشتبه الأمر على بعض الناس فيظنون أن مذاكرة المريد لمرشده في أمراضه القلبية وأحواله النفسية من معاص ومخالفات نوع من المجاهرة بالمعصية.

ولكن هناك فرق كبير بين من يرتكب الإثم، ثم يأتي للناس يحدث عنه من باب المباهاة والتلذذ بذكره والدعوة إليه، وبين من يندم على ذنبه ويتحير في معرفة العلاج الجذري الذي ينقذه من وضعه المذموم، فيأتي ليستفيد من خبرة مرشده.

قال الإمام النووي معلقا على حديث: " كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله تعالى عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه "(١).

يكره للإنسان إذا ابتلي بمعصية أو نحوها أن يخبر غيره بذلك، بل ينبغي أن يتوب إلى الله تعالى، فيقلع عنها في الحال، ويندم على ما فعل، ويعزم ألا يعود إلى مثلها أبدا، فهذه الثلاثة هي أركان التوبة، لا تصح إلا باجتماعها، فإن أخبر بمعصيته شيخه أو شبهه ممن يرجو بإخباره أن يعلمه مخرجاً من معصيته، أو يُعَلِّمُه ما يَسْلَم به من الوقوع في مثلها، أو يعرفه السبب الذي أوقعه فيها، أو يدعو له أو نحو ذلك؛ فلا بأس به، بل هو حسن، وإنما يكره إذا انتفت هذه المصلحة(٢).

ونقل الإمام المناوي في معرض شرحه لحديث المجاهرة قول الإمام الغزالي: (الكشف المذموم إذا وقع على وجه المجاهرة والاستهزاء، لا على وجه السؤال والاستفتاء، بدليل خبر من واقع امرأته في رمضان، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم(٣)، فلم ينكر عليه)(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٠)، وروي بلفظ: معافى بدل معافاة، وبلفظ: المجاهرون بدل المجاهرين، وكلاهما يصح لغوياً، وبلفظ المجاهرة بدل الإجهار.

(٢) النووي، الاذكار (٣٢٧)

(٣) رواه البخاري.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير (١٢/٥).

ومثل ذلك ما روي عن ابْنِ مَسْعُود ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَة قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَه، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ[١].

٢٠. الأدب.

وهو عبارة عن معرفة أشياء يتجنب بواسطتها كل أنواع الخطايا، ويُقصَدُ به أدب الشريعة، فيشمل الواجبات والمندوبات، وأحياناً أدب الخدمة، وتارة أدب الحق.

ويقصد من أدب الشريعة: الوقوف عند رسوم الشرع، وأدب الخدمة: الفناء عن رؤية الطاعة مع المبالغة فيها، وأدب الحق: أن تعرف ما لك وما له منك، أي أن تكون عالما بحقك وحقه.

والأدب المعتمد عند الصوفية ليس الأدبَ الظاهري فَحَسْب، لأن الأدب الظاهري ربما كان رياءً ونفاقاً، أو مجاملة واسترضاءً، أو استعطافاً بشكل أو بآخر، ولكن الأدب عندهم هو الأدب الباطني أساساً.

قيل: امتثال وأدب، وصول بلا تعب.

٢١. الأسماء.

ويقصد بها الأسماء الحسنى، وهي مائة كما في الحديث، وقد جمع بعض أهل العلم من الكتاب والسنة أسماء الله فبلغت نحو مئتين، وقيل هي أكثر من ذلك.

قال ﷺ: «إن لله تعالى مائة اسم إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».

والأسماء التسعة والتسعون احتوت معاني جميع الأسماء، واشتملت على فضائلها وأسرارها وثوابها[٢].

---

(١) رواه البخاري ٥٢٦ ومسلم ٧١٧٧.

(٢) انظر: ابن عطاء الله السكندري، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد. حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني (٢/٤٨٣).

واعلم أن جملة الأسماء الحسنى ترجع إلى ذات، وسبع صفات، وهي: الحي العليم المريد القادر السميع البصير المتكلم، على مذهب أهل السنة.

والاسم غير المسمى، فَحَدُّ الاسم أنه اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى[١].

واسم الله الأعظم هو الاسم الجامع لجميع الأسماء، وهذا ما يرجحه الصوفية فهو "الله"، لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أي المسماة بجميع الأسماء اللائقة به سبحانه.

وقد يعبر الصوفية عن اسم "الله" شاملاً صفاته سبحانه، بقولهم: الحضرة الإلهية، أو حضرة الذات.

٢٢. اللطائف والرقائق.

اللطائف: مفردها اللطيفة، واللطيفة: كل إشارة دقيقة المعنى يلوح منها في الفهم معنىً، لا تَسَعُه العبارة.

وقد تطلق بإزاء النفس الناطقة[٢]، فتشمل القلب المعنوي والروح والعقل.

قيل: اللطيفة الإنسانية هي النفس الناطقة المسماة عند الصوفية بالقلب، وهي في الحقيقة تَنَزُّلُ الروح إلى رتبة قريبة من النفس، مُناسِبَة لها بوجه، ومناسبة للروح بوجه، ويسمى الوجه الأول الصدر، والثاني الفؤاد.

أما **الرقيقة**: فهي اللطيفة الروحانية.

وقد تطلق على **الواسطةِ** اللطيفةِ الرابطةِ بين شيئين، كالمدد الواصل من الحق إلى العبد، ويقال لها رقيقة النزول.

أو **الوسيلة** التي يتقرب بها العبد إلى الحق من العلوم والأعمال والأخلاق السنية والمقامات الرفيعة، ويقال لها رقيقة العروج ورقيقة الارتقاء.

---

(١) الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين

(٢) ابن عربي، مصطلحات الصوفية.

وقد تطلق الرقائق على علوم الطريقة والسلوك، وكُلِّ ما يَلْطُفُ به سِرُّ العبد، وتزول به كثافات النفس[١].

٢٣. القلب.

يطلق القلب على القلب الحسي الذي يضخ الدم، ويطلق على القلب المعنوي الذي في القلب الحسي، وعادة يستعمله الصوفي للمعنوي.

قال الجرجاني: **القلب**: لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكلِ المودع في الجانب الأيسر من الصدر تَعَلُّقٌ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم[٢] النفس الناطقة، والروحُ باطنُه، والنفس الحيوانية مَرْكَبُه، وهي المُدْرِكُ والعالِمُ مِن الإنسان والمخاطَب والمطالَب والمعاتَب[٣].

وقيل: **القلب**: هو جوهر نوراني مجرد، يتوسط بين الروح والنفس، وهو الذي تتحقق به الإنسانية [٤].

وقيل: سمي القلب بهذا الاسم لتقلبه بين التجليات الجلالية والجمالية، وقيل: لتقلب الخواطر فيه والرغبات والتوجهات والإرادات بين خير وشر.

٢٤. النَّفْس.

المراد بالنفس: ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله.

ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على نوعين:

أحدهما: يكون كسباً له كمعصيته ومخالفاته، والثاني: أخلاقه الدنيئة فهي في أنفسِها مذمومة، فإذا عالجها العبد ونازلها، تَنْفِي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على استمرار العادة.

---

(١) التعريفات، الجرجاني.

(٢) الحكيم: هنا عالم المنطق، وهو مصطلح مستعمل عند كثير من علماء العقيدة والمنطق.

(٣) التعريفات (ص: ٢٢٩).

(٤) الكاشاني، اصطلاحات الصوفية.

إن القسم الأول من أحكام النفس ما نهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه، وأما القسم الثاني فسفساف الأخلاق والدنيء منها، هذا حده على الجملة، ثم تفصيلها: فالتكبر والغضب والحسد وسوء الخلق وقلة الاحتمال وغير ذلك من الأخلاق الذميمة، وأشد أحكام النفس هو تخيلها أن شيئا منها حسن، أو أن لها استحقاقا من القدر، ولذلك عد هذا من الشرك الخفي، ومعالجة الأخلاق في إهمال النفس وترويضها أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر وغير ذلك من المجاهدات الظاهرة.

ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب، وهي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون بشكل عام مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة.

وكما يصح أن تكون العين محل الرؤيا، والأذن محل السمع والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، وكذلك فالسميع والبصير والشامُّ والذّائِق، إنما هي الجملة التي هي الإنسان، فكذلك محل الأوصاف الحميدة والقلب والروح، ومحل الأوصاف الذميمة هو النفس، والنفس جزء من هذه الجملة والقلب جزء من هذه الجملة، والحكم والاسم راجع إلى الجملة[1].

فالنفس تستعمل في أغلب استعمال الصوفية وعلماء التزكية لجانب الشر الذي يصدر عن الإنسان، وقد تستعمل للطيفة في الإنسان يصدر عنها الشر.

وقد تستعمل النفس بمعنى الإنسان، فتشمل عقله وروحه وقلبه وجسده، وقد تطلق على واحد منها دون غيره.

٢٥. النَّفَس.

النَفَس: هو ترويح القلوب بلطائف الغيوب، وصاحب الأنفس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال، فإن كان صاحب الوقت مبتدئاً فإن صاحب الأنفاس منته، وصاحب

---

(١) الكاشاني، اصطلاحات الصوفية.

الأحوال بينهما، فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية الترقي، فالأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر، وقالوا: أفضل العبادات عد الأنفاس مع الله تعالى[١].

كما قيل: إن النَّفَس ريح يسلطها الله تعالى على نار القلب ليطفئ شرورها[٢].

وقد أُخِذ هذا المصطلح من حديث حسن، قال ﷺ: «إني لَأَجِدُ نَفَس الرَّحمن من قِبَل اليَمَن»[٣]، وهو بمعنى المدد والنصرة والتنفيس.

٢٦. المجاهدة.

المجاهدة: مُفاعَلَةٌ مِن الجُهْد فتحاً وضَمّاً، وهو الإبلاغ في الطاقة والمشقة في العمل، ويستعمل في المحاربة.

وفي عرف القوم: محاربة النفس الأمارة بالسوء، بتحميلها ما يشق عليها، مما هو مطلوب في الشرع[٤].

وقيل: حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى في كل حال[٥].

ومقصود المجاهدة أن يثبت الإنسان أنه لا يُفَضِّل هَوَى نفسِه على هُدَى ربه، بل يصبر ويمتنع عما يريد ويهوى، ليحقق ما يريد الله ويرضى.

ومهما بلغ السالك في الولاية؛ فله مجاهداته بحسب حاله، فمنهم يجاهد في ترك معصية ظاهرة، ومنهم يجاهد في نفي خاطر سيء، ومنهم يجاهد في حفظ سره مع ربه، وهكذا.

٢٧. الهوى.

---

(١) الرسالة القشيرية (١٩٦/١).

(٢) ابن عربي، اصطلاحات الصوفية.

(٣) رواه أحمد والطبراني.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص ٦٣٨.

(٥) ابن عربي، اصطلاحات الصوفية.

الهوى في أصل اللغة الميل والحب، وقد استخدمه الشرع فيما تميل إليه النفس خلاف مراد الله، وعلى هذا مشى الصوفية في اصطلاح الهوى، قال تعالى: {ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله}، وقال سبحانه: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى}.

فالهوى اصطلاحاً: هو مَيَلان النفس إلى ما تَستلِذُّه من الشهوات، مِن غير داعِيَة الشرع[١].

وقيل: الهوى: مَيْلُ النفس إلى مقتضيات الطَّبْع، والإعراضُ عن الجهة العُلوِيَّة بالتوجه إلى الجهة السفلية[٢].

وقيل: هو مركز الشهوة في النفس، المؤدي إلى المخالفات والمعاصي.

ومن هنا قيل: التصوف رفض الهوى، وقيل: كلما اجتنبت هواك قوي إيمانك[٣].

٢٨. الأعراض.

وهو مصطلح يعني به الصوفية: عوائق السير إلى الله.

مفردها العَرَض: وهو كل ما يعوق الصوفي في طريق الحق.

قال ابن عطاء الله: (الفقير هو المجرد عن العلائق، المُعْرِض عن العوائق، لم يبق له قِبْلَة ولا مقصَد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه، **وتحقق بحقيقة لا إله إلا الله**)[٤].

٢٩. العلاقة.

يُذكر مصطلح العلاقة مقيداً، فيكون إيجابياً إذا قيل: العلاقة والتعلق بالله، ويكون مذموماً إذا قيل: العلاقة والتعلق بالخَلْق والشهوات والدنيا.

---

(١) الجرجاني، التعريفات (ص ٢٥٧).

(٢) الكاشاني، اصطلاحات الصوفية.

(٣) ابن العربي، اصطلاحات الصوفية.

(٤) عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث.

وكثيراً ما يذكر مطلقاً، فيُفْهَم القصد من سياق الكلام، ومن كلام الصوفية في تعريف العلاقة بالمعنى المحمود:

العلاقة أو التعلق: هو الحب الملازم للقلب، فمشتق من التعلق وهو اللزوم(١).

وحب الله تحلية وتخلية يوصلان إلى التجلية، تحلية المؤمن بالطاعة والقيام بتكاليف الله على خير وجه، وتخلية بها يتجرد العابد للعبادة بالتخلي عن كل ما يشينه كمؤمن، وعن كل ما يشوب العلاقة بينه وبين ربه، و بالتخلية والتحلية تكون التجلية، والظهور، والرعاية، والعناية، والعطاء.

والطاعة في الوقت نفسه دليل وعلامة وأمارة على حب الله، فالمحب يطيع من أحب ويُنْفِذُ أمرَه في رضى وسعادة(٢)، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

٣٠. الدعوى.

يرى أئمة الصوفية أن (**الدعوى**): أن يُضِيف ويَنْسِب إلى النفس ما ليس لها.

فالدعوى: ادعاءٌ من الإنسان لشيء لا يفعله ولا يملكه، كأن يدعي الإنسان بعض الطاعات، وهي ليست جزءاً من أخلاقه، فيضيف شيئاً إلى نفسه ليس فيها، فيُحْجَبُ بهذه الدعوى عن معرفة الحقائق(٣).

وصاحب الدعوى يزعم أنه بادعائه وصل إلى الحقيقة، وهو بدعواه هذه أقرب إلى الضلال منه إلى الإيمان.

ومن الدعاوى التي تدعيها النفس لذاتها: السخاء والكرم والبذل والتقى والفتوة وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، فإذا طالبْتَها بترجمة ذلك إلى أفعال، وامتحنتها لم تجدها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً(٤).

---

(١) ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف.

(٢) محمود بن الشريف، الحب في القرآن.

(٣) السراج الطوسي، اللمع.

(٤) حسن محمد الشرقاوي، نحو علم النفس الإسلامي.

ويرتقي الصوفية بمعنى الدعوى إلى أن يُرَبُّوا تلامذتهم أن كل شيء من أفعالهم وأخلاقهم لا يجوز نسبته لأنفسهم، فذلك دعوى، فلولا فضل الله ما زَكَى أحدٌ، ولولا توفيقُ الله ما صَلُحَ أحد، وما بكم من نعمة فمن الله، فالحقيقة أن ترى الله فاعلاً في كل شيء، ممداً لكل الخلق، قال تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}، {كلا نمدُّ}.

٣١. المحو والإثبات.

المحو: مصطلح من مصطلحات الصوفية وضعه الإمام الجنيد ويعني: رفع أوصاف العادة من ميل إلى المخالفات وإسراف في الشهوات، وقيل: إزالة العلة[١]، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة، وأتى بدلاً منها بالأفعال والأحوال الحميدة، فهو صاحب محو وإثبات.

فالمحو: رفع أوصاف العادة، **والإثبات**: إقامة أحكام العبادة.

وينقسم المحو إلى محو الزلة عن الظواهر، ومحو الغفلة عن الضمائر، ومحو العلة[٢] عن السرائر:

ففي محو الزلة إثبات المعاملات، وفي محو الغفلة إثبات المنازلات، وفي محو العلة إثبات المواصلات، هذا محو وإثبات بشرط العبودية.

وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه، قال الله تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) [٣]، قيل: يمحو عن قلوب العارفين ذِكر غير الله تعالى، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله تعالى.

ويطلق مصطلح **المحو** بمعنى الاستغراق في الذكر، بأن يمحو في ذهنه غير الله، في حضوره مع الله.

٣٢. الصدق.

---

(١) ابن عربي، اصطلاحات الصوفية.

(٢) محو العلة: أي أن لا يرى أفعاله علة لعطاء الله، بل يعتمد على الله لا على سواه.

(٣) الرعد (٣٩).

يرى الصوفية أن الصادق من اعتاد الصدق، فإذا صار عادة أصبح صدوقاً، وهنا يصبح الصدق خُلُقاً من أخلاقه في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً».

ويقول الجاحظ: (الصدق والوفا: توأمان، والصبر والحلم: توأمان[1]، فبهن تمام كل دين، وصلاح كل دنيا، وأضدادهن سبب كل فرقة و أصل كل فساد)[2].

ويقول الداراني: (اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غايتك ومطلبك)[3]، فكأن الداراني يتخذ من الصدق أساساً من أسس الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، وميزاناً للمجاهدة والطاعة، يؤدي إلى معرفة الله على الحقيقة، مدللاً على ذلك بقوله: (لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق لسانه)[4].

وعلامة التحقق بالصدق في السير إلى الله ما قاله الغزالي: (الصدق في وصف العبد: هو استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن)[5].

ومعنى الصدق في أكثر استعمال الصوفية لا يقتصر على اللسان، بل يشمل صدق الباطن، من صدق الحالِ والعزيمة والنية والتَّوَجُّه، وعلامته: ترك كل مخالفة ظاهرة، والإتيان بكل فريضة وواجب، والتخلص من كل مرضي قلبي، وحسن الأدب مع الله.

٣٣. الصفاء.

يطلق الصفاء على: تصفية النفس من كل مذموم، وتحليتها بكل محمود[6].

وغالباً يُطلَق الصفاءُ عند الصوفية على صفاء القلب وشفافيته وطهارته، وهو ما ينْتُج عن المعنى الأول.

---

(١) حسن الشرقاوي، الشريعة والحقيقة.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين (ص٢٦٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٣٨٧/٤).

(٤) الرسالة القشيري (٣٦٣/٢).

(٥) عثمان أمين، الجوانيية.

(٦) محمد مصطفى، دراسات عن الجنيد البغدادي.

فالصفاء: نقاء القلب بحيث لا يُشغِلُه إلا الله، ولا تُعَكِّرُه خَواطِر، ولا تُزْعِجُه بلايا، ولا يَنْقَبِضُ مِن طاعة، ولا يشتاق إلى معصية، فطَهُرَ مما يُقْلِقُه ويُشَوِّشُه، فصار كالبحر لا تُكَدِّرُه الدِلاء.

ينطبق عليه قوله الله تعالى: {حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان}.

٣٤. اليقين.

اليقين: عند العارفين رُؤيةُ العِيان، وقوةُ الإيمان لا بالحجة والبرهان(١)، أي أن يؤمن بالحقائق والعقائد، كأنها يراها.

قال الإمام الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير.

ويمكن القول: إن الاعتقاد والعلم إذا استويا على القلب، ولم يكن لهما معارض؛ أثمرا في القلب المعرفة، فسميت هذه المعرفة يقيناً، لأن حقيقة اليقين صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضروري، ويصير القلب مشاهداً لجميع ما أَخبر عنه الشرع من أمور الدنيا والآخرة(٢).

٣٥. الوفاء.

وهو على أربع درجات:

هو للعامة: العبادة رغبة في الوعد، ورهبة من الوعيد. أي طمعاً في جنته وخوفاً من ناره وغضبه.

وللخاصة: العبودية بالوقوف مع الأمر، لنفس الأمر، وقوفاً عند واحد، ووفاء بما أُخِذَ على العبد، لا رغبةً ولا رهبة ولا غرضاً. أي يعبد الله لأن الله يستحق أن يُعْبَد.

ولخاصة الخاصة: العبودية على التبري من الحول والقوة. أي لا يرى نفسه فاعلاً.

ولأهل المحبة: صون قلبه عن الاتساع لغير المحبوب. فلا يغيب عن حب الله.

---

(١) قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام.

(٢) الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين.

٣٦. الفناء والبقاء.

يطلق الفناء على زوال الأخلاق السيئة والأحوال الفاسدة، في النفس، ولا يزال يترقى فيه العبد، حتى يفنى عن نفسه ورؤيتها، مع استغراقه في الحضور مع الله، وغالباً ما يطلق القوم مصطلح الفناء على هذا المعنى الأخير، وهذا بيان طريق الترقي إليه:

أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء: إلى بروز الأوصاف المحمودة، وإذا كان العبد لا يخلو من أحد هذين النوعين من الأوصاف فمن المعلوم أنه إذا لم يوجد عند الإنسان أحد القسمين وجد الآخر لا محالة، فمن فني عن أوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة استترت عنه الصفات المحمودة.

واعلم أن ما يتصف به العبد يشمل أفعالا وأخلاقا وأحوالا: فالأفعال هي تصرفات الإنسان باختياره، والأخلاق جبلة فيه، ولكنها تتغير بمعالجته، حسب استمرار عاداته، وأما الأحوال فإنها ترد على العبد على وجه الابتداء، ولكن صفاءها بعد زكاء الأعمال[1]، فهي كالأخلاق من هذا الوجه؛ لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه ونفى بجهده سَفْسَافَها مَنَّ اللهُ عليه بتحسين أخلاقه[2]، فكذلك إذا واظب على تزكية أفعاله ببذل ما وَسِعَه مَنَّ الله عليه بتحسين أخلاقه.

فكذلك إذا واظب على تزكية أفعاله؛ ببذل ما وسعه مَنَّ الله عليه بتصفية أحواله، بل بتوفية أحواله (استكمالها)، فمن ترك أفعاله الذميمة بلسان الشريعة؛ فإنه فني عن شهواته، فإذا فَنِيَ عن شهواته؛ بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته، ومن زهد في دنياه بقلبه؛ فقد فَنِيَ عن رغبته، فإذا فَنِي عن رغبته فيها؛ بَقِيَ بصدق إنابته (إقباله)، ومن عالج أخلاقه، فأفنى

---

(١) زكاة الأعمال: نموها وتحسنها.

(٢) من الله عليه بتحسين أخلاقه المحمودة كالتواضع والصبر والزهد، وقد أخرج البيهقي: إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها.

عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر وأمثال هذه من رعونات النفس[١]، فقد فَنِي عن سوء الخلق، فإذا فني عن سوء الخلق، بَقِي بالفتوة والصدق.

ومن شاهد جريان القدرة في تصاريف الأحكام، فَنِي عن حُسْبانِ الحَدَثان[٢] من الخلق، فإذا فني عن تَوَهُّم الآثار من الأغيار، بقي بصفات الحق، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة، حتى لم يشهد من الأغيار لا عَيْناً ولا أثراً ولا رَسْماً ولا طَلَلاً، فقد فني عن الخلق وبقي بالحق، ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة، يكون بعدم فعلها، وفَناؤه عن نفسه وعن الخلق، بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً.

وإذا قيل: كيف فني الإنسان عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة، والخلق موجودون، قلنا: إنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين، غير حاس بنفسه ولا بالخلق، لكمال اشتغاله بما هو أرفع من ذلك، فكأنه لا علم له بهم ولا بنفسه، ولا إحساس ولا خَبَر.

وقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان أو محتشم فيذهل عن نفسه وأهل مجلسه، وهيئات ذلك الصدر، وهيئات نفسه، فلا يمكنه الإخبار عن شيء قال الله تعالى: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)[٣].

حيث لم يجدن عند لقاء سيدنا يوسف عليه السلام على الوهلة الأولى ألم قطع الأيدي، وهن أضعف الناس (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)[٤]،

---

(١) أي حماقتها.

(٢) الحدثان: أول الأمر وابتداؤه، وحدثان الدهر: نوائبه. والمقصود من قوله: فني عن حسبان الحدثان، أي لم يلتفت إلى تأثير المحدثات والخلق، وإنما يلتفت إلى فعل الله وتصريفه، فقد فَنِي عن رؤية الخلق. وأصل هذه العبارات منقول من القشيرية.

(٣) يوسف (٣١).

(٤) يوسف (٣١).

فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق آخر، فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه، فلو تغافل بنفسه وأبناء جنسه فأية أعجوبة فيه؟

فمن فني عن جهله بقي بعلمه، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومن فني عن رغبته بقي بزهده، ومن فني عن أمله بقي بإرادته، وكذلك القول في جميع تصرفاته، فإذا فني العبد عن صفته بما جرى ذكره يرتقي عن ذلك بفَنائه عن رؤية فَنائه(١).

وهذا يعني فناءَ إرادة العبد في إرادة الله بالله، لا فناء وجود المخلوق في وجود الخالق، فإن هذا يستلزم المجانسة وهي معدومة، فجنس المخلوق غير جنس الخالق.

وهذا معنى قول الجنيد، حيث وصف حالة الفناء بموت النفس وحياتها بالله، فقال: (التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به)(٢)، تبينا: أن أخص خصائص المتحقق بالتصوف هو أن يفنى عن نفسه، ويبقى بربه، بحيث لا يكون قائماً في الأشياء ولا مريداً لها أو منصرفاً عنها بإرادته هو، بل يكون كذلك بإرادة الله(٣).

٣٧. المشاهدة.

المشاهدة: هو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله سبحانه وتعالى بقلبه، وهذا يعني أن يقذف في قلبه نور الإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعِيان، وهذا هو مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

لذلك يتفاوت أهل هذه المقامات بحسب قوة نفاذ البصائر(٤).

والمشاهدة إنما تعني كشف الحجاب عن نور القدس، فالواصل يشاهد ربوبية الحق تعالى في عالم ملكوته، والحق سبحانه وتعالى يشاهد عبودية السالك في عالم ملكه، وبذلك

---

(١) فلا يحس بفنائه لعدم ذكر أحوال نفسه، وهذا فناء الفناء، فإنه فني عن فنائه.

(٢) الرسالة القشيرية (٢/٤٤١).

(٣) محمد مصطفى، دراسات عن الجنيد البغدادي.

(٤) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم.

فمشاهدة العبد هي شهود العظمة بالعظمة، أما مشاهدة الرب للعبد فهي إحاطته تعالى بعلمه وأحواله وأسراره[١].

ومصطلح المشاهدة عند الصوفية لا يعني أنك ترى الله بعينك، ولم يقل أحد منهم بذلك، فإن النبي ﷺ بَيَّن أنه لا طائلَ إلى ذلك في الدنيا، فقال: «اعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه في الدنيا»[٢]، وإنما ترى الله رؤية معنوية علمية ذوقية، كما في قولك: (أشهد أن لا إله إلا الله)، فأنت لا تشهد ذلك بعينك.

٣٨. المعاينة.

تأتي المعاينة بعد المشاهدة، فإذا كانت المشاهدة هي الدرجة الأولى، فإن المعاينة هي الدرجة الثانية.

وهي كالمشاهدة، لكنه يكون غائباً عن نفسه، غاب في مشاهدة محبوبه عن رؤية نفسه.

والمعاينة درجات: مُعايَنة الأبصار، ومعاينة عَيْنِ القلب، ومعاينة عَيْنِ الرُّوح.

ومعاينة الأبصار، لا تعني رؤية الله بالبصر، وإنما هي كالتي أشار الله إليها بقوله: {الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري}، ومعلوم أن الذكر باللسان وليس بالعين، لكن لما صار كل ما تراه يذكرك بالله، صار العين ذاكرة حكماً.

٣٩. المسابقة.

المسابقة: لفظ من ألفاظ القرآن الكريم ورد في قوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[٣].

---

(١) ابن الصباغ، محمد بن أبي القاسم الحميري، درة الأسرار وتحفة الأبرار

(٢) رواه مسلم.

(٣) الحديد (٢١).

والسابقون قد أقبلوا على الله متوجهين إليه، طالبين الوصول إلى معرفته وهم على قسمين: قسم أقبل على الله بملاطفة إحسانه، وبشكر إنعامه وامتنانه وهم أهل مقام الشكر، وقسم أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن، وهم أهل مقام الصبر(١).

٤٠. المحادثة.

المحادثة: هي خطاب الحق للعبد في صُورَة مِن عالَم المُلْك، يقع معه الفهم في قلب العبد، أو يكون الخطاب على لسان الخلّق، فيَفْهَمُه رسالةً عَن ربِّه.

ومن ذلك نداء الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام من الشجرة(٢)، مع العلم أنه لا يكون للأولياء، بقدر ما تكون للأنبياء.

ويرى المفسرون أن الله تعالى أشار إلى هذا النوع من المحادثة والخطاب الرباني، في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}(٣).

واستعمل بعض أهل التصوف المحادثة بمعنى محادثة العبد لربه مع غاية الأدب، فيخاطبه الله بما يليق بجلاله، جواباً لخطابه وإكراماً، فقد قيل **المحادثة**: هي المكالمة القلبية بمعنى الفكرة والجوَلان في عظمة الجبروت الإلهي، وتكون محادثة السالك للحق في سِرِّه عن طريق مناجاته وسؤاله، ويستجيب له الحق تعالى بمزيد إحسانه ومِنَنِه، وإذا حادَثَه العبد بدوام حضوره في سِرِّه ولُبِّه، استجاب له الحق تعالى بإلقاء العلوم والأسرار والحِكَم في قلبه.

وإليه الإشارة في قوله تعالى: {ومن يؤمن بالله يهد قلبه}، نخطاب الله يقع في القلب هداية وتعليماً وتوفيقاً، وليس صوتاً ولا حرفاً.

٤١. الإشارات.

---

(١) ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم.

(٢) الكاشاني، اصطلاحات الصوفية.

(٣) الشورى (٥١).

مفردها الإشارة، **والإشارة:** ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه، وشرطه أن لا يخالف الشريعة ونصوصها.

وعلم الإشارة: الذي يكشف المعاني المذكورة واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم، وطرائف الحكم في معاني القرآن الكريم ومعاني أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد يطلق على هذا العلم: الدقائق، والرقائق، والنُّكات، والتفسير الإشاري.

٤٢. اللوائح والطوالع واللوامع.

هذه الألفاظ متقاربة المعنى، وهي من صفات أصحاب البدايات، الصاعدين في الترقي بالقلب، فلم يَدُمْ لهم ضياء شموس المعارف، ولكن الحق سبحانه وتعالى يؤتي رزق قلوبهم في كل حين.

وقد شبهها بعض علماء الصوفية بالفجر، فقالوا اللوائح كالفجر الكاذب، والطوالع كالفجر الصادق، واللوامع كالإسفار.

وقالوا: كلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ، سَنَحَتْ لهم فيها لوائح الكشف، وتلألأت لوامع القرب، وهم في زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح، فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوائح كالبروق، ما ظهرت حتى استترت، واللوامع أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة، والطوالع أبقى وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلمة، وأنفى للتهمة، لكنها موقوفة على خَطَر الأُفُول، وليست برفيعة الأَوْج.

وهذه المعاني التي تسمى اللوائح واللوامع والطوالع، تختلف في أثرها في القلب، فمنها ما إذا فات لم يبقَ عنه أثر، ومنها ما يبقي عنه أثر، فيجد منه فهماً، ويبقى في نفسه منه طَعْمُ ذوقِه وحالِه، ويدوم له منه بركةٌ، فيشتاق إلى مثله، لما وجد من خيره [1].

٤٣. التلوين والتمكين.

---

(١) انظر: القشيري، الرسالة القشيرية.

التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين: صفة أهل الحقائق.

فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل تمكن.

وصاحب التلوين دائما في الزيادة، في عمله وحاله.

وصاحب التمكين قد وصل ثم اتصل، فهو ثابت على أعماله، لأنها بلغت أعلى ما يَقْدِر، لكنه في زيادة في رتبته.

قال بعض المشايخ: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا.

٤٤. القرب والبعد.

أول رتبة في القرب هي القرب من طاعته، والالتزام في جميع الأوقات بعبادته، وأما البعد فهو التدنس بمخالفته، والتجافي عن طاعته فأول البُعْد بُعْدٌ عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق.

قال صلى الله عليه وسلم مُخبِراً عن الحق سبحانه: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[١].

فقرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه، ثم قُربُه بإحسانه وتحقيقه، واجتهاده في الفرائض والنوافل، فعندئذ يجب قرب الحق منه.

وقرب الحق سبحانه ما يخصه به في الدنيا من العرفان، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعِيان، وفيما بين ذلك بوجود اللطف والامتنان.

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

٤٥. الجمع والفرق.

لفظ الجمع مأخوذ من جمع الهمة والخاطر على الحق تعالى، ولفظ الفرق مأخوذ من تفرقتها في الكائنات مع الحق، والجامع والمفرق في الحقيقة هو الله تعالى.

والجمع عند الصوفية: هو شهود الفردانية التي تفنى فيها رسوم المشاهد (وهذا جمع الربوبية)، وأما (جمع الألوهية) فهو جمع قلبه وهمه وسره على محبوبه ومَراضِيه ومُرادِه منه وأحكامِه، وهو عكوف القلب بكليته على الله عز وجل(١).

والفرق درجتان، قالوا:

الفرق: هو رؤية الخلق مع عدم الغفلة عن الله؛ وهو إن كان الفرق بعد الجمع، وإن كان قبل الجمع فهو رؤية الخلق بلا حق.

ونبه القوم إلى أن من رأى المخلوق وأنكر الخالق فهو صاحب فرق، وهو كافر، ومن أثبت الخالق، وأنكر المخلوق، فهو زنديق، فقالوا:

الفرق إشارة إلى الكون والخلق، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه وتعالى، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة، فقد أنكر قدرة الخالق، ومن جمع بينهما فقد وحَّد.

٤٦. الصَّحْو والسُّكْر والغَيْبة.

الصحو: رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة، أي بعد حالة فَناءٍ، **والسكر:** غَيْبَةٌ بِوارِدٍ قوي.

والغيبة قد تكون للعُبّاد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة، ومقتضيات الخوف والرجاء.

والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بصفة الجمال؛ حصل السُّكْر وطَرِبَتِ الروح وهام القلب(٢).

---

(١) انظر: ابن القيم الجوزية، مدارك السالكين (٩٧/٣).

(٢) القشيري، الرسالة.

وقد يقرأ بعض الجهال مصطلح السكر في بعض كتب الصوفية، وهو لم يعلم مصطلحاتهم، ولم يفهم كلامهم؛ فيستشهد به على أنهم زنادقة، وأنهم يبيحون الخمر والسُّكْر، وذلك تجرؤ على اتهام المسلم، بغير تَوَثُّق ولا فهم ولا إنصاف.

٤٧. الذوق والشرب.

يعبر عن الذوق والشرب بما يجد القوم من ثمرات التجلي ونتائج الكشوف وحاصل الوارِدات، وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الارتواء.

إن صفاء معاملاتهم [أي عبادتهم لله] يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلاتهم [أي صلاح القلب مع العبادة] يوجب لهم الشرب، ودوام مواصلاتهم [أي الحضور مع الله في العبادة] يقتضي لهم الارتواء.

ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب، ومن صار له الشراب غذاءً لم يصبر عنه ولم يبق بدونه.

٤٨. القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنِف[1]، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنِف.

ومن الفصل بين القبض والخوف والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل، فإما أن يخاف من زوال محبوب أو قدوم محذور، وكذلك الرجاء: إنما يكون بالأمل في محبوب في المستقبل أو بتطلع زوال محذور، وكفاية مكروه في المستأنف.

والمتوسط في السير: ما يجده في نفسه من حال نتيجة خوفه يسمى قبضاً، وما يجده في نفسه من حال نتيجة طمعه ورجائه يسمى بسطاً.

فإذا ترقى فصار من العارفين صار خوفه وقبضه هَيْبَةً، وصار رجاؤه وبسطه أُنْساً.

٤٩. التجريد.

---

(١) هو المبتدئ في الطريق لله تعالى.

يستعمل مصطلح التجريد على عدة معاني:

فأولها بمعنى الزهد والفقر، فالتجريد أن يُخْرِج الدنيا من قلبه، ولا يَأخذَ منها إلا قَدْرَ ضَرورَته، وذلك طلباً لربه وانشغالاً بأمره، وهو قولهم:

التجريد: أن يتجرد بمظاهره عن الأعراض، فلا يأخذ شيئاً من عرض الدنيا، يستطيع الاستغناء عنه، إلا ما أوجب عليه الشرع.

والثاني: أن يتجرد بباطنه عن الأعواض، فلا يطلب على ما ترك من الدنيا عِوَضاً من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى، لا لِعِلَّة غيره، ولا لسبب سواه، فلا يطالب ربه بجزاء، فهو مستعد لأن يعبد الله ولو لم يجازيه.

والثالث: أن يتجرد بسِرِّه عن ملاحظة المقامات التي يَحُلُّها، والأحوالِ التي يُنازِلها، فلا يسكن إليها، ولا يتوقف عن الترقي عنها (١).

٥٠. الوجد.

الوجد: حال ينشأ في الأسرار ينتج عن الشوق فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عن ذلك الوارد.

وسئل أبو علي الروزباري عن الوجد في السماع؟ فأجاب: هو مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب.

وقد قيل، **الوجد**: نيران الأنس يثيرها روح القدس.

كما قيل **الوجد**: هو نسيم الحبيب لقوله تعالى: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) (٢).

وقيل، الوجد: عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر، حتى لو قطع عضوا من أعضائه لا يحس ولا يشعر(٣).

٥١. الرؤيا.

---

(١) انظر: الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف.

(٢) يوسف (٩٤).

(٣) الغزالي، مكاشفة القلوب.

الرؤيا لغوياً: يمكن أن تكون النظر بالعين، كما يمكن أن تتعدى ذلك فتكون رؤية قلبية بمعنى العلم أو الظن.

والرؤيا مصدر لما يراه النائم.

وقد وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة، فمثلاً في قوله تعالى "إني بريئ منكم إني أرى مالا ترون"، بمعنى أنى أعلم ما لا تعلمون.

وفي قول أحد أصحاب سيدنا يوسف عليه السلام، فيما رواه القرآن: {قال أحدهما إني أَراني أعْصِر خَمْراً}.

وقد أخبر كثير من الأولياء عن أمور معينة، فوقعت كما أخبروا، فالرؤيا: انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغِشاوة عن القلب[١].

ويرى الصوفية أن الرؤى الصادقة: هي علامة من علامات الورع والتقوى، قال ﷺ: «أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[٢].

وللرؤيا الصادقة علامات تعرف بها، وتُوَضِّحُ هدفها ومعناها ومغزاها، وكثيراً ما تهدف الرؤيا إلى بيان حقيقة من الحقائق، كصورة تظهر أمام الرائي:

فتبين له الحلول التي يمكن أن يكون محتاجاً إليها.

أو المسائل التي يجوز أن يكون طالباً معرفتها.

أو الذنوب التي يجب أن يتركها.

أو الطاعات التي يجب أن يأتيها.

أو التحذير من التقصير الذي عنده.

أو التبشير بأنه على خير وصواب.

---

(١) البيانوني، الرؤى والأحلام.

(٢) رواه مسلم.

أو الإخبار بالمشاكل والعقبات التي يعجز عن تفسيرها واجتيازها، وهو يستخير الله فيها أن يلهمه الصواب والحق في التغلب عليها.

ومن علامات صدق الرؤيا تكرارها، وكذلك أن ترد مطابقة للشريعة في معناها[١]، فإن الرؤيا الصادقة هي التي لا تخالف نصاً صريحاً أو سنة متواترة، لذلك تسمى الرؤى عند أهل الحق بالمبشرات، ويستند في ذلك إلى قوله تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [٢].

٥٢. التجلي.

التجلي: هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب[٣].

والتجلي هو أعلى الطرق إلى العلم بالله، ودونه علمُ النَّظَر، لذلك قيل إن التجلي هو أعلى الطرق إلى تحصيل العلوم، وهي علوم الأذواق.

ودليل صحتها وشرطها: أن لا تخالف شرعاً، فإن خالفت فهي وهم وتخييل أو تمثيل من الشيطان.

وتجلي الحق سبحانه وتعالى لعباده عبارة عن مشهد يرى فيه العبد جريان القدرة الإلهية في الأشياء، فيشهد بعينه حركاته وسكونها، ويشهد بقلبه أن الله سبحانه وتعالى محركُها ومُسكِّنُها.

والعبد في هذا المشهد مَسْلُوبُ الحول والإرادة، نافٍ الفعلَ عن نفسه، مُثْبِتٌ إياه للباري عز وجل.

---

(١) قد يكون ظاهر الرؤيا يخالف الشريعة، لكن تأويلها موافق، فلا إشكال في ذلك، فلا يشترط أن تكون الرؤيا في ظاهرها وفيما رآه موافقة، إذ هي رؤيا تُؤول وليس على ظاهرها.

(٢) يونس (٦٢ - ٦٤).

(٣) ابن عربي، اصطلاحات صوفية.

ويرى أهل الكشف أن الله سبحانه وتعالى يتجلى في كل نَفَسٍ، ولا يُكَرِّر التجلي، {كل يوم هو في شأن}.

ويرون أيضا شهوداً أن كل تجلي يعطي خَلْقاً جديداً، ويذهب بخلق، فذهابه هو عين الفناء عند التجلي، وعين البقاء لما يعطيه التجلي الأخرُ[١].

(١) علي عبد الجليل راضي، الروحية عند ابن عربي.

الوحدة الرابعة

أشهر الطرق الصوفية

إن الطرق الصوفية على مختلف مشاربها ووسائل تربيتها تسعى لغاية واحدة وتسير على أسس مشتركة، وإنما تفترق بمزيد عناية واهتمام بوسيلة من الوسائل الموصلة إلى الله تعالى.

في هذه الوحدة ندرس عن أشهر الطرق الصوفية، وهي نموذج لغيرها.

المبحث الأول

الطريقة الشاذلية

التعريف بإمام الطريقة:

تنسب الطريقة الشاذلية إلى علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز، أبو الحسن، الشاذلي، المغربي، كان جامعا لجميع العلوم لا سيما علم التفسير والحديث، وكان يحضر مجلسَه بتونسَ ومصرَ أكابر العلماء كابن عصفور ومحيي الدين بن جماعة والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري وابن الصلاح وابن الحاجب وغيرهم(١).

واسم الشهرة هو الشاذلي، نسبة إلى شاذلة إحدى قرى تونس، التي هاجر إليها بعد أن غادر قريته غمارة في المغرب، والشاذلي ولد سنة **(٥٩٣هـ)**، واتخذ الإسكندرية

---

(١) ينظر: شجرة النور الزكية (ص ١٨٦)، الأعلام (١٢٠/٥)، طبقات الشعراني (٤/٢) .

مقرا، وفيها تزوج، واقتنى الضياع، وكان له الولد والأهل والأحباب، ومات سنة **(٦٥٦هـ)** فى طريقه إلى الحج بالصحراء بين قنا والقصير، **ودفن حيث مات.**

وقد استخلف من بعده **أبا العباس المرسي** وكذلك **مكين الدين الأسمر وسلطان العلماء العز بن عبد السلام**، وتلقى الشاذلي علوم الطريقة عن الشيخ **عبد السلام بن مَشِّيْش**، ومقامه في المغرب كمقام الشافعي بمصر، من حيث الشهرة والزيارة.

وكان يقول له: الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدَثْت [أي ذَنْباً] تطهرت من دنس حب الدنيا، وكلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت، وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة.

لقد عاش أبو الحسن الشاذلي سنوات عمره مثالا للشيخ العالم الصوفي الحق.

يذكر صاحب "طبقات الشاذلية" و"ابن العماد" في كلامه على وفيات سنة (٦٥٦هـ):

وفيها الشاذلي أبو الحسن المغربي الزاهد (حجة الصوفية)، شيخ الطائفة الشاذلية، كان ضريراً، اشتغل بالعلوم الشرعية، ثم سلك منهاج التصوف حتى ظهر صلاحه، قدم إسكندريّة في المغرب وصار يلازم ثغرها من الفجر إلى المغرب[1].

وكان الشاذلي يسعى في مصالح الناس، ويستشفعون به من أجل معايشهم.

يقول الشيخ مكين الدين الأسمر: مكثت أربعين سنة يشكل علي في طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي[2].

ومن مكاتبات تلميذه الكبير أبو العباس المرسي لبعض أصحابه بتونس يصف الشيخ أبا الحسن: وإني صحبت رأسًا من رؤوس الصديقين، وأخذت منه سرا، لا يكون إلا لواحد بعد واحد، والشرح يطول، وبه أفتخر، وإليه أنتسب، وهو أبو الحسن الشاذلي.

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد (٤٨٢/٧)، طبقات الشاذلية.

(٢) المفاخر العلية لابن عياد (١٤).

في نفس القرية الصغيرة - غمارة - القريبة من مدينة سبتة التي ولد فيها الشاذلي، وبها نشأ ونما.. وبها أيضا تعلم القرآن والحديث على يد شيوخها، واشتاق الصبي وهو صغير إلى علوم القوم فاتجه إلى شيخ من شيوخ الصوفية الكبار، فرحل إلى مدينة "فاس"، وكان ذلك الشيخ هو الصوفي الكبير عليٌّ أبو الحسن بنُ حرازم[(١)]، ولبس منه خرقة التصوف وسلك الطريق على يديه.

والشيخ علي بن حرازم كان من أكبر تلامذة أبي مدين التلمساني.

ويعتبر الإمام شعيب أبو مدين التلمساني صاحب مدرسة، له بصمات عظيمة في طرق التصوف، ودور كبير في تأسيس بعض الطرق الصوفية، فمن تلاميذه وتلاميذهم الذين حملوا منهجاً قويماً، ظَهرتْ شُيوخُ طُرُقٍ صوفية ورُوّادُها.

ومن خلال الشيخ أبي مدين ترى التواصل العظيم بين أئمة الطرق الصوفية المشهورة، **فقد التقى أبو مَدْيَن بالجيلاني بمكة، وأتم بإرشاده علومه الصوفية وتأثر بطريقته، ويلاحظ أن أم الشيخ أحمد البدوي حفيدة لأبي مدين، وأبو مدين هذا هو أستاذ عبد السلام بن مشيش، وابن مشيش هو أستاذ أبي الحسن الشاذلي، وأبو الحسن الشاذلي تلميذ أبي الفتح الواسطي، وأبو الفتح الواسطي تلميذ الرفاعي، كما أن الواسطي جد الشيخ إبراهيم الدسوقي.**

وإذا أردنا تتبع رحلات الشيخ أبو الحسن الشاذلي وجدنا أنه بعد لبس خرقة التصوف من أستاذه عبد الله بن حرازم تلميذ أبي مدين رحل إلى "زويلة" ثم إلى مدينة تونس وتلقى على علمائها علوم الشريعة وتفقه على مذهب مالك ودرس علوم الفقه والأدب.

وقد تجول الشاذلي في معظم بلدان المغرب وسافر إلى العراق واجتمع هناك بالولي أبي الفتح الواسطي عام (٦١٨هـ) تلميذ الإمام الرفاعي الكبير الذي أرسل الواسطي للإسكندرية لينشر بها الطريقة الرفاعية، وكان الشاذلي أكثر اتصاله بالعباد والمتصوفة،

---

(١) أحد شيوخ الأندلس والمغرب المعدودين، كان والده شيخا لأبي مدين، ولبس منه خرقة التصوف، وكان لابن حرازم مقام كبير بالمغرب، توفي ودفن بالأهواز بضواحي فاس سنة (٦٣٣هـ) .

وكان أكثر تأثره في رحلته هذه بالشيخ أبي الفتح الواسطي وهو من أكبر تلاميذ الشيخ أحمد الرفاعي وكانت له منزلة عظيمة عند الرفاعية.

كانت مقابلة الإمام أبي الحسن الشاذلي الأولى لأستاذه ابن مشيش في رأس جبل حيث كان يرابط متعبدا زاهدا خاشعا، قال الشاذلي: "لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه برأس جبل اغتسلت وخرجت من علمي وطلعت إليه فقيرًا وإذا به هابط علي، فلما رآني قال: مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار، وذكر نسبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا علي طلعت إلينا فقيرا من علمك؟ أخذت منا علمي الدنيا والآخرة، فأخذني الدهش، وأقمت عنده أياما إلى أن فتح الله على بصيرتي، ورأيت له خوارق عادات وكرامات"(١).

وبعد أن صحبه مدة قال ابن مشيش للشاذلي: "يا علي: ارتحل إلى أفريقيا، واسكن بها بلدا تسمى شاذلة، فإن الله تعالى يسميك الشاذلي، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد تونس، ويؤتى عليك من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية، قال: فقلت له يا الشيخ أوصني فقال لي: اللهَ اللهَ والناسَ، نُزِّهْ لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك"(٢).

وصدع الشاذلي لأمر أستاذه وارتحل إلى "شاذلة" وهي قرية قريبة من تونس، وفي غار بجبل "زغوان" المطل على شاذلة سكن أبو الحسن الجبل وصحبه في معظم الأوقات تلميذه الحبيبي.

وظل الشاذلي في مغارته متعبدا واصلا الليل بالنهار في عبادة ربه والتقرب إليه بالنوافل والصيام.

---

(١) المواهب السنية في الآثر الشاذلية للأخميمي (ص١٥).

(٢) المرجع السابق (١٦).

وطالت إقامة الشاذلي «بشاذلة» وعرف هناك وذاع صيته وبدأت نبوءة أستاذه ابن مشيش تتحقق، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلي، وبدأ الناس يقصدونه، ثم أنه خرج عن رباطه فاتخذ له دارا (بمسجد البلاد) بمدينة تونس وأصبح ينتقل بينها وبين زاوية بجبل زغوان.

وأصبحت دروس الشيخ الشاذلي ومواعظه وتعاليمه بالمسجد من الأمور التي يحرص على الذهاب إليها مئات المريدين.. فبدأت حلقة الشيخ تتسع يوما بعد يوم ويزداد صيته في طول البلاد وعرضها، فكان إذا جلس للدرس التف حوله الأتباع المتكاثرون وإذا سار مشى في ركبه عشرات وعشرات.

أيام محنة الإمام الشاذلي

وهذا الإقبال المتزايد من أهل تونس حول الشيخ الشاذلي عرضه لأحقاد ودسائس قاضي الجماعة بمدينة تونس (أبو القاسم بن البراء) فبدأ يكيد للشاذلي لدى سلطان تونس (أبي زكريا الحفصي) واتهمه بأنه جاسوس فاطمي، جاء يتآمر عليه فهو حسني علوي.

وقد كانت تونس قبل ذلك فاطمية، فاستغل قاضي الجماع أبو القاسم ابن البراء إطلاق ا لناسِ كلمةَ القُطْبِ على الشاذلي، بأنها سِتار يُخفي وراءَه معنى الإمام الفاطمي أو المهدي، لكن ابن البراء لم يكن على حق، فالشاذلي كان يقدر ويحترم الخلفاء الراشدين الأربعة ويعتبر أنه لا فرق بين أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي.

وقد كان يصرح ا لإمام الشاذلي أنه يستقي من النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ويحدثنا صاحب (درة الأسرار) وصاحب (المفاخر العالية) عن حسد ابن البراء ومحاولاته الوقيعة بين الشاذلي وبين سلطان تونس فيقول: أن ابن البراء أبلغ السلطان أن ها هنا رجلا من أهل شاذلة يدعِي الشرف، ويدعي أنه الفاطمي، ويشوش عليك في بلادك، واتهمه بالزندقة، فأمر السلطان بأن يعقد مجلس يحضره الشاذلي والعلماء والفقهاء

ويناقشون أبا الحسن، وعقد المجلس وسألوه عن نسبه مرارا والشيخ يجيبهم، وتحدثوا معه في علوم الدين والفقه فوجدوه عالما فقيها أذهل الجميع بحسن إجاباته.

فقال لهم السلطان: دعوه عنكم هذا رجل من أكابر الأولياء، فقال له ابن البراء: والله إن تركته ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجنك من أظهرهم، فإنهم مجتمعون على بابك، ولكن السلطان الذي تأكد من علم وتقى الشيخ الشاذلي لم يهتم بقول قاضي الجماعة وأمر الفقراء أن ينصرفوا، ولبث مع الشيخ وقتا طيبا إلى أن حضر أخو السلطان أبو عبد الله اللحياني، وكان كثير الاعتقاد في الشيخ فخرج مع الشاذلي إلى داره وصحبه وأكرمه.

وأحس أبو الحسن الشاذلي بغيرة وحقد قاضي القضاة نحوه فعزم على أن يترك تونس فلما علم السلطان قال: أي شيء يُسَمَعُ به عن إقليمنا؟ إنه أتاه ولي من أولياء الله فضاق عليه حتى خرج فارا بنفسه، فقال الشيخ الشاذلي: ما خرجت إلا بنية الحج، وإذا قضى الله حاجتي أعود إلى تونس إن شاء الله تعالى فسمح له السلطان بالخروج.

ولكن ابن البراء الذي لا يزال قلبه مملوءًا بالغيرة كاد للشاذلي مكيدة أخرى خارج تونس فأعد رسالة سريعة إلى سلطان مصر الملك الكامل محمد الأيوبي، ووصل رسول ابن البراء للملك قبل وصول الشاذلي لمصر في طريقه إلى الحج، وفي هذه الرسالة يقول قاضي الجماعة بتونس: «أن هذا الواصل إليكم - يقصد الشاذلي - شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم».

ولم يكد الشاذلي يصل الإسكندرية حتى قُيِّد، وأُرْسِل في حراسة مشددة للقلعة [السجن]، وهناك عقد له مجلس من القضاة والعلماء وفقهاء الدين، واكتشفوا علمه وورعه وصدق إيمانه، وأحس السلطان بأنها مكيدة من ابن البراء فاعتذر للشاذلي وأكرم وفادته، وذهب أبو الحسن لحج بيت الله تعالى الحرام ثم عاد إلى تونس وفاء لوعده لدى السلطان التونسي، وهناك في هذه المرة التقى بتلميذه الكبير (أبو العباس المرسي) ومكث هناك حوالي عامين عمل خلالهما على تصفية أموره بتونس، وأعد رحلته إلى الشرق في سنة (٦٤٢هـ) حيث سافر إلى الإسكندرية ليقيم بها.

وصحب معه أخلص تلاميذه أبو العباس المرسي الذي تعرف عليه حوالي عام ٦٤٠هـ بتونس، وكذا صحب معه إلى الإسكندرية خادمه الأمين أبا العزايم ماضي بن سلطان، والحاج محمد القرطبي، وأبا عبد الله البجائي، وأبا الحسن البجائي، والخزاز، وعدداً كبيرًا من أتباعه الذين أخذوا في التزايد كلما مر بمدينة من المدن في طريقهم إلى الإسكندرية، ولما وصل الشيخ وأتباعه الإسكندرية اتخذ له دارا بالقرب من (كوم الدكة) ببرج من أبراج السور حبسه[1] السلطان عليه وعلى ذريته، في أسفله مرابط للبهائم، وفي الوسطى منه مساكن للفقراء وجامع كبير، وفي أعلاه مسكنه.

وبدأ الشاذلي يلقي دروسه ويدعو الناس إلى طريقته في مسجد العطارين، كما كان يعقد كل ليلة في داره مجلسا يأتي الناس إليه من البلد يسمعون كلامه.

ويقول أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنه انتقل إلى الإسكندرية بناء على رؤيا رآها، وفيها يأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتقل إلى الديار المصرية.

وهنا نجد تشابهاً واضحاً بين رؤيا الشاذلي والشيخ أحمد البدوي، ونلاحظ أن مشايخ الطرق الصوفية يقولون: إنهم لا يتحركون من مكان إلى مكان إلا بإلهام أو رؤيا تأمرهم بالرحيل إلى هذا المكان أو غيره من الأمكنة.

وليس معنى ذلك أن الأولياء يَبنون حياتهم على الرؤى، ولكن الرؤى تكون مؤيدة وإجابة لاستخارة، وموافقة لما يجوز أو يُندب أو يَجب شرعاً، فيستأنس بها الولي.

فانتقل الإمام الشاذلي إلى الديار المصرية، وأسس بها طريقته الكبيرة التي انتشرت بها انتشارا سريعا.

وظل الشاذلي بمصر قرابة أربعة عشر عاما من عام ٦٤٢هـ إلى أن توفي سنة ٦٥٦هـ «بحُمَيْثَرَة» في صَعِيد مصر في صحراء «عَيْذاب» وهو في طريقه إلى الحج.

وبهذا المكان حميثرا قبره.

---

(١) الحبس: الوقف، أي جعله وقفاً عليه.

وبموت الشاذلي خلفه في طريقته تلميذه الكبير وأقرب الناس إلى قلبه أبو العباس المرسي (٦١٦هـ-٦٨٥هـ) تلميذه وصاحبه وزوج ابنة الشاذلي، وقد أوصى أبو الحسن أتباعه به قبل أن يموت، فقال لهم: إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي.

هذا هو الشاذلي: رحلة في طريق الله من المغرب إلى العراق إلى تونس إلى مصر(١).

أصول ومنهج الطريقة الشاذلية في التزكية

لعل أوضح ما يبين منهج الطريقة الشاذلية وأصولها هي شخصية الشاذلي وتربيته لمريديه وما أثر عنه من أقوال وحكم.

ولهذا فقد رأينا أبا الحسن يختلف عن بعض أصحاب الطريق حيث كان يرتدي أحسن الثياب وأجملها.

ودخل أبو العباس المرسي يوما على الشاذلي، وفي نفسه أن يأكل الخشن، وأن يلبس الخشن، فقال له الشيخ: يا أبا العباس (اعرف الله وكن كيف شئت).

ويقول أبو الحسن: (يا بني: برد الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت: الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد، فقلت: الحمد لله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله.

وكان الشاذلي يأخذ زينته عند كل مسجد، ويتحلى دائماً بالثياب الحسنة، ولا يَلْبَس زياً يتميز به عن الناس(٢).

وكان الشاذلي يركب الخيل الجياد ويقول: **لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، أو تخل أعضاؤك لها، فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها.**

---

(١) الطرق الصوفية في مصر (ص١٢٤-١٢٩).

(٢) ورد في كتاب مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٢٧٩٥/٧)، لملا القاري: «وهذا الطريق هو مختار فريق النقشبندية، والسادة الشاذلية، والسادة البكرية؛ حيث لم يتقيدوا بلباس خاص من صوف أو غيره كسائر الصوفية، نفعنا الله ببركاتهم وحسن مقاصدهم في نيتهم».

ومرّة كان الإمام أبو الحسن الشاذلي يتكلم في الزهد وهو يلبس تلك الثياب الفاخرة، وكان في المجلس فقير عليه أثواب رثة، فقال الفقير في نفسه: كيف يتكلم الشيخ في الزهد وعليه هذه الكسوة؟ أنا الزاهد في هذه الدنيا، فالتفت إليه سيدنا أبو الحسن وقال: ثيابك هذه ثياب الرغبة في الدنيا، لأنها تقول للناس أنا فقير، أنا فقير، وثيابنا هذه تنادي علينا بلسان الغنى، وتقول صاحبها غني متعفف، فقام الفقير على رؤوس الناس وقال: أستغفر الله وأتوب إليه، السماح السماح ياالشيخ، وهنا كساه الإمام كسوة جيدة[١].

وقال رضي الله عنه: **العاقل من عقل عن الله بما أراد به ومنه** شرعاً.

والذي يريد الله[٢] بالعبد أربعة: إما نعمة، أو بلية، أو طاعة، أو معصية.

فإن كنت بالنعمة فالله يقتضي منك الشكر شرعاً.

وإذا أراد الله بك بلية فالله يقتضي منك الصبر شرعا.

وإذا أراد الله منك طاعة فالله يقتضي منك شهود المنة، ورؤية التوفيق شرعا.

وإذا أراد الله تعالى منك المعصية فالله تعالى يقتضي منك التوبة والإنابة شرعا.

فمن عقل هذه الأربعة عن الله وكان فيما أحب الله منه شرعا فهو عبد على الحقيقة، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (من أعطي فشكر، ومن ابتلي فصبر، وظلَم فاستغفر، وظُلِم فغفر، ثم سكت، فقالوا: ماذا يا رسول الله؟ فقال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[٣] وذلك في قول بعضهم: ولن يسهل ذلك إلا على عبد أحب لا يحب إلا الله وحده أو أحب ما أمر الله به شرعا لدينه، والسلام.

ومن كلامه رضى الله تعالى عنه: عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي صلى الله عليه وسلم، بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر،

---

(١) الطريقة الشاذلية الدرقاوية الهاشمية (ص ١٠٨).

(٢) أي ما يجريه الله ويقضيه عليه.

(٣) المعجم الكبير للطبراني برقم (٦٦١٣).

هذا في معصوم لم يقترف ذنبأ قط - وتقدس عن ذلك - فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب وقت من الاوقات(١).

وقال رحمه الله: هن ثلاث: فرغ لسانك للذكر، وقلبك للتفكر، وبدنك لمتابعة الأمر، وأنت إذاً من الصالحين.

وقال رحمه الله: إذا ثقل الذكر على لسانك، وكثر اللغو من مقالك، وانبسطت الجوارح في شهواتك، وانسد باب الفكرة في مصالحك، فاعلم أن ذلك لعظم أوزارك، أو لكمون النفاق في قلبك، وليس لك طريق إلا التوبة والصلاح والاعتصام بالله والإخلاص في دين الله، ألم تسمع إلى قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (٢) ولم يقل من المؤمنين فتأمل هذا الأمر إن كنت فقيها والله أعلم.

وقال رضي الله عنه: أربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها فاجعله والتراب سواء: الرحمة للأصاغر، والحرمة للأكابر، والإنصاف من النفس، وترك الانتصاف لها.

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأن به وإن كان أحدُهم أعلمَ البرية: مجانبة الظلمة، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة ذوي الفاقة، ومواظبة الخمس في الجماعة.

وكان يقول: إذا توجهت لشيء من عمل الدنيا والآخرة، فقل: يا قوي، يا عزيز، يا عليم، يا قدير، يا سميع، يا بصير.

ويقول رضي الله عنه: **التصوف** تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

ومن وصاياه: إياك أيها الأخ أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة، المستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله، فإنَّ هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم

(١) كشف الأسرار لتنوير الأفكار (٣٠) .

(٢) النساء (١٤٦).

إليه، وألقوا أنفسهم سلما بين يديه، وتركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والمغالب لمن غالبهم.

وقال رضي الله عنه: **الطريق**: القصد إلى الله تعالى بأربعة أشياء، فمن جاوزهن فهو من الصديقين المحققين، ومن جاوز منهن ثلاثا فهو من أولياء الله المقربين، ومن جاوز منهن اثنتين فهو من الشهداء الموقنين، ومن جاوز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين.

أولها: الذكر: وبساطه العمل الصالح، وثمرته النور.

الثاني: التفكر: وبساطه الصبر، وثمرته العلم.

الثالث: الفقر: وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه.

الرابع: الحب: وبساطه بغض الدنيا، وثمرته الوصلة بالمحبوب(١).

وكان يقول: إذا أردت أن يستجاب لك بأسرع من لمح البصر فعليك بخمسة أشياء:

١. الامتثال للأمر.

٢. اجتناب النهي.

٣. جمع الهم.

٤. تطهير السر.

٥. الاضطرار.

وخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(٢).

فإن لم تستطع أن تفعل الخمسة الأشياء وما أراك إلا كذلك فعليك بالخلوة عن الناس واذكر ما شاء الله من قبائحك وأفعالك، وتفقد جميع أعمالك، وقدم إليه جميع ما علمت من جميل ستره عليك، وقل: يا منان يا كريم يا ذا الفضل العظيم، من لهذا العبد العاصي غيرك، وقد عجز عن النهوض إلى مرضاتك، وقطعته الشهوة عن الدخول في

---

(١) درة الأسرار وتحفة الأبرار (٩٢).

(٢) النمل (٦٢).

طاعتك، ولم يبق لي ما أتمسك به سوى توحيدك، وكيف يجترئ على السؤال من هو معرض عنك، أم كيف لا يسأل من هو محتاج إليك.

وقد مننت علي الآن بالسؤال منك، وجعلت حسبي الرجاء فيك، فلا تردني خائبا من رحمتك يا كريم.

قد جعلت لأسمائك حرمة، فمن دعاك بها لا يشرك بك شيئا أجبته، فبحرمة أسمائك يا الله يا مالك يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا بارئ يا مصور قني من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والشك وسوء الظن وضلع الدين وغلبة الرجال، فإنه لك الأسماء الحسنى وقد سبح ما في السموات والأرض لك وأنت العزيز الحكيم.

اللهم إني أسألك خيرات الدنيا وخيرات الدين، خيرات الدنيا بالأمن والرفق والصحة والعافية، وخيرات الدين بالطاعة لك والتوكل عليك والرضا بقضائك والشكر على آلائك ونعمك إنك على كل شيء قدير.

وأصحاب الشاذلي وفدوا معه من تونس ومنهم: **أبو العباس المرسي**، ولما توفي المرسي خلفه على الطريقة أبرز تلاميذه من المصريين **ابن عطاء الله السكندري**.

وتصوف الشاذلي والمرسي وابن عطاء الله - وهم أركان الطريقة الشاذلية - كان تصوفاً سنياً.

ويقول الشاذلي: كتاب الإحياء للغزالي يورث العلم، وكتاب قوت القلوب للمكي يورث النور.

وانتشرت الشاذلية فى العالم الإسلامي لما فيها من معايشة للواقع، وبلغت الأندلس، وكان أبرز ممثليها هناك ابن عَبّاد الرُّنْدِيّ المتوفى سنة (٧٩٠هـ) والذي تولى شرح الحِكَم العطائية.

وامتد تأثيرها إلى جنوب شرقي آسيا وغرب إفريقيا وتركيا والبلاد العربية[١].

---

(١) ينظر: الموسوعة الصوفية لعبد المنعم الحفني، وغيرها.

وقد أوضح الأستاذ الكامل الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى معالم الطريق الشريفة برسالته التي سماها بالأصول، وقد سبق ذكرها.

والحاصل أن مبنى طريق السادة الشاذلية على الاستقامة التامة، والجمع على الله تعالى، والحضور في موقف العبودية، وموافقة الكتاب والسنة في كل نفس وخطرة ووارد وحال، والعمدة فيها صحبة أهل المعرفة والعلم، وكثرة الذكر مع الحضور.

ومشايخها رضي الله عنهم هم سُراةُ الفَضْل، وأعلام الهدى، القائمون بأوامر الله تعالى، الحافظون حدوده، الآمرون بها، والناهون عن كل ما لا يرضاه كبقية أئمة الطرق الشريفة، وكل منهم أشهر من نار على علم، فلا عبرة بمن يدّعي الانتساب إليهم ولا يقتدي بأقوالهم وأفعالهم، ولا يقدح هذا في كمالهم، قال تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)(١).

قال الاستاذ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري مبينا منهج طريق الشاذلية والإمام الشاذلي:

كان مبنى طريقة الشيخ رضي الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة، وملازمة الخلوة والذكر، وكان لكل مريد معه سبيل يحمله عليه، فيسلك بكل أحد من السبيل الذي يناسبه، وكان لا يأمر أحداً بترك حرفته أو تجارته، بل يعرِّفُه الطريق وهو باق على حالته.

وكان يقول عن شيخه: اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلاً أعذب من هذا المنهل فَرِدُوا، وكان لا يحب المريد الذي لا سببَ له.

ويقول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود: (أن النظرية الشاذلية في الغنى والفقر تفضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة في الدنيا فقط. أما الشكر فإنه فضيلة في الدنيا والآخرة)(٢).

---

(١) كشف الأسرار لتنوير الأفكار (٣٩).

(٢) كتاب أبو الحسن الشاذلي للدكتور عبدالحليم محمود (ص١٧٠).

قال أبو الحسن الشاذلي: ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنِّخالَة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية[١].

ويقول تعالى في كتابه العزيز: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ)[٢].

وكان مما يميز شخصية الشاذلي أيضا سعيه للخير ولقضاء مصالح الناس، يقول ابن عطاء الله السكندري: أخبرني بعض أصحابنا قال: استشفع طالب الشيخ أبا الحسن إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز أن يزاد على مرتبه فذهب الشيخ إليه فأكبر القاضي تاج الدين مجيئه إليه وسأله فيم مجيئه، فقال الشيخ: من أجل فلان الطالب كي تزيده في مرتبه عشرة دراهم، فقال القاضي: يا شيخ هذا له في المكان الفلاني كذا، وفي المكان الفلاني كذا وكذا.. فقال له الشيخ: يا تاج الدين: لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها، فإن الله تعالى لم يقنع المؤمن بالجنة جزاء له حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم[٣].

وكان لا يرد من يقصده بل يسعى لقضاء مصالحه.

وإلى جانب هذا كله، فقد كان الشاذلي مكافحًا بمعنى الكلمة وبنضاله المجيد الذي يذكره له التاريخ هدم الشيخ فكرة عن الصوفية بأنهم سلبيون في الحياة، وأن تصوفهم ضعف، فها هو أبو الحسن الشاذلي وهو في أخريات حياته يذهب بنفسه لميدان الوغى في معركة المنصورة يلهم جند الله ويبث فيهم من روحه وقلبه إيمانًا بالنصر.

وكان الشيخ في أخريات حياته قد كف بصره ووهن عظمه، ولكن عزيمته لم تهن، فذهب إلى ميدان المعركة مع جند مصر في مواجهة جيوش الغرب الصليبية بقيادة

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري (ص١٦٤).

(٢) الأعراف (٣٢).

(٣) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري (ص١٦٥).

لويس التاسع ملك فرنسا، ذهب هناك للمنصورة مع رجالات من أعظم الرجال في العلم والدين: العز بن عبد السلام، مجد الدين القشيري، وأمثالهم.

وكان وجود هؤلاء العلماء الأجلاء في المنصورة من عوامل رفع الروح المعنوية للمقاتلين وتقوية إيمانهم وعزمهم.

قال الشيخ ابن دقيق العيد: حضرت بالمنصورة [أي في المعركة] مع الشيخ أبي الحسن، وما رأيت أعرف بالله منه[1]، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزرا، عاد بعدها إلى ما كان عليه من التدريس والوعظ وتهذيب النفوس بين مريديه، ورغم أن الشاذلي كان مسناً قد كف بصره فإنه كان في مقدمة المجاهدين[2].

وكما كان الشاذلي مكافحا وداعيا لنصرة الإسلام والمسلمين، فقد كان يدعو أتباعه إلى السعي للزرق وإلى العمل.

يقول أبو العباس المرسي: دخلت يوما على الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، فقال لي: إن أردت أن تكون من أصحابي، فلا تسأل أحدًا شيئا، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله، فقلت في نفسي: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذه، فقال الشيخ: إن كنت مقتديًا به في الأخذ، فكن مقتديا به كيف يأخذ، كان صلى الله عليه وسلم لا يأخذ شيئا إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدمت هكذا فاقبل وإلا فلا[3].

---

(١) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للسيوطي (١/٣١).

(٢) ومن الأوراد التي أوصى بها مريديه بقراءتها في الليل بعدما تهدأ المعارك حزب النصر وحزب الطمس على وجوه الأعداء، فأما حزب النصر فأوله: بسم الله الرحمن الرحيم، بسطوة جبروت قهرك وسرعة إغاثة نصرك، وبغيرتك لانتهاك حرماتك وبحمايتك لمن احتمى بآياتك نسألك يا الله، يا قريب، يا سميع يا مجيب، وأما حزب الطمس، فأوله: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله السميع القريب المجيب تجيب دعوة الداعي، إذا دعاك، وتجيب المضطر وتكشف السوء.

(٣) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري (ص١٦٥).

كان الشاذلي رحمه الله على قدر كبير من العلم والمعرفة، باعه في العلم كبير، وفهمه عميق.

يقول الشاذلي عن النفس: مراكز النفس أربع: مركز للشهوة في المخالفات، ومركز للشهوة في الطاعات، ومركز في الميل إلى الراحات، ومركز في العجز عن أداء المفروضات لله، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[1].

ويقول: إذا أردت جهاد النفس فاحكم عليها بالعلم في كل حركة، واضربها بالخوف عن كل الحظوظ، واسجنها في قبضة الله فيما كنت، واشْكُ عجزَك إلى الله كلما غفلت[2].

وقد كان الإمام الشاذلي بنفسه يختار الكتب التي يقرأها أو يدرسها ويشرحها لتلاميذه ومريديه، ومن أهم هذه الكتب:

إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

المواقف والمخاطبات للشيخ محمد بن عبد الجبار النِّفَّري.

قوت القلوب لأبي طالب المكي.

الرسالة القشيرية للإمام القشيري.

والشفاء للقاضي عياض.

وداخل جدران مدرسة الشاذلي استطاع هذا الإمام أن يربي الرجال ويعلمهم منهجه وطريقته، ولكنه لم يضع كتبا، وعندما سئل؛ لِمَ لَمْ تضع الكتب، قال: كتبي أصحابي.

إلا أنه ينسب إليه بعض الكتب، وربما نقلها عنه تلامذته، منها:

١. الأوراد المسماة حزب الشاذلي.

٢. الأمين: رسالة في آداب التصوف رتبها على أبواب.

---

(١) التوبة (٥).

(٢) درة الأسرار لابن صباغ (ص١٠٧).

٣. السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل.

٤. نزهة القلوب وبغية المطلوب[1].

التفسير الإشاري

وللشاذلي إشارات لطيفة لبعض آي القرآن الكريم، تعد بمثابة تفسير صوفي لهذه الآيات الشريفة.

وهي تفسيرات لا تخرج عن المعاني المقبولة عند أهل السنة، وتفسيرات الشاذلي الإشارية تدل على عمق في الفهم والتدبر، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [2].

والتفسير الإشاري يكون مقبولاً حينما يراعَى فيه اتفاقُه مع الروح العامة للقرآن، ومع الاستعمال اللغوي، وما أثر عن النبي ﷺ، وعلى أن يكون لهذا الفهم معنى طيباً صحيحاً بذاته، وعادة ما يكون معنى ينبه إلى حالة روحانية عالية، أو يثير مشاعر وأذواقاً لطيفة، أو يحرك إلى تحصيل مكارم الأخلاق[3].

وقد نبه علماء السلف إلى معاني القرآن لا تنتهي، يقول سهل بن عبد الله التُسْتَرِيّ عن فهم القرآن: لو أعطي العبد في كل حرف من القرآن ألفَ فهمٍ؛ لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم، لأنه كلام الله تعالى، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه [4].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: وينبغي أن نلاحظ أمرين: الأول: أن هذه الإشارات لا تهدف في قليل ولا في كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف.

---

(١) ينظر: الأعلام للزركلي (٣٠٥/٤)، معجم المؤلفين (١٣٧/٧).

(٢) محمد (٢٤).

(٣) انظر: كتاب التصوف طريقاً ومذهباً، للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر (ص١٥٧-١٦٠).

(٤) اللمع للطوسي (ص١٠٧). تفسير التستري (٩٨/١) ونقله عنه النيسابوري في التفسير البسيط (٤٢٨/١).

الثاني: أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف، إنها إشارات، وليست تفسيراً، ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين(١).

فلا بد أولاً من التسليم بالتفسير الظاهري أو بالمعنى الحرفي، ولا ضير بعد ذلك أن نذكر معاني أخرى، تتكشف للنفس الصافية، فإن هذا ثمرة الإيمان، كما يقول سعد الدين التفتازاني(٢).

وكان للشاذلي تفسيرات واستنباطات رائعة، فمثلاً فسر آية ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(٣)، هكذا يقال للولي: وما تلك بيمينك أيها الولي؟ فيقول: هي دنياي أنفق منها على نفسي وأهلي وإخواني، فيقال له: أَلْقِها، فيلقيها فيجدُها حيةً تسعى في هلاك قابضها، فيأخذ حذره منها، فإذا حذر منها يقال له: خُذْها ولا تخف، فكما ألقاها أولاً بإذنٍ، حالَ بدايته، فكذلك أخذَها بإذنٍ، حالَ نهايته(٤).

ومن أمثلة تفسيرات الشاذلي الإشارية، قوله: إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فاثبت، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٥)(٦).

عمل الإمام الشاذلي بالكتاب والسنة، وتربية تلاميذه على ذلك:

تشهد أقوال الإمام الشاذلي الكثيرة تأكيده المستمر على ضرورة الالتزام بمتابعة السنة فمن هذه الأقوال قول: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم

---

(١) كتاب أبو العباس المرسي للدكتور عبدالحليم محمود (ص٥٧).
(٢) التصوف طريقاً ومذهبا لكمال جعفر (ص١٦٠).
(٣) طه (١٧).
(٤) التصوف الإسلامي للدكتور مبارك (ج٢ / ص٣٠٥) نقلاً عن اللوائح للشعراني (ص٣٥٥).
(٥) الأنفال (٤٥).
(٦) لطائف المنن للسكندري (ص١١٠).

يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، وأنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة(١).

وتكشف أقواله عن شدة تمسكه بالسنة حين يقول: ارجع عن منازعة ربك تكن موحداً، واعمل بأركان الشرع تكن سُنّياً، واجمع بينهما تكن محققاً.

وحين يقول: إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس والجماعات فلا تَعْبَأَنَّ به(٢).

وأكثر من ذلك يقول الشاذلي: إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة واحدة إلا من يدلك على الله بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة(٣).

الحق أن الشاذلي كان عاملا بكتاب الله وسنة رسوله، ومن يتأمل أقواله وآراءه يجده مثالا نادرًا للصوفي العامل **على ربط الشريعة بالحقيقة** داعيًا أتباعه أنه **لا حقيقة بلا شريعة** وأن أساس الحقيقة الشريعة.

ويقول الدكتور صافي: درست حياة الشاذلي والمرسي وغيرهما من المتصوفين المعتدلين كعبد الرازق بن حسام بن رزق الله وإبراهيم بن معضاد الجعبري، فوجدت أنهم كانوا جميعًا على مذهب أهل السنة والجماعة من حيث الأصول والفروع، ومن هنا كان تصوفهم العلمي والنظري قائمًا على أساس من ظاهر السنة والكتاب(٤).

وتدل أقوال الشاذلي وأفعاله: أنه يعتنق **في التوحيد مذهب الأشاعرة**، فالله عنده واجب الوجود، ومتصف بالقدم والبقاء، أزلي أبدي سميع بصير متكلم عليم.

---

(١) طبقات الشاذلية (٢٢).

(٢) طبقات الشاذلية (ص٢٠-٢٢).

(٣) الأدب الصوفي للأستاذ التفتازاني (٦٧-٦٨) .

(٤) الأدب الصوفي للدكتور علي صافي (ص٣٦).

أما أحزابه فهي صريحة في الإقرار لله بالوحدانية والقدرة المطلقة، وأنه هو وحده المتصرف في كل شيء، كحزب البر، وحزب البحر وغيرهما من الأذكار، ناطقة بذلك مُعرِبة عنه في وضوح وجلاء[١].

وبالطبع إنه لا يتصور من صوفي حق غير ذلك، ونلاحظ أن تلاميذ الشاذلي أخذوا بالمبادئ المثلى للتصوف، فهو لم يكن يفهم التصوف على أنه بطالة بحجة الزهد والتفرغ للعبادة، بل كان يفهمه على أنه صفاء تام في النفس وتقوى خالصة لله وحب لله تعالى وتعلق به، وارتفاع بالروح وبالعمل وبالقول عن الدنيا.

وكان الشاذلي يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر فهو نوع من الادعاء، ولكي يضرب لأتباعه المثل والقدوة كان يحيا هو حياة نظيفة منعمة[٢].

يقول الشاذلي عن الصوفي الصحيح: للصوفي أربع صفات، التخلق بأخلاق الله[٣]، وحسن المجاورة لأوامر الله، وترك الانتصار للنفس حياءً من الله، وملازمة البِساط بصدق الفناء مع الله[٤].

الكرامة:

يقول الإمام الشاذلي: ما ثَمَّ كرامةٌ أعظمَ من كرامة الإيمان ومتابعة السنة، فمن أعطيها وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك، فاشتاق إلى سياسة الدواب، كل كرامة لا يصحبها الرضا من الله، وعن الله، والمحبة لله، ومن الله، فصاحبها مستدرَج مغرور أو ناقص هالك مبتور[٥].

ويحدثنا الإمام الشاذلي عن فائدة الكرامة فيقول: **فائدة الكرامة:**

---

(١) الأدب الصوفي للدكتور التفتزاني (ص٦٧).

(٢) أعلام الأسكندرية للاستاذ الشيال (ص١٧٨).

(٣) أي يتخلق بمعاني صفات الله، على ما تقتضيه العبودية.

(٤) إتحاف اهل العناية الربانية (ص١١٢).

(٥) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق (١٣٣-١٣٤).

أولا: تعريفُ اليقين(١) من الله تعالى، بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية مجتمعة، فإنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد، لا يستوي من تَعَرَّفَ اللهُ إليه بنوره، بمن تعرف إليه بعقله.

ثانيًا: ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له، ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم، وفقدها أهل النهايات في نهاياتهم، إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت، وهكذا كان السلف لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية.

ثالثاً: لمعرفة تفضيل الله تعالى؛ فيمن أُظْهِرَتْ عليه، شاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى.

وقال الشاذلي أيضا: **الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة**، والوصول إلى كمالها ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله عز وجل، واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً، فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليهما، ولا تكون له همة إلا في الوصول إليهما، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكمل استقامته وقد يرزق بها المستدرجون(٢).

ومن هذا كله نلاحظ أن الإمام الشاذلي نفسه يقدر الكرامة المعنوية ويعتبرها الكرامة الصادقة.

من كراماته:

على سبيل المثال؛ قول ابن عطاء الله السكندري: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: كنت في بعض سياحاتي وقد أويت إلى مغارة بالقرب من مدينة المسلمين فمكثت فيها ثلاثة أيام، لم أذق طعاما، فبعد الثلاثة أيام دخل علي ناس من الروم كانت قد أرست سفينتهم هنالك، فلما رأوني قالوا: قسيس من المسلمين، فوضعوا عندي طعامًا

(١) أي أن يعرفك الله به تعريفاً يقينياً لا يحتمل الخطأ والشك.

(٢) المرجع السابق.

وإداما كثيرًا، فعَجبت كيف رُزقت على أيدي الروم ومنعت ذلك من المسلمين؟ وإذا قائل يقول لي: ليس الرجل من نُصر بأحبابه، إنما الرجل من نصر بأعدائه(١).

وفي رحلته الأخيرة إلى الأراضي الحجازية التي توفي وهو في طريقه إليها، كان قد أوصى أصحابه أن يجهزوا معهم فأساً وحنوطاً وبعض الأشياء التي يجهز بها الموتي، وكأن في ذلك كانت إشارة لقرب أجله.

لقد كان الشاذلي رحمه الله مباركاً تقيًا، فأكرمه الله بأعظم كرامة وهي هداية الناس لطريق الله والعملِ بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.

أصول طريقته:

مر معنا أصول الطريقة الشاذلية، كما بينها الشيخ أحمد زَرُّوق، ونضيف هنا بعض أقوال الإمام الشاذلي التي تكمل الصورة عن طريقته واستقامتها:

يقول الشاذلي: خصلتان تسهلان الطريق إلى الله، المعرفة والحب(٢).

ويقول الإمام الشاذلي: إننا ننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا عن الدليل والبرهان، فبالحب تهبط المعرفة في القلب بلا دليل ولا برهان، وإنا لا نرى أحدًا من الخلق، هل في الوجود سوى الملك الحق وإن كان ولابد فكالهباء في الهواء إذا تحققنا لم نجده شيئاً.

ويحدثنا الإمام الشاذلي عن الأذكار فيقول: الأذكار أربعة: تَذْكُرُه، وهو الذي تَطرد به الغفلة أو ما تخافه من الغفلة، وذِكْرٌ تُذَكَّرُ به، أي خوف العذاب أو البعد، وحب النعيم أو القرب، وذكر يُذَكِّرُك، أن الحسنات من الله والسيئات من نفسك، وإن كان الله هو

---

(١) لطائف المنن (٦٣) .

(٢) درة الأسرار (٧١).

الفاعل المختار، وذكر تُذْكَرُ به ذلك: يقول الله فيه: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)[١] فيذكر اللهُ عبدَه به، فإذا دخلت في هذه الحالة صار الذاكر مذكوراً والمذكور ذاكرا[٢].

ويقول الشاذلي: هن ثلاث: فرغ لسانك للذكر، وقلبك للتفكر، وبدنك لمتابعة الأمر، وأنت إذن من الصالحين.

واليقظة أو المراقبة تسير مع الذكر جنبا إلى جنب، فيجب على الذاكر أن يكون مراقبًا ربه يقظا حذرًا مما يمر عليه من الخواطر والواقعات[٣].

وتكون المراقبة التامة لهواجس النفس، واليقظة منها بدوام ذكر لا إله إلا الله.

ومن أسس الطريقة الشاذلية ترك **التدبير والاختيار**: فأبو الحسن الشاذلي هنا يدعو سالك طريقه، حتى يحصل على المحبة مع الله؛ أن يترك تدبيره إلى تدبير الله، واختياره إلى اختياره سبحانه وتعالى، فهو مدبر الأشياء، وكل شيء بمشيئته تعالى.

ومعنى ذلك أن الله اختار لك أحكاماً فتمشي عليها، ولا تحتاج إلى أن تختار أحكاماً، وقدر مقادير فلا ينبغي أن تعترض عليها، فاقْبَلْ تدبيرَ الله، واعمل بأحكامه، واعتقد حكمتَه فيهما.

ويقول الشاذلي: المحبة مع الله برفض الشهوات والمشيئات، ولن يصل العبد إلى الله، وقد بقي معه شهوة من شهواته، أو مشيئة من مشيئاته.

وقال: من انقطع عن تدبيره إلى تدبير الله، ومن اختياره إلى اختيار الله، وعن نظره إلى نظر الله، وعن مصالحه إلى علم الله، بملازمة التسليم والرضا والتفويض والتوكل على الله، فقد أتاه الله حسن الثواب.

---

(١) البقرة (١٥٢).

(٢) المفاخر العلية (٤١).

(٣) أبو الحسن الشاذلي لعلي سالم عمار (٦٥/٢).

ويقول: لا تختر من أمرك شيئا، واختر ألا تختار، وفر من المختار، ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ)(١).

وعن أسباب ما يحجب الخلق عن الله تعالى يقول الشاذلي:

أكثر ما حجب الخلق عن الله شيئان: هم الرزق، وخوف الخلق، وهم الرزق أشد الحجابين، وذلك لأن أكثر الناس يخلون من خوف الخلق، ولكنهم لا يخلو أحد منهم من هم الرزق إلا القليل، لا سيما وشاهد الفاقة قائم بوجود ذلك، فأنت مفتقر إلى ما يقيم بنيتك ويشد قوتك(٢).

ولا ينبغي أن تفهم مما سبق أن الشيخ الشاذلي من الآخذين **بمذهب الجبر**(٣)، أو أنه يدعو إلى السلبية والتواكل.

---

(١) القصص (٦٨).

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (٦٣).

(٣) معنى الجبر: هو إجبار الناس وإرغامهم على فعل شيءٍ من غير إرادةٍ أو مشيئة لهم، ويرى الجَبرِيَّة أن الناس لا اختيار لهم في أفعالهم، ولا قدرة لهم على أن يغيِّروا مما هم فيه شيئًا، وإنما الأفعال لله سبحانه؛ فهو الذي يفعل بهم ما يفعلونه، وجعلوا هذا مطلقًا في جميع أفعالهم، فإذا آمن العبد أو كفر فإن الإيمان أو الكفر الذي وقع منه، والطاعة أو المعصية، ليست فِعلَه إلا على سبيل المجاز، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه؛ لأن العبد لا يستطيع أن يغير شيئًا من ذلك. مقالات الإسلاميين - لأبي الحسن الأشعري (جـ ١/ صـ ٣٣٨). ويقول الجَبرِيَّة أيضًا: إن العبد مسيَّر، لا خيار له أبدًا، فهو كالريشة في مَهَبِّ الريح، وعلى هذا فإنه يكفيه في مسألة الحساب والجزاء أن يؤمن بالله تعالى بقلبه فقط، مهما فعل من الكفر والمعاصي حتى الشرك، تعالى الله عما يقولون! فمن أشرك بالله عندهم ما دام عارفًا بالله فهو مؤمن! فهؤلاء هم الجَبرِيَّة الغلاة؛ لأنهم يرون أنه ما دام الفعل كله لله تعالى، فلا حساب على العباد إلا بما يتعلق بالمعرفة في القلب، فمن عرَف الله سبحانه نجا، ومن أنكر الله هلك، ومذهب الجَبرِيَّة مِن أخبث المذاهب وأبطلِها؛ لأنه يجعل الله تعالى ظالمًا لعباده، تعالى الله عما يقول غلاة الجَبرِيَّة علوًّا كبيرًا. والفرق بين الجبرية وبين أهل السنة في هذه المسألة؛ أن أهل السنة يؤمنون أن الله خالق الأفعال والممد بها، وأن الإنسان مختار ومكلف، ومسؤول عن اختياره، وأنه إن اختار الخير فالله يمده فيه، وإن اختار الشر فالله يمده فيه، فالعبد ينسب له الكسب، والله له الخلْق، وبناء على ذلك فالإنسان مطالب بالقيام بشريعة الله، فالله أمر بها لحكمة، وأقدرك على القيام

فقد مر بنا أنه يأمر بالأخذ بالأسباب، كالطاعات والعبادات، وأنه يأمر المريد بالكسب الدنيوي، وعلى هذا ربى تلاميذه، فهذا تلميذه أبو العباس المرسي يقول، كما نقل عنه تلميذه ابن عطاء الله السكندري: نحن إذا صحِبَنا تاجرٌ، ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالبُ علمٍ، ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نُقِرُّ كلَّ واحد فيما أقامه الله تعالى، وما قَسَمَه اللهُ له على أيدينا هو واصل إليه.

وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابة فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذي صنعة: اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها(١).

ويقول صاحب (المفاخر العلية): والسادة الشاذلية أشد المشايخ حثًا على عمل الحِرْفة، حتى كان الشيخ أبو العباس المرسي يقول: عليكم بالسبب، ولْيجعلْ أحدُكم مَكُّوكَه سُبحَتَه، أو تحريكَ أصابِعه في الخياطة سُبحتَه (٢).

ويذكر ابن عطاء الله السكندري ما الذي يوجب ترك التدبير والاختيار بالمعنى الذي ذكرناه، فيقول(٣):

واعلم أن الذي يحملك على ترك التدبير والاختيار أمور:

١- علمك بسابق تدبير الله فيك وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك فكن له كما كنت.

٢- أن تعلم أن التدبير منك لنفسك معناه حسن نظر الإنسان لنفسه.

٣- أن القدر لا يجري حسب تدبير الإنسان لنفسه.

أو الترك، ويحاسبك على ذلك، أما الجبرية فيرون التشريع عبثاً، ويرون العبد غير مختار مطلقاً، وبناءً عليهما فلا حساب على العبد.

(١) لطائف المنن (٦٥).

(٢) المفاخر العلية (٦٠)

(٣) التنوير لابن عطاء الله (ص٩-١٢)، وذكره عمار بكتابه عن الشاذلي (٥٣/٢).

٤- أن الله هو المتولي تدبير مملكته، وماذا يكون الإنسان في هذه المملكة فالاهتمام بالتدبير جهل بالله.

٥- علمك أنك ملك لله، فليس لله معه تدبير ما هو لغيره، فما ليس لك في ملكه ليس لك تدبيره وإنك بايعت الله، فلا ينبغي لعبد بعد المبايعة تدبيرٌ أو منازعةٌ، وإلا كان ذلك نقضاً للمبايعة.

٦- إنك في ضيافة الله، لأن الدنيا دار الله وأنت نازل فيها عليه، ومن حق الضيف ألا يعول هما مع رب المنزل.

٧- النظر إلى قيومية الله في كل شيء، فهو قيوم الدنيا والآخرة، في الدنيا بالرزق والعطاء، وفي الآخرة بالأجر والجزاء، فإذا علم العبد قيومية ربه وقيامه عليه ألقى قياده إليه وانطرح بالاستسلام بين يديه.

٨- اشتغال العبد بوظائف العبودية، فإذا توجهت همة العبد إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه.

٩- إنك عبد مربوب، وحق العبد ألا يحمل همّاً مع سيده، فإن مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إليه.

١٠- عدم العلم بعواقب الأمور، فربما دبرت أمراً ظننت أنه لك، فكان عليك.

فالطريقة الشاذلية كما يقول الدكتور علي صافي: تقوم من الناحية السلوكية على العمل بالكتاب والسنة، فالشاذلي يلزم أصحابه وأتباعه ألا يقولون قولاً يخالف في ظاهره ما تَعارف عليه أهل السنة والجماعة من جهة، ولا ما يأباه ظاهر الكتاب والسنة من جهة أخرى، ثم تلاوةِ الأحزاب، وعقدِ مجالس الذكر التي قد تُنشد فيها الأشعار، هذا من الناحية العملية.

أما من الناحية النظرية، فإن طريقة الشاذلي تقوم أولا على الاعتقاد بأن الموجود شيئان، خالق ومخلوق، أو رب ومربوب، أو عباد وإله معبود، وهو في إيمانه بالله وتصوره العلاقة بينه وبين الخلق متفق مع مذهب الأشاعرة وأهل السنة(١).

---

(١) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري (٤١).

حقا لقد كان الشاذلي صوفيا متسنّناً عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله.

ولا بد لمن يريد السير في الطريق الشاذلية من العهد على شيخ مؤهل مسند إلى شيخ الطريقة، فيتلقى عنه ويتابعه.

إذن فالمنهج العام في الطريقة كما قد مر معنا:

١. الاهتمام بالعلم وأحكام الشريعة.

٢. عدم ترك العمل بحجة السلوك.

٣. أداء الفرائض مع الجماعة.

٤. القيام بالفرائض والواجبات، والاهتمام بالسنن والمندوبات.

٥. اجتناب المعاصي بالكلية.

٦. تصفية النفس بإزالة الأوصاف الذميمة، وتحليتها بالأوصاف الكريمة.

٧. الحث على بلوغ المريد رتبة المعرفة والفتح، وأن لا يتوقف ويعتمد على فتح الآخرين.

٨. استحضار عظمة الله تعالى ومراقبته في كل وقت بحيث يرى أنه لا يغيب عنه طرفة عين، وأن الله يرى ظاهره وباطنه، ويطلع على سره وجهره.

٩. الإكثار من ذكر الله.

١٠. استعمال النِّعَم لتحقيق الشكر الحقيقي، واستحضارها واستذكارها، ليوجد الشكر في قلبك.

١١. التبري من الحول والقوة، ونسبةُ كلِّ مِنَّةٍ ونِعمة إلى الله جل جلاله.

أمثلة من أوراد الطريقة

التراث الخالد الذي تركه معظم أصحاب الطرق الصوفية لتلاميذهم وأتباعهم تمثل في أحزابهم وأورادهم ووصاياهم لهؤلاء الأصحاب والأتباع.

يقول الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود في مقدمته لكتاب شرح حزب البر للفاسي نقلًا عن صاحب المفاخر: (اعلم أنَّ أحزاب الشيخ رضي الله عنه جامعة بين إفادة العلم وآداب التوحيد وتعريف الطريقة وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله تعالى وعظمته

وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخستها، والتنبيه على خُدَعِها وغِوايتها، والإشارة لوصف الدنيا والخلْق، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله، والتذكر للذنوب والعيوب، والتنصل منها، مع الدلالة على خاص التوحيد وخالصه، واتباع الشرع ومطالبه، **فهي تعليم في قالَب التوجيه، وتوجيه في قالَب التعليم**).

إنَّ أحزاب الشاذلي تكشف عن طاقة روحانية هائلة، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية والإشراقات والجوانب الانفعالية الإنسانية، وتكشف عن إبداع فني جميل، إذ الأحوال الصوفية وما يعتري قلوب المتصوفين من وجد وشعور وذوق وحلاوة إيمانية؛ لا تختلف في شيء عن حقيقة الفن ومعناه، فهي تعبير صادق أو تصوير رائع لواقع الحياة على وجدان الفنان، والعمل الفني في ذاته ليس إلَّا فهم الفنان للكائنات والموجودات، لا بالعقل والفكر ولكن بالشعور والوجدان[1].

ومن أحزاب الشاذلي (حزب البر)، وهو أجمل أحزاب الشاذلي، ممَّا جعل الدكتور زكي مبارك يقول عنه: إنَّها خير ما أنتجت القرائح، ولا يفنَى ما فيها من قوة المعنى وطرافة الخيال، إنَّ فقرات الحزب تحتوي على دقائق الأسرار والإشارات التي لا يفهمها إلا كبار الحكماء[2].

ولقد رتَّبه الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه كورد بعد صلاة الصبح، كما رتب حزب البحر وردًا بعد صلاة العصر.

وهذا الحزب وكثير من أحزاب أئمة الطرق الصوفية؛ تجد فيه كثيراً من آيات القرآن الكريم، أو تجد فيه معانيَ من القرآن والسنة، فكانت هذه الأحزاب نوراً من نور الكتاب الكريم والسنة المشرفة، وكانت كالتفسير للآيات والأحاديث، تدل على أعلى دقائق التوحيد، وأعمق معاني الإيمان، في ثوبِ دعاءٍ ومناجاة.

وهذه بعض الأدعية مقتطفة من الحزب الكبير المعروف **بحزب البرّ**:

---

(١) انظر: الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري، للدكتور علي صافي، (ص٧٧).

(٢) التصوف الإسلامي للأستاذ الدكتور زكي مبارك (جـ٢/ ص٩٢).

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ...

اللّهُمَّ إنكَ تَعْلَمُ أنِّي بِالجَهَالَةِ معروفٌ، وأنت بالعلمِ موصوفٌ، وقد وسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ مِنْ جَهَالتِي بِعلْمِكَ، فَسَعْ ذَلكَ بِرَحْمَتِكَ كَمَا وَسِعتَهُ بِعلمِكَ، وَاغْفِرْ لِي، إنكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

يَا اللهُ، يَا مَالِكُ، يَا وَهَّابُ، هَبْ لِي مِنْ نَعْمَاكَ مَا عَلِمْتَ لِي فِيهِ رِضَاكَ، وَاكْسُنِي كِسْوَةً تَقِينِي بِهَا مِنْ الفِتَنِ، فِي جَمِيعِ عَطَايَاكَ، وَقَدِسنِي بِهَا عَن كُلِّ وَصْفٍ يُوجِبُ نَقْصاً، مِمَّا استَأْثَرتَ بِهِ فِي عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، يَا اللهُ، يَا عَظِيمُ، يَا عَلِيُّ، يَا كَبِيرٌ، أَسأَلُكَ الفَقْرَ مِمَا سِوَاكَ، وَالغِنَى بِكَ، حَتّى لا أَشْهَدَ إلاَ إِيَّاكَ، وَالْطُفْ بِي فِيهِمَا لُطْفاً عَلِمْتَهُ يَصلحُ لِمَن وَالاكَ، وَاكْسُنِي جَلاَبِيبَ العِصمَةِ فِي الأَنفَاسِ وَاللَّحَظَاتِ، وَاجْعَلنِي عَبْدَاً لَكَ فِي جَمِيعِ حَالاَتِي، وَعَلِّمْنِي مِنْ لَدُنْكَ عِلماً أَصِيرُ بِهِ كَامِلاً فِي مَحْيَايَ وَمَمَاتِي.

اللّهُمَّ أنتَ الْحَمِيدُ، الرَّبُّ الْمَجِيدُ، الفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ، تَعْلَمُ فَرَحِي بِمَاذَا وَلِمَاذَا وَعَلى مَاذَا، وَتَعلَمُ حُزنِي كَذَلكَ، وَقد أَوْجَبتَ كَوْنَ مَا أَرَدْتَهُ فِيَّ وَمِنِّي، وَلاَ أَسأَلُكَ دَفَعَ مَا تُرِيدُ، وَلَكِن أَسَأَلُكَ التَأْيِيدَ، بِرُوحٍ مِنْ عِندِكَ، فِيمَا تُرِيدُ، كَمَا أَيَدْتَ أَنْبِيَاءَكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةَ الصِدِيقِينَ مِن خَلْقِكَ، إنَكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ...

يا شَدِيدَ البَطْشِ، يا جَبَّارُ يا قَهَّارُ، يا حَكِيمُ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا خَلَقَتَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن ظُلْمَةِ مَا أَبْدَعْتَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن كَيْدِ النُّفُوسِ فِيمَا قَدَّرتَ وَأَرَدْتَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ الحُسَّادِ عَلى مَا أَنعَمْتَ، وَأَسْأَلُكَ عِزَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا سَأَلَكَهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ، عِزَّ الدُّنْيَا بِالإِيمَانِ وَالمَعْرِفَةِ، وَعِزّ الآخِرَةِ بِاللِقَاءِ وَالمُشَاهَدةِ، إِنَكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ ...

يا اللهُ يا عَلِيُّ يا عَظِيمُ يا حَلِيمُ يا حَكِيمُ يا كَرِيمُ يا سَمِيعُ يا قَرِيبُ يا مُجِيبُ يا وَدُودُ، حُلْ بَيني وَبينَ فِتْنَةَ الدُّنْيَا والنِّسَاءِ، وَالْغَفْلَةِ والشَهْوَةِ، وَظُلْمِ العِبَادِ، وَظُلْمَةِ البِعَادِ، وَسُوءِ الخُلُقِ، وَاغْفِر لِي ذُنُوْبِي وَاْقْضِ عَنِي تَبِعَاتِي، وَاكْشِفْ عَنِي السُوْءَ، وَنَجِّنِي مِنَ الغَمِّ، وَاْجْعَلْ لِي مِنْهُ مَخْرَجاً، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا اللهُ يَا اللهُ يَا اللهُ ...

يَا لَطِيفُ يا رَزَّاقُ يا قَوِيُّ يا عَزِيزُ، لكَ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن تَشَاءُ وَتَقْدِر، فابْسُطْ لِي مِنَ الْرِّزْقِ مَا تُوَصِّلُنِي بِهِ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَمِنْ رَحْمَتِكَ مَا تَحُوْلُ بِهِ بَينِي وَبينَ نِقْمَتِكَ، وَمِنْ حِلْمِكَ مَايَسَعُنِي بِهِ عَفْوُكَ، وَاخْتِمْ لِي بِالْسَّعَادَةِ الَّتِي خَتَمتَ بِهَا لأَوْلِيَائِكَ، وَاْجْعَلْ خَيرَ أَيامِي وَأَسْعدَهَا يومَ لِقَائِكَ، وَزَحْزِحْنِي فِي الدُّنْيَا عَنْ نَارِ الشَهْوَةِ، وَأَدْخِلَنِي بِفَضْلِكَ فِي مَيَادِينِ الرَّحْمَةِ، وَاْكْسُنِي مِنْ نُوْرِكَ جَلاَبِيبَ الْعِصْمَةِ واْجْعَلْ لِي ظَهِيراً مِنْ عَقْلِي، وَمُهيمِناً مِنْ رُوْحِي، ومُسَخَّراً مِنْ نَفْسِي، ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً، إِنَّكَ كُنتَ بِنا بَصِيراً ﴾، وَهَبْ لِي مُشاهَدَةً تَصْحَبُهَا مُكَالَمَةٌ، وَافتَح سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاْذْكُرْنِي إِذَا غَفَلْتَ عَنكَ بِأَحْسَنَ مِمَا تَذْكُرُنِي بِهِ إِذَا ذَكَرْتُكَ، وَاْرحَمْنِي إِذَا عَصَيْتُكَ بِأَتَمِّ مَا تَرْحَمُنِي بِهِ إِذَا أَطَعْتُكَ، وَاْغْفِرْ لِي ذُنُوْبِي، مَا تَقَدمَ مِنهَا وَمَا تَأَخَّرَ، وَاْلْطُفْ بِي لُطفاً يَحْجبُنِي عَنْ غَيرِكَ، وَلا يَحْجُبُنِي عنكَ، فَإِنكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ لِسَاناً رَطْباً بِذِكْرِكَ، وَقَلباً مُنَعَّماً بِشُكْرِكَ، وَبَدَناً هَيِّناً لَيِّناً لِطَاعَتِكَ، وَأَعْطِنِي مَعَ ذَلِكَ مَا لاَ عَينٌ رَأَت، وَلا أُذُنٌ سَمِعتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ، كَمَا أَخبَرَ بِهِ رَسُوْلُكَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلمَ، حَسْبَمَا عَلِمْتَهُ بِعِلمِكَ، وَأَغْنِنِي بِلاَ سَبَبٍ، وَاْجْعَلْنِي سَبَبَ الْغِنى لأَوْلِيَائِكَ، وَبَرْزَخاً بَينَهم وَبينَ أعدَائِكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ إِيمَاناً دَائِماً، وَأَسْأَلُكَ قَلباً خَاشِعاً، وَأَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَأَسْأَلُكَ يَقِيناً صَادِقاً، وَأَسْأَلُكَ دِيْناً قَيِّماً، وَأَسْأَلُكَ الْعَافِيةَ مِنْ كُلِّ بَلِيةٍ، وَأَسْأَلُكَ تَمَامَ العَافِيةِ، وَأَسْأَلُكَ دَوَامَ الْعَافِيةِ، وَأَسْأَلُكَ الْشُكْرَ عَلَى العَافِيةِ، وَأَسْأَلُكَ الغِنى عَنِ النَّاسِ، وأسألك الغنى عن الناس، وأسألك الغنى عن الناس.

اللَّهُمَّ إِني أَسْأَلُكَ التَوْبَةَ الكَامِلةَ، وَالْمَغْفِرةَ الْشَامِلةَ، وَالْمَحبةَ الكَامِلةَ الْجَامِعةَ، والْخُلَّةَ الْصَافِيةَ، وَالْمَعرِفَةَ الْوَاسِعَةَ، وَالأَنْوَارَ السَّاطِعةَ، وَالشَّفَاعةَ القَائِمَةَ، وَالْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ، وَالْدَّرَجَةَ

الْعَالِيَةَ، وَفُكَّ وَثَاقِي مِنْ الْمَعصِيةِ، ورِهَانِي مِن النِّعْمَةِ، بِمَوَاهِبِ الْمِنّةِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ التَّوْبَةَ وَدَوامَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِن الْمَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا، فَذَكِّرْنِي بِالخَوْفِ مِنكَ، قَبْلَ هُجُومِ خَطَرَاتِهَا، وَاحْمِلْنِي عَلى النَّجَاةِ مِنهَا وَمِن التَّفَكُّرِ فِي طَرَائِقِهَا، وَامْحُ مِنْ قَلْبِي حَلاَوَةَ مَا اجْتَنَيْتُهُ مِنهَا، وَاستَبْدِلْهَا بِالكَرَاهَةِ لَهَا، وَالطَّعْمِ لِما هُوَ بِضِدِهَا، وَأَفِضْ عَلَيَّ مِن بَحرِ كَرَمِكَ وَفَضلِكَ وَجُودِكَ وَعَفْوِكَ، حَتى أَخرُجَ مِن الدُّنْيَا عَلى السَّلامةِ مِنْ وَبَالِهَا، وَاجْعَلَنِي عِندَ الْمَوْتِ ناطقاً بالشَهَادة، عَالِمًا بِهَا، وَارْأَفْ بِي رَأفةَ الحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ، عِندَ الشّدَائِدِ وَنُزُولِهَا، وَأَرِحنِي مِن هُمُوم الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا، بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ إِلى الْجَنَةِ وَنَعِيمِهَا ...

اللهم رضنا بقضائك، وصبرنا على طاعتك وعن معصيتك وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك، وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك، ولا نرجو غيرك، ولا نحب غيرك، ولا نعبد شيئا سواك، وأوزعنا شكر نعمائك وغطنا برداء عافيتك، وانصرنا باليقين والتوكل عليك، وأسفر وجوهنا بنور صفائك، وأضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك، وأجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، يا نعم المجيب (ثلاثا)، يا من هو في علوه قريب، يا ذا الجلال والإكرام، يا محيطاً بالليالي والأيام، أشكو إليك من غَمِّ الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب، وإن ذلك لواقع، ماله من دافع، إن لم ترحمني، لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه، ورددت عليه ما ذهب من بصره، وجمعت بينه وبين ولده، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضره، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدا من صلبه، بعد يأس أهله وكبر سنه، ولقد علمت ما نزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه، وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه، فها أنا ذا عبدك إن تعذبني بجميع ما علمتُ من عذابك؛ فأنا حقيق به، وإن ترحمْني كما رحمتهم مع عظيم إجرامي؛ فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به، فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك،

بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك، وليس من كرمك أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضال الغني، بل من كرمك أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلي، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا فأنت أولي بذلك منا، (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ثلاثاً...

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ، ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ ».

ومن الأوراد المأثورة عن الإمام الشاذلي **حزب البحر**، هو عبارة عن مجموعة من الأدعية والأذكار والآيات التي كتبها الإمام الشاذلي، صارت من أهم الأوراد الشاذلية.

أمّا سبب التسمية فقد أُطلق عليه اسم حزب البحر لأنه وضعه وكتبه على متن سفينة في عرض البحر، ولورود ذكر البحر فيه، كما يسمى أيضًا باسم الحزب الصغير.

وفيما يتعلق بوضع حزب البحر، فإن الشيخ الإمام الشاذلي كان قد انطلق في رحلة سفر عبر بحر القلزم مع شخص نصراني لأداء رحلة حج، وبعد عبور مسافة من البحر سكنت عنهم الرياح لعدّة أيام، فتوقفت الرحلة وتوقف سير السفينة، ثمّ رأى الإمام الشاذلي النبي سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في منامه فبشره ولقّنه كلمات وآيات وأدعية للنجاة، فقرأها وأمر من مرافقه النصراني بمباشرة السفر، فما كان من الريح إلا أن هبّت، وانطلقا في رحلتهما، فاستعجب النصراني لما رأى من الشيخ وأسلم بعد ذلك.

فوائد حزب البحر:

يمكن اللجوء لقراءة حزب البحر بناءً على نيّة القارئ:

أ. فالهدف الأول من قراءته العبادةُ لله، والتقرب إليه، بالدعاء والتضرع.

ب. ومنهم من يقرؤه لقضاء حاجةٍ أو تفريج من ضيق.

ج. ومنهم من يقرؤه بهدف إبعاد عدو.

د. ومنهم من يقرؤه بهدف التحبب إلى الخلق.

ه. ومنهم من يقرؤه بنية منع بطشِ حاكم، أو تسهيلًا لقضاء حاجة عند شخص، فيقرؤه قبل الدخول إلى الحاكم أو الجبار أو من يقضي حاجته.

و. ويُقرأُ لعلاج السحر ودفع العين ونحو ذلك.

ز. ويُقرأ بهدف دوام الأمن والأمان للبيت، وحفظًا له من كافة الآفات الظاهرة والباطنة، فيُقرأ مع أذكار الصباح والمساء.

ح. ويُقرأ لشفاء مريض، فيُتلى على الماء ثلاث مرات، ثم يشرب منه المريض لعدة أيام، فيشفى من سقمه بإذن الله.

وهذه بعض الأدعية مقتطفة من **حزب البحر** للإمام الشاذلي:

« بسم الله الرحمن الرحيم، اللَّهُمَّ يَا عَلِيُ يَا عَظِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيمُ أَنْتَ رَبِّي، وَعِلْمُكَ حَسْبِي، فَنِعمَ الْرَبُّ رَبِي وَنِعمَ الْحَسْبُ حَسْبِي، تَنْصُرُ مَنْ تَشَاءُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْرَحِيمُ، أَسأَلُكَ الْعِصمَةَ فِي الحَرَكَاتِ وَالسَكَنَاتِ وَالكَلِمَاتِ وَالإِرَادَاتِ وَالخَطَرَاتِ مِنْ الْشكُوكِ وَالْظَّنونِ وَالأَوهَامِ ...

انصُرنِي فَإِنَكَ خَيرُ النَاصِرِينَ، وَافتَحْ لِي فَإِنكَ خَيرُ الفَاتِحِينَ، واغْفِر لِي فإنكَ خَيرُ الغَافِرِينَ، وَارْحَمْنِي فإنكَ خَيرُ الرَّاحِمِينَ، وَارزُقَنِى فَإنكَ خَيرُ الرَازِقِينَ، وَاهْدِني وَنَجِّني مِن القَومِ الظَالمِينَ ...

اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي أموري مَعَ الرَاحةِ لقَلبي وَبَدَني، وَالسَلامةِ وَالعَافيةِ فِي دِينِي وَدُنيايَ وآخِرَتي ...

يا الله يا نورُ، يا حقُّ يا مبينُ، اكْسُني من نورك، وعلمني من علمك، وأفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصِّرني بك، وأقمني بشُهودِك، وعَرِّفني الطريقَ إليك، وهَوِّنْها عليَّ بفضلك، وألْبِسني لباسَ التقوى منك، إنك على كل شيء قدير، يا سميع، يا عليم، يا حليم، يا عليُّ، يا عظيم، يا اللهُ، اسمع دعائي بخصائص لُطفِكَ آمين ...

يا عظيم السلطانِ، يا قديمَ الإحسانِ، يا دائمَ النَّعماءِ، يا باسطَ الرزقِ، يا كثيرَ الخيراتِ، يا واسع العطاء، يا دافعَ البلاءِ، ويا سامعَ الدُّعاء، يا حاضراً ليس بغائب، يا موجوداً عند الشدائد، يا خَفِيَّ اللُّطْفِ، يا لطيفَ الصنع، يا حليماً لا يَعْجَلُ، اقْضِ حاجتي برحمتك يا أرحم الراحمين »

ويهتم كثير من مشايخ الشاذلية وغيرِهم من الطُّرق **بوِرْد الإمام النووي**(١) رحمه الله، فيجعلونه من أورادهم، أو مع أذكار الصباح، وهذا بعضه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

بسمِ اللهِ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ.

أقولُ على نفسي وعلى ديني وعلى أهلي وعلى أولادي وعلى مالي وعلى أصحابي وعلى أديانِهم وعلى أموالهم؛ ألفَ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العَلِيِّ العظيم ...

اللهم اجعلني وإيَّاهم في حِفْظِكَ وعِياذِك وعِبادِك وعِيالِك وجِوَارِكَ و أَمْنِكَ وأمانتك وحِزْبِكَ وحِرزِكَ وكَنَفِكَ وسِتْرِك ولُطْفِك؛ مِن كلِّ شيطانٍ وسُلْطانٍ وإنْسٍ وجَانٍّ وباغٍ وحاسدٍ وسَبُعٍ وحَيَّةٍ وعَقْرَبٍ، ومِن شرِّ كُلِّ دابَّةٍ أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم ...

أُدافعُ بك اللهم عن نفسي ما أُطِيقُ وما لا أُطِيق، لا طاقَةَ لِمَخْلُوقٍ مَعَ قُدْرَةِ الخالِقِ.

حسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوكِيل.

بِخَفِيِّ لطف الله، بلَطِيفِ صُنْعِ اللهِ، بجميل سِتْرِ الله، دَخَلْتُ في كَنَفِ الله، تَشَفَّعْتُ بِسيدِنا رَسولِ الله، تَحَصَّنْتُ بأسماء الله، آمنتُ بالله، توكلت على اللهِ ...

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم، حسبي الله ونعم الوكيل».

---

(١) وهو الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي الأشعري، صاحب المؤلفات العظيمة، ومنها: رياض الصالحين، توفي ببلدة نَوَى قريباً من دمشق بالشام ٦٧٦هـ. ويسمى هذا الوِرْد بورد التَّحْصِين.

كما يعتني الشاذلية والباعَلوِيةُ وغيرُهم **بدعاء الإمام الغزالي**[1] رحمه الله:

«اللهم إنا نسألك مِن النعمة تمامَها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغدَه، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمّه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أنفعه، اللهم كن لنا ولا تكن علينا

اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصْبُب سِجال عفوِك على ذنوبنا، ومُنَّ علينا بإصلاح عيوبِنا، واجعل التقوى زادَنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكُّلَنا واعتمادَنا، وثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثِقَل الأوْزار، وارزقنا عيش الأبرار، واكْفِنا واصْرِف عنا شر الأشرار، وأعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وإخواننا وعشيرتنا وأصحابنا وأحبابنا من النار

برحمتك يا عزيز يا غفار يا ستار يا حليم يا جبار، يا الله يا الله يا الله يا رحيم، برحمتك يا أرحم الراحمين

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين».

ومن أوراد الطريقة الشاذلية دعاء **ومناجاة ابن عطاء الله** السكندري، يجعلونها ورداً في السَّحَر آخرَ الليل، وهذه مقتطفات منها:

«إلهي أنا الفقيرُ في غنايَ، فكيف لا أكونُ فقيراً في فقري ؟

إلهي أنا الجاهلُ في علمي، فكيف لا أكونُ جهولاً في جهلي ؟

إلهي إنَّ اختلافَ تَدْبيرِكَ، وسرعةَ حلولِ مقاديرِكَ، مَنَعَا عبادَكَ العارفينَ بِكَ مِنَ السُّكونِ إلى عطاءٍ واليأسِ منك في بلاءٍ.

إلهي وَصَفْتَ نفسَكَ باللُّطفِ والرَّأفةِ بي قبل وجودِ ضَعْفِي، أَفَتَمْنَعُنِي منهما بعدَ وجودِ ضَعْفِي ؟

---

(١) هو الإمام الكبير محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ت ٥٠٥ هـ، في بَلَدِه طُوْس، خبير النفوس صاحب المصنفات العظيمة، منها المستصفى في الأصول، وإحياء علوم الدين، وبداية الهداية.

إلهي إنْ ظهرتَ المحاسنُ مني فَبِفَضْلِكَ ولك المِنَّةُ عليَّ، وإنْ ظَهَرَتْ المَساوِىءُ مني فَبِعَدْلِكَ ولكَ الحجةُ عليَّ.

إلهي ما أَلطَفَكَ بي مع عظيمِ جهلي، وما أَرْحَمَكَ بي مع قبيح فعلي.

إلهي ما أَقْرَبَكَ مني، وما أَبْعَدَني عنك، وما أَرْأَفَكَ بي، فما الذي يَحْجُبُني عنك.

إلهي، مَنْ كانت محاسِنهُ مَساوِئ، فكيف لا تكون مساويه مساوئ ؟ ومن كانت حقائقه دعاوي، فكيف لا تكون دعاويه دعاوي ؟

إلهي حُكْمُكَ النافذُ ومشيئتُكَ القاهرةُ لم يترُكَا لذي حالٍ حالاً ولا لذي مقالٍ مقالاً.

إلهي كم من طاعةٍ بَنَيْتُها وحالةٍ شَيَّدْتُها هَدَمَ اعتمادي عليها عدلُك، بل أقالني منها فضلُك.

إلهي إنَّكَ تعلم وإنْ لم تَدُم الطاعةُ مني فعلاً جازماً، فقد دامت محبةً وعزماً.

إلهي ترددي في الآثار يوجبُ بُعْدَ المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

إلهي عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبدٍ لم تجعلْ من حُبِكَ نصيباً.

إلهي أمرتَ بالرجوع إلى الآثار فأَرْجِعْني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها، كما دخلت عليك منها؛ مَصُونَ السِّر عن النظر إليها، مرفوع الهمَّة عن الاعتماد عليها، إنَّك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلي ظاهرٌ بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدلُ عليك، لا بغيرك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علمني من علمك المخزون، وصُنّي بسر اسمك المصون.

إلهي حققني بحقائق أهل القُرب، واسلك بي مسَالِكَ أهل الجذب.

إلهي أغنني بتدبيركَ عن تدبيري، وباختياركَ عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

إلهي أخرجني من ذُّلِ نفسي، وطهرني من شَكِي وشِرْكِي، قبلَ حلول رمسي.

إلهي تقدَّسَ رضاكَ أن تكونَ لهُ عِلَّةٌ منك، فكيف تكون له علة مني.

إلهي إنَّ القضاءَ والقدرَ قدْ غلبني، وإنَّ الهوى بِوَثائِقِ الشَّهوةِ أَسَرَني، فَكُنْ أنت الناصر لي، حتى تنصُرَني، وتنصُرَ بي، وأغنني بفضلكَ حتى أَسْتَغني بِكَ عن طَلَبي.

أنت الذي أَشْرَقْتَ الأنوارَ في قلوبِ أوليائكَ، وأنت الذي أَزَلْتَ الأغيارَ من قلوبِ أحبائك، وأنت المؤنس لهم حيث أَوْحَشَتْهُمُ العوالِم، وأنت الذي هَدَيْتَهُم حتى اسْتَبَانَتْ لهم المعالم، ماذا وَجَد من فَقَدَكَ ؟ وما الذي فَقَدَ من وَجَدَكَ ؟ لقد خابَ من رضِيَّ دونَكَ بدلاً، ولقد خَسرَ من بَغَى عنكَ مُتَحَوَّلاً، كيف يُرجَى سِواكَ وأنت ما قطعتَ الإحسان ؟ أم كيف يُطْلَبُ من غَيرِكَ وأنت ما بَدَّلْتَ عادةَ الامتنان ؟

يا من أذاق أحبابَهُ حلاوةَ مُؤانَسَتِه فقاموا بين يديه مُتَمَلِّقِينَ، يا من أَلْبَسَ أَولياءَهُ ملابِسَ هيبتِهِ فقاموا بعزَّته مستَعِزِّين، أَنت الذاكرُ مِن قَبْلِ الذاكرين، وأنت البادئُ بالإحسانِ مِن قَبْلِ تَوَجُهِ العابدين، وأنت الجَوادُ بالعطاءِ مِن قَبْل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم أنت لَمَا وَهَبْتَنَا مِنَ المسْتَقْرِضين.

إلهي اطلُبْني برحمتكَ حتى أَصِلَ إليك واجذِبني بمنتِكَ حتى أُقبِلَ عليك.

إلهي إنَّ رجائي لا ينقطعُ عنكَ وإنْ عَصيتُك، وإنَّ خوفي لا يُزَايِلُني وإنْ أطعتُك، قد دفَعَتْني العَوالِمُ إليك، وقد أوقفني علمي بكرمِكَ عليك.

إلهي كيف أَخيبُ وأنت أملي ؟ أم كيف أُهانُ وعليكَ مُتَّكَلي ؟

إلهي كيف أَستَعِزُّ وفي الذِّلةِ أركزتني ؟ أم كيف لا أَستَعِزُّ وإليكَ نَسَبْتَني ؟

إلهي كيف لا أفتقرُ إليكَ وأنت الذي في الفقر أَقَمتني ؟ أم كيف أَفتقرُ إلى غيرِكَ وأنت الذي بجودِكَ أَغنيتني ؟

يا من استوى برحمانيتِهِ على عرشه، فصارَ العرشُ غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشهِ، مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار، ومَحوتَ الأغيارَ بمُحيْطاتِ أفلاكِ الأنوار، يا مَن احْتَجَبَ في سُرَادِقاتِ عِزّهِ عن أن تُدْرِكُهُ الأبصار، يا مَن تجلَّى بكمالِ بَهائِهِ فتحققَتْ عظَمَتهُ الأسرارُ.

كيف تَخْفَى وأنت الظاهِرُ؟ أم كيف تَغيبُ وأنت الرقيبُ الحاضِرُ؟».

وقد اعتنى الشاذلية **بقصيدة شعيب أبي مدين التلمساني،** فعاملوها معاملة الوِرْد، فيكثرون من إنشادها، وقد يقرؤها المريد كلَّ صباح، تذكيراً بما تحتوي عليه من الآداب التي تتعلق بسير المريد وسلوكه إلى الله.

ما لذَّةُ العيشِ إلّا صحبةُ الفقرا ... هم السلاطينُ والساداتُ والأمرا

فاصحبْهُمُ وتأدَّبْ في مجالسِهم ... وخلِّ حظَّك مهما قدموك ورا

واستَغْنِمِ الوقتَ واحضر دائماً ... واعلم بأن الرضى يختصَّ من

ولازِم الصمتَ إلا إن سُئِلت فقُل ... لا علم عندي وكُن بالجهلِ مستترا

ولا تر العيب إلّا فيكَ معتقِداً ... عيباً بدا بيّناً لكنَّه استترا

وحُطّ رأسك واستغفر بلا سببٍ ... وقُم على قدم الإنصافِ معتذِرا

وإن بدا منك عيبٌ فاعترف وأقِم ... وجهَ اعتذاركَ عمّا فيك منكَ جرا

وقُل عبيدُكُمُ(١) أولى بصفحِكمُ ... فسامحوا وخُذوا بالرفقِ يا فُقَرا

وبالتغني على الإخوانِ جُدْ أبداً ... حِسّا ومعنىً وغُضَّ الطرف إن

هُمْ بالتفضُّلِ أولى وهْوَ شِيمتُهُم ... فلا تخفْ دَرَكاً منهُم ولا ضَرَرا

وراقب الشيخ في أحواله فعسى ... يرى عليك من استحسانهِ أثَرا

وقَدّمِ الجِدَّ وانهض عند خدمتهِ ... عساهُ يرضى وحاذِر أن تكُنْ ضَجِرا

ففي رضاه رضى الباري وطاعتِهِ ... يرضى عليك فكن مِن تَرْكِها حَذِرا

---

(١) عبيدكم: أي خادمكم.

واعلَم بأن طريق القوم دارِسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى
متى أراهم وأنى لي برؤيتهم أو تسمعُ الأذْن منّي عنهمُ خبرا
من لي وأنَّى لمثلي أن يزاحمَهُم على موارِدَ لم ألْفَ بها كدَرا
أحبهُّمْ وأداريهِمْ وأوثرهُمْ بِمُهجتي وخصوصاً منهمُ نَفَرا
قوم كِرام السجايا حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهِمْ عَطِرا
يهدي التصوّف من أخلاقِهِم حُسْنُ التآلفِ منهُم راقَني نَظَرا
هم أهل وُدّي وأحبابي الذين همُ مّمن يَجُرُّ ذُيولَ العزّ مُفتخِرا
لا زال شملي بهم في اللَه مجتمعا وذَنبُنا فيه مغفوراً ومغتفَرا
ثمّ الصلاةُ على المختارِ سيدنا محمدٍ خيرِ مَن أوفى ومَن نذَرا

كما للشاذلية وكثير من الطرق عناية بقراءة **دلائل الخيرات**، وما فيه من صلوات على النبي ﷺ، في كل يوم جزءٌ منه على مدار الأسبوع.

أعلام الطريق

عبد السلام بن مشيش

هو أبو محمد الشيخ عبد السلام بن مشيش، كان معروفا بِذُلَّه لله تعالى، وبتواضعه بين الخلق، كان إقباله على الله وإدباره عن الخلق سمة من سماته، عاش في بيئة سليمة، وترعرع بين أحضان أسرة كريمة من آل البيت التزمت بدين الله وشرعه.

قد ظهرت عليه بوادر الصلاح والتقوى منذ صباه، قال عنه أحد مؤرخيه: هو الذي أنواره منذ كان في المهد صبيا، ثم طوى في السياحة في صباه الأرض طيا، حفظ القرآن بالروايات السبع وهو ابن الثانية عشرة، وقضى في سياحته أكثر من خمسة عشرة سنة.

درس وتعلم على يد كبار العلماء والشيوخ، من بينهم: الولي الصالح الشيخ سليم شيخه في القرآن، والفقيه العلامة الشيخ أحمد الملقب بأقطران، شيخه في الدراسة العلمية، ثم

شيخه في التربية والسلوك العارف بالله الشيخ عبد الرحمن بن الحسن الشريف العطار المدني، الشهير بالزيات، الذي أخذ عنه الطريقة، وشرب من يده عوالم الحقيقة(١).

كان مولاي عبد السلام بن مشيش عالما فاضلا، ومتصوفا عارفا، وعابدا من الصادقين، فكان يصعد إلى الجبل، قصد التعبد والخلوة، ورغم زهده، وطول سياحته، لم يغفل الجانب الأسري ولا العلمي من حياته، فأعطى لكل ذي حق حقه، دون الخروج عن جادة الشريعة.

قُسّمت حياته إلى ثلاث مراحل حسب بعض المؤرخين: سخر المرحلة الأولى منها للحياة العلمية، فنهل من علوم النقل وعلوم القوم ما نهل، وفي المرحلة الثانية جعل اشتغاله بتربية أولاده الأربعة تربية صوفية، دون أن يغفل جانب الجهاد منه، فكان راعيا، وخادما لأهله، مستعدا ومتحمسا للشهادة من أجل دينه وأمته.

وأما في المرحلة الثالثة فقد أفناها في الخلوة والعبادة والزهد(٢)، حتى اشتهر بذلك، فكان رضي الله عنه، في العلم في الغاية، وفي الزهد في النهاية، جمع الله له الشرفين الطيني والديني، وأحرز الفضل المحقق اليقيني، حيث كان متمسكا بالكتاب والسنة، عاملا بهما، ملتزما لهما(٣).

فقد كان مدركاً أن ذلك يوصل إلى مقام الصديقين، حيث قال: عبادةُ الصديقين عشرون: كلوا، واشربوا، والبسوا، وانكحوا، واسكنوا، وضعوا كل شيء حيث أمركم الله، ولا تسرفوا، واعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، واشكروه فإنها نصف العقل، والنصف الثاني: أداء الفريضة، اجتناب المحارم، والتفقه في دين الله، وكل ورع لا يصحبه العلم والنور فلا تعد له أجرا.

---

(١) المطرب (ص٩٢-٩٣).

(٢) القطب الرباني (ص١٦-١٧).

(٣) قطب المغرب الشيخ عبد السلام ابن مشيش، عبد الحليم محمود (ص٢٧).

لقد عمت شهرة الشيخ عبد السلام بن مشيش المشرق والمغرب، في حياته كما في مماته، حتى أن ضريحه كان ولا يزال من أعظم مزارات المغرب المشهورة عبر العصور والأجيال، "فلم تزل الوفود تأتي إليه من سائر الآفاق، من عارفين وصوفية وعلماء وفقهاء، وعامة الناس لزيارته، حيث أصبح مقامه في المغرب كمقام الشافعي بمصر، كيف لا، وهو أستاذ الأقطاب الثلاثة: الشيخ إبراهيم الدسوقي، والشيخ أحمد البدوي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، فكان أستاذاً لهم في التربية والسلوك والعلوم، ورسم معالم الطريق [١].

فهو الذي قال عنه العلامة الشيخ إدريس الفضيلي: هو البدر الواضح، المشتهر في الدنيا قدره، الطالع في فلك المعاني بدره.

وقال عنه الشيخ ابن عجيبة: وأما علو قدره، وجلالة منصبه، فذلك أمر شهير، وقد تغلغل في علوم القوم التي مدارها التخلق بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام.

من أكبر تلك الكرامات المعنوية: تلميذه الشيخ أبو الحسن الشاذلي، الذي بصحبته ووصاياه له، أصبح من بعده مؤسسَ الطريقة الشاذلية، المنتشرة في العالم الإسلامي، والتي اتبعها العديد من المريدين، منذ ذاك العهد إلى يومنا هذا.

لقد ترك الشيخ عبد السلام بن مشيش لتلميذه ووارثِ سِرِّه، إرثا ثمينا تجلى في وصايا نفيسة، شكلت مهد الطريقة الشاذلية، يقول: يا عَلِي، اللهَ اللهَ، والناسَ الناسَ، عليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك[٢].

وقال له أيضا: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ما هم[٣].

---

(١) طبقات الشاذلية الكبرى (ص٦٠).

(٢) قطب المغرب (ص٣٣).

(٣) المطرب (ص ٩٩).

وقال: أفضل الأعمال أربعة، بعد أربعة، المحبة لله، والرضا بقضاء الله، والزهد في الدنيا، والتوكل على الله، هذه أربعة، وأما الأربعة الأخرى، فالقيام بفرائض الله، والاجتناب لمحارم الله، والصبر عما لا يعني، والورع من كل شيء يلهي.

وقال لأحد الرجال ناصحا: الفرائض مشهورة، والمعاصي معلومة، فكن للفرائض حافظا، وللمعاصي رافضا، واحفظ قلبك من حب الدنيا، وحب النساء، وحب الجاه، وإيثار الشهوات، واقنع بما قسم الله لك، إذا خرج لك شيء مخرج الرضا فكن لله فيه شاكرا، وإذا خرج مخرج السخط فكن عنه صابرا.

وعن الصحبة قال: واصْحب مَن إذا ذُكِرَ، ذُكِرَ اللهُ، فإنه يُغني به إذا شُهِد[1]، وينوب عنه إذا فُقد، ذِكرُه نور القلوب، ومشاهدته مفتاح الغيوب.

ولعل من بين أعظم آثار الشيخ عبد السلام بن مشيش الدينية، رضي الله عنه، صلاته المعروفة بالصلاة المشيشية[2]، فهي جوهرة طريقه الفريدة، وأكبر بصمة تركها

---

(١) أي من غاب عن الله يتذكر الله برؤية الصالحين، ويرجع إلى الله بصحبتهم، وهو يشير هنا إلى الحديث الصحيح: «أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله».

(٢) اللهمَّ صلِّ على منْ منهُ انشقتِ الأسرارُ، وانفلقتِ الأنوارُ، وفيهِ ارتقتِ الحقائقُ، وتنزلتْ علومُ آدمَ عليهِ السلامُ فأعجزَ الخلائقَ، ولهُ تضاءلتِ الفهومُ فلمْ يدركهُ منا سابقٌ ولا لاحقٌ، فرياضُ الملكوتِ بزهرِ جمالهِ مونقةٌ، وحياضُ الجبروتِ بفيضِ أنوارهِ متدفقةٌ ولا شيءَ إلا وهو بهِ منوطٌ، إذْ لولا الواسطةُ لذهبَ - كما قيلَ - الموسوطُ، صلاةً تليقُ بكَ منكَ إليهِ كما هو أهلهُ. اللهمَّ إنهُ سِرُّكَ الجامعُ الدالُّ عليكَ، وحجابكَ الأعظمُ القائمُ لكَ بينَ يديكَ. اللهمَّ ألحقني بنسبهِ وحققني بحسبهِ، وعرِّفْني إياهُ معرفةً أسلمُ بها منْ مواردِ الجهلِ، وأكرعُ بها منْ مواردِ الفضلِ، واحملني على سبيلهِ إلى حضرتِكَ حملاً محفوفاً بنصرتِكَ، واقذفْ بي على الباطلِ فأدمغَهُ، وزُجَّ بي في بحارِ الأحديةِ وانشلني منْ أوْحالِ التوحيدِ [أي من التوحيد الناقص والذي فيه خلل]، وأغرقني في عينِ بحرِ الوحدةِ، حتى لا أرى ولا أسمعَ ولا أجدَ ولا أحسَّ إلا بها، واجعلِ الحجابَ الأعظمَ حياةَ روحي، وروحهُ سِرَّ حقيقتي وحقيقتهُ جامعَ عوالمي بتحقيقِ الحقِّ الأولِ (يا أولُ يا آخرُ يا ظاهرُ يا باطنُ) (ثلاثاً) اسمعْ ندائي بما سمعتَ بهِ نداءَ عبدكَ زكريا عليهِ السلامُ، (وانصرني بكَ لكَ وأيدني بكَ لكَ، واجمعْ بيني وبينكَ، وحُلْ بيني وبينَ غيركَ) (ثلاثاً)، اللهُ، اللهُ، اللهُ (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)،

خالدة بعد مماته، وهي عبارة عن "نص فريد من بين الصلوات التي سجلها أدب التصوف منذ أواخر القرن السادس الهجري حتى الآن، في عباراته المنتقاة، ومعانيه الراقية، تنساب فيه العبارات في رقة وعذوبة، محملة بدفق الإيمان وصفاء المحبة، التي ما إن تخالطها الروح وتستعذبها المسامع، حتى تحلق بصاحبها في أجواء من السمو، وملكوت الجمال، لأنه صادر عن عالم عارف، وبليغ أريب.

لقد اشتهرت الصلاة المشيشية بجمال معناها، وجلال مبناها، حيث عكف كثير من العلماء على شرحها وإيضاحها، ولعل أقدم من تناولها بالشرح العلامة محمد بن أحمد بن داود التونسي المعروف بابن زغدان (ت٨٨١هـ) وتوالت شروحها على يد علماء أجلاء من المغرب والمشرق، أمثال العلامة العارف أبي محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (٩٦٣هـ)، والعلامة عبد الرحمن بن ملا حسن الكردي (١١٩٥م) وغيرهم كثير.

مات الشيخ عبد السلام بن مشيش شهيدا سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، وقيل سنة (٦٢٥هـ) حيث قتله جماعة وجههم لقتله ابن أبي الطواجن[١]، بالجبل المسمى بالعَلَم، غرب جنوب مدينة تَطْوان وهو جبل مرتفع كان معبده ومكان خلوته، وقد دفن بالقرب منه، حيث ضريحه الآن، رحمه الله ونفعنا بسيرته ووصاياه وحكمه.

ظل الشيخ عبد السلام بن مشيش في المرحلة الأخيرة من عمره، منزويا في الجبال، متواريا عن الأنظار، أحب التفرد بعبادة ربه، والغوص في فضاء أنسه، فلم يخالط الناس إلا لنشر العلم وفضائله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن شاءت قدرة الله تعالى أن يُعرف ويشتهر هذا القطب الجليل في مماته أكثر مما كان عليه في حياته، ويصبح بذلك علما شامخا من أعلام التصوف بالمغرب، وتُتداول صلاته المشيشية في ربوع العالم الإسلامي، ويرجع الفضل في ذلك بعد الله سبحانه وتعالى،

(ربنا آتنا منْ لدنكَ رحمةً وهيئْ لنا منْ أمرنا رشداً) (ثلاثَ مراتٍ) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) وهو ساحر ادعى النبوة، فتصدى له ابن مشيش، فقتله. كما ذكر ابن خلدون والزركلي والقلقشندي.

لتلميذه الشاذلي، الذي حمل رداء شيخه الإمام عبد السلام بن مشيش، فكان ظاهرَ وباطنَ ذلك الرداء الكتابُ والسنةُ، اللذان التزم بهما أبو الحسن الشاذلي في تصوفه[1].

أبو العباس المرسي.

أبو العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما، وخليفته من بعده، واسمه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري، ويتصل نسبه بالأنصار، الذين أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حبهم من علامات الإيمان، ونسبه يتصل لسعد بِن معاذ سيد الخزرج.

ولد أبو العباس في مُرْسِيّة[2]، ونشأ بها ويبدو أن حالة والده كانت من اليُسْر حيث مكنته من إرسال ابنه إلى مؤدب لتعلم القرآن الكريم، والتفقه في أمور الدين.

ولما بلغ مبلغ الشباب واستقل بنفسه أخذ في معاونة والده في الأعمال التجارية، فكان التاجر الصدوق وبقي في مرسية إلى أن التقى بشيخة أبي الحسن الشاذلي في تونس.

وبعد وفاة والده انتقل إلى تونس وهو متسلح بالعلم ومتسلح أيضا بما مارسه مع أبيه بالتجارة من الأخذ والعطاء بحيث اطلع عملياً على فنون المعاملات ووسائل التفاهم مع خلق الله، مما أطلعه على معرفة الاتجاهات الإنسانية ووقفه على كوامن النفس البشرية.

وفي تونس كان لقائه بشيخه أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فأخذ عنه العلم والأدب والطريق، حتى كان لسانَ الشيخ وخليفتَه، وقد قال له الإمام الشاذلي رضي الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

---

(١) القطب الرباني (ص٢٤- ٢٨).

(٢) مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اخْتَطَّها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، وسماها تدمير بتدمر الشام، فاستمرّ الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها، وهي مدينة إسلاميّة محدثة، بنيت في أيام الأمويّين الاندلسيين، قال: وهي من قواعد شرق الأندلس، وهي تشبه إشبيلية في غرب الأندلس بكثرة المنازه والبساتين، وهي في الذّراع الشرقيّ الخارج من عين نهر إشبيلية، معجم البلدان (ج٥ / ص١٠٧)، صبح الأعشى (ج٥ / ص٢٢٢).

وقد بلغ من بعض الصوفية أنهم قالوا حينما مات الشاذلي أنه لم يمت حينما مات وإنما غاب في أبي العباس.

كان الشاذلي هو الحلقة الأولى في الطريق، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متجددة على مر الزمن فكانت مدرسة بدأها أبو الحسن الشاذلي في قوة، وتابعه وترسم خطاه على هدى وبصيرة من تبعه، وكان على رأس التابعين أبو العباس.

وقبل أن يموت الشاذلي خلا بأبي العباس وحده وأوصاه بأشياء، واختصه بما اختصه الله به من البركات، وقال لأصحابه: " إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى(١)".

وكان أبوالعباس كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود: "من كبار العلماء في علوم الظاهر ومن كبار الملهمين في علوم الباطن".

وتحت عنوان "العالم" يقول الشيخ عبدالحليم في كتابه عن أبي العباس: "إن رجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه رضى الله عنه هو الذي بث علوم الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها... وكان لأبي العباس من العلوم الظاهرة كتب معينة يؤثرها، ويداوم مذاكرتها وتدارسها.

ففي أصول الدين: كان كتابه الذي يتدارسه "**الإرشاد**" وهو كتاب في التوحيد والعقيدة، والانتصارِ لمذهب الأشاعرة وأهل السنة، لا يسهل تناوله على العاديين من الناس بل وعلى الكثير من المثقفين؛ لأنه يحتاج إلى ممارسة طويلة في علم الكلام والمناظرة.

كان كتابه في الحديث "**المصابيح**"، وهو كتاب على غرار كتاب "الترغيب والترهيب".

أما في الفقه فكان يُعنى بكتابَي "**التهذيب**" و" **الرسالة**"، وهما في الفقه مشهوران.

وكتابه في التفسير هو كتاب "**المحرر الوجيز**" لابن عطية.

---

(١) أي سبب من أسباب الهداية والدلالة على الله .

أما في التصوف، فقد كانت كتبه المفضلة هي: "**الرسالة القشيرية**" و "**قوت القلوب**" و "**ختم الأولياء**" للحكيم الترمذي، و"**الحقائق**" للسلمي.

يقول أبو العباس وهو في الطريق من تونس إلى الإسكندرية مع شيخه، - ويلقي أضواء على مناهج التربية التي كان يبثها فيه شيخه ابوالحسن: كنت مع الشيخ في السفر، ونحن قاصدون الإسكندرية، حين مجيئنا من الغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله.

فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن، فلما أحس بي، قال: أحمد!، قلت: نعم يا الشيخ، قال: "آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ثم نزل إلى الأرض، واللهِ ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه بقوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[1] ما قال في السماء ولا في الجنة، فكان نزوله في الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته، وأنت أيضا لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح، في جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة".

ولقد ظل أبو العباس ملازما لأستاذه في الاسكندرية منذ عام 640 هـ، وكان عمره حوالي ٢٤ عاما، وقد جلس أبو الحسن وتلميذه في جامع العطارين، وبين الفَينة والفينة يسافران إلى مدن مصر يشعان بعلمهما على أهل مصر ويحملان الحقيقة.

وفي ذات يوم من عام (٦٥٦) هـ، قررا الحج الى بيت الله الحرام، واصطحب الشيخ مريده مع من اصطحبهم، وفي الطريق تَوَفَّى اللهُ عبدَه الشاذلي فدفنه مريده هناك ثم واصل رحلة الحج وعاد الى الاسكندرية.

---

(١) البقرة (٣٠).

كان أبو العباس يتفقد المريدين بعد شيخه، ويتتبع أحوالهم بإلهام من الله وبفراسة المؤمن، وبالسؤال عن أحوالهم.

ومن دقّته في مراعاة الكرامة الانسانية للمريدين أنه كان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقولوا له: قف ساعة، ويقول: "إن المريد يأتي إلى الشيخ بهمته المتوقدة، فاذا قيل له: قف ساعة، طُفِئ ما جاء به".

وكان إذا رأى مريدا يفتخر بزهده في الدنيا يقول: يا أخي لقد عَظَّمْتَ الدنيا حين رأيت لها وجوداً حتى زهدت فيها، فَقَدْرُها أصغر من ذلك.

ويقول أبو العباس: لن يصل الولي إلى الله تعالى، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى، أي إنه لا يفكر في الوصول والثمرات والنتائج، فهي فعل الله، بل يفكر في المطلوب منه، وهو فعله، فينشغل فيه.

ومن بين ما كان يقول للمريد: لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من القلة، والصفح عن المظلمة، والصبر عند البلية، والرضا بالقضية.

كان فكر أبي العباس يركز على إصلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله ومعرفة النفس ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

ويقول: إن الله تعالى جعل من العبد ثلاثة أجزاء: فلسانه جزء، وجوارحه جزء، وقلبه جزء، وطلب من كل جزء وفاء، فوفاء القلب لا يشتغل بهم الرزق، ولا مكر، ولا خديعة، ووفاء اللسان، ألا يغتاب ولا يكذب، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، ووفاء الجوارح الا يسارع بها قط إلى معصية، ولا يؤذي بها أحدا من المسلمين، فمن وقع من قلبه فهو منافق، ومن وقع من لسانه فهو كافر، ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

ومن كلامه وإشارته في تفسير سورة الفاتحة يقول: " (الحمد لله رب العالمين) علم الله عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: (الحمد لله رب العالمين)، أي: قولوا الحمد لله رب العالمين، أي الحمد

لله الذي حمد نفسه بنفسه، هو له لا ينبغي أن يكون لغيره، وعلى هذا تكون الألف واللام للعهد.

كما يقول ابن عطاء الله السكندري: سمعت أبا العباس يقول في قوله عز وجل: (إياك نعبد وإياك نستعين)، إياك نعبد شريعةً، وإياك نستعين حقيقةً، إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان، إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية، إياك نعبد فَرْق، وإياك نستعين جَمْع.

ويفسر الآية الكريمة: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا)[١]، فيقول: لم يقل الله جل شأنه: أسرى بنبيه ولا برسوله - وهو نبيه ورسوله - وإنما كان كذلك؛ لأنه أراد ان يفتح باب السريان للأتباع، فأعلمنا بأن الاسراء من بساط العبودية، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان له كمال العبودية، فكان له كمال الإسراء أسري بروحه وجسمه وظاهره وباطنه، فالأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسراء يُسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

كان أبو العباس يقول لتلاميذه: إن لحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك[٢]، فإياك ثم إياك.

وكان أبو العباس لا ينظر من الناس إلا إلى ما يبدو عليهم، أو يصدر عنهم من تقوى وصلاح، فقد يدخل إلى مجلسه رجل غير موصوف عند الناس بالصلاح والتقوى ويحتفي به، لأن الرجل الصالح ربما أفضى إلى هذا المجلس وعليه أثر مباهاة بعمله الصالح، أما سواه من غير الصلحاء، فيدخل المجلس بكَسْر معصيته وذُل مخالفته.

---

(١) الإسراء (١).

(٢) أي يتضرر من يؤذيهم، بمعنى الحديث القدسي: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب.

ومن دعائه: يا الله يا نور يا حق يا مبين، أحيِ قلبي بنورك، وأَقْنِي لشهودك، وعَرِّفْني الطريق إليك، رب اغفر لي، واجعلني لك عبداً ذائبَ النفس بأنوارك، مَطْمُوس الحِسِّ بجلالك، واغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات[١].

أقام أبو العباس في الإسكندرية ثلاثًا وأربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس، ويضرب المثل بورعه وتقواه الى ان انتقل الى جوار ربه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٦ هـ، ودفن بقبه خارج باب البحر في منطقة رأس التين وقبره مشهور بإجابة الدعاء، وقد قال أحد المؤرخين، إن قاضي الاسكندرية حدثه قال: " إن قبر الشيخ أبي العباس المرسي عندنا تِرْياق مُجَرَّب " ما قصد الله عنده أحد في شيء إلا استجاب له[٢].

ابن عطاء الله السكندري

هو الإمام العارف، والعالم الزاهد، تاج الدين، أبو الفضل، أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، الجذامي نسبا، المالكي مذهبا، الشاذلي طريقة، وهو من أصل عربي، فأجداده من الجذاميين من قبيلة كهلان التي ينتهي نسبها إلى بني يعرب ابن قحطان، من العرب العاربة الذين وفدوا إلى مصر، واستوطنوا مدينة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامى.

ولد ابن عطاء الله بمدينة الإسكندرية حيث تقيم أسرته، وحيث كان جده يشتغل بالتدريس.

---

(١) أعلام التصوف الإسلامي/ أبو كف (ص٦٩ - ٨٧)، الوافي بالوفيات (١٧٣/٧)، طبقات الأولياء (٤١٨)، المقفى الكبير للمقريزي (٣٣٤/١)، سلم الوصول إلى طبقات الفحول (١٨٨/١)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (٣١٢)،

(٢) وهذا ليس عبادة لغير الله، وإنما هو طمع برحمة الله، أنه جعل بعض عباده مباركين، وقد اشتهر مثل ذلك عن عدد من الصالحين، كمعروف الكرخي، كما ذكر الذهبي، فذكر أن الدعاء عند قبره ترياق مجرب.

وقد تتلمذ ابن عطاء الله على أشهر فقهاء الإسكندرية في ذلك العصر، ومنهم الفقيه ناصر الدين المنير الجذامي الإسكندري، وكانت الإسكندرية في عصر ابن عطاء الله مركزاً هامّا من المراكز العلمية بمصر، إذ كان بها كثير من خيرة العلماء في الفقه، والتفسير، والحديث، والأصول، وسائر العلوم العربية والإسلامية، هذا بالإضافة إلى أنها كانت زاخرة بعدد وفير من شيوخ الصوفية وأولياء الله الصالحين.

وكان والده عطاء الله معاصرا للشيخ أبي الحسن الشاذلي، مؤسس الطريقة الشاذلية، فقد ذكر ابن عطاء الله فى كتابه "لطائف المنن" مايلى: " أخبرني والدي - رحمة الله عليه - قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - فسمعته يقول: والله قد تسألونني عن المسألة لا يكون لها عندى جواب، فأرى الجواب مسطرا في الدواة، والحصير، والحائط "(١).

وكان أفراد الأسرة التي نشأ فيها ابن عطاء الله مشتغلين بالعلوم الدينية وتدريسها، لأن جده لوالده كان فقيها معروفا في عصره، ولأن ابن عطاء الله نشأ - كجده - فقيها مشتغلا بالعلوم الشرعية، فكان يطمع إلى بلوغ منزلته.

أطوار حياته.

تقسم كتب التراجم حياة ابن عطاء الله إلى ثلاثة أطوار:

الأول: أمضاه بمدينة الإسكندرية طالبا للعلوم الدينية في عصره، من تفسير، وحديث، وفقه وأصول، ونحو، وبيان، وغيرها، من خيرة أساتذتها في ذلك الوقت، وفي هذا الطور من حياته كان متأثرا إلى حد كبير بآراء جدّه في إنكاره على الصوفية إنكارا شديدا، وقد ذكر ذلك فى كتابه "لطائف المنن" إذ يقول: وكنت أنا لأمره - أي لأمر أبي العباس المرسي - من المنكرين، وعليه من المعترضين، حتى جرت مقابلة بيني وبين أصحابه،

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١٧٣/١)، ومعنى أنه مسطر: أي يراه أمامه كشفاً، فتكون الصورة الكشفية على أي شيء كان أمامه.

وذلك قبل صحبتى إيّاه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلّا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم - أي المتصوفون - يدّعون أمورا عظيمة، وظاهر الشرع يأباها.

ويبدأ الطور **الثاني** من حياته سنة ٦٧٤ هـ، عند التقائه بأبي العباس المرسي واصطحابه له، وينتهي بارتحاله إلى القاهرة، وفي هذا الطور نلاحظ زوال إنكاره للصوفية حين لقي أستاذه المرسي، إذ أعجب به إعجابا كبيرا، وأخذ عنه طريق الصوفية.

وقد كان السبب في تحوّله الواضح من الإنكار الشديد إلى التصوف أنه أحسّ بانقباض وانزعاج نفسي؛ خشيةَ أن يكون منكراً على الشيخ أبي العباس المرسي من غير حق، وفى ذلك يقول: وكان سبب اجتماعي به - بأبي العباس - أن قلت لنفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل - من تلاميذ المرسي -: دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات، ولا يخفي شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض إلهي، فأذهب الله ما كان عندي.

ومما هو جدير بالذكر أن ابن عطاء الله **لم ينقطع عن طلب العلم بسلوكه طريق الصوفية**، وإنما ظل يطلب هذه العلوم بتوجيه شيخه له، فقد ظن في بادئ الأمر أنه لن يستطيع أن يسلك طريق الصوفية إلّا إذا انقطع عن اشتغاله بهذه العلوم، وتفرغ بالكلية لصحبة شيخه.

ويذكر ابن عطاء الله كيف كان أبو العباس المرسي يرسم لكل واحد من تلاميذه طريقا خاصّا فيقول: " ودخلت أنا عليه - أي على أبي العباس المرسي - وفي نفسي ترك الاشتغال بالعلم الظاهر، فقال لي من غير أن أبدي له شيئا: صحبني بِقُوصٍ[١] إنسان يقال له ابن ناشئ وكان مدرّسا بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا، فقال:

---

(١) اسم مدينة.

يا الشيخ، أأترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس هذا شأنَنا، ولكن امكث فيما أقامك الله، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل، ثم قال: وهكذا شأن الصديقين، لا يخرجون عن شيء حتى يكون الحقّ هو الذي يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، وكأنها كانت ثوبا نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

والطور **الثالث** من حياته يبدأ من وقت ارتحاله من الإسكندرية ليقيم بالقاهرة، وينتهي بوفاته سنة ٧٠٩ هـ، وهو طور نضجه واكتماله من الناحيتين: الفقهية والصوفية، والإفادة منهما في التدريس.

قيامه على الطريقة الشاذلية بعد وفاة أبي العباس المرسي واشتغاله بالوعظ والتدريس.

لقد أصبح ابن عطاء الله بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسى سنة ٦٨٦ هـ، القائم على طريقته، والداعي لها من بعده، هذا بالإضافة إلى قيامه بالتدريس بمدينة الإسكندرية، فلما رحل إلى القاهرة اشتغل بالتدريس والوعظ، فقد تولى ابن عطاء الله التدريس بأكبر الجامعات الإسلامية في ذلك العهد، وهو الجامع الأزهر، وفي ذلك يقول ابن حجر: وكان ابن عطاء يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي - أي أستاذ بكرسي - بكلام يُرَوِّحُ النفْسَ، ويمزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير[1].

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ج١ / ص٣٢٤).

ويقول ابن تَغرِي بَردِي[١]: كان ابن عطاء الله رجلا صالحا، يتكلم على كرسي، ويحضر ميعاده خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق[٢].

وقام ابن عطاء الله أيضا بالتدريس في المدرسة المنصورية، التي أنشأها السلطان المنصور قلاوون بحي الصّاغة.

وقد تخرج على يدي ابن عطاء الله عدد كبير من الفقهاء والصوفية، من أشهرهم الإمام تقي الدين السّبكى، والد تاج الدين السّبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى.

إنتاجه العلمي ومصنفاته.

أمّا عن إنتاج ابن عطاء الله العلمي، فقد ترك لنا عددا كبيرا من المصنفات، تختلف من حيث الموضوع والغرض الذين وضعت من أجلهما، وكلها تعكس بوضوح ثقافة صاحبها، فمنها التصانيف الأدبية، ومنها المؤلفات الصوفية التي عالج فيها أدق أحوال النفس الإنسانية في حال سلوكها إلى الله، ومنها ما وضع في الفقه والنحو والمنطق والفلسفة، ومنها ما يعكس صورته خطيبا واعظا يرشد عامّة الناس إلى طريق الله بعباراته القوية النافذة.

منها:

١. التنوير في إسقاط التدبير.
٢. الحكم العطائية.
٣. لطائف المنن، يتحدث فيه عن شيخه المرسي وشيخ شيخه الشاذلي.
٤. وتاج العروس في تهذيب النفوس.

---

(١) وهو مؤرخ مصري، له كتاب النجوم الزاهرة، توفي ٨٧٤هـ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين الأتابكي، وسُمِّيَ أبوه: تَغْري بَرْدِي، وهي محرفة من تنكري يردي، ويردي بالتركية تعني عطا الله.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (ج٨ / ص٢٨٠).

٥. ومفتاح الفلاح.
٦. القصد المجرد في الاسم المفرد وغيرها.

ومن كلامه في الحكم العطائية:

من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة.

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا.

من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزّلّات.

العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

إن أردت ألّا تعزل فلا تتولّ ولاية لا تدوم لك.

ولحكم ابن عطاء الله قيمة صوفية كبيرة إلى جانب قيمتها الأدبية والفنية، فهي من أعظم ما صنّف في علم التصوف، وهي مثل عال للفكر الصوفي النقي، الخالص من الشوائب، والمتلائم مع الكتاب والسنّة، وأقوال الصحابة وسلوكهم، وهي إلى جانب هذا تضيء لنا صفحات مشرقة من التصوف الإسلامي، وتخاطب وجدان المسلم، وتسمو بروحه، وتطهر نفسه وتعلو بها إلى أسمى درجات النقاء والطهر والكمال الروحي، فيرتفع فوق شهواته، ويعلو بغرائزه، فلا يكون عبدا لها، ومن هذا المنطلق يتخلص من المادية البغيضة، ومن ثم يسمو بسلوكه ويرقى بمجتمعه ويوجهه نحو حياة أفضل.

وقد وَجَدَتْ هذه الحكم طريقها إلى الفقهاء من علماء الأزهر وغيرهم، وكانت تدرّس فيه وفي المساجد الأخرى، وقد شُرحت هذه الحكم العطائية شروحا كثيرة في أزمنة مختلفة، وفي أقطار كثيرة، وبلغات أجنبية أحيانا، كالتركية والمالوية، وغيرهما.

وفاته.

وتوفي ابن عطاء الله سنة ٧٠٩ هـ، وكانت وفاته بالمدرسة المنصورية التي كان يدرّس بها، وكانت جنازته حافلة بجمهور كبير من أهل القاهرة الذين شيعوه إلى قبره في القرافة الكبرى تحت جبل المقطم[١].

الشيخ أحمد زَرُّوق

نسبه

هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، العالم الفقيه المحدث الصوفي المتضلع المتبحر الولي الصالح العارف بالله، بحر العلوم والمعارف، ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة.

مولده

ولد رحمه الله ورضي عنه ثامن وعشرين المحرم عام ٨٤٦هـ، وتولى تربيته جدته بعد وفاة والده فتربى في حجرها، وكانت تدعى أم البنين، وكانت فقيهة فكفلته وأدخلته المكتب، فحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وقيل ابن أربع سنين، وصارت تربيته بالدلال والكمال، حتى نشأ محباً للعبادة ملازماً للأذكار.

الشيخ زروق قبل التصوف

لما اشتد عود الشيخ اشتغل بالخِرازة[٢] ثم تركها، واشتغل بالعلم بإرشاد بعض الأكابر، وقرأ العلوم على عدد من علماء عصره، فقد قرأ بحرف نافع على الإمام القَوْرِي والزرهوني والمجاصي وغيرهم، وقرأ على الشيخ عبد الله الفخار والشيخ علي السبط وعبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي والسنوسي صاحب العقيدة وآخرين، وقرأ البخاري على القوري وتفقه عليه حتى صار منارة في العلم، فقصده العلماء من أكابر أهل عصره كالقسطلاني والقطب الشعراني والعارف بالله ابن الحسن البكري، وكان معاصراً للحافظ

---

(١) مرشد الزوار إلى قبور الأبرار لموفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن (ج٢ / ص١٦).

(٢) وهي خياطة الجِلْد.

السيوطي ولا يدرى هل التقى به أم لا، ولما هاجر إلى مصر وفد إليه العلماء حتى صار يحضر درسه بالأزهر زهاء ستة آلاف نفْس.

الشيخ بعد التصوف.

لم يكن الشيخ زروق مع كل ما ناله من العلم بغنىً عن سلوك طريق التصوف، وطلب الحق ومعالجة أمراض النفس، ولقد نقل المترجمون عنه قصة بدء تصوفه، فقد قال: طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق، واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان، فما طلبت قرب الحق بشيءٍ إلا كان مُبْعِدَني، ولا عَمِلْت في معالجة النفس بشيءٍ إلا كان مُعِيناً لها، ولا توجهت لإرضاء الخلق إلا كان غير مُوَفّقٍ بالمقصود، ففزعت إليه عز وجل فخرجت بفضل ذلك علة رؤية الأسباب، ففزعت إلى الاستسلام، فخرج لي منه رؤية وجودي، وهو رأس العلل، فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحاً لا يصحبه حول ولا قوة، فصح عندي أن السلامة من كل شيء بالتبري من كل شيء، والغُنْيَة من كل شيء، بالرجوع إلى الله في كل شيء، اعتباراً بالحكمة والقدرة، وقياماً مع الطباع بشواهد الانطباع، ولما يرد منه تعالى أمراً ونهياً وخيراً وقهراً، وعبوديةً لا تصحبها رؤية، ورؤيةً لا يصحبها اعتماد.

كتبه رحمه الله

لقد كان للشيخ زروق تآليف كثيرة من كافة فنون العلوم وعلى رأسها علم التصوف ولقد أحصوا مؤلفاته فوجدوا أنه قد ألف كّراساً في النصف من كل يوم ولقد كانت مؤلفاته متعددة يميل فيها إلى الإختصار مع التحقيق والإفادة فيها:

١. تفسير القرآن العظيم.
٢. شرح رسالة أبي زيد القيرواني.
٣. ثلاثة شروح على متن القرطبية.
٤. شرح الحكم العطائية.
٥. اللوائح الفاسية، شرح المباحث الأصلية.
٦. المقصد الأسمى، شرح أسماء الله الحسنى.

٧. شرح على دلائل الخيرات.
٨. كتاب النصائح.
٩. قواعد التصوف.
١٠. عدة المريد الصادق.
١١. العقائد الخمس.

وله تآليف عديدة ورسائل نفيسة.

وفاته.

توفي رضي الله عنه ونفع به عام ثمانمئة وتسعة وتسعين عن عمرٍ يناهز الثالثة والخمسين، ودفن بمِسْلاتَه في طرابلس الغرب، وله مسجد كبير تقام فيه الشعائر ومقام وضريح يزار[١].

(١) طبقات الشاذلية الكبرى (ص١٤٤) الحسن بن كوهن الشاذلي المغربي، المطرب في مشاهير أولياء المغرب (ص١٤٣) عبد الله التليدي، طبقات الشاذلية الكبرى (ص١٣٦) محيي الدين الطعيمي.

المبحث الثاني

الطريقة القادرية (الجيلانية)

التعريف بصاحب الطريقة: الإمام عبد القادر الجيلاني.

يقول عنه صاحب (قلائد الجواهر) هو: محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح (جنكي دوست) موسى بن أبي عبد الله يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجَوْن بن عبد الله المَحْض بن الحسن المُثَنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ونسبه من أمه يتصل بالحسين بن علي رضي الله عنهما.

ويسمى الجَيلاني والجِيلي والكَيلاني.

ولد سنة ٤٧٠هـ، وتوفي ٥٦١هـ.

كان أول أمره شافعياً، ثم انتقل إلى المذهب الحنبلي، وكان يفتي على المذهبين.

يقول الشيخ التادَفي: قال سيدنا الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلاني: كان والدي يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة، بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء، وبالرِّباط بُكْرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدة كلامه على الناس أربعون سنة، أولها سنة (٥٢١هـ)، وآخرها سنة (٥٦١هـ)، ومدة تصدره للتدريس والفتوى ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين، وآخرها سنة إحدى وستين[١].

لقد كان الشيخ عبد القادر الجيلاني رسالة كبيرة ودعوة سامية، فقد رأى الجيلاني ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حب الدنيا والتقاتل على الملك والجاه والسلطان وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات،

---

(١) قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد التادفي الحنبلي (ص٣).

والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم، فانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد والدعوة والتربية، وإصلاح نفوس المسلمين، وتزكيتها ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا، والتكالب على حطامها ومناصبها، وإثارة الشعور الإيماني وتقوية عقيدة الآخرة، والتجافي عن دار الغرور[١].

ولقد اهتم الجيلاني بالإصلاح وتوجيه العباد وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج ففوضت إليه، وضاقت مدرسته بالناس، ومن ازدحامهم على مجلسه، فجلس للناس عند السور أيامًا، ثمَّ وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأمكنة التي حولها، وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء بها بأنفسهم، واكتملت المدرسة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وصارت منسوبة إليه[٢].

جرأته في الحق

وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني جريئًا في الحق، لَمّا وَلَّى المُقْتَفِي لأمر الله أميرُ المؤمنين القاضي ابنَ المزاحم الظالم، قال على المنبر: ولَّيت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين؛ فارتعد الخليفة وبكى، وعزل القاضي المذكور لوقته[٣].

وممَّا يدل على شجاعته وجرأته في الحق قوله في كتابه (الفتح الرباني والفيض الرحماني):

"إنِّي أقول لكم الحق، ولا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم وأهل الأرض عندي كالذَّر؛ لأني أرى الضرر والنفع من الله لا منكم، المماليك والملوك عندي سواء".

وقال مخاطبًا تلك الفئة من العلماء الذين يداهنون السلاطين وينافقونهم (أين أنتم، وهم؟) يقصد بهم العلماء الذين لا يخشون غير الله تعالى، يا خونةً في العلم والعمل، يا

---

(١) نشاط للطالب: اقرأ كتاب: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، تأليف الشيخ ماجد عرسان الكيلاني.
(٢) كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني لأبي الحسن الندوي (ص٢٩، ص٩) على التوالي.
(٣) كتاب قلائد الجواهر (ص٧).

أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله ؟ أنتم في ظلم ظاهر ونفاقٍ، إلى متى؟ يا علماء، يا زهاد، كم تنافقون الملوك والسلاطين، حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها! أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله، اللَّهم اكسر شوكة المنافقين، وخذ بهم، أو تب عليهم، واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم، أو أصلحهم.

الحث على العمل والكسب

وكان يدعو مريديه إلى العمل، ويؤكد أنَّ الطريق ليس كلامًا أو مهادنة وتركاً للحياة، فاللَّه يحب عباده العاملين (اعبدوا اللَّه، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إنَّ اللَّه يحب عبدًا مؤمنًا مطيعًا آكلًا من حلاله، ويحب من يأكل ويعمل، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه، ويبغض من يأكل بنفاقه، وتوكُّله على الخلق) [١]

اتباعه السنة والشرع

كان الإمام عبد القادر متفقهاً في دين الله، بلغ درجة الإفتاء، وكان يدعو أتباع طريقته القادرية إلى اتباع السنة والشرع، يقول لهم في قوة: اتباع الشرع موجب لسعادة الدارين، فاحذر الخروج من دائرته، وإيَّاك أن تفارق الإجماع الشرعي والإجماع على أهل الله، وأقرب الطرق إلى اللَّه تعالى لزوم قانون العبودية، والاستمساك بأصول الشريعة وفروعها، والاستقامة على الجادة.

لقد كان الجيلاني بحق متسننًا عابدًا واعظًا قامعًا لنفسه، ناصحًا لغيره، صادقًا في حاله، مبغضًا للبدعة وأصحابها، وهذا مما يجعلنا ندافع عن الإمام عبد القادر الجيلاني، فيما نسب إليه من تهم يدحضها سلوكه وأقواله وأفعاله.

اتهامات في عبارات تنسب إلى الجيلاني

---

(١) كتاب (الفتح الرباني) للإمام الجيلاني، المجلس الواحد والخمسون، والمجلس السادس والأربعون على التوالي.

يقول صاحب (ترياق المحبين): أخبرني الشيخ الزاهد العارف **محمد** بن عدنان المشهدي، عن الشيخ يوسف أبي زكريا العسقلاني الحنبلي، أنَّه سأل الشيخ **محمد** بن علي بن إدريس اليعقوبي، أحد أركان طريق القوم، عن الذي يُسمع في هذه الأزمنة، وينقل عن لسان الشيخ عبد القادر الجيلاني قدَّس اللَّه سره، من الشطحات والكلمات المشوبة بالعُجْب، والدعوى والتجاوز، وغير ذلك من الألفاظ التي يَرُدُّها الشرع، **مثل قولهم**: إنَّه يقول: قال لي ربي، يا غَوْثُ الأعظم، أكلُ الفقير وشُربُه أكلي وشربي، **وقوله للخضر**: إن كنت قلت لموسى إنَّك لن تستطيع معي صبرًا، فأنت لا تستطيع معي صبرًا، **وقوله**: أنا أحفظ مريدي في غيبته وحضوره، ومريدي لا يدخل النار ولو كان على سبيل مكروه[١]، إن كان مريدي رَدِيًّا فأنا جَيِّد، **وقوله**: قدمي على رقبة كل ولي، **وقوله للميت**: قم بإذني وأمثال ذلك، وهل هذا صحيح وله وجه عند العارفين، فقام منزعجًا وجلس ثمَّ قال[٢]: جلست مع الشيخ عبد القادر، وأكلت معه ونمت معه وسافرت معه وحضرت معه، فواللَّه، ما رأيته تحرك بحركة ولا سمعته تكلم بكلمة تخالف الشرع الشريف أبدًا، الشيخ عبد القادر رجل عارف، عابد زاهد، خائف خاشع، ذو مجاهدة وأوراد وأذكار، كثير البكاء، مخلص واعظ، عالم عامل ورع، عامل بعلمه، له ذوق وكشوفات وكرامات، وأحوال صالحة، وحرمة في قلوب أهل الدين[٣].

إنَّ سلوك الشيخ عبد القادر الجيلاني وقولَه؛ يدلان على أنَّ صاحب الطريقة القادرية كان العابد الزاهد العامل بكتاب اللَّه وسنة رسوله، إنَّ الرجل الذي دعا إلى اتباع الشرع وسنة الرسول الكريم في وصاياه المتعددة؛ يجعلنا نشك فيما نسب إليه من افتراءات وأقوال كاذبة، فلقد كان للشيخ عبد القادر الجيلاني جهود طيبة في إسلام كثير من يهود ونصارى العراق، وعلى يده الكريمة تاب الكثيرون من العاصين والفجرة بفضل نصحه وإرشاده ودعوته الصادقة.

---

(١) أي ولو كان عاصياً منحرفاً.

(٢) القائل: محمد بن علي بن إدريس اليعقوبي.

(٣) ترياق المحبين (ص٥٥).

وقد ذكر الذهبي أنه اهتدى عليه يديه مئة ألف، ما بين يهودي ونصراني ومجوسي أسلموا، وما بين عاص تاب على يديه، وما كان ليكون له هذا الأثر لولا استقامته وصلاحه وعلمه وصدقه، كما ذكر الذهبي من كراماته الإجابةُ على الخاطر[١].

طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني ومبناها

يقول الشيخ علي بن الهيتي عن الشيخ عبد القادر الجيلاني: كان قدمه على التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء.

وكان الشيخ عدي بن مسافر يقول: كان الشيخ عبد القادر الجيلاني طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار، بموافقة القلب والروح، واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر، والقرب والبعد[٢]

ويقول صاحب مخطوطة (السلسبيل المعين في طرائق الأربعين)[٣]: ومبنى الطريقة القادرية على الذكر الجهري في حلقة الاجتماع، والرياضة الشاقة في الاعتكاف بالتدرج في تقليل الأكل والفرار من الخلق، وسلوكهم مصحوب في البداية باستحضار جلال الله وعظمته، فبذلك تنقمع النفس وتتهذب؛ لأنَّ التربية بالجلال أسرع للتخلص من الرعونات.

كيفية الانتساب للطريقة القادرية

يقول الجيلاني: فالذي يجب على المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح، الذي هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح، أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء والصديقين؛ فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء.

(٢) طبقات الشعراني (جـ١/ ص١١٠).

(٣) مخطوط (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) للإدريس تحت رقم ٢٥٦٧ تصوف، ورقة ١٥.

والعمل بهما أمرًا ونهيًا، أصلًا وفرعًا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله، ثمَّ الصدق ثمَّ الاجتهاد، حتَّى يجد الهداية والإرشاد إليه.

إضافة إلى هذين الأصلين الشريفين يضع الجيلاني قواعد يعتبرها مكملة، ولو أنَّها في حقيقتها مستمدة من الشرع، وهي كما يرى الجيلاني سلامة الصدور، وسخاء النفس وبشاشة الوجه، وبذل الندى وكف الأذى، والفقر وحفظ حرمات المشايخ، والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة والإسفاف، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا، هذا من حيث الاعتقاد والإيمان والعمل.

أما عن كيفية الانتساب للطريقة القادرية، فإنَّ كل من يريد أن يسلك الطريقة القادرية عليه أن يبايع شيخاً من شيوخ الطريقة المؤهلين، المُجازين بالتربية، فيكون بذلك منتسباً إلى الطريقة، ليبدأ السلوك.

البيعة:

وقد استحسنوا أن تكون البيعة كما يأتي:

أولاً: قبل المبايعة يصلي المريد ركعتين نفلًا لله تعالى، ويقرأ الفاتحة للنبي صلى الله عليه وسلم ولإخوانه المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانياً: يحضر المريد بعد الصلاة بين يدي الشيخ ويجلس تجاهه، ويضع يده في يده، ويطلب الشيخ منه الاستغفار، ويكون بالصيغة التالية، والمريد يرددها من ورائه:

(قل: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، وأشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه، بأني تائب لله منيب إليه، وأن الطاعة تجمعنا، وأن المعصية تفرقنا، وأنَّ العهد عهد رسوله ﷺ، وأن اليد يد شيخنا وأستاذنا الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني قدس الله سره، وعلى ذلك أُحِلُّ الحلالَ، أي أعمل به، وأُحَرِّمُ الحرام، أي أتجنبه، وألازم الذكر والطاعة بقدر الاستطاعة، ورضيت بحضرة شيخنا المشار إليه، شيخًا لي وطريقته لي، واللهُ على ما أقول وكيل).

ثم يقرأ الشيخُ آيةَ المبايعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

ثم يلقنه الشيخ كلمة التوحيد: (لا إله إلا اللّه)، أي يقولها الشيخ أمام المريد، ثلاث مرات، والمريد يرددها بعده مباشرة.

ثالثًا: الوصايا، وهي جملة أشياء يوصي بها الشيخ مريده، مطالبًا إياه اتباعها والعمل بمضمونها، وهي تَحَمُّلُ الأذى، وترك الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان، وبذل الكف وسخاء النفس، وترك الحقد والحسد والكذب والنميمة والفحش في الكلام، واستدامة الوضوءِ، والاستغفار والتوبة عند كل ذنب، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من غير تعيين عدد.

رابعاً: المبايعة.

فإذا قبل المريد هذه الوصايا من شيخه، يقول له الشيخ: (وأنا قبلتك ولدًا، وبايعتك على هذا المنوال).

ويقول التلميذ: (وأنا قبلت)، أي قَبِلَ بالشيخ مُرشداً له، وقَبِل بهذه الوصايا وبالسلوك في طريق الإحسان والتربية.

ثم تنتهي المصافحة.

خامساً: الدعاء.

فيدعو الشيخ للمريد، كأن يقول: (اللَّهمَّ، كن به برًّا رحيمًا، جوادًا كريمًا، اللَّهم دُلَّه بك إليك، اللَّهم افتح عليه فتوح الأولياء، بجودك ورحمتك وكرمك، يا أرحم الراحمين، وصلى اللَّه على سيدنا محمد، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، آمين).

---

(١) الفتح (١٠).

وقد يعم الحاضرين بالدعاء، فيقول مثلاً: (اللهم اجعلنا مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلمًا لأوليائك وعدوًّا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

والعبارات التي مَرَّتْ ليست شرطاً بألفاظها، فقد يستعمل الشيخ ما هو في معناها.

سادسًا: يختم الشيخ مجلس المبايعة بقراءة قوله تعالى: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) [يس:٥٨]، (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الإسراء:٨٢]، ثمَّ يقرأ الفاتحة والإخلاص ثلاث مرات.

وقد يقرأ ذلك على كأس ماء، أو ماء وسُكَّر، ثم يعطيه للمريد ليشربه.

فإذا تم ذلك فقد أصبح الطالب في عداد المريدين، ويَلْزَمُ شيخَه الذي أخذ عنه العهد، ليكون من السالكين.

إجازة السلوك

قد يمتد السلوك سنوات، فهي مرحلة علمية عملية، يتلقى فيها المريد علم السلوك والمعرفة عن شيخه، ويسمع المواعظ والإرشادات، ممتثلًا أوامر الشيخ ومنتهيًا لنواهيه، والتي لا تكون مخالفة لشرع الله، آخذًا نفسه بالمجاهدة وأشد الرياضات، تحت إشراف الشيخ، حتى يفتح الله عليه فتوح الأولياء.

وفي السلوك ـ كما يرى الشيخ الجيلاني ـ على المريد، عدم الانقطاع عن شيخه المُوَجِّهِ له فيلزمه بدوام الاتصال وحضور مجالسه، فيكون النفع والاستفادة والترقي، حتى يستغني عنه بالوصول إلى ربه، فيتولاه بعد ذلك الله تبارك، فيستغني بربه عن غيره.

إجازة المشيخة

فإذا تحقق المريد بالمعرفة والفتح والوصول إلى الله، وصار عالماً بقواعد التربية والإرشاد، إذ تعلمها وعمل بها، يستطيع عندئذ الانفصال عن شيخه ليربي التلاميذ، قال الجيلاني: (فإذا بلغ المريد حالة شيخه، أُفْرِدَ عن الشيخ، وقُطِعَ عنه، فيتولاه الحق).

وليس معناه أن ينقطع عن زيارة الشيخ، وإنما معناه أنه صار شيخاً كشيخه، فيستقبل الطلاب والسالكين مثله.

فإذا بلغ ذلك يَمنحُه الشيخ إجازة المشيخة، تَشهد له ببلوغ مراده، فيكون شيخًا في عداد الشيوخ.

وعادة تكون الإجازةُ خَطِّيَّة، موقعةً من قبل المجيز، ويُذْكَرُ فيها أنه أجازه بأعمال التربية وتلقين كلمة التوحيد، كما أُجيزَ بها من شيوخه، بالسند عن شيخه، وشيخه عن شيخه، مستمراً بذكر سلسلة الشيوخ، حتَّى يصل إلى الشيخ منشئ الطريقة، ومنه حتى يصل إلى الحسن البصري، عن الإمام علي بن أبي طالب، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ويختم الشيخ الإجازة بتوصية المأذونِ المُجاز بتقوى الله، وبالدعاء له(١).

من أوراد وأحزاب الإمام الجيلاني

كان من دعاء الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إني أسألك بسر الذات، وبذات السر، احْتَجَبْتُ بنور الله، وبنور عرش الله، وبكل اسم لله، من عدوي وعدو الله، بمئة ألف لا حول ولا قوة إلا بالله، خَتَمْتُ على نفسي وعلى أهلي وعلى كل شيء أعطانيه ربي، بخاتم الله المنيع الذي ختم به أقطار السماوات والأرض، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين».

وله دعاء يسمى دعاء البسملة:

«بِسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحِيم، اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ بِفَضْلِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَأسألك بِعَظَمَةِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَأسألك بِجَلَالِ وثناءِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَأسألك بِهَيْبَةِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَبِحُرْمَةِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَبِجَبَرُوتِ وَمَلَكوتِ

(١) الطرق الصوفية في مصر (ص ١٠٦ - ١١٦).

وكِبْرِياءِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، وَبِعِزَّةٍ وَقُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم، ارْفَعْ قَدْرِي بِسِرِّ بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يسر أمري، واجبر كسري، وأغن فقري، وأطل عمري مع الصحة والعافية بفضلك وكرمك وإحسانك يا من هو الله. ﴿ كهيعص ﴾ ﴿ ألم ﴾ ﴿ ألمر ﴾ ﴿ ألمص ﴾[1]، بسر اسم الله الأعظم، ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾، العلي العظيم ذو الجلال والإكرام، أَسْأَلُكَ بِجَلالِ العِزَّة، وَجلالِ الْهَيْبَةِ، وبِعِزَّةِ القُوَّة، وَبِكِبْرِياءِ العَظَمَة، وَبِجَبَرُوتِ القُدْرَة، أَنْ تَجْعَلَني مِنْ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ، وَأَسْأَلُكَ بِحُسْنِ البَهاءِ، وَبِإِشْرَاقِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ، أن تدخلني برحمتك في جنات النعيم يا رب العالمين.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِسِرِّ هَذِهِ الأَسْرار، أَنْ تقضي لي جميع الحاجات، وأن تُطهرني من جميع السيئات، وأن تُنَجِّيني من جميع الأهوال والآفات، وأن ترفعَني عندك أعلى الدرجات، وأن تُبَلِّغَني أقصى الغايات، من جميع الخيرات، في الحياة وبعد الممات، وأسألك يا الله أن تُفَرِّجَ عني ما أنا فيه، وأن تُقَدِّرَ لي الخير فيما أُريدُه وأنويه، وأن تعصمني من الفتن والمعاصي والفحشاء، وأن تحفظني وأهلي وذريتي ومن تحت حَوْزَتي من كل سُوءٍ وشرٍّ وبلاء، وأن تنصرني على جميع الحساد والماكرين والأعداء، يا رب العالمين.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ».

---

(١) إدخال الحروف المقطعة النورانية التي وردت في أوائل بعض السور؛ ليس مُنكَراً، فهي آيات لها أسرارها وأنوارها، والقارئ يقرؤها بنية قراءة القرآن، طالباً أجرها ونورها من الله تعالى.

المبحث الثالث

الطريقة الرفاعية

التعريف بصاحب الطريقة: الإمام أحمد الرفاعي.

تنسب الطريقة الرفاعية أو البطائحية[١] أو الأحمدية[٢] إلى الإمام أحمد الرفاعي الشيخ الكبير، السيد ابن السيد أبي الحسن علي الرفاعي الحسيني[٣].

قدم أبوه من المغرب، وسكن البطائح بقرية أم عَبِيدة، وتزوج بأخت منصور الزاهد، ورزق منها الشيخ أحمد وإخوته. وكان أبو الحسن مقرئًا، يؤم بالشيخ منصور، فتوفي وابنه أحمد الرفاعي حمل، فرباه خاله.

كان مولده كما رجح الشيخ عز الدين الصيادي؛ سنة اثني عشر وخمسمائة (٥١٢هـ)، بقرية حسن بالبطائح، وقيل: ولد أول سنة خمس مائة[٤].

وكانت وفاة الإمام الرفاعي بقرية أم عَبيدة بين واسط والبصرة سنة (٥٧٨هـ).

وجد الرفاعي هو أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي، المغربي، ومنه جاءت نسبة الإمام: الرفاعي.

---

(١) والبطائح عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة.

(٢) قد تطلق الأحمدية على طريقة الإمام أحمد البدوي، كما تطلق على فرقة ضالة كافرة استحدثت قبل حوالي مئتي عام، فلينتبه وليفرق بينها.

(٣) أُخِذ كثير من هذا المبحث من كتاب الإمام عز الدين الصياد؛ الوظائف الأحمدية، وكتاب الإمام أبو الهدى الصيادي؛ الطريقة الرفاعية، وانظر: الموسوعة الصوفية، أعلام التصوف، عبد المنعم الحفني ١٨٠/١ فما بعدها، وبحث الإمام الرفاعي، وطريقته في التصوف، يوسف بن محمد عادل جيجة.

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٧٨/٢١)، وسبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب (٤٠٧/١)، والشيخ عز الدين، والوظائف الأحمدية.

ويرجع نسب الإمام الرفاعي إلى آل البيت، فهو حسيني، يمر نسببه بالإمام موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الشهيد سبط رسول الله ﷺ الحسين ابن الإمام أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ويرجع نسبه من جهة أمهاته إلى الصحابي الجليل سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وإلى سيدنا الحسن السبط رضي الله عنه، وإلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكر المحققون[١].

وسلسلة سند الإمام الرفاعي في التربية: من طريق شيخه عليّ القاري الواسطيّ، عن شيخه أبي الفضل كامخ الواسطيّ، عن غُلام بن تركان، عن أبي عليّ الرُّوذْبَاريّ، عن عليّ العجمي، عن أبي بكرٍ الشِّبليّ، عن أبي القاسم الجنيد البغداديّ، عن خاله السَّرِي السَّقَطِي، عن أبي محفوظٍ معروفٍ الكرخيّ، عن داودٍ الطَّائيّ، عن حَبِيبٍ العجميّ، عن الحسن البصريّ، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن سيّدنا محمَّدٍ رسول الله ﷺ[٢].

وكذلك أخذ الرفاعي السلوكَ عن خاله الشيخ منصور البطائحي بإسناده.

ويتصل سند الرفاعي أيضاً من طريق آخر إلى الإمام معروف الكرخي ثم عن علي بن موسى الرضَى عن موسى الكاظم عن جعفر الصَّادق عن محمَّد الباقر عن زين العابدين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين[٣].

---

(١) انظر: الإمام أبو الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية.

(٢) انظر: ابن الملقن، طبقات الأولياء (ص: ٩٤)، والإمام الرواس، مراحل السالكين.

(٣) انظر: بهاء الدين الجندي اليمني، محمد بن يوسف، السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/٦٠).

وقد كان للإمام الرفاعي **تلاميذ** بعشرات الألوف، وخَلَفَه في الطريق والتربية مئات، ولم يكن قطر من أقطار بلاد المسلمين يخلو من جماعته وأتباعه، وكان من أشهر خلفائه: الشيخ عبد الله أبو الحسن البغدادي، والشيخ يوسف الحسيني السمرقندي، والشيخ عمر الهروي الأنصاري، والشيخ أبو شجاع الفقيه الشافعي، والشيخ عمر الفاروثي[١].

وكان رحمه الله أشعري العقيدة، شافعي المذهب، وقد أدخله الإمام الحجة المفسر الحافظ المؤرخ تاج الدين السبكي في عداد الفقهاء الشافعية، فذكره في طبقات الشافعية [٢].

مؤلفاته:

كان الإمام الرفاعي منشغلاً بالتربية والإرشاد والدعوة والتعليم، وقد نقلت بعض مجالسه، فدونها بعض طلابه الكبار، ومن أبرزهم شرف الدين بن عبد السميع الهاشمي الواسطي، فكان من كتبه:

"البرهان المؤيد"، وفيه توضيح لأدلة مسائل التصوف، ورد على من أنكر بعض مسائل التصوف بغير حق.

"حالة أهل الحقيقة مع الله"، وفيه يروى أحاديث بإسناده، ثم يشرحها أو يعلق على جانب من معانيها، ويروى فيه كثيراً من قصص السلف، التي تجلي أحوالهم الصالحة العالية.

"الحكم الرفاعية"، وهي نحو مئتي حكمة، لخص فيها منهجه السلوكي والتربوي.

وهذه الكتب مطبوعة، ويذكر المؤرخون كتباً لم نطلع عليها: "الصراط المستقيم في معاني بسم الله الرحمن الرحيم"، و"تفسير سورة القدر"، و"الرواية في حديث النبي صلى الله

---

(١) انظر: الإمام عز الدين الصياد، الوظائف الأحمدية.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٤/٤٠).

عليه وسلم"، و"الطريق إلى الله"، و"شرح التنبيه في الفقه الشافعي"، و"النظام الخاص لأهل الاختصاص"، و"رحيق الكوثر"، وغير ذلك[١].

وقد صنف كثيرون كتباً في الشيخ وفي الطريقة منها: ربيع العاشقين لعلي بن جمال الحداد، وترياق المجيب لتقي الدين الطوسي والنفحة المسكية للفاروق الواسطي، وخلاصة الإكسير لعلي الواسطي، والعقود الجوهرية لأحمد عزت الفاروقي، وغيرها مما ننقل عنه في هذا المبحث.

أقوال العلماء فيه:

نقل الشيخ عز الدين عن الإمام أبي شجاع الشافعي فيما رواه قائلاً: (كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه عَلَماً شامخًا وجبلًا راسخًا وعالـمًا جليلًا، محدّثًا فقيهًا مفسرًا، ذا روايات عاليات وإجازات رفيعات، قارئاً مجوّدًا، حافظًا مجيدًا حجة رحلة، متمكنًا في الدين، سهلًا على المسلمين، صعبًا على الضالين، هينًا لينًا هشًا بشًا، لين العريكة حسن الخُلق، حلو المكالمة لطيف المعاشرة، لا يَمَلُّه جليسه، ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة، حَمُولًا للأذى، وفيًا إذا عَهِدَ، صبورًا على المكاره، جوادًا من غير إسراف، متواضعًا من غير ذلة، كاظمًا للغيظ من غير حقد، أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأعمَلُهم بها، بحرًا من بحار الشرع، سيفًا من سيوف الله، وارثًا أخلاق جَدِّه رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[٢].

ونقل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني: (والله إن السيد أحمد حجة الله على أوليائه اليوم) [٣].

وقال ابن خلكان: (كان رجلًا صالحاً فقيهاً شافعي المذهب... وانضم إليه خَلْق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه، والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق.

من الفقراء منسوبة إليه... ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالَم لا يُعَدُّ ولا يحصى، ويقومون بكفاية الكلِّ[(١)].

وقال عنه الذهبي: الإمام، القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين، قدم أبوه من المغرب، وسكن البطائح بقرية أم عبيدة، وتزوج بأخت منصور[(٢)] الزاهد، ورزق منها الشيخ أحمد وإخوته[(٣)].

وقال سبط ابن العجمي: (هو الولي الشيخ الزاهد، صاحب الأحوال والكرامات)[(٤)].

وقال كاتب جلبي: (كان من الأفراد، أجمع الناس على علمه وفضله، وهو أكثر المشايخ أتباعًا، وقال الذهبي: كان إليه المنتهى في التواضع والقناعة والانكسار وسلامة

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان (١/ ١٧٢). ثم قال: «ولم يكن له عَقِب، وإنما العقب لأخيه، وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية إلى الآن، وأمورهم مشهورة مستفيضة، وقد رد المحققون عليه، فقالوا: بل أعقب البنات، ومنهم السيدة زينب والدة السيد أحمد عز الدين الصياد، وكذلك أعقب ولداً ذكراً، اسمه صالح، لكنه مات في حياة والده في سن السابعة عشر قبل أن يتزوج، فلعله لكونه لم يبق من بعده ذرية من طرف الأولاد ذكور؛ يذكرون أنه لم يعقب. انظر: الإمام الرفاعي، وطريقته في التصوف، يوسف بن محمد عادل جيجة.

(٢) هو الشيخ منصور ابن الشيخ يحيى ابن الشيخ موسى ابن الشيخ كامل النجاري لأبيه، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري النجاري رضي الله عنه الحسيني لأمه، ولد بأم عبيدة بدار أبيه ونشأ بها وتلقى الفقه الشافعي عن أبيه وعن ابن عم أبيه الشيخ أبي منصور الطيب، وتخرج به وبعمه الشيخ معز الدين طلحة أبي محمد الشمبكي الأنصاري الفاطمي، وتخرج به - أي الشيخ منصور - الأئمة، ولما اتسعت دائرة إرشاده ترك رواق أم عبيدة وبنى رواقاً عظيماً ببلدة نهر دقلى بالقرب من واسط، وعهد بالمشيخة لابن أخته السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما من بعده، ومات ببلدة نهر دقلى ودفن برواقه المبارك سنة (٥٤٠هـ) انظر: إرشاد المسلمين لعز الدين أحمد الفاروثي (ص١٣-١٤)، و«الطبقات الكبرى» للشعراني رقم (٢٥٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٧٧/٢١).

(٤) انظر: سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب (٤٠٧/١).

الباطن، وذكر اليافعي في "روض الرياحين" طرفًا من أخباره، وفي مناقبه كتاب لابن عبد المحسن الواسطي)[١].

وكان يقال فيه: جبل من السنّة المحمّديّة وهو كذلك، فإنّه كان ناصراً لأمر الله، وكلّ أقواله وأفعاله لله تعالى.

وقالوا: انتهت إليه رياسة الطريق.

من أخلاقه:

قيل: إن هرة نامت على كُمِّ الشيخ أحمد، وقامت الصلاة، فقَصَّ كُمَّه، وما أزعجها، ثم قعد، فوصله، وقال: ما تغير شيء.

وقيل: كان يجمع الحطب، ويجيء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم بالجرة.

وكان زاهداً في الخلق، لا يبالي عظموه أم حقروه، أكرموه أم آذوه، فلا يعظُم هؤلاء عنده، ولا ينقص هؤلاء عنده، متحققاً بقوله تعالى: {لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم}[٢].

وكان لا يقوم للرؤساء، ويقول: النظر إلى وجوههم يقسي القلب.

وكان كثير الاستغفار، رقيق القلب، غزير الإخلاص[٣].

وأما كرمه وجوده فقد ثبت بروايات العدول وصحيح النقل أن رُواقَه الشريف كان يجمع كل يوم عشرين ألفًا، ويَمُدُّ لهم السِّماط صباحًا ومساء، وليلةَ مَحْيا الأسبوع يجتمع عنده أكثر من مائة ألف إنسان، ويقوم بكفاية الجميع، ولم يرو لنا التاريخ وقوع مثل ذلك لغيره من أولياء الإسلام، وهذا باتفاق الخواص والعوام وبإجماع الطوائف من موافقٍ ومُخالف) [٤].

---

(١) انظر: كاتب جلبي، سلم الوصول إلى طبقات الفحول (١/١٧٦).

(٢) الحديد (٢٣).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٧٨ - ٨٠).

(٤) انظر: الإمام أبو الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية.

وأما عفوه وصفحه ولطفه وحكمته، فقد نقل أن السيد أحمد الرفاعي ﷺ مشى ليلة إلى بيته، فوجد الباب مفتوحاً، ووجد لصاً فيه يريد أن يسرق غَلَّة القمح، ففزع منه اللص فزعاً شديداً، وكان السعر قد غلا، فقال له السيد أحمد الرفاعي: إن الغلة تتعبك، أي تحتاج إلى تنقية وطحن، وهاهنا ما هو أهون عليك من ذلك، تعال معي حتى أعطيك دقيقاً، فسكن خوفه لما سمع كلامه، ومشى معه، فسأله السيد أحمد ﷺ: هل معك شيء تحمل فيه الدقيق؟ قال: نعم، فأخذه منه وملأه له دقيقاً، فأخذه الرجل، وخرج، وكان غريباً، فخرج معه السيد حتى بَعُدَ عن «أم عَبِيدةَ» ثم سأله السيد أحمد ﷺ قبل أن يفارقه أن يجعله في حِلٍّ من ترويعه إياه حين دخل البيت، فعجب اللص من كلامه وحِلْمه، فجعله في حل، فقال السيد أحمد الرفاعي ﷺ: أيْ ولدي، طيبت قلبي، طيب الله قلبك، ثم ودعه وانصرف، فلما رجع الرجل إلى أهله تفكر في حال السيد وفي قوله: أي ولدي، وحلمِه وعفوه، فرجع إليه وتاب على يديه وأخلص وصار من أكابر الفقراء(١).

وكان سريع التأثر والاتعاظ، فقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أبياتاً من الشعر سمعها الرفاعي من المنشد عبد الغني بن نقطة، فتواجد، وتأثر، منها:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى وتحتي بحار بالأسى تتدفق(٢)

من أقواله وحِكَمِه:

العلم شرف في الدنيا، وعز في الآخرة.

كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة.

من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

الأنس بالخلق انقطاع عن الحق.

---

(١) انظر: حكم الرفاعي، تقدمة وتدقيق: الشيخ أحمد القلاش.

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/٢٨٨).

الخلق كلهم لا يضرون ولا ينفعون، حُجُبٌ نَصَبَها لعباده، فمن رفع تلك الحجب وصل إليه.

علامة العارف: كِتمان الحال، وصحة المقال، والتخلص من الآمال.

الشيخُ مَن إذا نصحك أَفهمك، وإذا قادك دلك، وإذا أخذك نهض بك.

الشيخ من يُلزمك الكتاب والسنة، ويُبعدك عن المحدثة والبدعة.

الشيخ ظاهره الشرع، وباطنه الشرع.

من أيقن أن الله الفعال المطلق؛ صرف همته عن غيره.

حُشرت مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين.

وقال: سلكت الطرق الموصلة فما رأيت أقرب ولا أصلح ولا أسهل من الافتقار والذل والانكسار، فقيل له: فكيف يكون؟ قال: تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من كراماته:

قال تاج الدين السبكي عن الرفاعي:"الشيخ الزاهد الكبير أحد أولياء الله العارفين والسادات المشمرين، أهل الكرامات الباهرات"(١).

«وقالوا: بلغت إمامته في طريق الله، وولايته وكراماته، التي لا تعد، وتقبيله يد النبي صلى الله عليه وسلم، وصحة نسبته له؛ مبلغ القطع البت بالتّواتر المرعي الشرعي، وبلغ صيته غاية المشرق والمغرب، وانتهت إليه مكارم الأخلاق، وسَرَتْ كراماتُه بإذن الله على مر

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٤/٤٠).

الدُهور والأيّام، وأعطاه الله الحكمة؛ فمجالس وعظه جامعة للأسرار العجيبة، والعلوم الكثيرة التي لا تحصى»[١].

وقد ألف الإمام السيوطي المحدث الفقيه المفسر، كتاباً لِبيانِ ثبوت كرامة مَدِّ يَدِ النبي ﷺ للرفاعي، بين أنها رويت بأسانيد قوية كثيرة، عمن شاهدها، وسمى كتابَه: «الشَّرفُ المحَتَّمُ، فيما مَنَّ الله به على وَلِيِّه السيد أحمد الرفاعي، مِنْ تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم».

وبعض الناس يسارع إلى إنكار ذلك، ويتعجب منه، لأنه ينظر إلى أنها خارقة في حق الخلق، وينسى أنها أمر ممكن في حق الخالق القادر، وأهل السنة مجمعون على إثبات الكرامة، بشكل عام، أما إثبات كرامة بذاتها؛ فيكون بصحة روايتها وإسنادها، وهي من أمور الدين، فيكفي فيها إسناد صحيح واحد، فكيف إذا كانت الكرامة في موسم الحج، وشهدها خَلْق كثير.

ومن لم يقر بكرامة لعدم ثبوتها لديه؛ ليس له أن يجزم بعدم حصولها، ولا أن ينكر على من صَدَّق بها، إذا ثبت بمثل ما يثبت به الحديث النبوي الآحاد، فكيف إذا ثبتت بأقوى من ذلك.

والناس في كرامات الرفاعي والرفاعية بين مصدق ومكذب ومتوقف، حتى إن الذهبي نَقَلَ مَدْحاً كبيراً للرفاعي ثم قال: «وقال المؤلف في (العبر) بعد هذا المدح الكثير: ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزَّغَل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية، منذ أخذت التتار العراق؛ من دخول النيران، وركوب السباع، واللعب بالحيات، وهذا لا عَرَفَه الشيخُ، ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان»[٢][٣].

---

(١) مختصر القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية، إبراهيم الراوي الرفاعي، وانظر: كتاب الشرف المحتم فيما مَنَّ الله به على وَلِيِّه السيد أحمد الرفاعي مِنْ تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم، للإمام السيوطي، وكتاب مراحل السالكين، للإمام الرواس (ص١٢١).

(٢) العبر في خبر من غبر (٣/٧٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٨٠).

وصحيح أن الرفاعي لم يعرف هذه الأشياء، ولا كانت في زمانه، لكن ليس صحيحاً أن أمور شيطانية، بل كانت كراماتٍ لبعض أتباع الرفاعي زمن التتار، وكانت سبباً في إسلام بعض قادة التتار، وسبباً في احترام أهل الإسلام، فقد ذكر قاضي القضاة كمال الدين محمد بن أبي علي السراج الرفاعي القرشي الشافعي في كتابه «تفاح الأرواح»؛ ذَكَرَ شمسَ الدين أحمدَ الرفاعي الملقب بالمستعجل ابن أخي السيد أحمد الصياد، وأنه نشأ بأم عَبِيدةَ وتوفي بها عام (٦٧١هـ)، وذكر في ترجمته أن هولاكو ملك التتار سلط النصارى على مساجد المسلمين ومدارسهم، وأبطل الأذان وشعائر الإسلام، وقتل العلماء والفقراء وغير ذلك.

فلجأ عدد كبير من الناس إلى شمس الدين المستعجل ابن الرفاعي، وسألوه النظر في حال الإسلام، فأرسل معهم ولدَه تاجَ الدين محمد، وأوصاه بما يعتمد عليه، وصحِبه جمع عظيم من السالكين المولّهين.

فلما وصلوا أثّر حالهم في هولاكو تأثيراً عظيماً إلى أن أرجفوه، فقال السيد محمد: أنت قد انفعلت لهؤلاء النصارى، وهم ضالون، وأنت لا تعرف العلم، وإلا كان يظهر لك الحق بسؤالك لهؤلاء العلماء؛ ولكن بيننا وبينهم أن تعمل لنا ناراً مشتركة من المعادن، تليق بملكك وعظمتك، وندخلها نحن وهؤلاء، فمن كان محقاً سَلِم، ومن كان مبطلاً هلك !! فقال: سمعاً وطاعة.

ثم أمر الجيوش فحفروا حفيرة عظيمة، ثم ملأوها أحطاباً وحديداً ونحاساً ورصاصاً وغير ذلك، ثم قال: انفخوا، إلى أن صارت ناراً عظيمة.

ثم صلى تاج الدين محمد ركعتين، وتوجه إلى الله بالتضرع والدعاء، ثم دخل النار مع العلماء والفقراء، ومع كل واحد منهم في يده نصراني؛ قسيس أو راهب أو ساحر، وغاصوا فيها، فخرج الفقراء من الناحية الأخرى سالمين، وفي يد كل فقير بعضُ النصراني الذي أمسكه؛ إما يده، وإما رجله، وإما رأسه، وباقيه قد ذاب واحترق.

فبُهِتَ الملكُ وسائرُ رجال دولته، وخضعوا للفقراء وذَلُّوا، وذهبت عقولهم لما عاينوا من هذه الكرامة العظيمة(١)، فكان بعد ذلك التمكين للإسلام، حتى دخل ملوك التتار والمغول في الإسلام ونصروه.

ثم استمرت هذه الكرامة في هذه الطريقة حتى يومنا هذا.

قاعدة فيما منَّ الله به من الخوارق على هذه الطائفة الرفاعيّة(٢):

اعلم أيها المنصف أنّ الله وهب هذه الطائفة المباركة من الكرامات البيض أعلاها، ومن الأخلاق الشريفة أسناها، وجعل أحوالهم وأطوارهم مطابقة لحال النبي صلى الله عليه وسلم والسّلف الصالح من آله وأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

إنّ كلّ ما صدر منهم من الخوارق على يد هذه الطائفة، مسبوق بالمعجزات النبوية، وأصله في الكتاب والسّنّةَ معلوم، لا ينكره إلا الحاسد أو المكابر المعاند.

وذلك كدخول النّار فالكرامة مسبوقة بمعجزة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

وأخذ الحيّات مسبوق بمعجزة موسى عليه الصلاة والسلام.

وأكل السّمّ مسبوق بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبُرْءُ الجروح(٣) فهو أيضاً مسبوق بمعجزته عليه أكمل الصلاة والسلام.

وقد وقع ذلك ومثله من جماعة من أكابر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم:

---

(١) نقل ذلك الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في كتابه « جامع كرامات الأولياء » ١/ ٣٧١، عن كتاب « تفاح الأرواح » لابن السراج، ذاكرًا في مقدمة جامعه أن ابن السراج هذا من علماء القرن الثامن. وانظر: ترجمة الشيخ القلاش للرفاعي في مقدمة حكم الإمام الرفاعي.

(٢) انظر: مختصر القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية، إبراهيم الراوي الرفاعي.

(٣) يشير إلى مسح الجرح بعد الضرب بالشيش، فيشفى فوراً، ولا ينزف.

سيف الله الصَّحابي الجليل سيدنا خالد بن الوليد المخزومي فقد شرب السم ولم يضره[١].

ومنهم من أدخله الأعداء النار، فلم تضره، فلما بلغ ذلك سيدنا عمر رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من أكرمه الله بمعجزة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٢].

فإذا وقعت هذه الخارقة على يد رجل ليس بمظنة الكرامة لا يُعترض، لأنها كرامة أحسن الله بها للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه، وهي سارية بمتبعيه ببركته قدس الله روحه الطاهرة، فَإِنْ الله إذا أنعم على عبده نعمة ما استردَّها.

نعم، اشترطوا إظهار هذه الأسرار في موطنين:

الأول: تجاه المنكر من غير هذه الأمّة المحمّديّة، بنيّة إرشاده للصواب.

الثاني: لاستخلاص مظلوم من ظالم، ولإماتة بدعةٍ وإحياءِ سنّة، بنية جمع القلوب على الله تعالى لوجه الله، لا لغرض من أغراض الأكوان.

قال صاحب الطريقة السيد أحمد الرفاعي: من أيَّده الله لنصرة الدين، أو لتخليص جماعة من المسلمين، من ورطةِ سوء الظَّنِّ بالفقراء، ومعاداةِ الأولياء، فظهرت الخارقة

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٧١٨٦)، والبيهقي في دلائل النبوة رقم(٣٠٣٢) عن أبي السفر قال: نزل خالد بن الوليد الحِيرة على أمير بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم، لا يسقيكه الأعاجم، فقال: ائتوني به، فأتي به فأخذه بيده ثم اقتحمه، وقال: بسم الله فلم يضره شيئاً، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج٩ / ص٣٥٠): رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو مرسل ورجالهما ثقات، إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد والله أعلم. وقد حسن ابن حجر هذه الرواية.

(٢) قال ابن حجر في الإصابة (ج٢ / ص١٣٧): روى ابن وهب عن ابن لهيعة أن الأسود العنسي لما ادعى النبوة وغلب على صنعاء أخذ ذؤيبَ بنَ كليب، فألقاه في النار، لتصديقه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تضره النار، فذكرَ ذلك النبي صلى الله عليه لأصحابه، فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي جعل في أمتنا مثل إبراهيم الخليل.

على يده لهذين الأمرين؛ لا بأس عليه، ومن اتخذ الكرامة التي أكرم الله بها أولياءه شبكةً لصيد الدّرهم والدّينار؛ فليس منّي، أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، والله على ما نقول وكيل.

وأمر رضي الله عنه بعدم الرّغبة بالكرامات، وإظهار خوارق العادات، وقال: الأولياء يستترون من الكرامات كما تستتر المرأة من دم الحيض(١).

وقد أظهر الله سر كلمات هذا الإمام الأكبر رضي الله عنه بعده بسنين وأعوام، فإنَّ أتباع أتباعه الأعلام جعل الله على يديهم إسلام هولاكو خان ملك التتار، وإسلام غازان خان وجميع عساكره أيضاً، حيث شربوا النحاس المذاب والسّموم ودخلوا النيران، كما صرح بذلك البيضاوي والوَتَري وقَرَماني والمنوفي رحمهم الله وغيرهم في تواريخهم، وأيد الله بهم السنة البيضاء، وأعلى بهم الشريعة الغراء، وصان بهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن كرامات الإمام الرفاعي: أنه كان يَسمَعُ صوتَه البعيدُ منه في المجلس كالقريب، ويحضر مجلسَه الأصمُّ الذي لا يسمع، فيفتح الله سمعَه بكلامه، حتى ينتفع بما يقول(٢).

وفاته:

توفي يوم الخميس في شهر جمادى الأولى سنة ثمانية وسبعين وخمسمئة (ت ٥٧٨هـ)، وله (٦٦) سنة، ودفن في قبة الشيخ يحيى النجار(٣).

---

(١) قال الرفاعي في البرهان المؤيد ص ٣٣: «أي أخي أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارِها، الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض، أي أخي الكرامة عزيزة بالنسبة إلى المكرِم، ليست بشيء بالنسبة لنا، لأن هذا الإكرام لمّا وَرَدَ مِن باب الكريم عظُمَ وعَزَّ، وتلقته القلوب بالإجلال، ولما تحوَّل لفظُ النسبةِ إلى العبد هانَ الأمر، واستترَ الكاملُ من هذه النسبة، التي تَحَوَّلَ أمرُها من بابٍ قديم إلى بابِ حادث؛ خيفةً من استحسان النسبة الثانية، فإن قبولَها سُمٌّ قاتلٌ».

(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء (ص: ٩٦).

(٣) انظر: سبط ابن عجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب (٤٠٧/١)، وابن كثير، طبقات الشافعين (ص:٦٨٣).

أصول الطريقة الرفاعية:

أولاً: اتباع القرآن والسنة والاحتكام إليهما:

قال أبو الهدى الصيادي: إن أصول الطريقة العلية الرفاعية مبنية على أساسين عظيمين، لا تنفك عنهما بحال من الأحوال. وهما الكتّاب العزيز والسنّة السَّنِيّة المحمدية، وقد قام بناء تلك الأصول على دعائم المعقول، فكلها حِكَم عقلية وحقائق نقلية، لا تتجاوز الوسع العقلي، ولا تتعدى النص النقلي.

قال الرفاعي رحمه الله: إذا رأيتم الرجلَ تَظهرُ له الكرامات، وتنخرقُ له العادات، فيطير في الهواء، ويمشي على الماء، فلا تغترّوا به حتى تَعرضوا عقيدته وأقواله وأفعاله على الكتّاب والسُنّةِ وسيرة السلف الصالح، وانظروا كيف هو عند الأمرِ والنهي، وهُنالك تُعرَف منزلته.

ثانياً: حب الحبيب صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وكثرة الصلاة والسلام عليه:

قال الإمام عز الدين الصياد: أصول طريقتنا الاشتغال بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الطريقة المباركة، بنيت على الكتّاب والسنة بالأصول والفروع، وأول السلوك في هذه الطريقة الرفاعية المباركة هو حضور القلب مع الله، ولفته عن غير الله، لأن ترك الأغيار هو عين التصوّف عند العارفين.

وباب الدخول على الحضور مع الله في أصول سلوك طريقتنا، الاشتغال بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حبل المقطوعين وسُلَّمُ الوصل للسالكين، ولهذا كانت عادة السادة الرفاعية رضي الله عنهم إذا انتسب لخدمة طريقهم أحدٌ أولاً يأمرونه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ا عتنى الرفاعي بخمس صيغ من صيغ الصلاة على النبي ﷺ، منها:

«اللهم صلى على سيدنا محمد، النبي الأمي، الطاهر الزكي، صلاةً تَحُلُّ بها العُقَدَ، وتَفُكُّ بها الكُرَبَ، وعلى آله وصحبه وسلم».

وقد استحسنوا أن يقرأها الطالب بعد كل صلاةٍ فريضةٍ خمسين مرة، على الأقل، يستقبل القبلة ويحضر بقلبه ويستشعر كأنه مع النبي صلى الله عليه وسلم، فيتأدب ويخشع، ويستغفر الله ثلاث مرات قبل القراءة، ويقرأ الفاتحة لروح النبي ﷺ والرفاعي قدس الله سره وروحه(١).

ثالثاً: أجل مراتب الحب الاتباع:

قال الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه: «قرب العبد من الله وقدره عند الله؛ بقدر محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدرِه عنده»(٢).

رابعاً: الاتصاف بالإحسان:

وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ومن تم له هذا المقام فقد اتصف بالعَبْدِيّة الحقة التي تُلحِق صاحبها بأهل السلامة إن شاء الله.

خامساً: دوام الذكر:

الطريقة الرفاعية قائمة على دوام حضور القلب، واستعمال اللسان بذكر الله سبحانه وتعالى، بغير عدد مع تَرادُف الأنفاس، فإن العدد قيد، وقد قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

قال الإمام الرفاعي رحمه الله: «اجعل لقلبك بذكر ربك حضرةً؛ لا يتلجلج فيها غير ذكره، فإنه غَيور».

ويأمر الشيخ تلميذه بأوراد وأذكار الصباح والمساء، ويوصى المبتدئ بالإكثار من الصلاة على النبي ﷺ والاستغفار، ثم يأمره بالإكثار من التهليل، ثم يعطيه ذكر

---

(١) انظر: الإمام عز الدين الصياد، الوظائف الأحمدية.

(٢) الإمام أبو الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية. وهو المرجع لما يأتي ذكره من أصول الطريق.

الاسم المفرد «الله»، بحسب ما يناسبه، ويزيده شيئاً فشيئاً، ثم قد يأمره بذكر أسماء الله الحسنى، عملاً بقوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}،

سادساً: محبة الآل والأصحاب وتعظيم قدرهم:

يعتني مشايخ الطريقة الرفاعية بالتربية على محبة آلِ النبي صلى الله عليه وسلم وذراريه الطاهرين، محبة إجلال وإعظام، عملاً بقوله تعالى: (قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)، هذا مع عدم الغلو الذي يدفع بالمحب إلى المزالق، كبغض أحد الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

وتربي الطريقة الرفاعية ـ كما هو شأن أهل السنة ـ على إعظام مقادير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ حُرماتهم، والثناء الحسن عليهم، والكف عما شجر بينهم، مع الوقوف عند حكم قوله تعالى: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ) الآية.

وهذا طريق الإمام الرفاعي رضي الله عنه، تحقيقاً لقوله تعالى: (ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ومثلهم فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)، ومن هذا النص تعلم منزلتهم ومكانتهم، ولزوم الكف عن أذيتهم، والاهتمامَ بحفظ حرمتهم، والتحقق بمحبتهم رضي الله عنهم أجمعين.

سابعاً: معرفة حق التقدم لشيخ الطريقة الإمام الرفاعي على جميع أئمة الطرق مع توقير الجميع:

يربي مشايخ الطريقة الرفاعية على توقير جميع الأولياء والصالحين، وأن يعرف السالك لشيخ الطريق حق التقدم على غيره، لأن الله نفعه به، مع النظر إلى الكل بعين الحرمة والرعاية، ويراهم لإمامه إخواناً.

ويعتقد السالك أن إمامه الرفاعي على هداية وقرب من الله تعالى، وقبول عند رسول الله ﷺ، وأن قواعد طريقه سليمة وحق ونافعة وهادية لمن سلكها.

وكل مُقْتدٍ بإمام، يرى صحة المذهب ويرى الكمال فيه لإمامه، وأنه الفاضل، ويرى مذهبَه صوابًا يحتمل الخطأ، ومذهب غيره فيما خالف خطأ يحتمل الصواب، وكلهم على فضل وقدر جليل.

ثامناً: اتباع أحد أئمة المذاهب الأربعة:

تعتمد الطريقة الرفاعية منهج أهل السنة في الفقه، فتربي على موافقة إمام من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتّبعة في الإسلام، والأخذ بما كان عليه، من دون تلفيق ولا تخليط.

تاسعاً: المبايعة:

من أصول الطريقة الرفاعية: المبايعة في طريق الحق، عملاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)، وفي حديث سيدنا عُبادة بن الصامت رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ويرى الرفاعية والصوفية أن البيعة هي بيعة لرسول الله ﷺ، وأن المشايخ الذين اتصل سندهم برسول الله ﷺ هم نواب عنه، فبيعة النبي ﷺ بهذا الاعتبار نافذة سارية باقية، وأنوارها وآثارها وبركاتها حاصلة، قال تعالى: (لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ).

وهيأة البيعة عند الرفاعية تشبه ما ذكرناه في الطريقة الشاذلية والقادرية.

فيأمرون الطالب إذا وفد عليهم لأخذ الطريقة: بالوضوء، وصلاة ركعتين لله تعالى بنية التوبة والإنابة إليه سبحانه.

وبعد ذلك يجلس المرشد على السجادة مستقبلاً القبلة، ويجلس الطالب أمامه لاصقاً ركبتيه بركبتيه، فيقرأ الفاتحة (ثلاثاً).

ويأخذ الشيخ بيد المريد مصافحة، ويقرأ قوله تعالى:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوقَ أَيدِيهِم فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفسِهِ وَمَن أَوفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤتِيهِ أَجرًا عَظِيما)(١)، (وَلَا تَنقُضُواْ ٱلأَيمَـٰنَ بَعدَ تَوكِيدِهَا وَقَد جَعَلتُمُ ٱللَّهَ عَلَيكُم كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعلَمُ مَا تَفعَلُونَ)(٢).

ثم يقول للمريد: قل "أستغفر الله" "أستغفر الله" "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، تبْتُ لله، ورجعت إلى الله، ونهيت نفسي عما نهى الله".

ثم يقول: هل تقبلني شيخك وأستاذك في طريقة إمامنا الرفاعي.

فيقول المريد: قبلتُ، ورضيتك شيخاً لي ومرشداً في طريقة الإمام الرفاعي رضي الله عنه.

ثم يقول الشيخ: الطاعة تجمعنا، والمعصية تفرقنا، والعهد عهد الله، والله على ما نقول وكيل، وإنا وإياك على قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ.

ثم يوصيه المرشد بتقوى الله، ثم يعلمه أوراد الصباح والمساء، ويلقنه(٣) كلمة التوحيد: لا إله إلا الله (ثلاثاً).

---

(١) الفتح (١٠).

(٢) النحل (٩١).

(٣) التلقين: أن يقول الشيخ للمريد: اسمع مني كلمة التوحيد بطريق التلقين، نتلقنها منّي كما تلقنتها من أشياخي، بالسند الصحيح إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيُغمِضُ المرشد عينيه ويقول: "لا إله إلا الله"(ثلاثاً)، مادًّا بها صوته، وقد تكون مع حركة الرأس، فيبدأ برأسه من كتفه الأيمن مع أول الكلمة المباركة، ثم يمضي بها مشيراً إلى ما تحت الثدي الأيسر، ويقولها مخلصاً متجرداً من الأغيار، قاطعاً بها علائق الأكوان، وبعده يقولها المريد ثلاثاً مثل ذلك. قال أهل التصوف: أصل تلقين الذكر يروى عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال النبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ

ثم يضع المرشد يده على صدره، ويقرأ سورة الشرح، ثم يدعو له بالتوفيق والإخلاص والبركة، وبما يفتح الله به عليه من دعاء الخير، ويختم دعاءه بالفاتحة.

عاشراً: الاجتماع على الذكر:

تعتني الطريقة الرفاعية بمجالس الذكر: بالاجتماع على ذكر الله تعالى، والتحلّق للذكر، وافتتاحه بشيء من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما جرت عليه عادة أكثرهم، وهو أمر مشروع: القيامُ للذكر، والحادي يُسمعهم مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ويُنشِد لهم المواعظ والحِكَم، ثم يختمون مجلس الذكر بشيء من القرآن والصلاة والسلام على النبي ﷺ، ويدعون لأنفسهم ولإخوانهم المسلمين، ويقرؤون الفاتحة مراراً لمشايخهم ولأئمة القوم، وقد يتضمن المجلس موعظة، وإنشاداً، وإطعاماً أو حلوى.

وجرت عادة أغلب مشايخ الرفاعية أن يجتمعوا للذكر والموعظة ليلة الجمعة وليلة الإثنين.

حادي عشر: التماس العذر لأهل الله وتبرئة ساحتهم:

يتعامل أئمة الطريقة الرفاعية وأتباعهم ما ينقل عن القوم من عبارات منكرة، على قانون الشريعة المطهرة، فإذا أمكن تأويل العبارة أَوَّلُوا، وإذا تعذر التأويل أنكروا نسبةَ ما يُنقل عنهم إليهم، وجزموا بأنه من المدسوس عليهم، وبرّؤوا ساحة أهل الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته، وعلي يسمع، ثم قال علي: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمع، ثم لَقَّنَ عليٌّ الحسنَ البصري، وهو لقن معروفاً الكرخي، وهو لقن سرياً السقطي، وهو لقن أبا القاسم الجنيد، وهكذا إلى آخر رجال السند. [ذكره الدمياطي في الجواهر الغوالي في ذكر الأسانيد العوالي(١/١١٧) وغيره]، قال الإمام الرفاعي في البرهان المؤيد ص ٦٣ بعد ذكر هذا الحديث: وعلى هذا تسلسل أمر القوم، وصح توحيدهم. انظر: مختصر القواعد المرعية، الراوي. وقد ضعف علماء الحديث هذا الحديث جداً، وعلى الرغم من ذلك؛ فإن الصوفية يرون أن ذلك متوارثٌ ومستحسن، لا ينكره فقيه عليهم.

من المؤاخذات الشرعية والعقلية، إذ حسن الظن بكل مسلم يقتضي تبرئته مما هو مشكوك فيه، فكيف بأولياء الله تعالى، فلا شك هم مبرؤون من كل من يخالف الشرع الشريف.

ولو ثبت شيء من الكلام المنكر شرعاً، فلا يجوز قبوله لكون منسوباً إلى أحد من الصالحين الأولياء، بل يجب ردُّه وإنكاره.

ثاني عشر: صحبة الشيخ المرشد:

أول مراتب السلوك وأهم أصول الطريق صُحبة المرشد الكامل، لتنقلب طباع المريد بمغناطيس الصُحبة من اختيارات نفسه إلى كمال الاستسلام والانقياد إلى أوامر المرشد، فتُستهلك جميع مُراداته في مُرادات الشيخ، وتنقلب غفلته يقظة، وبخله سخاءً، وكسله نشاطًا، وحرصُه زهدًا، وسوء خُلُقه حُسْن خلق.

فيترقّى ببركة الصحبة من كل حالٍ دنيء إلى كل حال عليّ، ومن كل خُلُق سيء إلى كل خُلُقٍ سَنيّ.

وتنطبع محبة الشيخ في قلبه لوجه الله، انطباعاً سليماً خالصاً من العوائق والعلائق والحظوظ النفسانية، فإذا ظهرت عليه هذه العلامات، أَمَرَهُ المرشد بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يستغرق كلُّه بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم، بحيث إذا تصرف أي تصرف شعر وكأن النبي ﷺ يراه، فيستحيي منه.

ثم يُلحِق له الشيخُ بعدَ الصلاة والسلام على رسول الأنام صلى الله عليه وسلم، الاستغفارَ بعدد معلوم، وبعد الاستغفار، ذكرُ الله تعالى، بشرط التجرّد حالة ذكر الله من المخلوقين عظيمهم وحقيرهم، كبيرهم وصغيرهم.

وفي أثناء السير يعالجه طبيبُ روحه شيخُه بالرياضة إذا مسّت الحاجة، وظهر للشيخ العارف شيء من مُوجِباتها، أو يعالجه بالسياحة[(١)] أو بالتجرّد[(٢)] والخلوة، أو بالسهر والتهجّد، أو ببذلِ ما في اليد في الله، أو بالخدمة الشاقة على النفس، ومع ذلك يجعله مؤسَّس البنيان ممهَّد الأركان على حب الشيخ، وصِدْقِ الوَلَهِ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وعدم رؤية الأغيار توكّلاً على الله وإيماناً به سبحانه.

والقاعدة في أدب المرشد أن يكون متشرعاً متديناً عارفاً بأصول الطريقة وآدابها، وأذكارها وأورادها، وخلواتها، ناصحاً لإخوانه، محباً لهم، لا يلتفت إلى الشطحات، ولا يقع فيها.

ثالث عشر: الاستفاضة القلبية:

ومما ينفع السالك في الطريق: ربط قلبه بالشيخ، وهو ما يسمى بالاستفاضة القلبية، وهي أن يستشعر كأن الشيخ معه، كما لو كان في مجلسه، فإن الجلوس مع الصالحين سبب في السعادة والاستقامة، «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»، ويستحسنون أن يكون ذلك بعد صلاة الفريضة والسنة، حيث يجلس للذكر فيبقى مستقبلاً القبلة، ويفرغ خاطره من الخواطر، ويجعل الشيخ على البال، ويستشعر كأنه ربط القلب بقلبه.

رابع عشر: الخلوة المُحَرَّمية:

فيستحب أهل الطريقة الرفاعية أن يكون للسالك خلوة سنوية، لمدة أسبوع، وابتداءُ دخولِها في اليوم الثاني من عاشوراء، يعني اليوم الحادي عشر من شهر مُحَرَّم، ويفضلون أن يكون طعامها خال من كل ذي روح.

وجعلها في محرم، لأنه من الأشهر الحُرُم المعظمة، وترك طعام ذي الروح؛ لأنه يثقل الروحانية، وهو ليس بسنة، لكنه أمر مجرب لا حرج فيه، وله فائدة، وقد

---

(١) بأن يأمره بالسفر.

(٢) ترك العمل.

كان من صيام النصارى، لكنا لا نفعله اقتداءً بهم، وإنما نفعله بشكل مؤقت طلباً لمزيد من الصفاء.

وذِكر هذه الخلوة في اليوم الأول: لا إله إلا الله، بعدد معلوم، وفي اليوم الثاني: الله، وفي الثالث: يا وهّاب، وفي الرابع: يا حيّ، وفي الخامس: يا مجيد، وفي السادس: يا مُعطي، وفي السابع: يا قدّوس.

وشرطوا في الخلوة بعد كل صلاة، تلاوة هذه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مئة مرة، وهي: "اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي الأمّي الطاهر الزكي وعلى آله وصحبه وسلم".

وذكروا لهذه الخلوة المباركة من الفتوحات الربانية والهدايات والعنايات الشيء الكثير المبارك، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

خامس عشر: اجتناب البدع وترك الدعاوى:

أمر الرفاعي باتباع النبي ﷺ والرجوع إلى العلماء المجتهدين، وحذر كثيراً من البدعة والتنطع في دين الله.

قال الرفاعي: «اتبع ولا تبتدع، فإن اتبعت بلغت النجاة، وصرت من أهل السلامة، وإن ابتدعت هلكت».

وقال: «لا تقل قال الحلاج، وقال أبو يزيد، لا ينقص ولا يزيد، قل: قال أبو حنيفة، وقال الشافعي»، تنبيهاً أن لا تجعل كلام الأولياء يعارض كلام الفقهاء، فتكون مبتدعاً.

وحذر الرفاعي من الأدعياء في التصوف، والأدعياء في المشيخة، فمن ذلك قوله:

«وقد نرى في زماننا الرجل الذي لا تعرف له قبيلة، بل ولم تشهر له قَطُّ بالأحوال العالية فَضِيلة، يَكْتَسِي بِمِرْطٍ مِن دِيباجٍ، ويُطِيل الشَّعر، ويَلْبَس التاجَ، ويَدَّعي القُطْبِية والغَوْثِية، ويرفع نفسه من حَضِيضِ أوساخه الدَّنية إلى مقام النيابة

المقدسة المحمدية، ولم يَخَفْ من سوء الخاتمة، ، ويتدرج فيدعي النسب النبوي الطاهر، ويندمج بواهمة زروه وبهتانه في الآل أولي المفاخر...».

كما حذر الإمام الرفاعي في حكمه من أن كثيراً من الغُلُو دخل على التصوف من قِبَل الأعاجم، فقد اعتادوا تعظيم كبرائهم، وبالغوا فيهم، ونسبوا إليهم ما ليس فيهم ولهم.

سادس عشر: اتخاذ الحرفة:

ربى الإمام الرفاعي تلاميذه على أن اتخاذ حِرفة للمعيشة من طريق حلال، هي جزء من السلوك، فأوصى بذلك أتباعه، وبالغ بالوصية.

قال الإمام بهاء الدين محمد مهدي الصيادي في كتابه "واردات الغيب": «من لم يحترف للمعيشة ويكتسبها من طريق حِلّ فليس بأحمدي، فإن طريق الإمام الرفاعي الأكبر رضوان الله عليه العملُ للهِ بالإخلاص، والعملُ أعني الحرفة بالحلال».

ويؤكد الإمام الرفاعي أن الخرقة الصوفية تقتضي أدباً وأخلاقاً وسلوكاً راقياً، فالمريد ينظر بِزِيِّ مَنْ تَزَيَّا، وبخلعة من تَلَبَّس، فإذا لبس لباس الأنبياء والمرسلين وتزيا بزي الأولياء الصالحين؛ فليحفظ حق زيهم بالتخلق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم.

وقد لبس الإمام الرفاعي الخرقة من خاله الشيخ منصور البطائحي، الذى لبسها ضمن سلسلة من خمسة عشر إماماً تنتهي بسيدنا علي كرّم الله وجهه، الذي لبسها من النبي صلى الله عليه وسلم[١]

سابع عشر: موقف الطريقة الرفاعية من المتشابهات وآيات الصفات:

بين الإمام الرفاعي أن مذهبه مذهب السلف في التعامل مع المتشابهات، وأن مذهب التأويل بشروطه صحيح مقبول، قال رحمه الله:

---

(١) الموسوعة الصوفية أعلام التصوف (١/١٨٤).

«أي سادة، نَزِّهُوا الله عن سمات المُحْدَثِين وصفات المخلوقين، وطهروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار، كاستواء الأجسام على الأجسام، المستلزم للحلول، تعالى الله عن ذلك.

وإياكم والقولَ بالفوقية والسفلية والمكان، واليدِ والعين بالجارحة، والنزولِ بالإتيان والانتقال، فإن كل ما جاء بالكتاب والسنة مما يدل ظاهره على ما ذُكِرَ فقد جاء في الكتاب والسنة مِثْلُه مما يؤيد المقصود، فما بقى إلا ما قاله صُلَحاء السلف، وهو الإيمان بظاهر كُلِّ ذلك، ورَدُّ علمِ المرادِ إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، مع تنزيه الباري تعالى عن الكَيْفِ وسِمات الحُدوث، وعلى ذلك درج الأئمة.

وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره قراءَتُه، والسكوت عنه، ليس لأحد أن يُفَسِّرَه إلا اللهُ تعالى ورسولُه، ولَكُم حَمْلُ المتشابه على ما يوافق أَصْل المُحْكَم، لأنه أصلُ الكتابِ، والمتشابهُ لا يُعارض المحكَم».

ثامن عشر: موقف الرفاعية من القول بوحدة الوجود:

القول بوحدة الوجود، بمعنى أن المخلوق هو الخالق، مذهب اعتقادي كفري فاسد، وليس من الإسلام، ولقد حذر الإمام الرفاعي ومن بعده عدد من أئمة الطريقة كالرواس، من القول بالوحدة المطلقة، أو التعبيرات التي ظاهرها يفيد ذلك، فقال الرفاعي رحمه الله في البرهان المؤيد:

«صُمُّوا أسماعكم عن علم الوحدة وعلم الفلسفة وما شاكلَهما، فإن هذه العلوم مَزالق الأقدام إلى النار، حمانا الله وإياكم».

وقال: «الظاهرَ الظاهرَ، اللهم إيمانًا كإيمان العجائز، {قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}».

وقال في حكمه: «لَفْظَتانِ ثُلْمَتانِ في الدين: القولُ بالوَحدة، والشَّطحُ المجاوز حَدَّ التَّحدث بالنعمة».

ونبه الإمام الرفاعي أن حالة الحب الشديد والتعلق الكبير بالله، لا تبرر الوقوع في الشطحات أو القول بالحلول أو الاتحاد، ولا يجوز أن يقتدى بمن تكلم بشيء من ذلك عند غلبة الحال عليه، فقال في البرهان المؤيد: «حالة أهل الحب تأخذ القلب، فيطيش العقل، فيتكلم اللسانُ كلامَ مَن جُنَّ أو خُمِرَ أو غَلا دَمُه أو أُغشي عليه، فَدَعُوا الرجلَ وربَّه، وهذا يكفيه منكم، وتمسكوا بالحبل المتين الذي من تمسك به لن يضل أبدًا، هذه الكلمات ومثلُها من الشطحات التي تجاوز حد التَّحَدُّث بالنعمة».

تاسع عشر: موقف الرفاعية من المدد والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالصالحين:

قال الرفاعي في البرهان المؤيد: «أي سادة! إذا استعنتم بعباد الله وأوليائه، فلا تشهدوا المعونة والإغاثة منهم، فإن ذلك شِرْك، ولكن اطلبوا الحوائج بمحبته لهم، (رُبَّ أَشعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَينِ مَدفُوعٍ بالأبوابِ لَو أَقسَمَ على اللهِ لأَبَرَّه).

صَرَّفَهم اللهُ في الأكوان، وقَلَبَ لهم الأعْيان، وجعلهم يقولون بإذنه للشيء كن فيكون.

عيسى عليه السلام خَلَقَ طَيرًا من الطين بإذن الله، أحيى الموتى بإذن الله.

نبينا وحبيبنا سيد السادات الأنبياء محمد عليه أفضل الصلاة والسلام حَنَّ الجِذْع إليه، وسَلَّمَتْ الجمادات عليه، وجمع الله به ما تفرق في الأنبياء والمرسلين من المعجزات، وجَرَتْ أسرارُ معجزاته في أولياء أمته، فهي للأولياء كرامات تَمُرُّ، وله عليه الصلاة والسلام معجزةٌ تَستَمِرّ.

أي ولدي، أي أخي، إذا قلتَ: اللهم إني أسألك برحمتك، فكأنك قُلْتَ أسألكُ بولاية عبدِك الشيخ مَنصورٍ[1] وغيرِه من الأولياء، لأن الولاية اختصاص، {يختص برحمته من يشاء}.

(١) يقصد شيخه، وهو خاله.

فإذًا إياك وإعطاءَ قدرةِ الراحم إلى المرحوم، فإن الفعل والقوة والحول له سبحانه، والوسيلةُ رحمته التي اختص بها عبده الولي، فتقرب برحمته ومحبته وعنايته التي اختص بها خَواصَّ عباده إليه، عند حاجتك، ووَحِّدْه في كل فِعل، فهو غَيُور».

عشرون: موقف الرفاعية من اللباس:

لم يقيد صاحب الطريقة سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه أتباعه بزِيٍّ سوى بالعِمامة السوداء، وهي خِرْقَتُه الشريفة، تحققًا بسنة جَدِّه صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الأخبار الراجحة والأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم اعْتم بالعِمامة السوداء، وكان كثيرًا ما يعتم بها، وخَطَبَ الناسَ بها[١]، وعَمَّم بها سيدنا عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه وغيرَه من الصحابة الكرام، ودخل مكة يوم الفتح وقد اعتم عليه الصلاة والسلام بعِمامة سوداء[٢].

واحد وعشرون: موقف الرفاعية من الأولياء والصالحين وزيارة قبورهم:

تقوم الطريقة الرفاعية على تعظيم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعًا، وتعظيم الأولياء والصالحين والعلماء العاملين جميعاً، وتحث على زيارة قبورهم، والدعاء في مشاهدهم المباركة، والمحاضرة[٣] مع أرواحهم الطيبة.

قال الرفاعي في حكمه الشريفة: «النيابة المحمدية عند أهل القلوب؛ ثابتةٌ بنَوْبة أهلِ الوقت، على مراتبهم[٤]، وتَصَرُّف الرُّوح لا يصحُّ لمخلوق، إنّما الكرمُ الإلهي يشمل أرواح بعض أوليائه بل كلهم؛ فيُصْلحُ شأنَ مَن يَتوسَّل بهم إلى الله، قال تعالى: (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ).

---

(١) عن جعفر بن عمرو بن حريث، عن أبيه، «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس وعليه عمامة سوداء» أخرجه مسلم برقم (١٣٥٩).

(٢) أخرجه مسلم. وقد لبس النبي ﷺ عمامة خضراء وصفراء وغير ذلك.

(٣) أي استحضارها، وكأنك معها في خيالك.

(٤) أي كأن النبي ﷺ موجود بوجود النائبين عنه ﷺ في كل زمان.

هذا الحدُّ، إياكم وإفراطَ الأعاجم، فإن في أعمال بعضهم الإطراءَ، الذي نص(١) عليه الحبيب عليه صلوات الله وسلامه، وإياكَ ورؤيةَ الفعل في العبد، حيًا كان أو ميتًا، فإن الخَلْقَ كلَّهم لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا.

نَعَم، خُذْ محبةَ أحبابِ الله وسيلةً إلى الله، فإن محبة الله تعالى لعباده سِرٌّ من أسرار الألوهية، يعود صفةً للحق، ونِعْمَ الوسيلةُ إلى الله سِرُّ أُلوهيته وصفةُ ربوبيته(٢).

اثنان وعشرون: موقف الرفاعية من بعض المظاهر كالدفوف والأعلام:

تجد الرفاعية يضربون بالدفوف في مجالسهم وإنشادهم، ومرجع ذلك أن الدف جائز في المذاهب الأربعة(٣)، ثم إنهم يفعلون ذلك على سبيل الفرح برسول الله ﷺ، وعلى سبيل تهييج السالك للحضور في الذكر.

كما يستعمل الرفاعية أعلاماً ورايات، وهي تَشَبُّهٌ بحال المجاهدين في همتهم وجنديتهم لله، كما قال في مختصر القواعد المرعية:

---

(١) نص أي نهى عنه.

(٢) انظر في جميع ما مر من أصول الطريقة وموقفها من مسائل: الإمام أبو الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية، وقد نقلناها مع اختصار، وتَصَرُّف أحياناً.

(٣) قال الشافعية في الدف: يجوز دُفٌّ لِعُرْسٍ وختانٍ وكذا غيرهما، وإن كان فيه جلاجل لإطلاق الخبر، قَالَ الْبَغَوِيّ فِي شَرْح السُّنَّة: يُسْتَحَبُّ فِي الْعُرْسِ وَالْوَلِيمَة وَوَقت الْعَقْدِ وَالزِّفافِ. انظر: مغني المحتاج، للشربيني الخطيب، كتاب الشهادات (ج٦/ص٣٥٠)، وأسنى المطالب، لزكريا الأنصاري، كتاب الشهادات (ج٤ / ص٣٤٦). ولم تختلف المذاهب الأربعة على جواز الدف.

أما حكم الطبل: قال البجيرمي في «حاشيته» على الخطيب في الشهادات (ج٤ / ص٤٣٥) قاعدة: كُلْ طَبْل حَلال إِلّا الدربكة... وَدَخل فِي المستثنى مِنْهُ ما يَضْربُ فيه الفُقَرَاء، وَيُسَمُوه طَبْلَ الباز، ومثله طَبْلة المُسَحّر، فهما جَائزانِ.

وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله: قال ابن عابدين في حاشيته في الاستئجار على المعاصي (ج٩ / ص٦٤): إذا كان الطبل لغير اللهو فلا بأس به، كطبل الغُزاة والعُرس، ولا بأس أن يكون ليلة العرس دُفٌّ يُضرَب به لِيُعْلِنَ به النكاح، وفي «الولواجية»: وإن كان للغزو أو القافلة يجوز.

وهذه المراسم يجتمعون عليها؛ لتنشيط المريدين وترويح قلوبهم، وقد ورد: (روّحوا القلوب تارةً فتارةً)[١]، وعمل السّادة الأحمدية من هذا القبيل، فإنهم يضربون الدفوف، ويمدحون النبي صلى الله عليه وسلم ويذكرون الصالحين، ويفرحون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم[٢].

وقد رأى بعض الصّالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فسأله عن قراءة المولد الذي يُصنع لجنابه الكريم، فقال له عليه الصلاة والسلام: (مَنْ فَرِحَ بنا فرِحْنَا به)[٣].

أشهر رجالات الطريقة الرفاعية

أكثر من أن يحصروا وسأقتصر على ستة من أشهرهم:

١- **الشيخ أبو الفتح الواسطي**، تلميذ الرفاعي، وهو الذي أدخل الرفاعية إلى مصر، وأقام بالإسكندرية، وتوفي ودفن بها سنة (٥٨٠هـ)[٤].

٢- **الإمام الشيخ عز الدين الصياد:** أحمد بن عبد الرحيم وأمه زينب بنت الإمام أحمد الرفاعي (ت ٦٧٠ هـ). له: "المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية"[٥].

٣- **الإمام علي الواسطي:** علي بن الحسن بن أحمد الواسطي الرفاعي الشافعي، تلميذ الفاروثي، صاحب "خلاصة الإكسير" (ت ٧٣٣ هـ)..

---

(١) رواه أنس رضي الله عنه مرفوعاً، القضاعي في مسند الشهاب برقم (٦٧٢)، والديلمي في الفردوس رقم (٣١٨١)، ويشهد له حديث حنظلة الذي في صحيح مسلم قوله: «ولكن ساعة وساعة».

(٢) انظر: مختصر القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية، الراوي.

(٣) صاحب الرؤيا هو الشيخ أبو موسى الزرهوني، ذكرها الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢ في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (ج١ / ص٣٦٣). أقول: والمنام ليس دليلاً شرعياً، وإنما يُستأنس به مع وجود الدليل الكافي.

(٤) الموسوعة الصوفية؛ أعلام التصوف، عبد المنعم الحفني (١٨٠).

(٥) الزركلي، الأعلام، (١/١٤٨).

٤- **الإمام الرواس:** بهاء الدين محمد مهدي الرواس بن علي الصيادي، (ت ١٢٨٧ ه). نزل إلى مصر إلى الجامع الأزهر وطلب العلم فيه ثلاث عشرة سنة، ثم أخذ الطريقة الرفاعية عن الشيخ عبد الله الراوي الرفاعي، وأخذ الخلافة عنه، له: "مراحل السالكين"، و"معراج القلوب"(١)، وله دواوين وأشعار كثيرة.

وقد ألّف الإمام الرواس وهو الملقب بالرفاعي الثاني رسالةً جليلة سماها: (فَذْلَكَةُ الحقيقة في أحكام الطريقة)، تشتمل على ثلاثِمئة وثلاثةَ عشرَ مادةً، لتكون بيان للطريق الناجح والمنهاج الصالح، كما يقول الرواس: أطالب فيها كل من ينتمي إلي، ويعول في طريق الله علي، وقد ألزمت بها نوابي وخُلَّص أحبابي، ليكون على منوالها سيرُهم في الطريق(٢).

وله قصيدة عظيمة تلخص السلوك والطريق إلى الله، سماها: طريقتنا(٣)، جمعت التنبيه إلى إصلاح القلوب والأخلاق، والاجتهاد في الطاعة والاتباع، وتنمية الحب، وصحة الانتساب.

٥- **الإمام أبو الهدى الصيادي** (١٣٢٨ ه): وهو محمد ابن حسن وادي بن خزام الرفاعي، الحلبي المولد، الإسلامبولي الوفاة والمدفن، أشهر علماء العرب في دار الخلافة العثمانية أخيراً، بلغ أمره الخليفة عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد، فأحضره لديه، وتواضع بين يديه، وقلده مشيخة المشايخ في دار الخلافة العلية، وألحقه إلى رتبة قضاء العسكر التي هي منتهى المراتب العلمية.

وقد كان مع ذلك مشتغلاً بخدمة الطريق والسلوك إلى الله وتربية التلاميذ، وألف كتباً كثيرة(٤).

---

(١) انظر: عبد الرزاق البيطار، حلية البشر (ص: ٤٠١)، وأبو الهدى الصيادي، قلادة الجواهر.

(٢) ومعنى فذلكة: أي خُلاصة أو مُجمل ما فُصِّل، أو المعاني الأساسية التي يُرجَع إليها.

(٣) **نشاط**: استمع إلى شرحها للدكتور معاذ حوى، ولخص أهم ما استفدته منها بصفحة.

(٤) عبد الرزاق البيطار، حلية البشر (ص: ٧٧ - ٧٨).

٦- ومن المعاصرين: الشيخ المُحَدِّث **عبد الله سراج الدين** (١٤٢٢هـ) الحسيني نسبًا، الحنفي مذهبًا، الرفاعي طريقة وسلوكًا، الحلبي موطناً، صاحب كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم)[١].

أوراد وصلوات السادة الرفاعية

أوراد وأحزاب السادة الرفاعية كثيرة جدًا وقد ألفت فيها الكتب.

من أحزاب الطريقة: "حزب الأسرار" و"صلاة الأنس"[٢] ووِرْدُ السيف القاطع، ووِرْدُ الفَرَج.

وأما الصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم فعندهم: صلاة جوهر الأسرار، وصلاة الإفاضة، وغيرها كثير.

يذكر السيد إبراهيم الأعزب[٣] أن جده السيد أحمد الكبير الرفاعي علمه تحفة سنية، وأدعية خيرية، ما توسل إلى الله بها متوسل إلا وفتح له الباب، وحصلت له بإذن الله الآراب، هي لقطع المهمات كالسيف القاطع، وللسلامة من الملمات كالدرع الحصين، سيف من سيوف الله، وسر من أسرار الله، هي للداء العضال كالترياق، ولجلاء الظلمات القلبية كالشمس عند الإشراق"[٤].

---

(١) انظر بحث: الإمام الرفاعي، وطريقته في التصوف، يوسف بن محمد عادل جيجة.

(٢) انظر: محمد أبو الهدى الصيادي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر. (ص: ٢٥٠ - ٢٧٦)

(٣) هو الإمام محيي الدين أبو إسحاق إبراهيم الأعزب ابن مهذب الدولة السيد علي ابن عثمان الحسيني. سبط الإمام الرفاعي (٥٤٦-٦٠٩ هـ)، كان متواضعاً كريما خاشعاً، متبحراً في علوم الشريعة، متمكناً في اللغة العربية، حجة، صوفياً صافياً، صاحب كرامات كثيرة، كان أهل الرقائق من أصحاب الحقائق، حتى قيل عنه: جنيد وقته، توفي في أم عبيدة، ودفن في قبة جده السيد أحمد الرفاعي. انظر: «روضة الناظرين» للوتري (٨٥-٩٠)، و«تنوير الأبصار"(٣٣-٣٦).

(٤) يراجع (القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية) (ص٣٥) للاطلاع على التحفة السنية وراتبها.

من أوراد الإمام الرفاعي الكبير رحمه الله تعالى:

حزب الحراسة، ويُقرأ مع أذكار الصباح والمساء:

«﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ اعْتَصَمْتُ بِاللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ انتَصَرْتُ بِاللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ما شاءَ الله لا يَأْتِي بِالخيرِ إلا الله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ما شاء الله لا يَصْرِفُ السوءَ إلا الله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ما شاء الله ما كان مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ما شاء الله لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ظَهَرَ سِرُّ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ جاءَ نَصْرُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ أتى أَمْرُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ بَرَزَتْ غارَةُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ تَمَّتْ كَلِمَةُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ رَكِبَتْ خُيولُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ انتَشَرَتْ جُنودُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ جاءَتْ رِجالُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ لَمَعَتْ آياتُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ نَحْنُ في أمانِ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ عَلَيْنا سِتْرُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ حَوْلَنا حِصْنُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ فَوْقَنا حِفْظُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ يَحْرُسُنا حِزْبُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ دَخَلْنا في ساحَةِ (لا إله إلا الله)، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ خَرَجْنا إلى صَحْراءِ أمانِ (مُحَمَّدٌ رسولُ الله)، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ نَحْنُ الغالِبونَ بِإِذْنِ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ مَعَنا يَدُ اللهِ، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ وكَفى بالله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ والحَمْدُ لله، ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ والله أَكْبَرُ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، وَصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ، في كُلِّ لَحْظَةٍ أبداً عَدَدَ نِعَمِ اللهِ وإِفْضالِهِ».

حزب الفَرَج، وهذا الورد يُقرأُ وقت السَّحَر، آخر الليل، وهذا جزء منه:

« (فاتحة الكتاب) مرة « لا إله إلا الله » عشراً « الله » عشراً « أستغفر الله العظيم » عشراً « اللهم صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » عشراً « حسبي الله » سبعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ ألم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير.

اللهم يا حيُّ يا قَيُّوم، يا ذا الجلالِ والإكرام، أسألك بأسرارِكَ الْمُستودَعة في خلقِك، بعزَّة عرشك بِقُدْسِ نَفْسِكَ، بِنورِ وَجْهِكَ، بمبلغ عِلْمِك، بغاية قَدْرِك، بِبَسْط قُدرتِكَ، بحقِّ شُكْرِكَ، بِمُنتَهى رحمتِكَ، بِسُلطانِ مَشيئتِكَ، بعَظَمَة ذاتِكَ، بِكُلِّ صِفاتِكَ، بِجَميعِ أسمائِكَ، بِمَكنونِ سرِّكَ، بجميل بِرِّك، بِكمالِ مِنَّتِكَ، بِفَيضِ جُودِكَ، بِقاهِرِ غَضَبِكَ، بِسابِقِ رَحْمتِك، بأعدادِ كَلماتِكَ، بعِنايةِ مَجدِك، بجَليلِ طَوْلِكَ، بِتَفْرِيدِ فَردانِيَّتِك، بتوحيدِ وَحْدانِيَّتِك، بدائمِ بَقائِكَ، بسرْمَدِيَّةِ قُدْسِكَ، بأَزَلِيَّةِ رُبوبِيَّتِكَ، بعَظيمِ كِبريائِكَ، بِجَلالِكَ، بجَمالِكَ، بِإِنعامِكَ، بِشامِخِ أفعالِك، بِسيادَةِ أُلوهِيَّتِك، بجَبّارِيَّتِك، بحنانِيَّتِكَ، بمنانِيَّتِك، بعَطْفِكَ، بلُطفِكَ، ببِرِّكَ، بإِحسانِكَ، بِحَقِّكَ، يا رَبَّاهُ، يا غَوْثاه، أستعينُكَ وأَستَجْدِيكَ أَنْ تجعلَ لي مِنْ كُلِّ هَمٍّ و غمٍّ وكَرْبٍ فَرَجاً، ومِن كلِّ بلاءٍ وشدّةٍ وضيقٍ مَخْرَجاً، واجْعَلْ أوقاتي بِكَ عامرةً، وسَرِيرَتي بمحبَتِكَ نَيِّرةً، وعَيْني بشُهودِ آثارِ لُطفكَ قَرِيرَةً، وبصيرتي بلوامع أنوارِ قُربكَ مستَنيرَةً وبَصيرةً، بحقَّ ﴿ كهيعص ﴾، و ﴿ حم، عسق ﴾، وبحق: ﴿ طه ﴾، و ﴿ طس ﴾، و ﴿ ص ﴾، و ﴿ يس ﴾، و ﴿ آلر ﴾، و ﴿ ألم ﴾، و ﴿ حم ﴾، و ﴿ طسم ﴾، وبسرِّ القرآن العظيم، يا عليٌّ يا عظيمُ، يا رحمنُ يا رحيمُ، يا بَرُّ يا كَريمُ، يا أَوَّلُ يا قَديم اللهم يا مَن لا تَنْفَعُك طاعتي، ولا تَضُرُّكَ مَعصِيتي؛ تَقَبَّلْ مِني ما لا يَنْفَعُك، واغْفِرْ لي ما لا يضرك، بِسْمِ اللهِ، اللهُ حسبُنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ... اللهم احْرُسْني بِعَيْنِك التي لا تنام، واكْنُفْني بَكَنَفِك الذي لا يُضام، وارْحمني بقُدرتك عليَّ، لا أَهْلِكُ وأنت رجائي، فكم مِن نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ قَلَّ لكَ عِنْدَها شُكْرِي، وكم مِن بَلِيَّةٍ ابتليتني بها قَلَّ لك عِندها صَبْرِي، فَيا مَن قَلّ عِند نِعْمتهِ شكري فلم يَحْرِمْني، ويا مَن قَلَّ عند بَلِيَّتِهِ صبري فلم يَخْذُلْني، يا

من رآني عند الخطايا فلم يَفْضَحْني، أسألك أن تُصَلّي على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليت وباركت ورَحِمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ ...

اللهم إني أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، وأسألك العافية من كل بَلِيّة، وأسألك دوامَ العافية، وأسألك الغِنى عن الناس، وأسألك السّلامة من كل شَرٍّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم فارج الهمّ، كاشف الغَمّ، مُجيبَ دَعوَةِ الْمُضْطَرِّين، رَحمانَ الدنيا والآخرة ورَحِيمَهما، أنت ترحمني، فارْحمْني رحمةً تُغْنِيني عنْ رحمةِ مَنْ سِواك.

اللهم اجعل لي مِن كلِّ هَمٍّ يُهِمُّني فرجاً ومخرجاً، وارزقني مِن حيث لا أحتسب ...

يا غِياث الْمُستغيثين، يا مُجِيبَ دُعاء المضطرين، وَجَّهْتُ وَجْهِي إليك، وَتَوَكَّلْت مُنيباً خالصاً عليك، لا أَرفعُ حاجتي إلا إِلَيك، خاشعاً بين يديك، صِلِ اللَّهُمَّ حِبالي بِحِبالِك، وألحقني بالصالحين، وأَيِّدْني بجلالك، واجْعَلْني من عبادك المتقين، لا تَصْرِف وَجْهي بحقك إلا إلى جَنابِكَ، ولا تجذبْ قلبي إلا إلى بابك، قربني من أحبابك وأهلِ وَلائك، واحْفَظْني مِن صُحبةِ ذَوِي الرَّدِّ مِنْ أعدائك، حَقِّقْني بالمعرفة المحمّدية، وحَلِّني بالصفات الْمُصْطَفوية، وأَطْلِق لِساني بِشُكْرِك، واستعملْ ناطقتي وقلبي بذكرك ...

اللهم إني أسألك باسمك الواحد الأحد، وأدعوك اللهم باسمك الفَرْد الصمد، وأتوسّلُ إليك اللهم باسمك العظيم الوِتْر الذي مَلأ نور قُدسهِ أركانَ الأكوان كلها، إلا فَرَّجْتَ عني ما أمسيت وأصبحت فيه، حتى لا يُخامِرَ خاطِراتِ أوهامِي غُبارُ الخوف مِن غيرك، ولا يَمَسَّ شِراعَ فِكْرِي أَثَرُ الرجاءِ مِن سِواك. أَجِرْني اللهم من خِزْيِكَ وعُقوبَتك، واحْفَظْني في ليلي ونهاري، ونومي وقراري، لا إله إلا أنت، تعظيماً لوجهك، وتكريماً لسُبُحاتِ عرشك ... رَبّاهُ رَبّاهُ، أحاطتْ بِعبْدِك الضَّعيفِ غَوائلُ الذنوبِ، وأنت الْمُدَّخَرُ لها ولكل شدة، لا إله إلا أنت، الغِياثَ الغِياثَ، الرحمةَ الرحمةَ، العِنايةَ العنايةَ، صَلِّ على عبدِك ونبيك سيدنا محمدٍ وآله، والْطُفْ بي في أموري كلِّها والمسلمين.

اللهم احْفَظْ أمةَ سيدِنا محمدٍ ﷺ، اللهم ارْحَمْ أمة سيدنا محمد ﷺ، اللهم أَصْلِحْ أمةَ سيدنا محمد ﷺ، اللهم فَرِّجْ عن أمة سيدنا محمد ﷺ ...

ثَبِّتْني اللهم على ما يُرضِيك، وقَرِّبْني ممَّنْ يُواليك، واجعلْ غايةَ حُبِّي وبُغضِي فيك، ولا تُقَرِّبْني ممن يُعاديك.

أَدِمْ عَلَيَّ نِعَمَك وبِرَّك، ولا تُنْسِني ذِكْرَك، وأَلْهِمْني في كلِّ حالٍ شُكْرَك، وعَرِّفْني قَدْرَ النِّعَمِ بِدَوامِها وقدر العافية باستمرارها.

اللهم إني أسألك العفو والعافية، والمعافاة الدائمة، في الدين والدنيا والآخرة.

اللهم اقْذِفْ في قلبي رجاءَك، واقْطَعْ رَجائي عمَّنْ سِواك حتى لا أَرْجُوَ أحداً غيرَك.

اللهم وما ضَعُفَتْ عنه قُوَّتي، وقَصُرَ عنه أَمَلي، ولم تَنْتَهِ إليه رَغْبَتي، ولم تَبْلُغْهُ مَسألتي، ولم يَجْرِ على لِساني، مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين، فخُصَّني به يا رب العالمين.

اللهم ضاقَتِ الْحِيَلُ، وانْقَطَعَ الأَمَلُ، وبَطَلَ العَمَلُ، لا مَلْجأَ ولا مَنْجا مِنْك إلا إليك ...

اللهم فَرِّجْ عني كُلَّ هَمٍّ وغَمٍّ، وأَخْرِجْني مِن كُلِّ حُزْنٍ وكَرْبٍ، يا فارج الهمِّ، ويا كاشف الغمِّ، ويا مُنْزِل القَطْر، ويا مجيب دعوة المضطرِّ، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، صَلِّ على خِيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ سيدِنا محمدٍ النّبي الأُمِّيِّ الطَّيِّبِ الطاهِرِ الزَّكِيِّ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسَلِّمْ ...

اجعل خيرَ عُمرِي أواخِرَهُ، وخير عَمَلِي خَواتِمَهُ، وخيرَ أيامي يومَ أَلْقاك فيه، لا حول ولا قوة إلا بالله العَلِّي العظيم ... اللهم من أرادني بسُوءٍ فاجعل دائرة السَّوْءِ عليه ... يا سابغ النعم، ويا دافع النقم، ويا فارج الكرب إذا ادْلَهَمَّ، يا وَلِيَّ مَن ظُلِم، ويا حَسْبَ من ظُلِم ... اجعل لي من أمري فرجاً، ومن وَهْدةِ هَمِّي مَخْرَجاً ...

صَلِّ على سيدنا محمد وآل سيدنا محمدٍ، وَفَرِّجْ عني، والْطُفْ بي، ولا تَكِلْني إلى نفْسِي ولا إلى أحدٍ من خَلْقِك طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا أَقَلَّ من ذلك، يا جَبار السموات والأرض، لا إله إلا أنت ... وأغِثْنا به صلى الله عليه وسلم، وأَتْحِفْنا بِقُرْبِه وأَحْيِنا وأَمِتْنا على مِلَّتِه وسُنَّته، واخْتِمْ لنا وللمسلمين بخير، واغْفِرْ لنا ولوالدينا ولِفروعِنا وأُصُولِنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات أجمعين، ﴿ وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ﴾ ».

المبحث الرابع

الطريقة البدوية

التعريف بمؤسس الطريقة البدوية: الإمام السيد أحمد البدوي

السيد أحمد البدوي تاريخ وحده فيه كل المعاني التي يريدها الانسان فى صاحب دعوة، ومؤمن برسالة، وأستاذ مدرسة.

وتاريخه الطويل المبارك له أكثر من مرحلة تتشعب وتتعدد، وتتشابك، ولكن في جميع الأحوال تنتهي إلى فترتين رائعتين كبيرتين:

الأولى ما قبل وصوله إلى طَنْطا، والثانية فى طنطا ذاتها.

ولد الإمام أحمد بن علي بن عثمان البَدوي بمدينة فاس عام ٥٩٦هـ، ومن أسرة عربية أصيلة تعود بالنسب إلى الامام علي كرم الله وجهه، وكان أحمد واحداً من سبعة إخوة لأبيه الشريف علي بن عثمان.

ويروى أن أمّ البدوي بعد أن وضعته جاءها في المنام من يقول لها: أبشري فقد وَلَدْتِ غلاماً ليس كالغلمان.

ويُذكَر أنه حفظ القرآن الكريم ولم يكد يبلغ السابعة من عمره، وبدأ أيضاً يتفقه في دينه ويصاحب والده وإخونه إلى مجالس العلم، ويحفظ كل ما يقال أمامه.

وقد ضاقت الأحوال بهم فقرر أبوه الرحيل من المغرب إلى مكة.

أخذ البدوي يتعلم الفقه وهذه المرة على مذهب الإمام الشافعي بعد أن كان يتعلمه على المالكية في المغرب، ويأخذ من كل مجالس العلم الحافلة بها مكة والمدينة حيث كان يتردد عليها بعمق وبشغف، حتى أصبح علامة مميزة على كل هذه المجالس، ويصر على أن يكون متعلماً لا معلماً، وفي الوقت نفسه يتعلم كل فنون الفروسية إلى أن يقول أخوه

الشريف حسن: ولم يكن في مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخي أحمد فسميته العَطّاب مُحَرِّش الحرب.

وكان لوفاة والده وأخيه محمد أثرٌ كبيرٌ في حياته فقد ازداد اعتكافاً وتعبداً.

وفي يوم التقى بفاطمة بنت بري وقد سلكت الطريق بسبيل خاطىء، مستغلة جمالها في اختبار قوة احتمال الرجال ومدى تأثرهم بجمالها.

فالإمام الشعراني يقول في طبقاته: (كانت بنت بري امرأة لها حال عظيم وجمال بديع، وكانت تسلب الرجال أحوالهم[1]، فسلبها الشيخ أحمد البدوي حالها وتابت على يديه، وتفرقت القبائل الذين كانوا اجتمعوا حولها أعواناً لبنت بري وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء ورضي ألّله عنهم.

السيد البدوي لم يكن إنساناً عادياً أو باحثا عن جاه دنيوي، هذا يؤكد أن حياته كلها بجميع تفاصيلها، وإنما هو داعية محمدي، قد اتخذ الجانب الصوفي سبيلا لرفع راية لا اله الإ الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه مفكر ومثقف ممتاز مثل الرعيل الأول من المسلمين الذين تأثروا بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، وأنه أحس بمسؤوليته الكبرى نحو دينه، ونحو أمته الاسلامية.

استطاع البدوي أن يربي نفوساً مؤمنة شاركت في قتال حملة لويس التاسع الصليبية وأَسَرَتْه في المنصورة سنة ٦٤٧هـ، فكان المقاتل الذي ساهم في أسر الكثيرين من الصليبيين، وفيهم لويس التاسع.

وبعد أن استقر المقام بالسيد البدوي في طنطا، كان له أثر في تربية الرجال وتعليمهم وإرسالهم إلى ساحات القتال، وكان لذلك أثره في انتصار مصر.

---

(١) وهذا نوع من الاستدراج، أن يكون الإنسان صالحاً وذا كرامة، ثم يستعملها في غير وجهها، كما فعل السامري: (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) [طه: ٩٦].

اشتهرت للإمام البدوي عدة أسماء وألقاب، تُلْقِي ظلالاً على رتبتِه وشيءٍ من تاريخ حياته، فمن ذلك:

السيد: والسيد هو أجل القوم قدراً، وسائد القوم دون السيد في الشرف.

واشتهر بالسيد كل من ينتمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالنسب لشرفهم المكتسب من بضعته الطاهرة.

ولاجتماع أسباب السيادة في الشيخ أحمد، وتوافر صفاتها فيه أطلقوا السيد عليه حتى صار لا يعرف من السيد على الإطلاق إلا البدوي وحده.

القطب النبوي: والقطب النبوي[١] والشريف العلوي هو الشيخ أحمد البدوي، وإنما سُمِّيَ بذلك لأن المعاني التي من أجلها سُمِّيَ القطبُ قطباً والصفات التي لوحظت عليه حينما وضعوا هذا الاسم للدلالة على مسماه، كل هذه المعاني اجتمعت له وتحققت فيه، يعرف ذلك كل من درس بعناية تاريخ حياته وأعمالَه، وأدرك بنور عقله ما جرى على يديه، ويجري من هداية الناس، وتعريفهم بالله تعالى، ولا يعلم إلا الله كم قدم من أعمال، وكم هدى الى الله من رجال، وكم عَرَّفَ بالله من أبطال، وانما سمي نبوياً؛ لأنه وارث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكل قطب ينال هذه المنزلة عن شيخه الذي رباه، وشيخه يناله عن شيخه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الزاهد: لقب بهذا اللقب وهو صغير في العمر بفاس، وعاش ولم يترك شيئًا يُورَثُ عنه إلا عباءته وقميصه وعمامته ومهراشه ومسبحته.

أبو العباس: في القاموس العابس والعبوس والعباس هو: الأسد، وكأن معنى عبس وجهه تغير وجهه من الغضب حتى بدت عليه ملامح الأسد، ولكون الشيخ أحمد أسد من أسود الله.

---

(١) ويقصد الصوفية بالقطب ذلك الصالح الذي بلغ أعلى درجات الصلاح في زمانه، فكان أُقرب الناس إلى الله.

العطاب: ذكروا أنه اشتهر بالعطاب؛ لكثرة ما كان يقع من الضرر لكل من آذاه، وفي اشتهاره بهذا، أمارة قوية على أن الله يغضب لغضبه، ويحارب من حاربه وأنه كان من الصادقين في معاملتهم لربهم ومن المتوكلين عليه حق التوكل، وكثرة الضرر لمن آذاه لا تعني اضطراد الضرر كلما أوذي، فقد يكون الضرر الأشد في التأخير لا في التعجيل.

الصامت: كان البدوي يعول على الذكر بالقلب؛ لان الذكر بالقلب أعمق أثرا وأكثر عددا وأعظم نفعاً، لأنه كلما دار الاسم على اللسان مرة دار في القلب أضعاف هذه المرة، لسرعة جريانه في القلب على سرعة جريانه في مخارج الحروف وشتان بين جريانه في القلب وجريانه في مخارج الحروف، ومن ضرورة الذكر بهذه الصفة، ظهور الصمت في اللسان وظهور السكون على أعضاء البدن، ولغلبة أوقات الذكر عليه غلب عليه الصمت حتى عرف بالصامت، وهذا علاوة على أن الصمت ركن من أركان الطريق المشهورة.

جياب الأسرى: حيث علّم الرجال كيف يكونون أبطالاً، فأتَوا بالخصوم أسرى، وفي الوقت نفسه فكوا أسر المسلمين من يد الصليبيين بالنصر.

ولي الله.

العارف بالله.

ولُقب بألقاب أخرى: البدوي، والملثم، والفتى، وبحر العلوم، وغيرها.

ولقب **بالسطوحي**، لأنه كان يدرس أتباعه وهو على سطح بيت، فكان يستغل السطح فى إلقاء الدرس، حيث يجلس حوله المريدون، ويمكن لكثيرين آخرين الاستماع اليه، عند إحاطتهم بالمنزل.

معالم الطريقة البدوية

نذكر جانباً من تعاليم السيد البدوي وأقواله، تبين فهمَه لدينه، والمدرسةَ التي تركها لأتباعه.من أشهر تلاميذ البدوي الشيخ عبد العال، سأله مرة عن الفقير السالك كيف يصير وليًا، فقال: **إن الولي الشرعي له اثنتا عشرة علامة**:

العلامة الأولى: أن يكون عارفاً بالله.

العلامة الثانية: أن يكون مراعياً لأوامر الله.

العلامة الثالثة: أن يكون متمسكاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

العلامة الرابعة: أن يكون دائم الطهارة.

العلامة الخامسة: أن يكون راضياً عن الله تعالى.

العلامة السادسة: أن يكون موقناً بما وعده الله به.

العلامة السابعة: أن ييأس بما في أيدي الناس.

العلامة الثامنة: أن يتحمل أذى الناس.

العلامة التاسعة: أن يكون مبادراً لأوامر الله.

العلامة العاشرة: أن يكون شفوقاً على خلق الله.

العلامة الحادية عشرة: أن يكون متواضعاً للناس.

العلامة الثانية عشرة: أن يكون عالماً بأن الشيطان عدو كما أخبره الله تعالى بقوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)(١).

ويرى الإمام البدوي أن في طريق السالك **تسع عقبات**، تعوقه عن طريق الله المستقيم، لا بد أن يتجاوزها ليتحقق صلاحُه ووصولُه، وهي:

١. التعلق بالدنيا
٢. عدم مراعاة الإحسان في العمل
٣. شح النفس بالعطاء
٤. عدم استدامة ذكر الله
٥. الغفلة عن قيام الليل
٦. سوء الخلق في المعاملة

---

(١) فاطر (٦).

٧. عدم الصبر على تحمل أذى الناس

٨. عدم ملازمة الصدق

٩. خلو القلب من الصفاء وحسن الوفاء وحفظ العهود.

ومما يزيدنا معرفة بمعالم طريقة الإمام البدوي ومنهجه أقواله، التي ربى بها تلاميذه:

من أقوال الإمام البدوي

يا عبد العال، إياك وحب الدنيا، فإنه يفسد العمل الصالح، واعلم يا عبد العال أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (١).

يا عبد العال أشفق على اليتيم، واكس العريان، وأطعم الجوعان، وأكرم الغريب والضيفان عسى أن تكون عند الله من المقبولين، وعليك بكثرة الذكر، وإياك أن تكون من الغافلين عند الله، واعلم أن كل ركعة بالليل خير من ألف ركعة بالنهار.

يا عبد العال لا تَشمت بمصيبة أحد، ولا تنطق بغِيبة أو نميمة، ولا تؤذِ من يؤذيك، واعف عمن ظلمك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك، وأحسنكم أخلاقاً أكثركم إيماناً.

ومن يعمل بكل ما سبق فقد سلك طريقة السيد البدوي، واتبع سبيله في الحياة، إذ يقول رضي الله عنه بعد كل الذي سبق: هذه طريقتنا بنيت على الكتّاب والسنة والصدق والصفاء وحسن الوفاء وتحمل الأذى وحفظ العهود.

ويقول لأتباعه مبيناً البناء الأخلاقي والسلوكي الذي يجب أن يتبعوه: من لم يكن عنده علم، لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة، ومن لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم، ومن لم يكن عنده سخاء لم يكن له من ماله نصيب، ومن لم تكن عنده شفقة على خلق الله، لم تكن له شفاعة عند الله، ومن لم يكن له صبر لم تكن له في الأمور سلامة، ومن

---

(١) النحل (١٢٨).

لم تكن له تقوى لم تكن له منزلة عند الله، ومن حُرم هذه الخصال فليس له منزلة في الجنة.

ومن شروطه على طلابه قبل بدء السير: (ألا يكذب، ولا يأتي بفاحشة، وأن يغض البصر عن المحارم، وأن يكون طاهر الذيل[1]، وعفيفَ النفس، خائفاً من الله، عاملاً بكتابه، ملازماً للذكر دائم الفكر).

وبهذه الأخلاقيات يكون المسلم متصوفا ورجلا يسعد به المسلمون، ولذلك فالتصوف عند البدوي أخلاق، فمن زاد عليك خلقا زاد عليك تصوفاً.

وهذه بعض أقواله التي تشكل معالم اهتماماته في تربية السالكين:

فيقول في **الذِّكر:** (اذكر ألله بقلب حاضر، وإياك والغفلة عن الله فإنها تورث القسوة في القلب).

ويقول في **الصبر والرضا:** (ارضَ بحكم الله، وسلم لأمره وافرح بالمصيبة كالفرح بالنعمة[2]).

ويبين منهج **الزهد والورع،** فيقول: (مخالفة النفس بترك الشهوات، وأن يترك المريد سبعين باباً من الحلال؛ خوفاً من الوقوع في الحرام).

والتوبة النصوح: (هي ندم على الذنب، وإقلاع عنه، واستغفار باللسان، وعزم على عدم العودة إلى المعصية، وصفاء القلب).

ولم يصلنا من كلامه إلا النادر القليل، لكنه يكفي لمعرفة إمامته وسلامة منهجه.

---

(١) طاهر الذيل: كناية أنه طاهر السمعة، لم يتورط بشيء باطل وسيء.

(٢) أي يفرح بالمصيبة من حيث هي من الله، فإنه إذا أحسن التعامل معها بالصبر والرجوع إلى حكم الشرع، كانت نعمة وثواباً وقرباً.

من كراماته

يروي الشعراني وغيره أن شيخَ الإسلام تقيَّ الدين ابن دَقِيق العِيد أرسل الشيخَ عبدَ العزيز الدُّرَيْني إلى طنطا ليمتحن البدوي، ويكتب بعد ذلك تقريراً مفصَّلاً عنه.

وتوجه الشيخ عبد العزيز إلى طنطا والتقى بقاضيها الشرعي الشيخ علاء الدين، وأخبره بمقصده، وأنه لذلك أحضر كتاب الشجرة[1] ليمتحنه فيه.

وصحبه القاضي إلى بيت الشيخ رُكَيْن حيث قابلا السيد البدوي، وبعد السلام بادرهما السيد أحمد قائلاً: يا عبد العزيز من وصل إلى مقام التسليم فاز برياض النعيم، جئت تسأل عن العلم وفي كمك كتاب الشجرة، فدهش الشيخ عبد العزيز، ولكن البدوي استطرد يقول: (سلني عما شئت فإني أجيبك إن شاء الله تعالى).

وظل الشيخ عبد العزيز يسأل والسيد البدوي يجيب، حتى توقف الدريني، واعتذر عن مهمته بأنه مكلف من شيخ الاسلام، ولما استاذن في الانصراف ودعه البدوي، وطلب منه أن يقول لشيخ الإسلام، أن عليه تصحيح خطأين في مصحفه المعلق في صدر حجرته، واحد في سورة الرحمن، والثاني في سورة يس، وذكرهما البدوي.وسافر الشيخ عبد العزيز إلى القاهرة وقص على شيخ الإسلام كل ما رأى وما سمع، وأحضرا المصحف الشريف، وتبين لهما صحة ما ذكره البدوي ولكن مع كل هذا، فقد أصر شيخ الاسلام على أن يلقى السيد البدوي بنفسه و يتأكد من عبارة الدريني عنه بأنه (بحر لا يدرك له قرار).

وفعلاً سافر الشيخ ابن دقيق العيد إلى طنطا، وصعد إلى سطح بيت الشيخ ركين حيث البدوي وتلاميذُه، فما كاد يرى هذا الجمع فوق السطح يستمعون إلى البدوي وهو يلقي الدرس حتى قال عنه في نفسه: ما هو إلا مجنون، وقد رأى السيد البدوي مُلَثَّماً في

---

(١) كتاب الشجرة، ويسمى رسم الشجرة، لابن رشد، فيه مسائل من الفقه المالكي، تروى عن مالك وتلاميذه وغيرهم.

عمامة حمراء، فلما جلس الشيخ ابن دقيق بين يدي البدوي، إذا به يقول له بيت شعر مشهور له:

مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أعتابهم يسجد العقل

فأخذ العجب من شيخ الإسلام، وقبل يد البدوي، وأقر له بالعلم والفضل، بعد حديث دار بينهما في مسائل علمية وفقهية، وكان يتباهى بعد ذلك بأنه من أتباعه.

ومن أشهر مؤلفاته التي تتحدث عنها دائرة المعارف الإسلامية

ينسب إلى الإمام البدوي عدد من الكتب، أهمها:

صلوات: وهي مجموعة من الأدعية والصلوات، وُضِعت للمريدين، وقد شرحها ونشرها عبد الرحمن أحد مشاهير الصوفية في القرن الثاني عشر في رسالة بعنوان (فتح الرحمن).

وصايا: وهي مجموعة من الوصايا والعِظات، كان الكثير منها موجهاً إلى عبد العال تلميذه الأول.

ويتفق المؤرخون أن السيد البدوي لم يتزوج طول حياته، وعلى أن وفاته كانت يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول عام ٦٧٥هـ، وأن وفاته كانت بطنطا حيث عاش، وحيث كان يتعبد، وهناك دُفِن أيضاً[١].

---

(١) صلاح عزام، أقطاب التصوف الثلاثة (٤٧ إلى ٧٦)

المبحث الخامس
الطريقة الدُّسُوقِية

التعريف بمؤسس الطريقة الدسوقية: الإمام إبراهيم الدُّسُوقِيّ

الدسوقي هو الإمام برهان الدين إبراهيم بن عبد العزيز، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأمه السيدة فاطمة بنت أبي الفتح الواسطي خليفة السيد أحمد الرفاعي بمصر، والواسطي كان له أثر كبير في نشر الطرق الصوفية في مصر.

وقد ولد الشيخ إبراهيم الدسوقي عام ٦٥٣هـ، وتوفي عام ٦٩٦هـ، فعاش ثلاثاً وأربعين سنة، وقيل غير ذلك[١].

اعتنى والده بتربيته صغيرًا، وكان نبوغه واضحًا ظاهرًا ملفتًا، وبعد أن حفظ القرآن الكريم، وتفقه على المذهب الشافعي؛ بنيت له خلوة بدسوق[٢].

ويبدو أنَّه أمضى سنوات طويلة بخلوته هذه متعبدًا متهجِّدًا، آناء الليل وأطراف النهار، ولمَّا توفي والده، خرج من الخلوة وصلَّى عليه.

وممَّا عُرِف عن الإمام الدسوقي أن فتحه كان وهبيًّا، ولعله يشير إلى ذلك بقوله: (واعلموا وفقكم الله، أنَّ الفقير كان بقرية لا بها فقيه ولا معلم، ولكن ذلك بما فتح الله به من فتوح الغيب، من بركة سيد الأنبياء والمرسلين خير الأنام ومصباح الظلام ورسول الملك العلام، على قلب عبده إبراهيم الدسوقي الصوفي القرشي، الصوفي المقتدي بالقرآن)[٣].

---

(١) وإن كانت بعض المصادر ترى أنَّه ولد سنة ٦٣٣هـ، وتوفي سنة ٦٧٦هـ، مثل الإمام الوتري.

(٢) كتاب من قادة الفكر الصوفي للأستاذ أحمد عز الدين (ص١٩).

(٣) كتاب سيدي إبراهيم الدسوقي وأولياء الله الصالحين لعبد التواب عبد العزيز (ص٢٦).

ويقول الدسوقي: (إذا كَمُل العارفُ في مقام العرفان، أورثه الله علمًا بلا واسطة)[١].

ويرى بعض الباحثين أنَّه لا توجد رواية تدل على أنَّ الدسوقي سلك الطريق على يد شيخ للتربية، لازمه حتَّى وصل على يديه، وأَذِنَه بتربية المريدين، إلا أن يكون شيخه هو والده.

ولو كان له أستاذ معين، لاشتهر واستفاض نسبة الدسوقي إليه، أو لذكر ذلك الدسوقي في مجالسه العلمية، كما هو شان العارفين مع أساتذتهم.

والروايات التي تذكر شيوخه في الطريق، الغالب أنهم كانوا شيوخَ تَبَرُّكٍ لا تربية[٢].

معالم الطريقة الدسوقية

تسمى الطريقة الدسوقية بالبرهانية والبرهامية، وقد نقل العلماء أقوال الإمام الدسوقي، وهي تبين مسلكه ومنهجه التربوي، الموافق للكتاب والسنة، وطريق أهل السنة.

حقيقة التصوف عند الدسوقي

يقول الدسوقي في التصوف: (ليس التصوف لبس الصوف، فرقيق صفاته ورونق بهجته ترقية لا تحصل إلا بالتدرج)[٣].

ويبين الإمام الدسوقي أن التصوف ليس كلاماً، ولا عملاً بلا روح، بل هو تَحَقُّقٌ وذَوْق، فيقول: (ومقصودي لجميع أولادي أن يكونوا ذائقين لا واصفين، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الربانية، لا من الصدور والطروس[٤]، وما تكلم القوم إلا بشيء ذاقوه، وقلوبهم كانت ملآنة بعطاء الله تعالى ومواهبه، ففاضت منها قطرات من الحياة التي فيها،

---

(١) كتاب الدسوقي، لعبد التواب عبد العزيز (ص٢٦).

(٢) كتاب من قادة الفكر الصوفي لأحمد عز الدين خلف الله (ص٥٢).

(٣) كتاب الدسوقي لعبد العال كحيل (ص١٨)، وكتاب من قادة التصوف لأحمد عز الدين خلف الله (ص١٣٥).

(٤) الطروس: الكتب.

فانفجرت علومهم عن عين حاصل ماء الحياة، وأمَّا الوَصّاف فإنَّما هو حَاكٍ عن حَاكٍ غيرِه، وعند التخلق والفائدة لا يجد نقطة ولا ذرة من ذوق القوم)[١].

وكان ينصح مريديه دائمًا بضرورة صفاء نفوسهم وتجردها من كل الأوصاف والأعلاق الدنيئة، حتَّى يترقوا إلى أعلى المقامات ويشاهدوا، فيقول: (السماع والمخاطبة والمشاهدة من المقامات التي لا يصل إليها إلا من صفت نفسه، وخلا قلبه من ظلمة الخواطر، وتجرَّد من كل وصف دني، وتخلق بكل خُلُقٍ سني، ولم يطلب في الوجود سوى رضا مولاه، فكان في كل حركاته وسكناته مجموعًا على اللَّه، لا يبغي سواه، فاعمل لعلك تكون من الذين عادت أرواحهم روحانية لطيفة نورانية، جوالة تجول في الملكوت، وتشاهد الحي الذي لا يموت[٢]، وهي تنظر عجائبَ غرائبِ ما يكون من الأمرِ المَكْنُون)[٣].

اتباع الكتاب والسنة

كان الدسوقي يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق: (يا فلان، اسلك طريق النسك على كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، وعليك أن تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المَرْضِيَّة، والامتثالَ بطاعة اللَّه قولًا وفعلًا واعتقادًا، وألا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها، وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، فإن لم تستطع فإن نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدي، أنَّ طريقَتَنا هذه طريقة تحقيق وتصديق وجهد وعمل وغض بصر، وطهارة يدٍ وفرجٍ ولسانٍ، فمن خالف شيئًا من ذلك رَفَضَه الطريق طوعًا أو كرهًا)[٤].

---

(١) من قادة الفكر الصوفي (ص٢٦٢).
(٢) مشاهدة الله أمر مجازي، يعني المشاهدة العلمية واليقين التام.
(٣) كتاب من قادة الفكر الصوفي (ص٦٨- ٧٠).
(٤) مخطوط (الطبقات الوسطى) للشعراني، ظهر الورقة ١٠٨.

وكثيرًا ما كان ينصح أتباعه باتباع الشريعة الغراء، فيقول: (اسلك المناهج السديدة، والشريعة القويمة السديدة البهية الساطعة اللامعة، التي من عمل بها كان عمله مضمونًا، فإنَّ من سلكها واتبع أمرها نجا، فإنَّ اللَّه أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا، وأن تستقيموا ولا تلهوا، قال اللَّه تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ)[(١)].

ويقول لأتباعه ناصحًا لهم بالتمسك بأهداب الشريعة: (من أحب أن يكون من ولدي فليحبس نفسه في قمقم الشريعة، وليختم عليها بختم الحقيقة، ليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات، الشريعة أصل والحقيقة فرع، فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفي، وجميع المقامات متدرجة فيها)[(٢)].

الاجتهاد في الطاعة

يحث الدسوقي طلابه على الاشتغال بالطاعات، ومجاهدة النفس وحملها عليها، فيحث على اصطناع المكابدة والمجاهدة، وذلك بالإكثار من الصيام والقيام والذكر وقراءة القرآن، وبالتسبيح والتقديس والدعاء والابتهال.

ويحثهم على الزهد في الدنيا والترفع عن اللذائذ والشهوات، والابتعاد عن ضروب اللهو، وأن يرضى المريدُ ويسلِّم لله فيما قد يصيبه في حياته من متاعب ومضايقات[(٣)].

ويقول الدسوقي: (من أحب أن يكشف له عن الأنوار، وتطلع في قلبه شموس المعاني والأقمار، فليلزم عبادة ربه في الأسحار ويداوم الاستغفار)[(٤)].

التحذير من الابتداع والانحراف عن طريق الحق وطلبِ الدنيا بالمشيخة والسلوك

---

(١) الحشر (٧).

(٢) طبقات الشعراني (ص١٤٤).

(٣) الأدب الصوفي في مصر (ص١٣٥).

(٤) مخطوط الكواكب الدرية للمناوي، وجه الورقة ٢٢٧.

إذا كان بعض أبناء الطريقة البرهانية في عصرنا وقبله، قد خالفوا طريق شيخهم البرهاني الكبير، وبَعُدوا عن تصوفه العملي السني الداعي إلى العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم، فإنَّ شيخهم في القرن السابع الهجري كان يخشى هذا اليوم، ويدعو أتباعه ألا يسيئوا إلى طريقته أو يدنسوها، أو يبتدعوا البدع والخزعبلات، فيقول:

(يا أولادي، ناشدتكم بالله، لا تسيئوا إلى طريقي، ولا تُلَبِّسُوا في تحقيقٍ[1]، ولا تدلسوا ولا تدنسوا، وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا منَّا أوراقًا[2] من غير عمل فلا حاجة لنا بكم)[3].

ولطالما حذر أتباعه من مخالفة طريقه (وإنِّي أبرأ إلى الله ممَّن يأخذ على الطريق عوضًا من الدنيا، ويتلف طريقي من بعدي، ويخالف ما كنت عليه أنا وأصحابي، اللَّهم إن كان أحد من أصحابي يفعل خلاف طريقي فلا تهلكني بذنوبهم، فإنَّ الله يبغض الفقير الذي يبيع أخلاق أهل الطريق بلقمة، وطريقي إنَّما هي طريق تحقيق وتدقيق، فيا أولادي، إن كنتم أولادي وخالفتموني فأنتم كاذبون)[4].

وهكذا كانت دعوةُ أصحاب الطرق الصوفية الصادقين، دعوةَ المسلمين إلى التوبة والاستغفار والهداية والعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، يقول الدسوقي لأتباعه: (وإنَّما آمركم بما أمركم به ربكم، وإن نقضتم العهد فإنَّما هو عهد الله لا عهدي)[5].

تحذيره من الاغترار بالكرامات

يقول الإمام الدسوقي رضي الله عنه: (خَواصُّ الخواصِّ جعلوا زواياهم قلوبَهم، ولَبِسُوا تقواهم وخوفهم من ربهم ومولاهم، قد رفضوا الكرامات ولم يَرْضَوا بها، وخرجوا عنها لعلمهم أنَّها من ثمرة أعمالهم، فلم يطيروا في الهواء، ولم يمشوا على ماء، ولم يسخَّر لهم

---

(١) أي لا تجعلوا الأمر الواضح مشكوكاً فيه ومحرفاً عن وجهه، كما قال تعالى: (ولا تلبسوا الحق بالباطل).

(٢) أي ليأخذوا منه إجازة بالمشيخة، أو ينقلوا كلامه بلا عمل.

(٣) مخطوط الطبقات الوسطى للشعراني، وجه الورقة ١٠٦.

(٤) من قادة الفكر الصوفي (ص٢٥٩- ٢٦٠).

(٥) كتاب سيدي إبراهيم الدسوقي لعبد العال كحيل (ص٤١).

الهواء، ولم تُبَصْبِصْ[١] لهم الأسود، ولم يضربوا أرجلهم بالأرض فيتفجر الماء، ولا لامسوا أجذم ولا أبرص فبرئ، ولا غير ذلك، فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة كاملة رضي الله عنهم أجمعين)[٢].

الذكر والمجاهدة والحذر من عوائق الطريق إلى الله

يقول الإمام محمد بن علي السنوسي الإدريسي[٣]: (وأمَّا طريق السادة البرهانية فهو المنسوب إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم الدسوقي، وهو مبني على الذكر الجهري، ولزوم الجد في الطاعات، وارتكاب خطر أهوال المجاهدات، وذبح النفس بسكين المخالفات، وحبسها في سجن الرياضة حتَّى يفتح الله عليها بالسراج في رياض المعرفة، ومن شأن أهل هذه الطريقة السنية الاستكثار بذكر (يا دايم) بياء النداء، سيما في ضمن مجالس التلاوة والذكر الجهري بالجلالة، ومن شأنهم لبس الزي، وهو الأخضر)[٤].

ويبين الإمام الدسوقي خطورةَ الطريق وصعوبتها وكثرة عوائقها، فيقول: (آه، آه. ما أحلى هذه الطريقة ما أسناها، وما أَمَرَّها وما أصعبَ مواردها، ما أعجبَ واردَها، ما أعمقَ بحرَها، ما أكثر أُسْدَها، ما أكثرَ حيَّاتِها وعقاربَها، فيا لله يا أولادي لا تتفرقوا، واجتمعوا يحميكم الله من الآفات)[٥].

ويبين الإمام الدسوقي أن السالك لا ينجح إلا إذا جاهد نفسه، حتى تخلى عن نفسه بالكلية، فيقول: (واعلم، أنَّ الطريق إلى الله تُفْنِي الجِلاد[٦]، وتفتت الأكباد، وتضني الأجساد، وتدفع الشهاد، وتسقم البدن، وتذيب الفؤاد)[٧].

---

(١) أي تطأطئ رؤوسها.

(٢) كرامات الأولياء للنبهاني (ص٢٣٩).

(٣) مؤسس الطريقة السنوسية (١٢٠٢هـ - ١٢٧٦هـ).

(٤) مخطوط السلسبيل المعين في طرائق الأربعين، وجه الورقة ٣٥.

(٥) ذكره عبد التواب عبد العزيز، في كتابه سيدي إبراهيم الدسوقي، (ص٦٦).

(٦) أي تكاد تهلك أهل الصبر والجَلَد والتحمل، من صعوبتها

(٧) كتاب منير، (ص١٣٤).

آداب المريد

يبين الدسوقي بعضاً من آداب الصحبة فيقول: (رأسُ مال المريد المحبةُ والتسليم، وإلقاءُ عصا المعاندةِ والمخالفةِ، والسكونُ تحت مراد شيخه وأمره)[١].

ويقول الدسوقي: (وللمريد مع شيخه الأدب وحسن الطلب والتسليم للشيخ، وأن لا يتكلم إلا بدستوره)[٢].

ويقرر الدسوقي أن على المريد أن لا يتكلم إلا بدستور من شيخه، إن كان جسمُه حاضراً، وإن كان غائبًا يستأذنه بالقلب)[٣]، ومعنى ذلك أن يستشعر المريد أن الشيخ معه فلا يتكلم إلا بما يرتضيه الشيخ، ولا يتصرف إلا بما هو يقبله الشيخ، فيكون المريد بذلك أديباً، ويتدرب على مراقبة الله والاستقامة بين يديه، فإذا تحقق بالمراقبة لله ترك تخيل الشيخ معه.

وقد نبَّه الإمام الدسوقي أتباعه وخلفاءَه إلى أنَّ الطريقة ليست ورقة إجازة من شيخ لمريده، فيقول:

يا ولدي، عليك بالتخلق بأخلاق الأولياء لتنال السعادة، وأمَّا إذا أخذت ورقة إجازة وصار كل من نازعك تقول: هذه إجازتي بالمشيخة دون التخلق، فإنَّ ذلك لا شيء إنَّما هو حظ نفسي، لكن اقرأ الإجازةَ، واعْملْ بما فيها من الوصايا، وهناك تحصل على الفائدة، ويحصل لك الاصطفاء، وهذه طريق مدارج الأولياء قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل إلى آخر الدنيا[٤].

مما مر يتأكد لنا أنَّ الجانب العملي من الطريقة البرهانية يتساوق تمامًا مع التصوف السني العملي، إذ أقام الدسوقي كل الوزن للشريعة[٥].

---

(١) ذكره عبد التواب عبد العزيز، بكتابه سيدي إبراهيم الدسوقي (ص٧١).

(٢) كتاب منير (ص٢٠). بدستوره: أي بإذنه.

(٣) طبقات الشعراني الكبرى، (ص١٥٣).

(٤) طبقات الشعراني الكبرى (ص١٤٦).

(٥) الأدب الصوفي (ص٤٥).

البيعة والعهد على الطريق، وشروطها

كان الدسوقي يبايع تلاميذه على السلوك، فالطريقة أخذُ العهدِ والتربيةُ، من شيخ عن شيخ[١].

وخلاصة الطريقة عند الدسوقي ترجع إلى أن تعرف ربك وتعبده، فمن قبل ذلك عنده؛ فقد أدرك الحقيقة والشريعة[٢].

وقد كان الدسوقي يُلْبِسُ الخِرقة مع البيعة، ويستخير الله قبل إعطاء العهد للتلميذ، فيقول: (إنِّي استخرت اللَّه تعالى في أنَّ الولد يلبس الخرقة النظيفة العفيفة، على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم)[٣].

من هو شيخ الطريق، وما واجباته

عند الدسوقي؛ الذي يُقدَّم في الطريق هو من فتح عليه اللَّه، ليس لأحد أن يُقدَّم في الطريق لِكِبَرِ سِنِّه وتقادُمِ عهدِه، إنَّما يُقدِّمُه فتحُه، ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه، وتأمل يا ولدي إبليس اللعين لمَّا رأى نفسه على آدم؛ وقال: أنا أقدم منه، وأكثر عبادة وقدرًا، كيف لعنه اللَّه تعالى وطرده[٤].

ومن أهم واجبات الشيخ كما يرى الشيخ إبراهيم الدسوقي، حمل الناس على التوبة من المعاصي (تُتوِّبُ الناسَ، وتدعوهم إلى طاعة اللَّه، وتأمرهم وتنهاهم وتحذرهم وتنذرهم وتخوفهم وتعظهم، وتكون مجتهدًا فيما يُصْلِحُ مريدَك، فكن آمرًا بالأعمال الصالحة، تعمل بنفسك، وتأمر بالعدل، فإذا رآك الذين تأمرهم بالعمل عاملًا عملوا أو سمعوا، وعَمِلَتْ فيهم الموعظةُ، وإن كنت يا بَطّال بطالًا وتأمرهم بالعمل قالوا: يُعَدِّلُ هذا

---

(١) الأدب الصوفي (ص٤٤).

(٢) طبقات الشعراني الكبرى، (ص١٤٣).

(٣) كتاب منير للإمام الدسوقي، (ص٩٨).

(٤) كتاب منير للقطب الدسوقي، (ص٨٣- ٨٤).

نفسَه، ويقوم ويصوم، فإن كنت عمَّالًا ولم تعظهم؛ وَعَظَتْهُم أعمالُك التي يرونها، فإنَّ الأعمالَ أعظمُ موعظةً من الأقوال)[١].

وإذا كان الطريق شيخ ومريد بينهما عهد، فواجب الشيخ أن ينصح المريد، ويَعملَ لما يُفيدُه، لا أن يكون طامعاً بدنياه، فقال الدسوقي يحذر من الميل إلى الدنيا والطمع بما عند التلاميذ: (إن أردت أن تكون ولدي حقًّا فأخلص العبودية لله تعالى، واجعل واعظك من قلبك، وكن عَمّالاً بجسدك وقلبك، ولا تأخذ لأحد من المريدين دِرهمًا، فإنَّ هذه طريقي ومن أحبّني سلك معي فيها، فإنَّ الفقير الصادق، هو الذي يُطعِم الناس ولا يُطْعِمُونه، ويُعطيهم ولا يُعطونه، فإنَّ الرِّشا[٢] في الطريق الحرام، وشيخُكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ فِلْسًا ولا دِرْهمًا، ولا يأكُل طعامًا إلا إن سَلِمَ من العِلَل[٣].

(١) المصدر السابق.

(٢) الرشا: أي الرشوة.

(٣) مخطوط الطبقات الوسطى للشعراني، ظهر الورقة ١٠٩.

المبحث السادس

طريقة السادة آل باعلوي (الطريقة العلوية)

التعريف بأصحاب الطريقة

تنسب الطريقة العلوية إلى آل باعلوي أو آل أبي علوي أو بنو علوي.

وهم سلالة من آل البيت النبوي، تنتسب إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، من طريق الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، ابنِ السيدة الزهراء.

يسكنون منطقة حَضْرَمَوْت[1] باليمن، وكان بداية تواجدهم في حضرموت سنة ٣١٩ هـ، بعد أن وصل جدهم الإمام أحمد المهاجر إليها، ثم انتشروا بعد ذلك في أنحاء العالم.

واستعملوا لفظ (باعلوي) بعد تأثرهم بالحضارمة، في طريقتهم في النسبة إلى آبائهم حيث يضيف الحضارمة (با)، ويستعملونها فقط في التراجم والأنساب، وعلى سبيل المثال: بافضل، باسالم، باصالح، وهكذا، وال (با) عند الحضارمة تعني (ابن).

فائدة:لقب عَلَوي كان يطلق في القرون الأولى على كل من انتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب بنسبة رَحِم أو وَلاء، ثم صار الاسم خاصا بذرية الإمامين الحسن والحسين، ثم مع مرور القرون أصبحت هذه التسمية لا تشمل إلا ذرية الإمام علوي بن عبيد الله بن المهاجر جد السادة "آل باعلوي".

(١) حضرموت: في اليمن، ناحية واسعة فى شرقيّ عَدَن، بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٤٠٩/١).

وبقي كثير من الفقهاء يستخدمون مصطلح "العلوية" في كتب الفقه، لآل البيت.

وليس منهم الطوائف المنتشرة في بعض البلدان، كالعلويين في سوريا، وهي تسمية أطلقتها فرنسا على طائفة النصيرية الباطنية.

وللسادة آل باعلوي الأكارم ألقاب كثيرة، وأشهرها:

السادة، حيث يطلق عليهم هذا اللقب لانتمائهم إلى آل البيت النبوي.

ومن ألقاب السادة باعلوي أيضا: لقب **الحبيب**.

وكان السادة من آل باعلوي قديماً يُلقَّبون **بالإمام والشيخ والشريف** إلى حوالي القرن الحادي عشر الهجري، ثم أطلق على الأكابر والعلماء منهم لقب الحبيب، فيقال الحبيب عبد الله الحداد، والحبيب أحمد بن زين الحِبْشي، ولا يزال هذا لقبهم إلى اليوم، وأول من اشتهر وعرف بهذا اللقب هو الحبيب عمر بن عبد الرحمن العَطّاس.

أول اشتهار التصوف في السادة آل باعلوي

إن أول صوفي اشتهر في حضرموت هو **عبيد الله بن أحمد المهاجر**، وقد تلقى علم التصوف عن الشيخ أبي طالب المكي، عندما حج سنة ٣٧٧ هـ، ثم تلقى هذا العلم من بعده ذريتُه، ولكن هذه الأنفاس الفردية لم تَتَّخِذْ في الواقع تأثيرًا شاملاً كمدرسة ومنهج، بل اتخذت شكلًا وراثيّاً عائلياً في ذرية آل أبي علوي، إلى أن جاء محمد بن علي باعلوي (٥٧٤-٦٥٣هـ)، الملقب بالفقيه المُقَدَّم، فجَمَع بين طريقتين: طريقةَ آبائه وأجداده، وطريقةَ أبي مدين شُعَيب المَغْربي، ثم حَوَّلَهما إلى منهج عملي ومدرسة سلوكية في الحياة.

فوضع قواعد الأساس لطريقة السادة آل أبي علوي، إحدى الطرق الصوفية التي ينسب إليها الفضل في انتشار الإسلام على مساحة جغرافية واسعة، فقد جاء

الفقيه المقدم في طريق الله بأسلوب عجيب ومسلك قريب، جمع في ذلك بين العلم والحال والتحلي بالآداب الشرعية ومحاسن الأخلاق.

ولقوة استعداده وأتباعِه من أولاده، وثبات طريقتهم؛ بقي ظهورها فيهم، ولم يزالوا لها يتوارثون.

وجَدُّ أصحاب هذه الطريقة أحمدُ المهاجر، كان في البصرة، فما عصفت بها الفتن وظهرت القلاقل والثورات، وكان من أشدها هجوم القرامطة على البصرة في مطلع القرن الرابع الهجري، وفي عام ٣١٧ هـ بالتحديد، هاجر أحمد بن عيسى الذي لُقِّب لذلك بـالمُهاجر، فارًّا بدينه، إلى الحجاز مع صحبة سبعين من أهله وأتباعه، وقصد المدينة المنورة ثم غادرها إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، ثم توجه إلى اليمن إلى أن وصل وادي حضرموت، واستقر هناك. وقد اشتهرت الطريقة الباعلوية في مدينة تَرِيْم، بعد أن انتقل إليها علي بن علوي (ت ٥٢٩هـ) الشهير بخَالِع قَسَم[1]، الذين انتقل إليها عام ٥٢١ هـ، واتخذها موطناً له ولأولاده، ومنذ ذلك الحين أصبحت تريم مقراً لبني علوي إلى يومنا هذا.

مذهب السادة آل باعلوي

إن المذهب الفقهي الذي عليه السادة آل باعلوي هو مذهب الإمام الشافعي الذي انتشر في اليمن في عهد مبكر، وقد كان للمهاجر أحمد بن عيسى (جد آل باعلوي) دوراً بارزاً في انتشار مذهب الشافعي في حضرموت قبل سائر اليمن في ذلك الوقت، حيث إن انتشار المذهب الشافعي في اليمن كان في حدود سنة ٣٤٠ هـ فما بعد، فيكون انتشاره في حضرموت بواسطة الامام أحمد المهاجر قبل ذلك التاريخ.

---

(١) قَسَم: اسم البلدة التي نزل بها، وهي في حضرموت، ولقب بخالع: لأنه خلع من نخلها ليستوطنها هو ومن معه.

ولم يقف دور السادة العلوية رضي الله عنهم على مجرد التمذهب بمذهب الشافعي، بل كان لهم في إحيائه ونشره وتحريره، والتصنيف فيه، الشيءُ الكثير. فضلاً عما أنشؤوه من معاهد وأربطة ومدارس كثيرة.

وقد كان لهم أثر في نشر المذهب الشافعي واتّبِاعه وتدريسِه في أنحاء المعمورة كشرق آسيا وإفريقيا والهند وغيرها من البقاع.

أما المذهب العَقَدي للسادة فهو المذهب السنّي الأشعري، وذلك بعد استقرار أمر حضرموت على مذهب أهل السنة مع زوال شوكة الإباضية منها.

هجرة السادة آل باعلوي

لقد دَرَج العلويّون رضي الله عنهم على التضحية بالأنفس والأموال في سبيل الدعوة، فهجروا الأوطان، وساروا براً وبحراً حتى أوصلوا الدعوة المحمدية.

وكانت الهجرة في أواخر القرن السادس الهجري وبعده شرقا إلى الهند والملايو وبورما وإندونيسيا والفلبين وغربًا إلى كينيا وتنزانيا وأوغندا وجزر القمر وزنجبار وغيرها ورجع كثير منهم إلى الحجاز فالهند كلها على مذهب أبي حنيفة إلا مناطق كجرات وأحمد آباد ومليبار، حيث ينتشر المذهب الشافعي بتأثير السادة بني علوي وكذلك جنوب شرق آسيا، وساحل شرق إفريقيا، كلها مناطق سنيّة شافعية تبعًا للدعاة من بني علوي.

يقول الباحث الهولندي فندن ببرخ: إن التأثير في الاسلام إنما كان من السادة الاشراف وبهم انتشر الاسلام بين سلاطين الهنود في جاوا وغيرها، وإن كان يوجد غيرهم من عرب حضرموت ولكن لم يكن لهم ذلك التأثير وكل ذلك دون غزو عسكري أو اقامة ملاحم بل من منطلق: {ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}.

وكما قال العارفون: دعوة آل باعلوي إلى الله بالتشويق، لا بالعصا والتحكم والتهديد.

ولقد كان للسادة ال باعلوي قصب السبق في الهجرة إلى الهند والتي وصل إليها السادة العلويون سنة ٦١٧ هـ دعاةً للدين الإسلامي.

يقول المؤرخ الحبيب محمد الشاطري: وأول من اشتهر بالهند من أبنائها هم بنو عبد الملك العلويّون اليمنيون، وقد انتشروا هناك واتصلوا بملوك وزعماء المسلمين بالهند، ولهم مكانة عالية بين مسلمي الهند، وكانوا يُدْعَون بآل عَظْمَتْ خان.

وكتب الأستاذ علي بدري مشهوري عظمت خان كتابًا أسماه (الدعاة والفرسان من آل عظمت خان) أشار فيه إلى دور هذه الأسرة في نشر الإسلام وعرَّف بأسرة آل عظمت خان قائلاً: إن عَظْمَتْ خَان - بفتح العين وسكون الظاء وفتح الميم وسكون التاء - لَقَبٌ هندي، معناه عائلة محترمة، لُقب به عبد الملك بن علوي (عم الفقيه المقدم) إلى آخر النسب الشريف.

ثم عرف الأستاذ علي بدري مشهوري بالسيد عبد الملك فقال: هاجر إلى الهند فرحبوا به خير الترحيب، وقابلوه بأحسن القبول، ولقبوه بـ (عظمت خان) فكان هذا اللقب علماً لعائلته ولأولاده، وسبب ترك اسم العائلة الأصلية - وهو بنو علوي - لأنهم لا يريدون التميز عن غيرهم، ولئلا يظهر أنهم عرب يعيشون بين الأعاجم، إذ من أسلوب الدعوة أن يعيش ويظهر الداعي كأنه من جنس المدعو، ثقافةً ولغة، أو على الأقل أن يَظهر بمحبة المدعو واحترام بلده وأهله.

ثم إن من ثمرات هذه الهجرات لساداتنا آل باعلوي في سبيل الدعوة إلى الله، وُجِدت على خريطة العالم الاسلامي أكبر دولة إسلامية اسمها أندونيسيا، التي يبلغ عدد المسلمين فيها أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم، وهو ما يفوق عدد المسلمين العرب في العالم.

وهي بمناطقها شافعية سنية تبعاً لآل باعلوي الذين أدخلوا الإسلام إليها، وأولئك الذين أدخلوا الإسلام إلى أندنوسيا جاؤوا من الهند، وهم من أصل الأسرة التي تقدم الكلام عليها - آل عظمت خان – العلويون.

يقول المؤرخ صالح علي الحامد باعلوي: فالمعروف أن أولئك العرب الطامحين الذين أدخلوا الإسلام إلى جاوا وما جاورها هم السادة آل عظمت خان العلويون حضرميو الأصل، خرج جدهم عبد الملك بن علوي عم الفقيه المقدم في أواخر القرن السادس الهجري من قَسَم[1] عند ثورة الخوارج، وهجومهم على تريم بحضرموت في تلك الآونة، وقصد الهند هو وجماعة من السادة العلويين؛ وانتشرت ذريته هناك ببروج وأحمد أباد وما بينهما.

والذين كان لهم الدور الأكبر في دخول الاسلام إلى أندنوسيا هم المعروفون المشهورون في التاريخ الأندنوسي بالأولياء التسعة من السادة آل باعلوي. كما كان للسادة باعلوي الدور الأبرز في دخول الإسلام إلى الفلبين، وكان السيد علي بن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك باعلوي قد قدم الى جوهور بالملايو وتزوج بابنة السلطان وخلفت له ابنه محمد الذي أبحر على المراكب الشراعية إلى خليج منداناو بالفلبين، فكان أول من دعا أهلها إلى الإسلام، كما وأدخل السادة آل باعلوي الإسلام في جزر القمر وما والى جزيرة مدغشقر وموزمبيق وبلاد الملايو وسولو وغيرها.

تعرض دعوة السادة آل باعلوي للمحاربة.

تعرض الصوفية كشأن الصالحين والدعاة في عهود كثيرة لأشكال كثيرة من الأذى والمحاربة، وكان لآل باعلوي نصيب من ذلك.

---

(١) قَسَم وتَرِيْم: موضعان في حضرموت.

جاء في كتاب المرتضى للعلامة النْدوي: ولم تقتصر دعوة السادة الباعلوي على ذلك بل امتدت الى الهند والفلبين وماليزيا وجزر القمر وجزيره مدغشكر وموزمبيق حتى بدا الاستعمار الهولندي والبرتغالي لتلك المناطق والذي قام بمحاربه الدعوة الاسلاميه ومقاومتها-؛ ففي عام ١٩٠٤م وصف المستشرق الهولندي: سنوك هور غرونيه وصف القوانين التعسفية الهولندية ضد المهاجرين الحضارمة بقوله: إن الحضارمة هنا لديهم شعور الناس الذين دخلوا منزلا بابه مفتوح، لكن لا يسمح لهم بالذهاب أبعد من الدهليز الضيق العتيق والذين لا يحتكون بالنزلاء الآخرين إلا عندما يذهب هؤلاء الى غرفة أخرى !

وقد رجح الكثير من الدعاة أنه من الممكن أن تكون الفلبين دولةً تدين بالإسلام؛ لولا وصول الأسبان إليها قبل دعاة المسلمين من الساده الباعلوي.

وما زالت جهود مدرسة السادة آل باعلوي الدعوية قائمة حتى وقتنا الحالي، وإن كانت تواجه عقبات شديدة، بسبب التبشير في أنحاء العالم، المدعوم مادياً من قِبل دول عظمى ومنظمات عالمية، وكذلك الفتن الطائفيه والخلافات الدائمة من قبل أصحاب المذاهب المسيئة المُسَيَّسَة، التي شوهت صوره الإسلام، وهي أبعد ما تكون عن جوهر الدين الإسلامي.

مما جعل بعض الدعاه من الساده الباعلوي يعيد توجيه دفه الدعوة الإسلامية في أماكن يقل تأثير التبشير القائم على شراء النفوس بالمادة، وكذلك تأثير المذاهب الاسلامية المسيسة التي تخدم مصالح دول لا أكثر !

فقرر بعض الدعاة نشر الاسلام في دول يوجد بها من يبحث أو ينتظر نور ونداء الحق ليتبعه، فبدأت الدعوة في أوربا وامريكا وكندا، وقد اعتنق البعض من المانيا وكندا وامريكا الإسلام، وانتقل البعض منهم إلى مدينه حضرموت لتعلم الإسلام، في بيئة مسلمة، وهو ما ميز الدعوة في عصرنا هذا عن الدعوة في الماضي.

معالم الطريقة الباعلوية

- هي إحدى الطرق الصوفية السنية.
- أساسها: اتباع الكتاب والسنة.
- ورأسها: صدق الافتقار وشهود المنة.
- ظاهرها: علوم الدين والأعمال.
- وباطنها: تحقيق الأحوال والمقامات.
- وآدابها: صون الأسرار والغَيْرة عليها من الابتذال.
- غايتها: القرب الى الله والفتح الرباني.

وشيخ الطريقة ومدار حقيقتها والذي تأسست معالمها على يده، الشيخ الإمام الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي الحسيني الحضرمي، وتوارثها عنه الأكابر.

ولم يضع مؤسسوا هذه الطريقة في طبقتها الأولى تأليفاً، ولا صنفوا فيه تصنيفاً، إلى زمن العَيْدَرُوس وأخيه الشيخ علي، حيث اتسعت الدائرة، وكثر الأتباع، فاحتيج إلى التعريف والإيضاح.

إن الطريقة العلوية لا تخالف غيرها من الطرق الصوفية الصحيحة الصفية النقية في الأصول، ولا في حقيقة السلوك، وإنما الخلاف في رسوم وأوضاع تؤول إلى تقريب الطريق على الطالب.

ولقد اعتنى أعلام طريقة آل باعلوي بعلم الفقه عناية بالغة، واشتغلوا بالآداب والأخلاق الغزالية وتهذّبوا بها، فكان لهم عناية بكتب الإمام الغزالي رحمه الله وتطبيق التصوف على ضوئها.

قال الحبيب أحمد بن زين الحِبْشي في تعريف موجز بالطريقة: طريقة السادة آل باعلوي إنما هي: العلم، والعمل، والورع، والخوف من الله، والإخلاص له عز وجل.

ويلخص الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى منهج السير إلى الله عند الباعلوية في نحو عشرين أمراً:

توزيعُ الأوقات بالأعمال الصالحات، مع كمال الاقتداء فيها بسيد السادات، وتصحيحِها بالإخلاص من الشوائب والآفات، وتطهيرُ القلب من كل خلق دَنِيّ وتحليته بكل خلق سَنِيّ والرحمة والشفقة على عباد الله، وبذل الوسع في تعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه النجاة والتورع عن الحرام والشبهات والتقلل من المباحات والشهوات واغتنام ساعات الأعمار بالاعتزال فلا يخالطون الناس إلا للتعلم والتعليم والجمعة والجماعة وزيارةِ كل حَمِيم وعمارةِ تلك المُزاوَرات بمذاكرة العلوم، وصلةُ الأقارب والإخوان، وبذل المعروف لكل إنسان، وحسن المعاملة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، مع الصيانة والتعفف والتواضع ومراقبة الخلاق، والوفاء بالعهد، والزهد، والتوكل على الله.

تلك هي بعض المعالم والآفاق الروحية للطريقة، وهي مشروحة بالتفصيل في كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، وفي كلام السادة العلويين ومؤلفاتهم خصوصًا الإمام عبد الله بن علوي الحداد، وغالب كلامه من روح كتابات الغزالي.

ومدار أمر الطريق على تحقيق معاني السلوك الباطنة، من إخلاص وتوكل وزهد وإقبال على الآخرة ونحو ذلك، بل كانت تحتضن الطرق الأخرى وتتأدب معها ولا تنكر عليها، وتستقي من معانيها، حتى صرّح محققو أئمتها أنها غزاليّة الظاهر، شاذليّة الباطن.

يقول الإمام عبد الرحمن بلفقيه: فظاهرهم ما شرحه الإمام الغزالي من العلم والعمل على المنهج الرشيد وباطنهم ما أوضحه الشاذليّة من تحقيق الحقيقة وتجريد التوحيد، جُل مجاهدتهم الاجتهاد في تصفية الفؤاد، والاستعداد للتعرّض لنفحات القرب في طريق الرشاد، والاقتراب إلى الله تعالى بكل قربة في صحبة أهل الرشاد.

ولم يكن تصوف العلويين مبالغًا فيه كشأنه في بعض الجهات الأخرى، وإنما كان تصوفًا وسطًا فمع كونه يدعو إلى الزهادة في الحياة الدنيا وشهواتها، فهو لا ينهى عن اتخاذ الأسباب والعمل بلزومات الحياة، وواجبات الدعوة.

كتب السيد صالح بن علي الحامد في تاريخ حضرموت: إن أجدادنا الصوفية لم يكونوا كما يُظن بهم، من التخلي عن الأسباب وترك السعي على العيال، بل كانوا بخلاف ذلك إذ لم يمنعهم التصوف من عمارة واديهم بالزراعة وغرس النخيل حتى صار في تلك العهود جِنانًا غَنّاء، وهذا الذي توارثه العلويون وأقر به الأحفاد اللاحقون، فهم صوفية إلا أن تصوفهم لم يشغلهم عن إدارة شؤونهم الاجتماعية، ولم يمنعهم عن جمع الأموال الطائلة من طرقها المشروعة، لإنفاقها في إطعام المساكين وبناء المساجد ونشر العلم والدعوة إلى الله.

الطريقة العلوية "مدرسة تربوية" وضع قواعدها واسسها وطريقها نخبة السادة العلويين الذين ورثوا هذا العلم كابرا عن كابر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي طريقة متوارثة الادب والهدى من صالح الى صالح ومن عارف الى عارف ومن مؤمن الى مؤمن، فكانوا حَمَلَة التربية النقية السوية التي كان عليها أتباع خير البرية.

مجدد الطريقة

أثر الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد (١١٣٢هـ) تأثيرًا بالغًا في إحياء معالم هذه الطريقة، ولا تزال أوراده وكلماته ووصاياه وأشعاره وكُتُبه تُتناقل على ألسنة المسلمين في أقطار شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا بل وأوروبا، فضلًا عن

بلاد العرب بفضل تفانيه في نشر العلم والدعوة بكلامه وقلمه، وبمظهر القدوة الكاملة الذي كان عليه، وبمن خرّجهم من العلماء والدعاة الذين ساروا على نهجه[1].

ومن أشهر شيوخ هذه الطريقة في زماننا اليوم: الشيخ الحبيب عمر بن حفيظ، حفظه الله.

---

(١) المراجع: المنهج السوي شرح أصول طريقة السادة آل باعلوي، الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط، عقد اليواقيت الجوهرية، الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، سلسلة أعلام حضرموت، الحبيب أبو بكر بن علي المشهور، الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر الهجري، لمصطفى حسن البدوي، السادة آل باعلوي وغيض من فيض أقوالهم الشريفة وأحوالهم المنيفة لمحمد ياسر القضماني، أدوار التاريخ الحضرمي، السيد محمد بن أحمد الشاطري، الاستزادة من أخبار السادة، السيد علي بن محسن السقاف، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، علوي بن طاهر الحداد، المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي للشلي، غرر البهاء الضوي ودرر الجمال البديع البهي، ومحمد بن علي خرد.

المبحث السابع
الطريقة النقشبندية

مرجعية الطريقة النقشبندية

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

تنسب هذه الطريقة إلى الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ت (١٣هـ)، إذ يعتبره أصحابها المؤسس الأول، وهو قد أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد خلفه في علمه وهديه، كما خلفه في السياسة والحكم.

ومن المعلوم أنه رضي الله عنه أفضل الصحابة الكرام، قال الله سبحانه وتعالى في حقه: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[١].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي)[٢].

وقال أيضاً: (لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً)[٣].

ويروي بعض النقشبندية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لقن أبا بكر الذكرَ الخفي، وذلك في الغار، إبان هجرتهما إلى المدينة[٤].

---

(١) التوبة (٤٠)

(٢) فضائل الصحابة لابن حنبل (١٣٥) وغيره.

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٣).

(٤) راجع: حسين الخطيب، الدر اللطيف (ص ١٠٤).

١. ويعتبر أصحاب الطريقة النقشبندية أربع شخصيات، ذات تأثير في نشوء الطريقة، وظهور معالمها التي بُنِيت عليها وتميزت بها، وهم:سلمان الفارسي رضي الله عنه.
٢. أبو يزيد طَيْفُور البُسْطامِي.
٣. عبد الخالق الغَجْدَواني.
٤. محمد بهاء الدين الأُوَيْسِي البخاري المعروف بشاه نقشبند.

وقد أطلق على هذه الطريقة تسميات، بحسب مراحل نشوئها تاريخياً:

فمن عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى أبي يزيد البسطامي، كانت تسمى **صِدّيقية.**

ومن عهد أبي يزيد حتى عبد الخالق الغجدواني، كانت تسمى **طيفورية**، نسبة إلى الاسم الأول لأبي يزيد.

ومن الغجدواني إلى محمد بهاء الدين كانت تسمى **خواجكانية**، نسبة إلى ختم الخواجكان، وهو مجلس ذكر بهيئة معينة، أدخله الغجدواني.

ومن محمد بهاء الدين أصبحت تعرف **بالنقشبندية.**

ويرى بعضُ الكتّاب أن **النقشبندية**، كلمة مؤلفة من جزئين: **نقش**، وهو صورة الطابع إذا طبع به على شمع أو نحوه، **وبند**، ومعناه رَبْطٌ وبَقاءٌ مِن غير محو، فالكلمة تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه فيه(١).

سلمان الفارسي

أصله من أصبهان(٢)، كان عبداً رقيقاً لبني قريظة بيثرب، ولما هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم لازمه سلمان وأسلم على يديه، ثم ساعده المسلمون على شراء نفسه من صاحبه.

---

(١) سليمان، الحديقة الندية (ص ١٥-٤١).
(٢) أصبهان الآن هي جزء من دولة إيران.

كان سلمان قوي الجسم، صحيح الرأي، عالما بالشرائع، وهو الذي أشار على المسلمين بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، وبعد أن فتح المسلمون المدائنَ عاصمةَ الفرس جعلوه أميراً عليها، فأقام فيها حتى وفاته.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم في فضله: (إن الجنة لتشتاق إلى أربع: عمار وعلي وسلمان وبلال)[١].

وقال أيضاً: (سلمان مِنّا آل البيت)[٢].

وكما كان سلمانُ صحابياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه انتفع من أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما، فيعد وارثاً روحياً منه، كما يراه بعض من كتب عن الطريقة النقشبندية.

ومن أقواله في الحث على الذكر وتلاوة القرآن: (لو بات رجل يطاعن الأقران، لكان الذاكر التالي[٣] أفضل)[٤].

وقال في الحث على الزهد: أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث:

ضحكت من مُؤَمِّلِ الدنيا والموت يَطْلُبه، وغافلٍ لا يُغْفَل عنه، وضاحكٍ مِلْءَ فِيه؛ لا يدري أَمُسْخِطٌ ربَّه أم مُرْضِيه.

وأبكاني ثلاث: فراق الأحبةِ محمدٍ وحزبِه، وهولُ المَطْلَع عند غَمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين، لا أدري إلى النار يُصارُ بي أم إلى الجنة[٥].

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (٦٠٤٥).

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (٦٠٤٠)، المستدرك للحاكم (٦٥٣٩).

(٣) يطاعن الأقران: أي يقاتل أمثاله من الرجال في الجهاد، والتالي: أي القارئ لكتاب الله.

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم (٤٠٤/١).

(٥) المرجع السابق (٢٠٧/١).

ويروى سلمان عدة أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم منها: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[١].

أبو يزيد البسطامي

اسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان، كان جده سروشان مجوسياً فأسلم.

ولد أبو يزيد عام (١٨٨هـ) ببسطام في خراسان، وتوفي عام (٢٦٣ هـ) ولم يعرف مكان دفنه[٢].

تتبع البسطامي أحكام الشريعة بدقة، ومارس زهداً صارماً، كما أنه ظل حتى وفاته حريصاً على أداء الواجبات الدينية، وكان يطلب من مريديه أن يسلموا أمورهم لله؛ لأن أفعالهم ليست شيئا يذكر أمام القدرة الإلهية، ويحثهم على التوحيد الخالص الذي يتمثل في أربعة أشياء: لسان لا يكذب، وقلب لا يحقد، وبطن لا يأكل الحرام، وحركات لا بدعة فيها.

ولأبي يزيد أقوال كثيرة مبثوثة في كتب الصوفية منها:

"عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله".

"خلع الله على العبيد النعم، ليرجعوا بها إليه، فاشتغلوا بها عنه"[٣].

ويناجي ربه: "اللهم إنك خلقت هذا الخلق بغير علمهم، وقَلَّدْتَهم أمانةً من غير إرادتهم، فإن لم تُعِنْهم فمن يعينهم، ليس العَجَبُ من حبي لك، وأنا عبد فقير، إنما العجب من حبك لي، وأنت ملك قدير"[٤].

---

(١) المعجم الأوسط والكبير (١٥٧٧)، (٦١٦٩). وقد روى هذا الحديثَ البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يراجع اللمع لأبي نصر (ص ١٤٣).

(٣) الشعراني، الطبقات (٧٦/١).

(٤) أبو نعيم في الحلية (٣٤/١٠).

ويشير إلى مطلب الصوفية الأسمى ألا وهو التمتع برؤية الله سبحانه وتعالى في الدار الآخرة: "إن لله خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار".

وقال له رجل: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي، فقال: "أحبب أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك"(١).

وقد هوجم البسطامي لما ورد من شطحات صادرة عنه إلا أنه وجد من يفسرها ويلتمس له الاعذار فيها، فالجنيد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ) يقول: " الحكايات عن أبي يزيد مختلفة، والناقلون عنه فيما سمعوه مفترقون، وذلك - والله أعلم - لاختلاف الأوقات الجارية عليه فيها، ولاختلاف المواطن المتداولة بما خص منها، فكل يحكي عنه ما ضبط من قوله، ويؤدي ما سمع من تفصيل مواطنه، ثم إني رأيت الغاية القصوى من حاله، حالاً قَلَّ مَن يفهمها عنه، أو يُعَبِّرُ عنها عند استماعها، لأنه لا يحتمله إلا من عَرَفَ معناه، وأدرك مُستَقاه، ومن لم تكن هذه هيئته عند استماعه؛ فذلك كُلُّه عنده مردود(٢).

ولأبي يزيد نفسه أقوال يؤيد فيها الشريعة ويرفض كلَّ شَطْح وانحراف:

"لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وآداب الشريعة"(٣).

ولما سئل عن الصوفي أجاب: "والصوفي هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار"(٤).

---

(١) الفتوة للسلمي (ص١٨)، طبقات الأولياء (١/٤٠٠).

(٢) اللمع (ص ٤٥٩).

(٣) حلية الأولياء (١٠/٤٠)، منادمة الأطلال لبدران (ص ٣١٥).

(٤) عزة حصرية، الشيخ أرسلان الدمشقي (ص٣٥).

٣٨٨

عبد الخالق الغَجْدواني

ولد بقرية غجدوان القريبة من بخارى، ونشأ بها، وتوفي فيها سنة ٥٧٥هـ.

درس في بخارى القرآن وتفسيره على الشيخ صدر الدين، ومما يذكر أنه عندما وصل شيخه في التفسير إلى قوله تعالى: (ادعُواْ رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلمُعتَدِينَ) [١] سأل الغجدواني شيخه عن حقيقة الذكر الخفي وكيفيته؛ لأن العبد إذا ذكر جهراً وبتحريك الأعضاء اطلع عليه الناس، وإن ذكر في قلبه فإن الشيطان يطلع عليه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان ليجري من ابن ادم مجرى الدم) [٢].

فقد رأى الغجدواني أن هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا}، تفيد مشروعية الذكر الخفي، فيعد الغجدواني ممن نبه إلى هذا النوع من الذكر في التصوف، الذي اعتمدته الطريقة النقشبندية فيما بعد.

ولما برع بالعلوم الشرعية أقبل على الرياضات الشاقة، والمجاهدات الروحية حتى بلغ فيها مقاما رفيعا.

ولما قدم الشيخ يوسف الهمذاني إلى بخارى لازمه الغجدواني على أن يستفيد منه شيئاً جديداً، لكن الهمذاني أقره على طريقته؛ لأنها كما يرى النقشبندية هي طريقُ الصدق والوفاء، ومتابعةُ الشرع وسنةِ المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومجانبةُ البدع، ومخالفة الهوى.

ثم سافر الغجدواني إلى الشام حيث بنى زاوية، وربى الكثيرين، وترك العديد من الخلفاء في مدن وقرى العالم الإسلامي، لا سيما في وسط وغرب اسيا [٣].

---

(١) الأعراف (٥٥).

(٢) البخاري (٧١٧١) ومسلم.

(٣) يراجع: عبد المجيد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق إجلاء النقشبندية (١٠-١١١)، جامع كرامات الأولياء للنبهاني (١٤٣/٢).

وضع الغجدواني " الختم " النقشبندي، أي طريقة الذكر، ومن المعلوم أن النقشبندية يضعون أهمية كبرى لهذا الختم[١].

كما أنه وضع معظم الكلمات الفارسية[٢] التي بنيت عليها الطريقة النقشبندية، وحدد في رسائله الآداب التي يجب أن يلتزم بها مريدوه[٣].

مؤسس الطريقة النقشبندية: النقشبندي

وهو محمد بهاء الدين النقشبندي الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند (٧١٧-٧٩١هـ).

شيخ هذه الطريقة، الذي أخذت اسمها من اسمه، فأصبحت تعرف بالنقشبندية.

ولد عام (٧١٧ هـ) في قصر العارفان[٤]، وهي قرية بالقرب من بخارى[٥]، وبعد أن تلقى العلوم الشرعية صحب الشيخ محمد بابا السماسي المدفون بقرية سماس القريبة من بخارى، وكان النقشبندي في الثامنة عشر من عمره، فأخذ عن شيخه السكينة والخشوع والتضرع.

وبعد وفاة السماسي صحب الشيخ الأمير" كُلال " الذي اعتنى به ورباه أفضل تربية، وخلال صحبته للأمير كلال غلبت النقشبندي جذبة، إذ سمع هاتفا يناديه: أما آن لك أن تعرض عن الكل ونتوجه إلى حضرتنا، فترك شاه نقشبند الكل، وأخذ يهيم على وجهه مدة شهر تقريبا.

وكان مريدو الأمير " كُلال " إذا اجتمعوا يذكرون جهراً، وإذا انفردوا يذكرون خفية، لكن شاه نقشبند رَجَّحَ الاقتصار على الخفي[٦].

---

(١) يراجع: الخطيب، الدر اللطيف (ص ١٠٤).

(٢) وسيأتي ذكرها.

(٣) الخاني، الحدائق الوردية (ص ١١٢).

(٤) قصر العارفان: هي قرية في أوزبكستان، كانت تسمى قصر هِندوان.

(٥) عمر فروخ، التصوف في الإسلام (ص ٨٦).

(٦) الخاني، الحدائق (١٢٥-١٢٧)، والنبهاني في جامع كرامات الأولياء (١/٢٤٠).

وفي ذلك يقول: " هناك طريقان في الذكر: سر وجهر، فاخترت منهما السر لأنه أقوى وأولى "، فأصبح هذا النوع من الذكر أهم ما يميز الطريقة النقشبندية عن سواها من الطرق الصوفية.

وبعد إتمام التحصيل على الأمير كلال أخذ شاه نقشبند يزور الصالحين ويستفيد من أحوالهم، وفي تلك الأثناء حج ثلاث مرات، ثم أقام بمرو وبخارى، ثم عاد أخيرا إلى بلدته قصر العارفان ليستقر فيها(١).

وطار صيت إرشاده كل مَطار، وقصدت رحابه بالرحلة كل الأقطار، وتبدلت عيوب القلوب بعلوم الغيوب(٢)، وشرور النفوس سرورا، وأصبح يبث من العلوم الربانية، والأسرار الوهبية، والمعارف الإيمانية، ما يدل على علو شأنه.

ولما مرض شاه نقشبند مرضه الأخير دخل خلوته، وأخذ مريدوه يتوافدون إليه ويلازمونه، فكان يوصي كلاً منهم بما يناسبه، بعد ذلك أخذوا في تلاوة سورة "يس" فلما أتموها رفع شاه نقشبند يديه بالدعاء، فدعا ثم مسح وجهه وفاضت روحه، وذلك سنة ٧٩١ هـ، ودفن في بستانه(٣).

ترك شاه نقشبند عدة رسائل:

- الأوراد البهائية(٤)، وقد قام أتباعه بشرحها وتسميتها: "منبع الأسرار"، وقام مريده حمزة بن شمشاد بترتيبها حسب الحروف، وبشرح ما أشكل.
- تنبيه الغافلين(٥).
- سلك الأنوار.

---

(١) الخاني، الحدائق (١٢٨-١٣٠).

(٢) علوم الغيوب: أي الإيمان بالله والحضور معه والأدب بين يديه.

(٣) كتب في مناقبه: محمد بن مسعود البخاري، والشريف الجرجاني، وقد ألفا الرسالة البهائية.

(٤) وسميت بذلك لأنه لقب ببهاء الدين.

(٥) خليفة، كشف الظنون (ص ٢٠٠).

- هدية السالكين وتحفة الطالبين[١].

وللنقشبندي صلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم، منها هذه الصيغة التي درج النقشبندية على قراءتها:

"اللهم أنت الملك الحي القيوم، الحق المبين، اللهم إنا نسألك أن تصلي على سيدنا محمد نبراس الأنبياء، ونيِّر الأولياء، وقمر الأصفياء، وضياء الخافقين"[٢].

بالإضافة إلى أقوال كثيرة في الشريعة والكرامة والفراسة والزهد والذكر.

قيل له: بماذا يطلع أهل الله على الخواطر والأعمال الخفية والأحوال، فقال: بنور الفراسة التي أكرمهم الله تعالى بها، كما ورد في الحديث الصحيح: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[٣].

وطلب منه مريدوه إظهار الكرامات، فقال:"مَشْيُنا على وجه الأرض مع وجود هذه الذنوب أظهر الكرامات"[٤].

وينبه الإمام النقشبندي أن جميع العبادات الظاهرية والباطنية في القول والفعل هي طريق السالك للوصول إلى الحقيقة والمعرفة، فمن لم يصل إلى النتيجة فلا بد أن في عمله خلَلاً، فيقول: الصلاة والصيام والمجاهدة هي طريق الوصول إلى الله تعالى[٥].

وكان النقشبندي شديد الحرص على التمسّك بالسنة النبوية، فعندما سئل: "بماذا يصل العبد إلى طريقكم؟ قال: بمتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن طريقتنا هي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السَّنِيّة، واقتفاء آثار الصحابة الكرام".

---

(١) إسماعيل بغدادي، هدية العارفين (١٧٣/٢).

(٢) النبهاني، سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين (ص ٢٦٢).

(٣) الترمذي (٣١٢٧).

(٤) الخاني، الحدائق (١٣١-١٣٤).

(٥) الخطيب، الدر اللطيف (١٧).

وقد كان النقشبندي رحمه الله زاهداً متقشفاً، حريصاً على الكسب الحلال، فكان يأكل خبز الشعير الذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبة من الصوف، وكان محباً للفقراء، يصنع لهم الطعام بيده، ويخدمهم ويواسيهم، لذلك أحبه الجميع، واعترفوا بفضله.

مبادئ الطريقة النقشبندية

شأن النقشبندية كسائر الطرق تسعى لتكون أقرب الطرق إلى الله، وأسهلها على المريد، للوصول إلى درجات التوحيد، فهي تلتزم طريقةَ الصحابة على أصلها، فتدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً، مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية.

وهي تحض على العزائم، وتجنُّب الرُّخَص في جميع الحركات والسكنات، في العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابتداع والانحرافات.

وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، فوق حد الاعتدال، وبالتالي فإنها سليمة من الكدورات التي يقع فيها بعض جهلة المتصوفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال والوَسَط(١).

ومدار الطريقة النقشنبدية يقوم على:

أ- التحقق بكمال الإيمان بالله وبرسوله، وبما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث تظهر نورانية تلك الحقيقة في جميع أعضاء المريد، ولا يتسنى ذلك إلا بملازمة طاعة الله، وابتغاء مرضاته، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومخالفة النفس الأمارة.

والإيمان الحقيقي كما يقررون يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: إيمان فطري [عطاءٌ من الله]، ويقصدون به ما بداخل الفرد من نورانية روحانية، وَهَبَها الله لكل إنسان عند خلقه.

الثاني: إيمان قلبي [كسبيٌّ]، بالإقرار بوحدانية الحق، وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الكمشخانوي، جامع الأصول (ص ١٣٦).

الثالث: إقرار باللسان بالشهادتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

فإن اجتمعت هذه الأركان الثلاثة صار الإيمان حقيقياً وكاملاً.

ب- التحقق بكمال الإسلام المُعَبَّر عنه بِالْتزام العبدِ بجميع الأحكام الشرعية، مع إظهار العجز والافتقار والذل والانكسار والتسليم من حيث الظاهر والباطن، ولا يحصل كمال الإسلام إلا بمجاهدة النفس لتتبع السنة النبوية.

ج- التحقق بكمال الإحسان، أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء، بأن يكون العمل خالصاً لوجه المولى سبحانه وتعالى، ولا يحصل كمال الإحسان إلا بمشاهدة[١] حضرة الألوهية بنور البصيرة في جميع العبادات، هذا الإحسان يحقق دوام العبودية، أي دوام الحضور من غير مزاحمة الخواطر والتعلق بالأغيار، ويعبر عن ذلك بالفناء، أي فناء صفات السالك في صفات الحق، والمراد بذلك إسقاط أوصاف النفس المذمومة لتحلّ محلها الصفات المحمودة[٢].

وللطريقة النقشبندية سَعْيٌ إلى إنقاذ البشر من عالم الشرور، فغايتها تهذيب النفوس، وإيصالها إلى ما هي الغاية من الإيمان[٣].

مصطلحات فارسية لأصول الطريقة:

للطريقة النقشبندية مصطلحات وكلمات بالفارسية، وضعها عبد الخالق الغجدواني، وزاد عليها ثلاثة شاه نقشبند، وهي كلمات تعتبر عن **الأصول الأولى للطريقة النقشبندية**، والتي يراعيها التلميذ، فيكون سيره وترقِّيه من خلال التحقق بها، وهي[٤]:

---

(١) وهذه المشاهدة قلبية عِلْمِية، وليست حسية أوبالعين.

(٢) المرجع السابق (ص ١٦).

(٣) عبدالله الدهلوي، منحة الرحمن (ص ٣١) .

(٤) انظر موقع: الرابطة النقشبندية في أنوار سير الطريقة النقشبندية والخلواتية العلية.

١ ـ اليقظة عند النَّفَس: "**هوش دردم**": ومعناه حِفظ النَّفَس عن الغفلة عند دخوله وخروجه، وبينهما[١]، ليكون قلبه حاضراً مع الله في جميع الأنفاس، فلا تتوزع خيالاته على أمور دنيوية، قال الشيخ سعد الدين الكاشغري وهو من أئمة النقشبندية في القرن التاسع: معنى اليقظة عند النفَس هو أن لا يغفل السالك من نفَس إلى نفس، وأن يتنفس مع الحضور مع الله.

وباختصار تعنى هذه الكلمة عند رجال الطريقة النقشبندية اليقظة والانتباه والفكر عند التنفس، وهو درجة من درجات الطريقة واذا أضاع السالك نفساً له فكأنه ارتكب ذنباً.

٢ ـ النظر إلى القدم: "**نظر بر قدم**:"ومعناه: أن على الصوفي في حال مشيه في الطريق أن يكون نظره مركَّزاً على موضع قدمه، حتى لا يتوزع باله وعقله على أنحاء كثيرة، وحتى يكون عقله وفكره مع الله، فلا يغتر بجمال ومتاع الدنيا، ولا تنطبع صور ما يراه في ذاكرته.

ويرى بعض النقشبندية أن معنى ذلك أن يكون متواضعاً، فلا ينظر إلى غيره بعين التقييم والتصغير، بل هو منشغل بسيره إلى الله.

ويرى الإمام الرباني السرهندي أن معناه أن لا ينشغل بالنظر إلى مقام أعلى مما هو فيه، بل ينشغل بالقيام بحق المقام الذي هو فيه.

٣ ـ السفر في الوطن: "**سفر در وطن**"، وهو على ثلاث درجات: **الأولى**: أن يسافر الإنسان للبحث عن المرشد والمربي، فإذا وجده استقر عنده وأخذ عنه، **والثانية**: أن يسافر سفراً معنوياً، بالتخلص من صفاته المذمومة الخسيسة، وينتقل إلى الصفات المحمودة، **والثالثة**: أن يسير في الأرض سياحة للتفكر والاعتبار، ليزداد تعرفاً على الله، قال تعالى: {الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض} [آل عمران: ١٩١].

---

(١) يقول شاه نقشبند: إن مبنى هذا الطريق على النَفَس، فينبغي لك أن تحافظ على النفَس وقت الدخول والخروج، بل تحفظ ما بين النَفسين. انظر: الخاني، الحدائق (ص١١٤).

٤ ـ الخلوة في الجلوة: "**خلوت در انجمن**": ومعناها العزلة الشعورية، فهو يخالط الناس، لكن قلبه مع الله، حتى إذا كان مع الناس ومشغولاً بالكسب والذهاب والإياب؛ فيبقى قلبه ذاكراً، ولا يغفل عن ربه، قال تعالى: {رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله} [النور: ٣٧].

قال الشيخ أبو سعيد الخراز (ت ٢٧٩ هـ): ليس الكامل من صدر عنه أنواع الكرامات، وإنما الكامل الذي يقعد بين الخلق يبيع ويشتري معهم، ويتزوج ويختلط بالناس، ولا يغفل عن الله لحظة واحدة[١].

وهذا الأمر ليس سهلاً، لكن يتدرب عليه السالك شيئاً فشيئاً، حتى يصير عادة عنده.

ويشير الإمام النقشبندي أن هذه الطريقة هي التي استحبها النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم؛ خير من المؤمن الذي لم يخالط الناس"[٢].

ومعلوم أن العزلة الكاملة مفيدة ومعمول بها عند الصوفية، كأن ينتقل السالك إلى زاوية معزولة، للتعبد والتأمل، ليستطيع التركيز على قلبه، إذ كلما استطاع تعطيل الصفات الخارجية والحواس الظاهرة عن العمل؛ تزداد الصفات الباطنية نشاطاً وعملاً، وبهذا يقرب من عالم الملكوت بشكل أفضل.

لكن هذه العزلة الكاملة لا تكون إلا أياماً، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان بعيداً عن المجتمع والعلاقات والبحث عن حاجاته والقيام بدعوته، لذلك رأى النقشبندي أن العزلة الشعورية أهم من هذا النوع من العزلة.

---

(١) وانظر: أحمد شاه، القول الجميل (ص٢٩).

(٢) الترمذي برقم (٢٥٠٧)، أحمد (٢٣٠٩٨).

٥ ـ الذكر الدائم: "**يادكرد**": ويقصدون بذلك أن يذكر المريد، بالنفي والإثبات "لا إله إلا الله"، كل يوم خمسة آلاف على الأقل(١).

وقد يكون الذكر باسم الجلالة: "الله" مع التأمل والحضور.

ولا يتحقق الذكر الدائم إلا بالمعنى العام للذكر، الذي يشمل الصلاة وقراءة القرآن الكريم والدعاء، وغيرها من العبادات.

٦ ـ العودة من الذكر إلى الذات: "**بازكشت**": ومعناها رجوع الذاكر وهو يذكر "لا إله إلا الله"، إلى تنبيه نفسه وتجديد حضوره وإخلاصه، بعد كل مائة، فيقول: "**إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي**"، وذلك لطرد كل الخيالات من قلبه، حتى يفنى من نظره وجود جميع الخلق.

٧ ـ الحضور الدائم: "**نكاه داشت**": وهو حراسة القلب من الغفلات، فيحفظ المريد قلبه من دخول الخواطر، ولو لحظة.

وبِقَدْر ما يتدرب السالك على الحضور، فإنه يصير طبيعة ويسيراً، قال سعد الدين الكاشغري: "على السالك أن يتمرن ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات يومياً، حسب طاقته على حبس ذهنه وفكره القلبي، بحيث لا يخطر في قلبه شيء، ولا يبقى في قلبه غير الله سبحانه".

إن دوام حضور القلب مع الله، وحفظ الباطن عن كل الخطرات والخيالات، من أهم مقاصد الصوفية وغاياتهم.

يقول شاه نقشبند: "السالكون في دفع الخواطر الشيطانية والنفسانية متفاوتون: فمنهم من يراها، فيدفعها عنه قبل أن تصل إليه، ومنهم من يطردها بعد وصولها إليه، ولكن قبل أن تستقر وتستحكم، ومنهم بعد أن تصل إليه وتتمكن، يسعى في صرفها، وهذا لا

(١) الخاني، الحدائق (ص١١٦).

يجدي نفعاً تاماً، غير أنه إذا عرف السالك منشأ ذلك، وسبب الانتقالات إليه، لا يخلو من فائدة"(١).

٨ ـ المشاهدة: "ياد داشت": ومعناها كما بينه الشيخ محمد أمين الكردي: "هي كناية عن حضورالقلب مع الله تعالى على الدوام، في كل حال، من غير تَكَلُّف، ولا مجاهدة، وهذا الحضور لا يتيسر إلا قطع منازل السلوك".

وبين الكردي أن المشاهدة هي ثمرة عمل السالك، من الطاعة الذكر والمراقبة ومساعدة المرشد، وهي عبارة عن حال المريد بعد الوصول إلى غايته، التي يصلها السالك بعد قطع كل الحواجز.

وبين الشيخ عبيد الله الأحرار أنه في هذه الحالة يكون قد تحقق الحب الذاتي لله، والتعلق الدائم به، فلا غفلة ولا غياب عنه بعدها.

أما الكلمات الثلاث التي أضافها الشيخ النقشبندي إلى القواعد الثمانية السابقة فهي:

٩ ـ **الوقوف الزماني**:ومعناه أن يتوقف الذاكر بعد وقت من الذكر كساعتين مثلاً، فيحاسب نفسه، كيف كان في هاتين الساعتين، فإن كان في حالة حضور مع الله تعالى؛ شكر الله تعالى على هذا التوفيق، وإن كان في حالة غفلة؛ استغفر منها وأناب.

١٠ ـ **الوقوف العددي**: وهو أمر استحبه الإمام النقشبندي، ووجد له أثراً طيباً في التجربة، وهو أن يذكر بنَفَس واحدٍ، عدداً وِتْراً من التهليل "لا إله إلا الله"، ثلاثة أو خمسة إلى واحد وعشرين.

وهذا الأمر ليس سنة، لكن جربه المشايخ والمريدون ووجدوا فيه نفعاً معنوياً كبيراً للمبتدئين، وعَوْناً على الحضور، فالمقصود منه التيقظ والمراقبة، والانشغال بالذكر عن أي شيء آخر.

١١ ـ **الوقوف القلبي**: وهو الاستغراق في الحضور مع المذكور، بحيث يغيب عن نفسه، وينشغل بربه عن رؤيةِ ذِكْرِه.

---

(١) انظر كتاب: الطريقة النقشبندية وأعلامها (ص ٢٥) .

فمعناه أن يكتفي الذاكر بِالْتِفاتِ قلبِه إلى الله، ولا يكون منتبهاً إلى نفسه وقلبه وذكره، فيتوجه إلى الله دون أن يلتفت أنه يذكر، فالقصد من الذكر؛ المذكور، وليس الكلمات.

وينبغي أن يصل السالك إلى الوقوف القلبي، فهم أهم من الوقوف الزماني والعددي، كما يرى الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي، ولا ينبغي أن يكون الذكر مجرد حركة اللسان أوالقلب دون الوعي، فإنه لا يحصل على الشيء المطلوب.

الرابطة عند النقشبندية

يرى النقشبندية أن الرابطة من أعظم أسباب الوصول، بعد التمسك بالكتاب والسنة، وهذه الرابطة هي الفناء في الشيخ الذي هو مقدمة للفناء في حب الله تعالى.

كما تكون الرابطة باستحضار روحانية أئمة رجال السلسلة النقشبندية، وذلك للاستفاضة من روحانيتهم لدفع الخواطر الشيطانية.

وإنما يربط المريد قلبه بالصادقين الصالحين، الذين نزهوا نفوسهم عن الغير والسوى، ليتذكر الاقتداء بهم في توحيدهم الخالص.

وهذه الرابطة ليست عبادةً للشيخ ولا للصالحين، وإنما هي حقيقةُ الحُبِّ في الله، وحُبُّ الصالحين واجبٌ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذِكْرِه.

وهذه الرابطة مفيدة للمبتدئين جداً، إذ **مقصودها** الوصول إلى الأدب مع الله، فالمبتدئ غائب عن الله تعالى، لضعف هذا السالك، وقلة حضوره، وضعف تركيزه، وعدم تخلصه من الخواطر والوساوس، ولأن الله غيب عنه، فيتخيل أنه مع الشيخ الذي يعرفه في عالم الشهادة، ليتأدب مع الله تعالى، كما يتأدب مع شيخه على الأقل.

وهذا الأمر أخذه الصوفية من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "واستحي من الله استحياءك من رجل من أهلك"(١).

---

(١) حديث صحيح، وروي بألفاظ أخرى ضعيفة، كقوله: استحياءك من رجلين صالحين من عشيرتك.

ولطالما كانت الطريقة النقشبندية عرضة للانتقاد على أساس أن هذه الرابطة بدعة ليس لها أصل في الإسلام، الأمر الذي دفع بمشايخ هذه الطريقة إلى الدفاع عنها، موضحين شرعيتها من الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتقَوا الله وكونوا مع الصادقين)[١]، وتلك الكينونة تشمل الصورة والمعنى، وقد فسروا الكينونة المعنوية بالرابطة، وهي عبارة عن استمداد المريد من روحانية شيخه الصالح الفاني في الله تعالى، والإكثار من تمثل صورته حتى يتأدب في غيبة هذا الشيخ كما في حضوره، كذلك فإن المريد الملتزم بها يبتعد عن سفاسف الأمور[٢].

وقد جاء في الحديث النبوي: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف)[٣]، فكلما كانت الروابط الائتلافية بين الأرواح والأشباح أقوى، كانت التأثيرات المعنوية ميازيب رحمة الله تعالى للإمداد ومهابط أنوار قدسه الإلهي.

وطريقة الرابطة: أن يُغمِض المريدُ عينيه، ويتخيل صورة شيخه بتعظيم ومحبة زائدين، حتى يستفيد من صورته كما يستفيد من صحبته، أما إذا كان الشيخ حاضراً؛ فعلى المريد أن يفتح عينيه، وينظر بين عيني الشيخ[٤].

ويبين الشيخ عبد الغني النابلسي النقشبندي **كيفية الرابطة**، فيقول: "يستحضر المريدُ صورة شيخِه على أكمل الأحوال، ليحصل له المدد، فإن شيخه بابُه إلى حضرة الله تعالى، ووسيلته"[٥].

---

(١) التوبة (١١٩).

(٢) أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات خالد (ص ٧٣).

(٣) البخاري (٣٣٣٦).

(٤) أحمد شاه، القول الجميل (ص ٢٧).

(٥) الخطيب، الدر اللطيف (ص ١٢١).

ويوصي الإمام النقشبندي مريده: إذا وردت الخواطر وشوشت عليك حالك، فاستحضر صورة شيخك من الخيال، فإن اندفعت وإلا فاستغفر الله، وتذكر أن الله هو الفَعّالُ القادر(١).

المراقبة عند النقشبندية

هي استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله، وقيل هي اجتماع القلب لاطلاع الرب، وقيل هي إطراق السريرة والحياء من ارتكاب الجريرة، وقيل هي محافظة الأوقات بملاحظة الصفات (٢).

ويعتبرها النقشبندية طريقاً مستقلاً للوصول إلى الحضرة الالهية، وبالمداومة عليها تحصل السيطرة على الخواطر.

ويرجعونها إلى آيات قرآنية عديدة:

منها: (وَكَانَ اللهُ على كل شيء رَقِيْباً)(٣)، (ألم يعلم بأن الله يرى)، وإلى الحديث النبوي الشريف: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٤)، (احفظ الله يحفظك).

وفائدة المراقبة تكمن في حفظ الجوارح من الانحرافات، لقولهم: " من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه "، فهي أصل كل خير وسعادة ونجاة، ولا يتمكن المريد من الوصول إلى هذا المقام إلا بعد محاسبة نفسه على ما فرط في جنب الله، وإصلاح أحواله الحاضرة.

والمراقبة على درجات:

---

(١) انظر: الخطيب، الدر اللطيف (ص ٢٣).

(٢) الحديقة الندية (ص ١٤٨)

(٣) الأحزاب (٥٢).

(٤) البخاري ومسلم برقم (٥٠) (١).

والسالك يستحضر واحدة من هذه الدرجات والأنواع، لمدة من الزمن، قد تصل إلى عام، في ترتيب بعض المشايخ، ليستقر معناها في نفسه ويدوم أثره في حياته، ثم ينتقل إلى الأخرى.

وهي مبنية على استحضار معنى آية من الآيات الكريمة، في جميع أحواله، وهو يذكر، وهو يتعبد، وهو في معاملاته وطعامه وسائر أموره، وبهذا تتحقق مراقبة الحق في السير والسلوك إلى معرفة الله تعالى.

١. مراقبة **الأقربية**، ومعناها أن يستشعر أن الله منه قريب، قال تعالى: (وَنحْن أقربُ إليهِ مِنْ حبل الوَريْد)[١].
٢. مراقبة **البصرية**، ومعناها أن الله تعالى ناظر إلى العبد في جميع حركاته وسكناته، قال تعالى: (لا تدركه الأبْصارُ وَهو يُدرِكُ الأبصار)[٢].
٣. مراقبة **العلْمية**، بمعنى أنه سبحانه يعلم ما في القلوب في كل آن وحين، قال تعالى: (وَالله عَلِيمٌ بذات الصدُور)[٣].
٤. مراقبة **الفاعِلية**، ومعناها أن ذات الإنسان وأفعاله فعل من أفعال الله سبحانه، فالله خالق كل الأفعال[٤]، قال تعالى: (فَعَّالٌ لما يُرِيْدُ)[٥]، ويحصل من ذلك الرضا.
٥. مراقبة **المُلْكِيَّة**، بمعنى أن ذات الإنسان وما يملك مُلْكٌ من أملاك الله، لذا لا تجوز معارضته في ملكه، وبالتالي يجب تسليم الأمر والحُكْم إليه، والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال تعالى: (قَوْلَهُ الحَقُ وَلَهُ المُلكُ)[٦].

---

(١) ق (١٦).
(٢) الأنعام (١٠٣).
(٣) التغابن (٤).
(٤) قال تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}.
(٥) البروج (١٦).
(٦) الأنعام (٧٣).

٦. مراقبة **الحياتية**، ومعناها أن الحياة السرمدية خاصة به سبحانه، فلا يجعل المريد لنفسه وجوداً، لأنه وجودَه إضافي، لا يقارن بوجود الله الذاتي، قال تعالى: (هو الحَيُّ لا إله إلا هُو)(١).

٧. مراقبة **المحبوبية**، باستشعار محبة الله للعبد، وأنها تحصل من التقرب إليه بالنوافل بعد الفرائض، قال تعالى: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبونهُ)(٢)، وكما جاء في الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)(٣)،

٨. مراقبة **التوحيد الشهودي**، ومعناها أن المريد أينما اتجه فإنه يرى الله سبحانه بعين البصيرة، كما قال تعالى: (أَيْنَما تُوَلُوا فثمّ وَجْهُ الله)(٤).

الذكر عند النقشبندية

من الطبيعي أن يهتم مشايخ النقشبندية بالذكر، لأنه يُنَقّي النفس ويُخَلّصُها مما سوى الله عز وجل، ويورِث المشاهدة والأنوار.

وقد ميز النقشبندية بين نوعي الذكر: الجهري والخفي، فذكر الله تعالى قد يكون باللسان أو بالقلب أو بالجمع بينهما، وهذا النوع الأخير مفضل عند جمهور الصوفية، لكن إذا اقتصر على أحدهما، فالقلب أفضل، وقد اختلفوا في أفضلية كل نوع من الأنواع السابقة، وقام كل فريق بإيراد الأدلة التي تثبت صحة رأيه مستدلين بالقرآن والسنة وأقوال أئمة الصوفية.

ومن المعلوم أن مشايخ النقشبندية إلى زمن شاه نقشبند كانوا يجتمعون مع مريديهم للذكر الجهري، وكانوا إذا انفردوا يذكرون خفية، لكن شاه نقشبند قصر ذكر الطريقة على الخفي أي "**الذكر القلبي**".

---

(١) غافر (٦٥).

(٢) المائددة (٥٤).

(٣) رواه البخاري برقم (٦٥٠٢).

(٤) البقرة (١١٥).

ومن **أدلة** النقشبندية في تفضيل هذا الذكر: أن الله تعالى أمر به في قوله عز وجل: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ)[١]، وقوله تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)[٢]، وقوله تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا).

وجاء في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[٣].

وورد في الجامع الصغير: (خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي)[٤]، وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (الذكر الخفي الذي لا يكتبه الحفظة يُضاعَف على ما سواه من الذكر سبعين ضعفاً)[٥].

فالنقشبندية يفضلون هذا النوع من الذكر لأنه بعيد عن الرياء، قريب إلى الإخلاص.

والواقع أن كافة الطرق الصوفية يبدأ المريد فيها الذكر باللسان، ثم يترقى إلى الذكر بالجَنان، أما الطريقة النقشبندية فإن بدايتها ذكر القلب، ونهايتها الحضور الدائم مع الله تعالى.

ويميز النقشبندية بين ذكر العوام وذكر الخواص، فالنوع الأول يجري على الألسنة من غير قصد، بحيث لا يستشعر الذاكر المعنى أو المذكور.

والنوع الثاني ذكر الخواص الذين إذا ذكروا فإنهم يستحضرون في أنفسهم أن المولى سبحانه ناظر اليهم، مطلع على جميع حركاتهم وسكناتهم، ويتفكرون في معنى (لا إله إلا

---

(١) الأعراف (٢٠٥).

(٢) الأعراف (٥٥).

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) رواه أحمد في المسند (١٤٧٧)، الجامع الصغير (٦٦٣٢)، وصححه ابن حبان، وروى ابن أبي شيبة العبارة الأولى منه في مصنفه رقم ٣٠٢٧٩ عَنْ سَعْدٍ، وقال النووي: ليس بثابت.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٢٨٠)، وهو حديث موقوف ومنقطع.

الله)، وأنه لا معبود بحق إلا الله الفاعل المختار، وإذا ذكروا بأية صيغة أخرى فإنهم يستحضرون معناها في أذهانهم[١].

آداب الذكر عند النقشبندية

يحرص النقشبندية على آداب الذكر التي يحرص عليها جميع الصوفية، ويزيدون على ذلك أموراً من باب الترتيب والتنبيه، أهمها:

١. أن يجلس الذاكر على ركبتيه، متوضئاً مستقبلاً القبلة.
٢. أن يشعر بأنه مذنب مقصر، خال من الأعمال الصالحة.
٣. أن يقوم برابطة الموت، وذلك باستحضار النزع للروح، ورؤية ملك الموت، ثم التغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، ثم الدفن وسؤال القبر عن الإيمان بالله والإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم.
٤. أن يستغفر الله خمساً وعشرين مرة.
٥. أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين مرة.
٦. أن يقرأ الفاتحة مرة، ثم الإخلاص ثلاثاً، ثم المعوذتين مرة مرة.
٧. أن يتصور في قلبه معنى اسم الجلالة (الله).
٨. أن يغمض العينين، ويُطْبِق الفَمَ، ويضع اليد اليمنى بالمسبحة على القلب، تحت الثدي الأيسر، وأن يقول بالقلب لا باللسان (الله) مئة مرّة، ثم يقول بلسانه: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ثم يعود المريد إلى الذكر بهذا الترتيب حتى يتم خمسة آلاف مرة.
٩. أن يعود إلى قراءة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين بالترتيب السابق، ثم يسكن قليلاً، فيعطي مجالاً للتفكر.
١٠. أن يهب الثواب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمشايخ وللمريدين ولكافة المسلمين.

---

(١) سليمان، الحديقة الندية (ص ٩٤).

هذه الأذكار والآداب وضعها مشايخ النقشبندية للمريدين إذا كانوا منفردين، أما في جمعهم فقد مشوا على ترتيب آخر، أطلقوا عليه اسم (الختّم).

خَتْم الخَواجْكان

الخواجة كلمة فارسية تعني الشيخ، وتجمع على خواجكان، فالكلمة تعني ذِكْر المشايخ.

وهذا المجلس هو من مجالس الذكر، التي لها أسرارها، فالملائكة تحضرها، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكةً سَيّارةً يلتمسون حِلَق الذكر»[1].

وتتنزل بها رحمة الله، والسَّكِينةُ على قلوب الذاكرين، وينالون بها الثواب، ويدفع الله بها عنهم السوء والضُّر والبلاء، ويجعلها بركة على البلاد والعِباد.

ولا تخلو هذه المجالس من رجل صالح مستجاب الدعوة، ينتفع الحاضرون بدعائه، كما أن هذه المجالس سبب في تعميق الأخوة الإسلامية، وارتباط القلوب وتآلفها على طاعة الله وحبه[2].

وأركان مجلس الختم هي:

- الخضوع والخشوع والحضور.
- قراءة الفاتحة سبع مرات.
- الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مئة مرة.
- تلاوة سورة الانشراح تسعاً وسبعين مرة.
- تلاوة سورة الإخلاص ألف مرة ومرة.

ويلاحظ أن النقشبندية يهتمون بالعدد اهتماماً ملحوظاً، فهم يحرصون على أن لا يزيدوا ولا ينقصوا، لأن العدد في الأذكار كالأسنان في المفتاح، إذا زاد فيه سن أو نقص منه سن بطل عمل المفتاح، وهم في ذلك يعتمدون على السنة النبويّة؛ فقد ورد

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) انظر: صاحب، بغية الواجد (ص ٢٣٦).

عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: (من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وتحميدة وتكبيرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر)[١].

ومن أجل ضبط العدد في ختم الخواجكان استعمل النقشبندية مئة من صغار الحصى وعشراً من كبارها، واليوم يستعملون السُّبْحَة غالباً.

وصف مجلس الختّم وآدابه:

يأخذ شيخُ الحلقة الحصى العشر الكبار مع إحدى وعشرين من الصغار، ويوزع بقية المئة على الحاضرين، ثم يفتتح الختم بدعاء مستحسن عن مشايخ الطريقة وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم يا مفتح الأبواب يا مسبب الأسباب، يا مقلب القلوب والأبصار، يا خالق الليل والنهار، يا دليل المتحيرين، يا غياث المستغيثين، أغثنا، توكلنا عليك يا أرحم الراحمين، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد بألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم يقول الشيخ جهراً: **أستغفر الله**، فيستغفر الحاضرون ربهم خمساً وعشرين مرة.

ثم يقول: **رابطة شريفة**، فيصمت الجميع مدّة خمس دقائق متخيلين صورة شيخهم، ثم يوزع سبعاً من الحَصَيات الكِبار على سبعة أشخاص ممن جلس عن يمينه، ويقول: **فاتحة شريفة**، فمن وصلت إليه حصاة يقرأ الفاتحة مرة واحدة.

ثم يقول الشيخ: **صلوات شريفة**، فيصلي الحاضرون على الرسول صلى الله عليه وسلم بعدد ما معهم من الحصى، ثم يقول: **ألم نشرح شريف**، فيقرأ كل مريد سورة الانشراح بعدد ما معه من الحصى.

ثم يوزع الشيخ قِسْماً من الحصَيات الصغار على المريدين، ويقول: **إخلاص شريف**، فيقرأ كل مريد سورة الإخلاص بعدد ما في يده من الحصيات، ثم يستأنف الشيخ قوله: إخلاص شريف إلى عشرة أدوار.

---

(١) صحيح مسلم (٥٩٧).

ثم يدير الشيخ سبعاً من الحصيات الكبار على سبعة أشخاص ممن يجلس عن يساره.

ثم يعود الجميع إلى الصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو الشيخ بدعاء، ويُهدي ثواب الختم إلى أرواح مشايخ الطريق.

ثم يقرأ أحد الحاضرين ما تيسّر من القران الكريم.

ومن آداب هذا الختم:

- الوضوء.
- خلو المكان من الضوضاء والتشويش.
- الاستغفار.
- الرابطة.
- إغماض العينين خلال الختم والذكر في القلب.
- انتساب الحاضرين للطريقة النقشبندية، وقد يحضر غيرهم بشرط أن لا يكون منكراً عليهم.
- أن يكون شيخ الحلقة مأذوناً[1]، وفي ذلك يقول شاه نقشبند: "ينبغي أن يكون تلقين الذكر من الكامل المُكَمِّل، لتظهر ثمرتُه وتأثيرُه، فإن السهم إذا كان من كنانة السلطان يصلح للحماية"[2].

ومن المعلوم أن مشايخ النقشبندية يحثون طلابهم على حضور الختم في كل يوم، فالمداومة على حضوره لها أثر طيب وكبير في السلوك إلى الله تعالى.

انتشار الطريقة وأثرها الدعوي

لقد كان لأهل الطريقة النقشبندية دور مهم في نشر الإسلام بين الشعوب المختلفة، قديماً وحديثاً، لا سيما بين الأتراك والفرس والأفغان، وحتى بين الشعوب الغربية، لأنها استطاعت أن تلبي تطلعاتهم لإشباع الروح في توجهها نحو الملأ الأعلى.

---

(١) صاحب، بغية الواجد (ص٢٣٩).

(٢) الخاني، الحدائق (ص ١٣٣).

ولئن ظهرت بعض الانحرافات من بعض الأدعياء، فإن ذلك لا ينهض دليلاً على انحراف الكل، ذلك أن الصوفية شأنهم شأن بقية الفرق، منهم المخلص الصادق، ومنهم المدعي الكاذب، وليس من الصعب التمييز بين طيّبهم وخبيثهم إذا طبقنا القاعدة الجليلة التي سنها سيد الطائفتين الجنيد البغدادي ت (٢٩٨ هـ) حيث يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه، مصداقاً لقوله تعالى: (لَقَد كَانَ لَكُمْ فِيْ رَسُول الله أسوة حَسَنة)[١].

وتعتبر الطريقة النقشبندية من أكثر الطرق انتشاراً في الوقت الحاضر، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً في مناطق آسية الوسطى الإسلامية: التركستان، والصين، والهند، وباكستان، وماليزيا، وتركيا[٢]، وأتباعها كثيرون جداً في خوارزم، وأوزبكستان، وقرغيزستان، والشيشان.

وتجد كثيراً من المنتسبين إلى الطريقة النقشبندية يشتغلون بالدعوة إلى الإسلام من خلال الدعوة إلى مجالسهم، ومن خلال أخلاقهم الراقية وانجذاب الناس إليها.

ولا بد من الإشارة إلى أن النقشبندية قد كانت من العوامل المهمة في ثورة المسلمين الكبرى في مناطق التركستان الصينية، كما أنها ألهبت حماس جماهير المسلمين في جزائر الهند الشرقية ليتصدوا للنفوذ الاستعماري[٣].

وللنقشبندية فروع عديدة أهمها: الأحرارية، والكاسانية، والمجددية، والخالدية، وهي أسماء لبعض مشايخها المجددين والمشهورين[٤].

وقد انتسب إلى الطريقة النقشبندية كثير من العلماء والأمراء والصالحين منهم:

١. أمير كُلال.

---

(١) الأحزاب (٢١).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة الفندي ورفاقه (ص ١٧٦).

(٣) أنور الجندي، العالم الإسلامي (ص ٣٠٥).

(٤) يراجع: بطرس البستاني، دائرة المعارف (ص ٢٩٧).

٢. أشرف علي التهانوي.
٣. أحمد بن عرفان الشهيد، من مشاهير رجالات الهند.
٤. أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي المعروف بشاه ولي الله.
٥. أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي الملقب بمجدد الألف الثانية.
٦. أحمد بن سليمان الأروادي، الطرابلسي.
٧. خالد بن حسين الشهرزوري العثماني الشهير بذي الجناحين.
٨. داوود بن سليمان البغدادي.
٩. عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، الفقيه الحنفي المشهور.
١٠. عبد الله بن عبد اللطيف الدهلوي، الشهير بشاه غلام.
١١. عبيد الله بن محمود بن أحمد الشاشي، السمرقندي الملقب بالأحرار.
١٢. محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، صاحب حاشية رد المحتار على الدر المختار.
١٣. محمد الحامد الحموي ت ١٩٦٩م.
١٤. محمد خير بن محمد أبو الخير الميداني.
١٥. محمد ناظِم الحقّاني[1].

من أوراد الطريقة النقشبندية

«يا حبيبَ الفقراءِ ويا أنيسَ الغُرباءِ ويا مُعينَ الضُّعفاءِ ويا عظيمَ الرجاءِ ويا دليلَ الْمُستَجِيرينَ ويا غِياثَ الْمُستَغِيثين، يا حيُّ يا قيُّومُ يا حَنّانُ يا مَنّانُ يا اللهُ يا مُسَبِّبَ الأسبابِ يا مُفَتّحَ الأبوابِ يا مُقَلِّبَ القلوبِ والأبصار يا ذا الجلالِ والإكرامِ، فَاْغْفِرْ لي وارْحَمْني واعْفُ عني برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

---

(١) هذه بعض أسماء من ينتسب إلى الطريقة النقشبندية، ومن أحب التوسع ومزيد الاطلاع عن المنتسبين إلى الطريقة وتراجمهم فليراجع " الطريقة النقشبندية وأعلامها" للدكتور محمد أحمد درنيقة.

بسم الله الرحمن الرحيم، إِلهي كَيْفَ أَدْعُوكَ وأَنَا أَنَا؟ وَكَيْفَ أَقْطَعُ رَجائي مِنْكَ وأَنْتَ أَنْتَ؟ إِلهي إِنْ لَم أَدْعُكَ فَتَسْتَجيبَ لي، فَمَنِ الذي أَدْعُوه فَيَسْتَجيبَ لي؟ إِلهي إِن لَم أَسْأَلْكَ فَتُعْطِيَني، فَمَنِ الَّذي أَسْأَلُه فيُعْطِيْني؟ إِلهي إِنْ لَمْ أَتَضَرَّعْ اِلَيْكَ، فَمَنِ الَّذي أَتَضرَّعُ اِلَيْهِ فَيَرْحَمُني؟(١).

إِلهي كَما فَلَقْتَ الْبَحْرَ لِمُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ، وجَعَلْتَ النّارَ بَرْداً وسلاماً على إبراهيمَ فَنَجَّيْتَهُما من ذلك، أسألك أَنْ تُنَجِّيَني مِمّا أَنَا فيهِ، وأنْ تجعلَ لي فَرَجاً ومَخْرَجاً ممّا أَنا فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إلهَ إلا اللّٰهُ، سيدُنا محمدٌ رسولُ اللّٰهِ حَقّاً، وصَلِّ على كُلِّ نَبِيٍّ ومَلَك، أستغفرُ اللّٰهَ من جميع ما كَرِهَ اللّٰهُ، قولاً وفِعلاً وخاطِراً وناظراً وأتوب إليه، وأَسأَلُه التوبةَ والمغفرةَ والهدايةَ، إنه هو التوابُ الرحيمُ، واعْفُ عنا يا كريمُ، واغفرْ لنا يا رحمنُ يا رحيمُ يا مَلِكُ يا قُدُّوسُ يا ذا الجلالِ والإكرامِ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم بالحقِّ أَنْزَلْتَهُ وبالحقِّ نَزَلَ، اللهمَّ عَظِّمْ فيه رَغبتي، واجعَلْهُ نوراً لِبَصَري وشفاءً لِصَدْري، اللهمَّ زَيِّنْ به لِساني، وجَمِّل به وَجْهي، وَقَوِّ به جَسدي، وارزُقني تِلاوَتَهُ على طاعتك آناءَ الليلِ وأَطْرافَ النهارِ، واحْشُرني مع النبيِّ وآلِهِ الأَخيارِ، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين».

الورد النقشبندي الشريف:

وهو دعاء للإمام النقشبندي، ويهتم النقشبندية بقراءته، وهذا جزء منه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمَّ أنت الملكُ الحيّ القيوم الحق المبين الذي لا إله إلا هو، أنت ربي خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووَعْدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعتَ، أَبُوءُ(٢) لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

(١) هذه الفقرة من الدعاء تنسب إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم.

(٢) أبوء: أي أعترف.

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

سبحانك يا عظيم، سبحانك يا مُعظَّم، سبحانك يا مُقتدِر، سبحانك يا عالم السرِّ والخفيّات ...

سُبْحانَك يا مَنْ لا تَطْرأُ عليه الآفاتُ، سبحانك يا مُكَوِّنَ الأزمنة والأوقات، عَلا قَدْرُك، وتعاليتَ عمّا يقولُ الظالمون عُلواً كبيراً.

سبحانك يا مُعتِقَ الرقاب، سبحانك يا مسبِّب الأسباب، سبحانك يا حي يا قيوم، لا يموت ...

خلقتنا يا ربنا بيدك، وفضَّلْتنا على كثير من خَلْقِك تفضيلاً، فلك الحمدُ والنعماء، ولك الطَّوْلُ(١) والآلاء، يا ربنا تباركت وتعاليت، نستغفرك ونتوب إليك.

أنت الأول فلا شيء قبلَك، وأنت الآخر فلا شيء بعدَك، وأنت الظاهر فلا شيء يُشْبِهُك، وأنت الباطن فلا شيء يراك، وأنت الواحد بلا كثير، وأنت القادر بلا وزير، وأنت المدَبِّر بلا مُشير.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

يا رحمنٌ في الدنيا، رحيمٌ في الآخرة، سبحانك يا من احتجب في الأُوْلَى عن جميع الوَرَى، سبحانك يا مَن تَرَدَّى بالوَقارِ والكبرياء، سبحانك يا مالكَ جميع الأشياءِ، سبحانك يا مَن تَعَزَّزَ بالقُدرةِ والعَلاءِ والبقاء، وقَهَر العِباد بالموت والفناء ...

---

(١) الطول: القدرة.

سبحانك يا مَن تعالى ولَطُفَ عن أن يُرَى، تباركت ربنا وتعاليت، لا ربَّ غيرُك، ولا قاهرَ سواك.

اللهمَّ أنت المنعم المتفضل الشكور، وأشهد أنك أنت الله الذي لا اله إلا أنت، أنت ربي وربُّ كلِّ شيء، فاطرُ السماوات والأرض، عالمُ الغيب والشهادةِ، العَلِيُّ الكبيرُ الْمُتَعالِ ...

سبحان الْمَلِكِ القُدُّوس، سبحان ذي العِزَّةِ والعظمة والقدرة والقوة والكبرياء والجبروت، سبحان الملك الحق الحي الذي لا ينام ولا يموت، سُبُّوحٌ قدوسٌ ربُّنا وربُّ الملائكة والروح.

اللهمَّ عَلّمْنا مِن عِلْمِك، وفَهِّمْنا عنكَ ...

اللهم تقبَّل توبتَنا، واغْسِلْ حَوْبَتَنا[1]، وأجِبْ دَعوتنا، وسَدِّدْ مَقاوِلَنا، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صُدُورِنا.

اللهم اقسم لنا مِن خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغُنا به جَنَّتَك، ومِن اليقينِ ما يُهوِّن علينا مصائبَ الدنيا، ومَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنا، واجْعَلْه الوارِثَ مِنّا، واجعلْ ثأْرَنا على مَن ظلمنا، وانصُرْنا على مَن عادانا، ولا تجعلْ مُصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبرَ هَمِّنا ولا مَبْلَغَ عِلْمِنا، ولا تُسَلِّطْ علينا مَن لا يَرْحَمُنا، يا أرحم الراحمين.

اللهمَّ إنا نسألك رحمةً مِن عِندك تُهَدِّئُ بها رَوْعَنا، وتَلُمُّ بها شَعْثَنا، وتَجمع بها شَمْلَنا، وتَشفِي بها مَرضانا، وتُزَكِّي بها أعمالَنا وأقوالنا، وتُلْهِمُنا بها رشدنا.

اللهم إنا نسألك بِصَمَدانِيَّتِك وَوَحْدانِيَّتك، وبعزتك الباهرة، وبرحمتك الواسعة، أن تجعل لنا نوراً في مسامِعِنا، ونوراً في أعيننا، ونوراً في أحداقِنا، ونوراً في قلوبنا، ونوراً في حواسِّنا، ونوراً في نَسَمِنا، ونوراً من بين أيدينا.

---

(١) حوبتنا: إثمنا.

اللهم زِدْنا عِلْماً، ونوراً، وحِلْماً، وآتنا نعمةً ظاهرة ونعمة باطنة. اللهمّ ارْزُقْنا عَيْشاً بلا بلاءٍ، ودِينـاً بلا هواءٍ، وعملاً بلا رياءٍ، وجَنّـةً بلا حسابٍ، ورُؤْيةً بلا عذابٍ، ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾.

حسبنا الله لِدِيْننا، حسبنا اللهُ لِدُنْيانا، حسبنا الله لِما أَهَمَّنا، حسبنا الله الحليم القويُّ لِمَنْ بَغَى علينا، حسبنا الله الرحيمُ عند السَّامِّ، حسبنا اللهُ الرؤوفُ عندَ المسألةَ في الجَدَثِ(١)، ﴿ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [سبعاً] ...

نُشهِد اللهَ ونُشهِدُ ملائكتَه وأنبياءَهُ وحَمَلَة عرشه وجميع خلقه، بأنه هو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وبأنّ محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الحوض حق، وأن الشفاعة حق، وأن السؤال حق، وأن منكراً ونكيراً حق، وأن وعدك حق، وأن الساعه آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور، على ذلك نحيا، وعليه نموت، وعليه نُبعث غداً، ولا نَرى عذاباً، إن شاء الله تعالى.

اللهم إنا ظلمنا أنفسنا، فاغفر لنا أوزارنا من الكبائر واللَّمَم، فإنه لا يغفرها إلا أنت، واهْدِنا لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، لبيك وسَعْدَيْك، والخير كُلُّه بيديك، نستغفرك ونتوب اليك.

آمَنّا وصدَّقنا اللَّهُمَّ بما أرسلتَ مِن رسول، وآمَنّا وصَدّقنا اللهُمَّ بما أنزلت مِن كتاب، اللهم امْلأْ وُجُوهَنا مِنْك حَياءً، وقلوبَنا مِنْك حُبوراً ... أعددنا لكل هَوْلٍ لا إله إلا الله، ولكل نِعمةٍ الحمدُ لله، ولكل أُعْجُوبَة سُبْحانَ الله، ولِكُلِّ ضِيْقٍ حَسبي الله، ولكل همٍّ ما شاء الله، ولكل قضاءٍ وقَدَرٍ توكلتُ على الله، ولكل مصيبةٍ إنا لله، ولكل طاعةٍ ومعصيةٍ لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكل حاجةٍ اسْتَعَنْتُ بالله ...

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن سيدنا محمداً عبدك ورسولك، أستغفركَ وأتوبُ إليك، صلاةً مُنْجِيةً في الحياة وبعد الممات.

---

(١) السام: الموت، الجدث: القبر.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد السابق إلى الأنام نورُهُ، الرحمةِ للعالمين ظُهُورُهُ، عددَ مَن مَضَى مِن البَرِيَّةِ، ومَن بَقِيَ، ومَن سَعِدَ منهم ومن شَقِيَ، صلاةً تَستغرِقُ العَدَّ، وتُحِيطُ بالحَدِّ، لا غايةَ لها ولا انتهاءَ ولا أَمَدَ، صلاتَك التي صَلَّيْتَ عليه، صلاةً دائمةً، وعلى آله وصحبه وأُسرَتِهِ، وسلِّمْ تسليماً مثلَ ذلك.

والحمد لله رب العالمين، ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ﴾.

الوحدة الخامسة

مؤيدات

من أعظم ما يدل على وجود تصوف سني سليم، وطرقٍ صوفية مستقيمة ونافعة؛ أنك ترى علماء الأمة انشغلوا بجانب التصوف، وتحققوا به، وانتسبوا إلى طرقه.

ومن أعظم دلائل استقامة الصوفية والطرق الصوفية، وأنهم ليسوا منعزلين عن الأمة؛ حِرْصُ الصوفية وأهلِ الطُّرق على الجهاد والمشاركة في الفتوحات والدعوة إلى الله.

فنبين ذلك في مبحثين:

المبحث الأول

التصوف في عقول العلماء وأحوالهم

(وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (١)

إذا رجعنا في رحلة عبر التاريخ في القرون المفضلة، المشهود لها بالخيرية وحتى يومنا هذا، وطالعنا سِيَرَ علماء الإسلام الذين ملأوا الدنيا علوماً ومعرفة، وكانوا ولا يزالون القدوة الحسنة لكل مسلم غيور على دينه صادق في إيمانه، لوجدنا التصوف روحاً وسلوكاً ظاهراً جليّاً في حياتهم، بل كانوا في ذلك الطريق أئمةً رُوّاداً يَقتفِي أثَرَهم العلماءُ بالله، ومَن الْتَفَّ حولَهم ممن يمثلون الخيرية في الأمة المحمدية.

---

(١) سورة العنكبوت (٤٣)

قال الدكتور صلاح أبو الحاج: ومن الدّلائل الظّاهرة على أن التصوف يمثّل الجانب السلوكي عند أهل السنة، أنك تجد كبار الأئمة وعلماء الأمّة كانوا يأخذون به ويسيرون فيه، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والنووي والغزاليّ والسّيوطي وابن حَجّر العسقلاني وابن حَجّر الهيثمي والقاري والزبيديّ وابن عابدين واللكنوي وغيرهم(١).

وحينما نذكر أمثال أئمة الفقه والاجتهاد الأربعة، يَعترِض بعض الناس أن اسم التصوف لم يكن معروفاً في زمانهم، وجواب ذلك أن حقيقة التصوف كانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقِه وسلوكه وقلبه، وهي ممتدة في صحابته والتابعين، ومَن بعدهم.

وأخلاقهم وأحوالهم وأقوالهم هي التي وَرِثها الصوفية وساروا عليها، واستناروا بها، فجاز نسبتُهم إلى التصوف مِن حيثُ حقيقتُه.

وتلك الحقائق والأخلاق والأحوال والكلمات التي صدرت عن بعض الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة في جوانب التزكية والأخلاق والقلوب وإصلاح النفوس، هي استنباطٌ من الكتاب والسنة والسيرةِ وأحوالِ المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتطبيقٌ لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبنى الصوفية علومهم عل كلماتهم وقَصَصِهم، وكانت بدايةً لنشوء علم التصوف.

وها نحن أولاء نعرض لبعض آثارهم السَّنِيَّة في هذا الميدان، عساها تنفع المخلصين من أهل الإيمان والعُقلاء من بني الإنسان.

الإمام الأعظم أبو حنيفة

ترجع أسانيد بعض الطرق الصوفية إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله، فتمر به في سلسلتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك يدل على أنه كما ورث الناس منه فقهاً فقد ورثوا منه أدباً وسلوكاً وتربية، وكما ورث ممن قبله في العلم والفقه والاجتهاد، فقد ورث ممن قبله ومن مشايخه تربية وسلوكاً وصلاحاً وحالاً.

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة (ص٥٠) .

ومما استَدَل به العلماء على أن أحدَ أشهرِ الأسانيدِ والسلاسل للطرق الصوفية قد نال نصيباً من السلوك والتربية من الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله، ما ذكره الإمام أبو القاسم القُشَيْرِيّ(١) رحمه الله في الرسالة القشيرية إذ قال:

«كانَ الْأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيّ [الدَّقَّاق] يَقُولُ: أَخَذْت هَذَا الطَّرِيقَ عَنْ النَّصْرَابَاذِيّ(٢)، وَالنَّصْرَابَاذِيُّ عن الشِّبْلِيّ(٣)، والشبليُّ عن الجُنَيْدِ، والجنيدُ عن السَّرِيّ(٤) [السَّقَطِيّ]، السَّرِيُّ عن مَعْرُوفٍ الْكَرْخِيّ، عن دَاوُدَ الطَّائِيّ، وداودُ الطَّائِيُّ لَقِيَ التابعين»(٥).

وقد كان من مشايخ داود الطائي الذين تأثر بهم، وسلك الطريق عليهم وبسببهم أبو حنيفة رحمه الله، فقد ذكر القشيري نفسُه أن مما ذكر من أسباب زهد الطائي وعزلته إلى العبادة أبو حنيفة، فقال في ترجمته لداودَ بنِ نصير الطائي رحمه الله:

«وكان كبير الشأن ... وقيل: كان سببُ زهده: أنه كان يجالس أبا حنيفة، رضي الله عنه، فقال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا سليمان: أمَّا الأداةُ فقد أحكمناها، فقال له داود: فأي شيء بقي؟ فقال: العمل به.

قال داود: فنازعتني نفسي إلى العُزلة، فقلت لنفسي: حتى تجالسهم ولا تتكلم في مسألة.

قال: فجالستهم سنة لا أتكلم في مسألة، وكانت المسألة تمرُّ بي، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلَّم به.

---

(١) وُلِدَ سَنَةَ (٣٧٧) وَتُوُفِّيَ سَنَةَ (٤٦٥).

(٢) هوَ أَبُو الْقَاسِمِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّد النَّصْرَابَاذِيُّ شَيْخُ خُرَاسَانَ، مَاتَ بِمَكَّةَ سَنَةَ (٣٥٧).

(٣) الشبلي هو الإمام أبو بكر دُلَف بن جعفر بن يونس البغدادي المالكي، صحب الجنيد وانتفع منه، ولد في سامراء سنة ٢٤٧هـ، وتوفي في بغداد ٣٣٤هـ.

(٤) السَّرِيُّ: هُوَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مُغَلِّسٍ السَّقَطِيُّ، خَالُ الْجُنَيْدِ وَأُسْتَاذُه، تُوُفِّيَ سَنَةَ (٢٥٧ هـ).

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٣٨.

ثم صار أمره إلى ما صار»[١].

قال ابن عابدين تعليقاً على أخذ الطائي عن أبي حنيفة: «أبو حَنِيفَةَ هُوَ فَارِسُ هَذَا الْمَيْدَانِ، فَإِنَّ مَبْنَى عِلْمِ الْحَقِيقَةِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَتَصْفِيَةِ النَّفْسِ، وَقَدْ وَصَفَهُ بِذَلِكَ عَامَّةُ السَّلَفِ»[٢].

الإمام مالك بن أنس

وإذا انتقلنا إلى الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) رضي الله عنه، إمام دار الهجرة لرأيناه يتحدث عن التصوف حديث مَن عَرف التصوف، حيث يقول حاثّاً المسلم على البدء بعلم الجوارح، ثم الانتقال إلى علم معالجة القلوب، ومحذراً من الاتجاه إلى التصوف بدون ذخيرة من الفقه، ومنبهاً إلى الحِفاظ على الجَمْع بينهما قائلاً: (مَن تفقَّه ولم يتصوف فقد تَفسَّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تَزَنْدَق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق)[٣]

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١١. وقد فهم هذا الشيخُ محمد بن علاء الدين الحَصْكَفِي (١٠٨٨هـ)، مفتي الحنفية بدمشق الشام، وهو العلامة المعروف صاحب كتاب (إفاضة الأنوار على أصول المنار)، و(الدُّر المنتقى)، و(شرح قطر الندى)، فنقل كلام القشيري، إلى قوله: الكرخي عن داود، ثم قال الحصكفي رحمه الله في كتابه الشهير الدر المختار ١/ ١٤: (وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه).

(٢) رد المحتار (١/ ١٤٩).

(٣) هذه العبارة رواها كبار علماء المذهب المالكي عن الإمام (مالك) خلفاً عن سلف وهي موجودة في:

أ) حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي (ج٣ / ص١٩٥).

ب) شرح عين العلم وزين الحلم للامام (ملا على القاري) (ج١ / ص٣٢).

ج) ذكرها المؤرخ الكبير (ابن خلدون) عن الإمام مالك في كتابه (شفاء السائل لتهذيب المسائل).

د) قواعد التصوف للشيخ (أحمد زروق) (ص١٣ / قاعدة٤).

هـ) شرح التتائي علي ابن رشد (ص٥).

و) شرح الشيخ مبارة على ابن عاشر.

وهذا على مستوى أمهات المراجع فقط، أما غيرها فالعدد يخرج عن الحصر.

ولعمر الحق، إنها لحكمة جليلة من عالم حكيم، وكأنه يرى من مسجد (رسول الله) صلى الله عليه وسلم منذ ألف ومائتين وخمسين عاما، ما سيفعله الذين يظنون أن التصوف يعني الجهل والتنبلة، فأعرضوا عنه، وأشبعوا البطون وأجاعوا العقول، وتسابقوا على الدنيا و تراخوا عن الآخرة، وانبثوا في جماعات المسلمين يظهرون طريق القوم ويبطنون البطالة والنوم، ولو أنهم أرادوا الصدق والإخلاص، لأخذوا بنصيحة هذا الإمام، ولطلبوا العلم وعلموا به، فلعلهم يرتقون من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان، وحينها سيوقنون لا محالة أنه لا تصوف بدون علم، كما أنه لا علم بدون تصوف، إذ لا فائدة في علم لا ينتفع به صاحبه، وخير العلم ما كانت الخشية معه.

الإمام الشافعي

ويحدثنا إمام أهل الحديث الجلال السيوطي في كتابه (تأييد الحقيقة العلية) أن الإمام (الشافعي، ت: ٢٠٤هـ) رضي الله عنه صحب الصوفية بل واستفاد منهم علوما وقال: (صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية ثلاث كلمات "وهن فواتح كل خير"، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسُك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة)(١).

فانظر - رحمك الله - إلى عظمة هذا الإمام، وإلى جميل اعترافه وبالغ إنصافه وشديد إخلاصه، فهو رضي الله عنه يصحب الصوفية، ويعرف فضلهم ويوقِّرهم، ويتعلم منهم، بل ويقتدي بطريقتهم، فها هو يقول، كما ينقل ذلك عنه الإمام الحُجَّةُ في علم الحديث العجلونيُّ في كتابه (كشف الخفاء ومزيل الإلباس): (حبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعِشرة الناس بالتلطف، والاقتداء بأهل التصوف)(٢).

---

(١) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي (ص١٥).

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة (العجلوني) (ج ١ / ص٣٤١).

الإمام أحمد بن حنبل

وكان الإمام (أحمد بن حنبل، ت: ٢٤١ هـ) رضي الله عنه مصاحبا لأبي حمزة الصوفي، ومُقِرّاً لأحوال القوم، بل يوصي ولده عبدالله قائلا: (يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم من الصوفية، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة)(١)، ويقول رضي الله عنه متحدثا عن الصوفية مبينا رفع منزلتهم: (لا أعلم أقوام أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال دعوهم يفرحوا مع الله ساعة)(٢).

وقد التقى بالحارث المحاسبي، كان آخر أمره على استحسان شأنه في التصوف، ومدح معروفاً الكرخي حينما قيل له: إنه ليس بعالم وليس يروي الحديث، فقال: وهل العلم إلا ما وصل إليه معروفٌ.

وما أظن أن إنسانا مسلما صادقا يماري في صلاح هؤلاء الأئمة، فهم أهل الصلاح ودعاة الإصلاح على الحقيقة والتحقيق، وليس أدعياء الإصلاح الذين هم أنفسهم بحاجة إلى الإصلاح.

أولئك هم المصلحون الذين يقتدي بهم، فما من مسلم في طول العالم وعرضه، وفي قاراته الست، إلا ويعرف قدرهم وفضلهم، ولهذا، لا أحسبني مغاليا إن قلت: إن الغالبية العظمى من المسلمين تقتدي بمذاهب أولئك الأئمة في دينهم وعبادتهم وصنوف معاملاتهم.

فصح قولنا بأن التصوف منهج لازم صحيح في السلوك والأخلاق ومعرفة الحقيقة كصحة المذاهب الفقهية في علوم الشريعة، وقد ذكرت كتب الصوفية هؤلاء الأئمة وسواهم من أئمة المذاهب الفقهية على أنهم من مشاهير الصوفية، فعددت مناقبهم وذكرت في هذا الميدان أحوالهم وأقوالهم، وقد ذكر الحافظ (أبو نُعَيْم الأصفهاني، ٤٣٠ هـ) - على

---

(١) تنوير القلوب (محمد أمين الكردي) (ص٣٤١).

(٢) غذاء الألباب (السفاريني الحنبلي) (ج١ / ص١٢٠).

سبيل المثال - الكثير عنهم في كتابه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)، وقدم لكل منهم بما هو أهله.

الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي

ويقول الإمام (أبو عبد الله الحارث المحاسبي، ت ٢٤٣ هـ)، متحدثا عن جهاده المرير في الوصول إلى الحق حتى اهتدى إلى التصوف ورجاله، ولا أبالغ إن قلت بأن ما أبدعه بيان المحاسبي في وصف الحياة الصوفية الخلقية والإيمانية يعد بحق من أروع ما كتب في هذا المجال، وتأمل معي كلامه الآتي:

انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها، فلم أزل برهة من عمري، أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهج الواضح والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعلقت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء، وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها، فعقلت من ذلك ما قدر لي، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن المهالك لمن خالفهم، ثم رأيت الناس أصنافا: فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز، ومنهم الجاهل، فالبعد عنه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها، ومنهم حامل علم، منسوب الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا، ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل، ومنهم متشبه بالنساك، مُتَحَرٍّ للخير، لا غَناء عنده، ولا نفاذَ لِعِلمه في قلوب السامعين، ولا مُعتمَد على رأيه، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى، ومنهم متوادون، على الهوى واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون، ومنهم شياطين الإنس، عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وفي العرف موتى، العرف عندهم منكر والاستواء بين الحي والميت معروف.

فتفقدت في الأصناف نفسي، فضقت بذلك ذرعا، فقصدت إلى هدى المهتدي، بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر وأطلت النظر، فتبين لي من كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى، فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف

الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية، حذرا من الأهواء المردية والفرقة الهالك، متحرزا من الاقتحام قبل البيان، وألتمس سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم.

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعا واختلافا، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله العاملين برضوانه الورعين عن محارمه المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤثرين الآخرة على الدنيا، اولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والموصوفين بآثارهم، واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت عملهم مندرسا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[1]، وهم المتفردون بينهم.

فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئني على أضراب من عمري لاختلاف الأئمة، فانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً، ولم أقصر في الاحتياط ولا في النصح فقيّض لي الرؤوفُ بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، فأصبحت راغباً في مذهبهم مقتبساً من فوائدهم قابلاً لآدابهم محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أوثر عليهم أحداً، ففتح الله لي علماً اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن أقرَّ به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرَّيْن متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً عليَّ، فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلَّبْت فيه بأحوالي،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وسألت الله عز وجل أن يوزِعَني شكرَ ما أنعم به عليَّ، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرَّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبداً(١).

عبد القاهر البغدادي

وقد قال الإمام عبد القاهر البغدادي، (ت ٤٢٩ هـ) في كتابه (الفَرْقُ بين الفِرَق) عن الصوفية، بعد أن قسم أهل السنة والجماعة إلى ثمانية أصناف وتحدث عن كل صنف منهم بما يناسبه:

منهم الزهاد الصوفية الذين أَبْصَروا فأَقْصَروا، واخْتَبَروا فاعْتَبَروا، ورَضُوا بالمقدور، وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذَّرِّ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم فى طريقي العبارة والاشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث لا يعملون الخير رياءً، ولا يتركونه حياءً، دينهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى، والتوكل عليه والتسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه، {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(٢).

وحسبك بقول هذا الإمام برهانا ومؤيدا، إذ هو الإمام المجمع على علمه وإحاطته بعلوم ومقالات وأفكار كل الفرق الإسلامية التي وجدت حتى عصره (من سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة وقدرية ومرجئة والجهمية وغيرها)، فقوله له وجاهته وحجيته من غير ريب.

---

(١) كتاب الوصايا المحاسبي (ص٢٧-٣٣).

(٢) الفرق بين الفرق (عبد القاهر البغدادي) ص ١٨٩.

الإمام أبو القاسم القشيري

ويقول الإمام (أبو القاسم القشيري، ٤٦٥ هـ) في رسالته عن الصوفية: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم)[١].

الإمام الغزالي

ويقول حجة الإسلام (الإمام الغزالي، ٥٠٥ هـ): ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتَهم أحسنُ السير، وطريقَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق[٢].

فخر الدين الرازي

ويقول العلامة الإمام فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٦ هـ) صاحب التفسير، في كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين): (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر، وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع ذكر الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فِرَقِ الآدميين)[٣].

العز بن عبد السلامويقول سلطان العلماء الإمام العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ): (قَعَّدَ القومُ من الصوفية على قواعد الشريعة، التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرُّسوم)[٤].

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢).

(٢) المنقذ من الضلال (ص١٣١).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٢).

(٤) نور التحقيق (حامد صقر) (ص٩٦).

ابن خلدون

يقول العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في مقدمته عن التصوف وأهله: وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[١].

تاج الدين السبكي

ويقول العلامة تاج الدين السبكي (ت ٨٠٨ هـ) في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم) تحت عنوان الصوفية، بعدما ذكر عنهم الكثير: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم[٢].

جلال الدين السيوطي

ويقول الإمام المحدث جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه تأييد الحقيقة العلية: (إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرِّي من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليمِ لله، والرضى به وبقضائه، وطلبِ محبته، واحتقارِ ما سواه)[٣].

شَكِيب أَرْسَلان

ويقول الأمير (شكيب أرسلان) في كتاب حاضر العالم الإسلامي تحت عنوان (نهضة الإسلام في أفريقيا وأسبابها): وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة (ص٣٩٩) .

(٢) معيد النعم ومبيد النقم (تاج الدين عبد الوهاب السبكي) (ص١١٩).

(٣) تأييد الحقيقة العلية (جلال الدين السيوطي) (ص٥٧).

جديدة عند أتباع الطريقتين: القادرية والشاذلية، ووُجدت طريقتان، هما: التيجانية والسنوسية.

فالقادرية هم أحمسُ مبشري الدين الإسلامي في غربي أفريقيا من السنيغال إلى بنين التي بقرب مصب النيجر. وهم ينشرون الإسلام بطريقة سلمية بالتجارة والتعليم، وتجد التجار الذين من السونينكية والماندجولة المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارتا وماسينة، كلهم من مريدي الطريقة القادرية.

ومِنْ مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم، ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط، بل في كل القرى، فيلقِّنون صغار الزنج الدين الإسلامي أثناء التعليم، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس والجامع الأزهر بمصر. فيُخرَّجون من هناك طلبة مجازين، أي أساتذة، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان).

وتحدث عن شيخ الطريقة القادرية فقال:

وكان عبد القادر الجيلاني الموجود في جيلان من فارس متصوفاً عظيماً زكي النشأة، وله أتباع لا يُحصى عددهم، ووصلت طريقته إلى أسبانيا، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية إلى فاس، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر، وتمسكوا بالسنة والجماعة، كما أن هذه الطريقة هي التي في القرن الخامس عشر، اهتدى على يدها زنوج غربي أفريقيا.

وتحدث عن السنوسية فقال:

فالسنوسية نشروا طريقتهم في وادي والبافيرمي وبوركو، وتبعوا نهر بينوى إلى أن بلغوا النيجر الأدنى حيث نجدهم يَهدون تلك القبائل إلى الإسلام، وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الإسلام العام في أواسط أفريقيا، ويُقوَّم عدد مريدي الطريقة السنوسية بأربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير هي أن يشتروا الأرقاء

صغاراً من السودان، ويربُّوهم في جغبوب وغدامس[1] وغيرها، ثم متى بلغوا أشدَّهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم، وسرحوهم إلى أطراف السودان، يَهدون أبناء جلدتهم.

وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشري السنوسية لِبَثِّ دعاية الإسلام في جميع أفريقيا الداخلية، من سواحل الصومال شرقاً، إلى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حَذَا سيدي محمد المهدي وأخوه سيدي محمد الشريف حذو والدهما في السعي إلى الغرض الذي توخاه، ألا وهو تخليص الإسلام من النفوذ الأجنبي، وإعادة الإمامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء، وبالإجمال: فإن مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الإسلام، وَوُفِّقُوا إليه في أفريقيا.

وتحدث عن السنوسية أيضاً بقوله:

وأيُّ دليل أقطع من المبشرين السنوسين الخُمَّس الغُيَّر الذين خرَّجتهم زوايا الصحراء، وهم يُعدُّون بالألوف المؤلَّفةِ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية داعين إلى الإسلام. وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي أفريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لَعجيبةٌ من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر، فقد قال أحد الإنكليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة: إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقيا فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي مِن أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية كأنها خرافة من الخرافات.

وتحدَّثَ عن الطريقة الشاذلية فقال:

وأما الشاذلية فنسبتها إلى أبي الحسن الشاذلي، أخذ عن عبد السلام بن مشيش، الذي أخذ عن أبي مدين وكانت ولادة أبي مدين في إشبيلية سنة ١١١٥ ميلادية، وقرأ في فاس، وحجَّ البيت الحرام، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية، وتبعه خلقٌ كثير. وهي من أُوْلَياتِ الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب، ومركزها بوبريت في مراكش. وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي المتوفى سنة ١٨٢٣م الذي أوجد عند مريديه

---

(١) جغبوب وغدامس: مدينتان في ليبيا.

حماسة دينية شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

وختم الأمير شكيب أرسلان موضوعه عن نهضة الإسلام في أفريقيا فقال: وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة راجعة إلى التصوف والاعتقاد بالأولياء(١).

أبو الحسن النَّدْوي

يقول الأستاذ في بحث الصوفية في الهند وتأثيرهم بالمجتمع، في كتابه المسلمون في الهند: إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة. ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل، مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه أنهم كانوا يعظون الناس دائما ويحاولون ان يلهبون فيهم عاطفة الحب لله سبحانه والحنين الى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال.

ويتحدث النَّدْوي عن أحد مشايخ الطريق والذي كان علما بارزا في طريق الدعوة إلى الله تعالى وهو الشيخ أحمد الشهيد فيقول: إن الناس أقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، وإنه لم يمر في بلدة إلا وتاب عليه وبايعه عدد كبير من الناس، وأنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نَسَمة يوميا.

وأردف الشيخ أبو الحسن الندْوي رحمه الله تعالى قائلا: إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالستهم كانت تنشئ في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصا على خدمتهم ومساعدتهم، كما أن تأثير تلك المواعظ وانقياد الناس للشرع أدى الى ان تعطلت تجارة الخمر في كلكتا وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز وكسدت سوقها، وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر.

---

(١) التصوف نهج لازم

ثم قال: إن هذه الحالة كانت نتيجة اخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانياتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى ولم يكن في وسع حكومة او مؤسسة أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضخمة ويحيطها بسياج من الأخلاق والمبادئ الشريفة لزمن طويل[١].

وفي ختام البحث قال لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية اشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة.

وتحدث أيضا الأستاذ أبو الحسن النْدوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدد حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي (عبد القادر الجيلاني) فقال: (وكان يحضر مجلسه نَحْوٌ من سبعين ألفا، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العَيّارين والمسالحة[٢] أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز الشيخ كثيرا من ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله، ويربون النفوس، ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان، ومرابط الجهاد ومجامع الإخوة في أنحاء العالم الإسلامي)[٣].

---

(١) نقلا عن كتاب حقائق عن التصوف. ربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي (١٧-١٨).

(٢) العيارون: هم كثيروا الحركة، وصارت تطلق في زمن العباسين على قوم كثيروا الحركة في الفسق، والمسالح: الجماعة ذووا السلاح.

(٣) رجال الدعوة والفكر في الإسلام (٢٤٨-٢٥٠).

وقد كان لخلفائه وتلاميذه، ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته فضل في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان، وحماسة الدعوة والجهاد وقوة التمرد على الشهوات والسلطات، ولولاهم لابتلعت المادية التي كانت تسير في رحاب الحكومات المدنيات هذه الأمة، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين، أو لم تستطيع إخضاعها للحكم الإسلامي، وانتشر بهم الإسلام في إفريقيا السوداء وفي اندونيسيا وجزر المحيط الهندي وفي الصين وفي الهند، وتحدث الأستاذ أبو الحسن الندْوي في كتابه (روائع إقبال) على زيارته للشاعر بعد أن ذكر إقبال التصوف ورجاله والتجديد الإسلامي في الهند بواسطتهم، وبعد أن أثنى على الشيخ أحمد السرهندي والشيخ ولي الله الدهلوي والسلطان محيي الدين أورنك زيب رحمهم الله تعالى، قال إنني أقول دائما: (لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ)[1].

---

(١) روائع إقبال (أبو الحسن الندوي) (ص٧).

المبحث الثاني

جهاد السادة الصوفية

بادئ ذي بدء لا بد من الإشارة إلى ثلاثة أشياء:

الأول: أن الجهاد في الإسلام ليس عدواناً، لقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(١).

وقوله سبحانه: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)(٢).

وقوله أيضا: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)(٣).

وإنما شرِّع الجهاد في الإسلام دفاعاً عن النفس، وعن المقدسات والحقوق، وردع الظالمين والمغتصبين، وتحرير الشعوب والناس من ظلم الظالمين، وقتل نوازع الشرّ في نفوس الأشرار.

وليس في أحكام الإسلام أن يفني المخالفين والكافرين لمجرد كفرهم، إن لم يعتدوا.

الثاني: النبي صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، والجهاد صورة من صورة الرحمة، إذ به ينقذ المظلومين من الظلم، وينقذ الضالين من دخول النار، ويمنع الظالمين من التمادي في الظلم، ويحمي الأمة المسلمة من اعتداء الظالمين، فكان الجهاد من أعظم أسباب الرحمة.

---

(١) البقرة (١٩٠)

(٢) الممتحنة (٨)

(٣) البقرة (١٩٤)

قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين). وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا رحمة مهداة)[١]. وتأمل مدى رحمته صلى الله عليه وسلم بالناس كلهم، إذ قال له بعض أصحابه في إحدى الغزوات عن المشركين: لو لعنتهم يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعانا)[٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: (أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة)[٣].

الثالث: إن دعوة التصوف إلى المحبة والتسامح وعدم التكفير؛ لا تعني تركهم لجهاد الظالمين والمعتدين.

إنه لما كان الصوفية قد فقهوا عن الله سبحانه وتعالى آياته الكريمة، وهم أوفر حظا في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يقول صاحب "عوارف المعارف"؛ فكثيرًا ما نجد في أقوالهم ومصنفاتهم الإشارة إلى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: الدعوة إلى المحبة والتسامح والرحمة والشفقة على الناس جميعا.

قال الهروي الحنبلي ت (٤٨١ هـ) في منازل السائرين: (التصوف هو الخلق، والمحبة سمة الطائفة، وعنوان الطريقة).

وذكر الإمام عبد القادر الجيلاني ت (٥٦١ هـ) في بيان خصال الصوفي: أن يجتنب الدعاء أو اللعن على أحد من الخلق، وإن ظلمه، لأن ذلك من أخلاق الأبرار والصدّيقين، وأن يتصف بالمحبة والشفقة والمودة للخلق أجمعين.

وفي وصايا ابن عربي: " وعليك برحمة الخلق أجمع، ومراعاتهم، كانوا ما كانوا، فإنهم عبيد الله وخلقه، وإن عصوا، فإن فعلت ذلك أجرت ".

---

(١) رواه ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي والطبراني.

(٢) وجاء في لفظ مشابه: "ولم أبعث عذابا"، انظر: الجامع الصغير (٢٥٨٥).

(٣) رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى والبزار، ومعنى الملحمة: قيل القتال، وقيل: الإصلاح، ففي اللغة: لحم الشيء أصلحه.

وقريب من ذلك كلام الحارث المحاسبي ت (٢٤٣ هـ) حيث قال في شرح المعرفة وبذل النصيحة: "إياك أن تقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا بكفر ولا نفاق، فإنه أقرب إلى الرحمة، وأعلى في الدرجة، وهي تمام السنة".

وما قرره الصوفية هو مذهب أهل السنة والجماعة، وليس معنى ما سبق أن تحب الكافر على كفره، بل أن تحب له الهداية وترغب في دخوله في الإسلام، لينال الرحمة بذلك.

ومع دعوة الصوفية إلى المحبة والتسامح، لم يكن ذلك على حساب النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، حيثما وجب.

لذلك اعتنى الصوفية عناية فائقة بوحدة الصف، والاتحاد الداخلي، وتماسك الجسم الإسلامي، وذلك حرصا منهم على انتظام شمل المسلمين، في عدم انفراط عقد حياتهم، وصدع جمعهم، محذرين بالوقت ذاته من الفرقة والبغض، والتناحر، وعاملين أقصى جهدهم على قطع دابر الفتنة والشر وفساد ذات البين، متمثلين قوله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(١)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ومات فميتة جاهلية)(٢).

قال ابن عربي: (اعلم أن يد الله التي هي القوة مع الجماعة، وما غلبت قط جماعة إلا عند افتراقهم)(٣).

ويرى الصوفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن كما يقول الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) في التعرف: "مع شفقة ورحمة ولين من القول، ويرون الجهاد والجمعة والجماعات واجبة على من لم يكن له عذر من المسلمين، مع كل إمام برٍ وفاجر".

---

(١) الأنفال (٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨) وغيره.

(٣) الفتوحات المكية باب (٥٦١).

وقال الإمام أحمد زروق ت (٨٩٩ هـ) في قواعد التصوف: "فحفظ النظام واجب، ومراعاة المصلحة العامة لازم".

وبناءً على ما سبق فإن الصوفية لا يخالفون منهج أهل السنة في عدم الخروج على الحاكم المسلم الظالم، إذا كان سيؤدي ذلك إلى فتنة ودماء، وتغلبُ المفسدةُ على المصلحة.

والأمر الثاني: التحذير من تكفير أحد من المسلمين.

ويوضح الإمام الشعراني في عقائد الأكابر: " إن ما ورد في تكفيرهم منسوخ، أو مُؤَوَّلٌ، أو تغليظٌ وتشديد، كقوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1]، قال ابن عباس وغيره: " هو كفر لا ينقل عن الإسلام "[2].

ويقول الإمام الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد: "والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهونُ من الخطأ في سفك دم لمسلم واحد".

لذلك كان جهاد الصوفية موجهاً كلياً نحو الغزاة والمعتدين والمتربصين بالأمة الإسلامية قديما وحديثا.

ولقد صدق الوصف الإلهي فيهم: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[3]، وإن كان هذا الخطاب نزل في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل من اقتفى أثرهم، وسار على طريقهم من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين يسري عليه هذا الخطاب، ويشمله هذا النعت[4].

وكما اعتنى الصوفية بجهاد النفس، فإن لهم اليد الطولى في جهاد العدو، بخلاف ما يصوره كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام أن التصوف خنوع واستسلام وسلبية،

---

(١) المائدة (٤٤).

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر (١٠٩/٢).

(٣) الفتح (٢٩).

(٤) البطولة والفداء (٢٧-٣١).

وسنبين بعض الأمثلة على جهادهم ودفاعهم عن حمى الإسلام والمسلمين، ونشرهم لدين الله جل جلاله في مشارق الأرض ومغاربها.

بعض المجاهدين من زهاد التابعين

أبو مسلم الخولاني (ت ٦٢ هـ)

صاحب المناقب الغزيرة، والكرامات الظاهرة، كان يقال له " حكيم هذه الأمة"، وهو الذي طرحه الأسود العنسي المتنبيء باليمن في النار فلم تضره.

وفي الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: "أنه غزا الروم مع أصحابه، فكان يعترضهم النهر العظيم، فيقول: " بسم الله "، ويمر على وجه الماء ويمرون خلفه"[١].

وقال ابن كثير وغيره: " وكان ملازما للجهاد، وفي كل سنة يغازي بلاد الروم، وله مكاشفات و أحوال وكرامات كثيرة جدا "[٢].

الحسن بن أبي الحسن البصري (٢١-١١٠ هـ)

لا نجد كتابا من كتب تراجم الصوفية إلا وهو الصدر المبرز فيهم، وهم يعدونه في هرم سلسلة شيوخهم وناشر علومهم.

وهو الذي لقي أكثر من سبعين بدريا، وصلى خلفهم.

قال ابن سعد: إن رجلا سأل الحسن: يا أبا سعيد، هل غزوت؟ قال: نعم، غزوة كابل، مع عبد الرحمن بن سمرة[٣].

ويعضد هذا كلام الحفاظ: " لازم الحسن الجهاد، ولازم العلم والعمل، وكان أحد الشجعان الموصوفين في الحرب "[٤].

---

(١) الكواكب الدرية (٨٥/١)، وطبقات الأولياء للسخاوي (٨٧ أ)، وطبقات الخواص (١٩٢).

(٢) البداية والنهاية (١٤٦/٨).

(٣) الطبقات الكبرى (١٧٥/٣)، وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١٦٢/١) قال الحسن: غزونا إلى خراسان ومعنا ثلاثمئة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٧١/١)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٤٨٣/١).

وهو القائل: " ما عُمِلَ عَمَلٌ بعد الجهاد في سبيل الله أفضل من ناشئة الليل "[١].

أوائل المجاهدين من الصوفية في القرن الثاني

يجمع المؤرخون المنصفون للتصوف على أنه وليد حركة الزهد، والنسك في الإسلام، وعليه فمن الطبيعي أن يرث الصوفية عن هؤلاء الزهاد والعباد جهادهم أيضا في سبيل الله.

محمد بن واسع (ت ١٢٣ هـ)

وقصته مع والي خراسان مشهورة: فقد دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم الباهلي وعليه مَدْرَعَة [أي جُبّة] صوف خشنة، فقال له قتيبة: "ما يدعوك إلى لباس هذا"؟ فسكت محمد، ثم أجابه: "أكره أن أقول "زهدا" فأزكي نفسي، أو أقول "فقيرا" فأشكو ربي"[٢].

وقد عرف عن محمد بن واسع جهاده في خراسان، ومرافقته قتيبة في فتح ما وراء النهر[٣]، وقد جعل قتيبة مرة يكثر السؤال عنه، فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئا على قوسه، رافعا إصبعه إلى السماء، فقال قتيبة: " لَإِصْبِعُه تلك أحبُّ إلي من مئة ألف سيف شهير"[٤].

مالك بن دينار (ت ١٢٧ هـ)

فهو يعد من كبار أهل الطريقة وممن نطقوا بعلوم الصوفية[٥].

يروي صاحب كنوز الأولياء عنه: إنه كان في طلب الغزو سنين، فركب بعسكر الإسلامي للغزو، فلما شرعوا أخذته الحمى، حتى غدا لا يقدر على القعود على الفرس فضلا

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٣٤٨).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٢٥/٦)، الإحياء للغزالي (٢٤٩/٤).

(٣) مشاهير علماء الأمصار (١٥١).

(٤) البيان والتبيين للجاحظ (٢٧٣/١)، حلية الأولياء (٣٥٣/٢).

(٥) كشف المحجوب (١١٢)، التعرف (٢٢).

عن أن يقاتل، فحملوه إلى الخيمة، وجعل يبكي، ويلوم نفسه، ويقول: " لو أن في بدني خيرا لما يبتلى اليوم بالحمى "(١).

نماذج من الصوفية المجاهدين في القرن الثالث

نجد في المصادر المئات من المتطوعين الصوفيين من أهل القرن الثالث، خرجوا من ديارهم، وأوقفوا حياتهم على جهاد الروم ودرء خطرهم عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وكان مشايخهم يرافقونهم للوعظ والإرشاد، وبث الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين، والتذكير بما أعد الله لهم من ثواب عظيم.

هذا وإذا لزم الأمر تقدموا الصفوف، فمما يستفاد من الرواية لابن العديم أنه في هذا العصر تجمع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام، إذ وفدوا إليها جهادا في سبيل الله للوقوف في وجه البيزنطيين، منهم: أبو القاسم الأبار، وأبو القاسم القحطبي، وأبو القاسم الملطي الصوفي الذي صحب الجنيد البغدادي(٢).

ومن مشاهيرهم:

حاتم الأصم(٣) (ت ٢٣٧ هـ)

القدوة الرباني، كان يقال له: " لقمان هذه الأمة ".

ومما حدث به حاتم عن نفسه، قال: " لقينا الترك، ورماني أحدهم بوهق [حَبْل] فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته، فقعد على صدري، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة، وأخرج من خفه سكينا ليذبحني بها، فرماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت إليه، فأخذت السكين من يده فذبحته "(٤).

---

(١) خ: الورقة (٦٠ أ) .

(٢) بغية الطلب (٤٥٩١/١٠)، الحياة السياسية في بلاد الشام (٣٠٨) لأمينة بيطار.

(٣) قال أبو علي الْحَسَن بْن علي الدقاق: جاءت امرأة، فسألت حاتما عَنْ مسألة، فاتفق أنه خرج منها فِي تلك الحالة صوت فخجلت، فَقَالَ حاتم: ارفعي صوتك، وَأرى من نفسه أنه أصم، فسرت المرأة، لذلك، وَقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عَلَيْهِ اسم الصمم. تاريخ بغداد (١٤٩/٩).

(٤) الأعلام للزركلي (١٥٢/٢).

أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١ هـ)

الملقب سلطان العارفين

كان خلال وجوده في الثغر يحرس طيلة الليل ويرابط ويتعبد ويذكر الله ويذرف الدموع من خشيته.

من أقواله: " لم أزل منذ أربعين سنة ما استندت إلى حائط، إلا إلى حائط مسجد أو رباط "، ويقول أيضا: " أقامني الحق مع المجاهدين أضرب بالسيف في وجه أعدائه "[١].

السَّرِيّ السَّقَطِيّ (ت ٢٥٣ هـ)

ينتمي إليه أكثر مشايخ الصوفية، حكى عنه المؤرخون بعض المجاهدات مارسها أثناء نزوله في أرض الروم[٢].

ويتجلى رأيه في الجهاد حين فسر لأهل الثغر الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[٣]، فقال: صابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، قال الحسن البزار: سألت أحمد بن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر فأثنى عليه[٤].

من كلامه: " من صفات الصوفي أن لا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ".

وأما إذا ذهبنا نستقرئ بعضا من أسماء الصوفية الذين وقفوا حياتهم على جهاد الأعداء في القرنين الرابع والخامس لضاق الكتاب، نخص منهم بالذكر:

- أبا محمد بن مرزوق الصاقري.

---

(١) ينظر: أبو يزيد البسطامي (٧٣) لعبد الحليم محمود.

(٢) تاريخ بغداد (١٨٨/٩).

(٣) آل عمران (٢٠٠).

(٤) صفوة الصفوة (٣٧٨/٢).

- إبراهيم بن علي الحسين العتابي الصوري ت (٤٧١هـ).

وقد عرف الصوفية بالفتوة والشجاعة والرباط، كما يقول العارف بالله سهل التستري: " أصل هذا الأمر الصدق والسخاء والشجاعة "[١].

وورد في كتاب الفتوة في الإسلام: " الأساس الأول للصوفي هو تقوية الصلة بالله والشجاعة في القتال للجهاد "[٢].

لذا عد القوم الفتوة من أصول طريقهم، إذ يقول الشيخ محيي الدين بن عربي: " اعلم أن للفتوة مقام القوة، ومن لا قوة له لا فتوة له "[٣].

ولا بد من الإشارة أنه من محاسن أعمال مشايخ الطرق الصوفية أن أحيى الله بهم كثيرا من القلوب الميتة، وأصلح فسادها، ومنهم من استطاع أن يوجه فتوة العيارين والشطار[٤] القائمة على الفساد والنهب إلى وجهة صالحة تقوم ركائزها على المروءة والشرف، والأخوة الإسلامية.

فنهضوا لتزيينها وتطهيرها[٥] و توجيهها نحو الخير، فدخل الناس فيها افواجا، ومن أبرز هؤلاء المشايخ سيدي عبد القادر الجيلاني ت (٥٦١ هـ)، يذكر الدارسون أنه تاب على يديه من العيارين والمسالحة أكثر من مئة ألف[٦]، وقد شكل هذا العدد الهائل فتوة دينية عسكرية، زاهدة في متع الحياة الزائلة، غايتها الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة والوطن.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤٠٩/٤).

(٢) الفتوة في الإسلام وصلة الفتوة بالتصوف (ص ٢٦).

(٣) الفتوحات المكية (٢٤١/١-٢٤٤).

(٤) الشاطر: السارق، أو الذي يسرق بخفة، والعبارون: كثيروا الشغب، وربما يطلق على قطاع الطرق والفُسّاق.

(٥) ينظر: العيارين والشطار، سلسلة عالم المعرفة الكويتية.

(٦) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (٢٤٩).

وقد عد الذهبي الشيخ الصالح عبد الجبار بن يوسف البغدادي ت(٥٨٣ هـ) شيخ الفتوة وحامل لوائها، انقطع إلى عبادة الله بموضع اتخذه لنفسه وبناه، فاستدعاه الخليفة العباسي الناصر لدين الله ت(٦٢٢ هـ) لما كان يسمع عنه من حسن السيرة، والطريقة[١].

واتفق الاثنان على العودة بالفتوة إلى أصولها الأولى، أي فتوة السلف الصالح التي تجمع بين المنحنى الصوفي والسلوك الفروسي[٢].

ولا يخفى على الباحث المدقق الدور البارز الذي قام به هؤلاء الشيوخ في تربية أتباعهم تربية روحية خالصة، كان لها الأثر الواضح في محاربة الصليبيين والتتار الزاحفين على البلاد العربية، ومع تضاعف نشاط الطرق الصوفية في عهد الاضطراب الذي تعرض له العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وتشكل الفتوات في آسيا الصغرى والبلاد العربية، اتضح هدف هذه الفتوات بالإعلان عن الجهاد الديني المقدس على التتار والصليبين وأعداء الدين داخل البلاد وخارجها[٣].

حتى لقب الصوفية **بفتيان الثغور.**

ولأن إقامتهم في هذه الثغور كانت تطول في بعض الأوقات عملوا متكاتفين على إقامة بيوتات صغيرة أشبه ما تكون بمخافر الحدود اليوم، وكانت هذه نواة للربط[٤] التي انتشرت بكثرة في ما بعد، وأصبحت أماكن لتجمع المجاهدين أينما وجدت، بعد ما توافد غزاة المسلمين إليها من أنحاء الدولة الإسلامية.

ذكر المقريزي: الرُّبط: جمع رباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات ٥٨٣هـ.

(٢) العيارين والشطار (ص ١٥٤).

(٣) المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني لـ ليلى صباغ (ص ١٨٢).

(٤) الرباط: مأخوذ من الرباط في سبيل الله، وهو الحراسة.

والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع من وراهم، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن البلاد والعباد[١].

وقد غلب في كثير من الأزمنة على الرُّبُطِ أن يقيم فيها الصوفية، فيحرسون حدود البلاد، ويتعبدون ويتعلمون، ويصحبهم شيخ عالمٌ مربٍّ، فلا يرجعون إلى بلادهم من الثغور إلى وقد صاروا من العلماء الصالحين المصلحين الأولياء المرشدين، وكان الناس يبذلون الأوقاف والأموال لهؤلاء، ليشاركوهم الأجر.

ومما يدل على كثرة هذه الربط وانتشارها الواسع؛ ما قرره ابن حوقل فقال: إنه لا يوجد مدينة عظيمة من حد سجستان، وكرمان، وفارس، وخوزستان، والري، وأصبهان، وجميع الجبال، وطبرستان، والجزيرة، وأذربيجان، والعراق، والحجاز، واليمن، والشام، ومصر، والمغرب، إلا وبها لأهلها دار ورباط[٢]

أرسلان الدمشقي ت (٥٤١هـ)

صاحب الرسالة المعروفة في التوحيد والتصوف[٣]، الذي لم يكن رباطه يقع داخل سور مدينة دمشق، بل خارجها، كأنه مخفر يأوي إليه حرس الحدود، و الذين يطوفون حول المدينة بعد إغلاقها ليلا، كي لا يكون هنالك عدو مباغت، وكان المريدون يترددون إلى رباطه يتعلمون فيه جميع أنواع الدراسة، ويتدربون على الفنون الحربية، للوقوف في وجه الصليبيين، حتى لقب الشيخ أرسلان بحقٍ "إمام السالكين وشيخ المجاهدين"[٤]، وحتى الآن لا يزال أهالي دمشق يذكرونه ويرددون الأنشودة المعروفة: شيخ رسلان يا

---

(١) الخطط (٤٢٧/٢). ينظر: الربط ودورها كمؤسسات للتربية العسكرية والدينية في مقال: الزوايا والخوانق الصوفية، د منير سعد الدين العدد (٤١).

(٢) انظر: مقال: "المطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام" مجلة العربي الكويتية، العدد (ص ١٥٦).

(٣) ومطلعها: كل شرك خفي، وقد شرحت أكثر من عشرة شروح، بعضها مطبوع.

(٤) ينظر: إمام السالكين وشيخ المجاهدين، أرسلان الدمشقي.

شيخ رسلان يا حامي البر والشام، وقد كان الملك العادل المجاهد نور الدين محمود زنكي (الشهيد) يراسله، ويعتقد فيه كثيرا.

الناحية الصوفية عند بطل الحروب الصليبية نور الدين محمود زنكي (٥١١-٥٦٩هـ)

كان هناك علاقة وثيقة بين نور الدين وبين رجالات التصوف في عصره، واتخذ منهم خير سند في حروبه مع الصليبيين، فكان هؤلاء يشحذون همم الناس، ويستثيرونهم للجهاد، وهذه العلاقة الراسخة كانت مشيدة عن عقيدة ورغبة حقيقية.

قال ابن الأثير وغيره: " وَكَانَ يحضر مشايخهم عِنْده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لَهُم، وَإِذا أقبل أحدهم إِلَيْهِ يقوم لَهُ مذ تقع عينه عَلَيْهِ، ويعتنقه ويجلسه مَعَه على سجادته، وَيقبل عَلَيْهِ بِحَدِيثه "[١].

ومن كان من العارفين يتعذر مجيئهم كان السلطان يزورهم بنفسه ويكرمهم، ويشاورهم في أمور الجهاد، وذلك لحسن ظنه فيهم، منهم:

الشيخ القدوة حياةُ بنُ قَيْس الحَرّاني، ت (٥٨١ هـ)

وكان صاحب أحوال و كرامات، زاره السلطان نور الدين وتبرك بلقائه، فقوي عزمه على جهاد الفِرِنْج[٢].

ومنهم الشيخ **عماد الدين أبو الفتح بن حموية** نزيل دمشق عام (٥٦٣ هـ).ومنهم رجل صالح كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، كان نور الدين يكاتبه، ويراسله، ويرجع إلى قوله[٣].

ومنهم ابن الصابوني الزاهد.

ومنهم **عبد القاهر السهروردي** ت (٥٦٣هـ)، صاحب "آداب المريدين".

---

(١) الروضتين في اخبار الدولتين (٤٧/١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨٢/٢١).

(٣) عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار (ص ٥٣٠).

وعندما فتح نور الدين الموصل سنة (٥٦٦هـ) قصد الشيخ عمر الملا في زاويته، وكان يستشيره في أموره، ويعتمد عليه في مهماته، وعندما غادر الموصل أمر الولاة والأمراء بها أن لا يفعلوا أمرا حتى يعلموا الملا به(١).

وعندما لامه بعض أصحابه على المبالغة في تكريمه للصوفية غضب وقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)(٢)، والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون في سهام لا تخطىء(٣).

يقول أحد المستشرقين المنصفين: " نذر نور الدين زنكي حياته للحرب المقدسة، متفانيا فيها بحماسة الصوفي العنيدة "(٤).

نماذج من المجاهدين والشهداء الصوفية في العصر الوسيط

لما كثرت الفتن والحروب ونشأت مذاهب دينية تحتوي على بعض مبادئ الفوضى والهدم، وتسرب جحافل الصليبيين إلى البلاد الإسلامية، فوجد العامة في التصوف الملجأ والمخلص مما هم فيه من المحن والهموم.

وما الحركة الصوفية في مفهومها الأصيل إلا تكوين أجيال من المسلمين على التربية النفسية، المفطومة عن الشهوات، القادرة على مواجهة انحلال المجتمعات بإيجابية وقوة، ومجابهة الغزو الخارجي بنفسية المجاهد المُستعِد للاستشهاد في الدفاع عن الأرض والوطن(٥).

ولقد عظم اعتقاد الناس في مشايخ الصوفية وخصوصا عندما بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة العباسية، ومن هؤلاء:

- علي ابن الحسين الواعظ.

---

(١) سنا البرق الشامي (٩٨/١)، البداية والنهاية (٢٨٢/١٢)، الكواكب الدرية (ص ٦٨).

(٢) الرعد (١١).

(٣) وفيات الأعيان (١٨٨/٥)، الكواكب الدرية (ص ١٦٢)، عبرة أولي الأبصار (٥٢٩).

(٤) صلاح الدين الايوبي البطل الأنقى في الإسلام (ص ١١٧).

(٥) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي (٣٠٤).

- عبد الله اليوناني الملقب أسد الشام.
- الشيخ أبو عمرو المقدسي الزاهد الحنبلي.
- أبو العباس القدسي المشهور بأبي ثور.
- أبو طالب الخفيفي الأبهري الشافعي.
- حسن بن يوسف المكزون السنجاري.
- أبو بكر الطوسي الصوفي إمام صخرة بيت المقدس.
- يحيى بن يوسف الصرصري.
- نَجْم الدين الكُبْرَى المحدث المفسر شيخ خوارزم.

الناحية الصوفية عند بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩ هـ).

لا نبالغ إذا نعتنا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خلف نور الدين على عرش مصر والشام بالصوفي، الزاهد، الورع، " التقي، النقي، بركة أهل زمانه "، كما يقول السبكي في طبقاته[١]، وقد نشأ صلاح الدين وترعرع في بيئة يغلب عليها طابع التصوف، فأبوه الأمير نجم الدين أيوب ت (٥٦٨ هـ) كان خيِّرا، حسن السيرة، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية، والمجالسة لهم[٢].

وإن التأثير الأكبر في أخلاق وشخصية صلاح الدين جاء من سيده نور الدين الذي تعلم منه هو طرائق الخير، ومحبة أهل الله، والاجتهاد في أمور الجهاد، وقد سار على الدرب نفسه الذي سلكه سلفه، فقبل أن يشرع بتخليص البلاد من براثن الصليبيين بقي اثنتي عشرة سنة (٥٨٢/٥٧٠هـ) يعمل من أجل تحقيق الوحدة، وإعداد قوة الإسلام المادية والروحية، فزاد من إنشاء الرُّبَط والخوانق، والزوايا، وجعل منها مدارس عسكرية وتربوية.

وكان رحمه الله تعالى أينما حل ونزل يبني المدارس الشرعية والمدارس الروحية جنبا إلى جنب، فخلال فتح صلاح الدين للقدس سنة (٥٨٣ هـ) أمر المسلمين بالمحافظة

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٣٤٠/٧).

(٢) الكامل في التاريخ (٣٩٤/١٠).

على كنيسة القيامة، وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطا للصلحاء الصوفية، ووقف عليهما وقوفا، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفا[١].

وفي فتحه لعكا وقف نصف دار " الإستبار" رباطا للصوفية، ونصفها مدرسة للفقهاء[٢].

قال ابن خلكان: " وكان فتحه عظيما، شهده من أهل العلم خَلْق، ومن أرباب الخِرَق[٣] والزهدِ عالَمٌ "[٤].

ويعزز هذا الكلام قول ابن الوردي في تاريخه: " وشهد فتحه كثير من أرباب الخرق والزهد والعلماء في مصر والشام، بحيث لم يتخلف منهم أحد "[٥].

وقد كان صلاح الدين يصحب معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة، فضلا على أن وجودهم يعتبر حافزا قويا للمريدين على القتال ببسالة وشجاعة نادرة.

وجدير بالذكر أن النسبة العددية الأكثر في موقعة حطين لم تكن للجند النظامية، بل كانت للمطَّوِّعة والمتصوفة مع أتباعهم[٦].

وقد كان شافعي المذهب، أشعري الاعتقاد، يلقن أولاده من صغرهم عقيدة الأشعري، كما كان يلقنهم القرآن[٧]، فضلا على أنه كان يحفظهم منظومة تتضمن آراء الأشعري (٣٢٤ هـ).

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصفهاني (٨٢/١).

(٢) الأنس الجليل (٣٥٠/١)، البداية والنهاية (٣٢٧/١٢).

(٣) أي الذين يلبسون الخرقة، وهي كناية عن الصوفية الذين بايعوا على السلوك إلى الله.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (١٧٩/٧).

(٥) تاريخ ابن الوردي (٩٥/٢).

(٦) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام (ص ٣٠٦).

(٧) تحفة ذوي الالباب (٨٥/٢).

وكان صلاح الدين إذا سمع بأحد العارفين بالله زاره في زاويته ليقتبس من أنواره[١].

وغير الذي ذكرنا زار أيضا الولي حياة بن قيس الحراني (٥٨١ هـ) وطلب منه الدعاء بعد ما استشاره في أمر فتح الموصل[٢].

وكان يحترم ويجل الطبيب الصوفي الأندلسي عبد المنعم الجِلْياني ت (٦٠٢ هـ) صاحب أدب السلوك، نزيل دمشق[٣].

ومن مشايخ الصوفية الذين كان يراسلهم صلاح الدين، ويعتقد فيهم أبو عبد الله علي بن الحسين المعروف بـ " قضيب البان "، القادري البغدادي الذي كان له خطب ومواقف كانت أحد العوامل في حث الملوك الأتابكية والأيوبية في قيادة جيوش الإيمان، وقيامهم بحروب التحرير ضد الغزاة الصليبيين[٤].

وقد بعث رحمه الله قبل موته إلى السلطان صلاح الدين عددا من أبنائه للمشاركة في تحرير القدس من ربقة الأعداء، واستطاع أحدهم وكان ملثما قتل أحد قادة جيوش الصليبيين، وقد طلب من الفارس الملثم التقدم للمكافأة فلم يجب أحد[٥].

بلغ من تعظيم صلاح الدين الأيوبي للرسول صلى الله عليه وسلم واهتمامه بمولده الشريف أنه كان يدفع للكتّاب الذين يؤلفون في قصة المولد العطايا الواسعة، وجدير بالذكر أن المدائح النبوية ازدهرت في فترة الحروب الصليبية[٦]، وأصبحت فنا مستقلا بذاته،

---

(١) سياسة صلاح الدين في بلاد الشام والجزيرة (ص٤٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨٢/٢١)، طبقات الأولياء (ص ٤٣٠)، البداية والنهاية (٧/١٣).

(٣) ينظر: فهرس مخطوطات التصوف (٤٦/١)، الأعلام (٢٣٣/٤).

(٤) شذرات من أعلام الموسوعة الموصلية والموجزة (ص ٣٥٤) لصلاح الموصلي.

(٥) نهاية المطالب في أنساب فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب (ص ١٢).

(٦) يرى كثير من الباحثين أن ازدهار المدائح النبوية في زمن الحروب الصليبية والترية مرده الحرب التي أعلنها الصليبيون والتتار ضد الدين الحنيف وصاحبه، فأفرد الشهيد الصرصري والإمام البوصيري وغيرهم من الشعراء الصوفية قصائد طويلة مجدت في الرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجملت سيرته

فقد مدح الشعراء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وتوسلوا[١] به إلى الله سبحانه لكشف الغمة عن أمته، ومن هؤلاء الشعراء ابن رواحة الحموي[٢].

يذكر ابن إياس الحنفي في تاريخه عند حديثه عن مناقب صلاح الدين: " وهو أول من اتخذ قيام المؤذنين في أواخر الليل، وطلوعهم إلى المآذن للتسبيح حتى يطلع الفجر، وكان لا يلبس إلا الثياب القطن، والجبب الصوف "[٣]، وقد عده اليافعي من جملة الأولياء الثلاثمئة[٤].

وعن تورع هذا البطل نسوق حوارا جرى بينه وبين كاتبه العماد الأصفهاني، يقول العماد: "رأى لي يوما دواة محلاة بالفضة، فأنكرها، وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المدافعة والممانعة والمناظرة: أو ليس يحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح؟ ودواتي أنجع، ومداد دواتي أنفع، وسلاح قلمي أحد وأفتك وأقتل، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها بجوامع كلمي، فقال: ليس هذا دليلا صالحا، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد إمام الحرمين قد ذكر وجها في جوازه "، ثم لم أعد بعدها أكتب بتلك الدواة عنده.

وقال: وما رأيته صلى إلا في جماعة، ولا أخّر صلاة عن وقتها، وكان له إمام راتب ملازم، فإن غاب صلى به من حضر من أهل العلم، وكان إذا عزم على أمر من الأمور توكل على الله تعالى، ولا يفضل يوما على يوم، ولا زمانا على زمان.

العطرة، ودحضت هذه الأشعار افتراءات النصارى واليهود على نحو ما هو معروف عند البوصيري في قصيدته المسماة " المخرج والمردود على النصارى واليهود"، وبذلك ألهب هذا النوع من المدائح الشعور الديني والوطني، وغدا أنشودة على كل لسان.

ينظر: عصر الدول والإمارات (مصر)، سلسلة تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف (ص ٦٤) (ص ٣٦٣) وما بعدها.

(١) ينظر حول موضوع التوسل: مفاهيم يجب أن تصحح للشيخ محمد بن علوي المالكي.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٣٠١/٢).

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢٤٨/١).

(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣٨٧/١)، وينظر: غربال الزمان (ص ٤٥٢).

وحكى القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - قال: كان للسلطان - رحمه الله - ركعات يركعها قبل الصبح إن استيقظ بوقت من الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، قال: لقد رأيته يصلي في المرضة التي مات فيها قائما، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه(١).

قال العماد: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة، وفي كلِّ يوم تضعف القلوب، وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء سُحْرة يوم الأربعاء، ومات بموته رجاءُ الرِّجال، وأغرب بغروب شَمْسه فضاءُ الإفضال، ودُفِنَ بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن بِجماعُ الكرم والفَضْل في مدفنه(٢).

ومن المستحسن ذكره هنا قبل ختام كلامنا عن صلاح الدين أنه قبل وفاته زوَّج أخته خاتون من الملك المظفر أبي سعيد كوكبري (ت ٦٣٠ هـ) صاحب إربل، وذلك لشجاعة هذا الأخير وحسن اعتقاده في التصوف.

قال ابن كثير في ترجمته: "أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد، له آثار حسنة، وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل به احتفالا هائلا، وكان مع ذلك شهما شجاعا فاتكا بطلا عاقلا عالما عادلا رحمه الله وأكرم مثواه.

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له مجلدا في المولد النبوي سماه "التنوير في مولد البشير النذير"، فأجازه على ذلك بألف دينار، قال: وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم، ويطلق لهم، ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر، ويرقص بنفسه معهم(٣)، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أي جهة على أي صفة، وكانت صدقاته في جميع القرب والطاعات على الحرمين وغيرهما.

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٤٢٩/٢).
(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٣/٢٢).
(٣) قد بينا مسألة الحركة في الذكر فيما سبق.

قيل: إن جملة من استفكه من أيدي الفرنج ستون ألف أسير من المسلمين، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب: كان قميصه لا يساوي خمسة دراهم فعاتبته بذلك فقال:

لبسي ثوبا بخمسة وأتصدق بالباقي خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير المسكين، وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وعلى دار الضيافة في كل سنة مائة ألف دينار. وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى صدقات السر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بقلعة إربل، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد علي[1].

كان لاهتمام صلاح الدين بأمور التربية الروحية أثرها البعيد في تكوين شخصيات أولاده وخاصة الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب ت (٦١٣ هـ) فقد كان يكثر التردد على الشيخ محيي الدين بن عربي الصوفي المشهور، ويسأله الدعاء له، ويتلقى منه إرشاداته، وقد أثنى عليه ابن عربي في بعض كتاباته بقوله: "ما رفعت إليه حاجة من حوائج الناس إلا سارع في قضائها من فوره من غير توقف كانت ما كانت[2].

يصفه المؤرخون بأنه كان مهيبا، ذا سياسة وفطنة، ودولته معمورة بالعلماء والفضلاء والأكابر، حتى معظم غزوات والده، وهو الذي جمع شمل البيت الأيوبي، وكان ملجأً للغرباء، وكهفا للفقراء، يزور الصالحين ويتفقدهم[3].

---

(١) البداية والنهاية (١٣٧/١٣). وقد توسع ابن خلكان في ترجمة الملك المظفر في وفيات الأعيان (١١٤/٤).

(٢) الوصايا (ص ٢٥٧).

(٣) ينظر: النوادر السلطانية (ص ١٠٤)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٤٣/٣)، الدر المنتخب (ص ٩٥)، الأعلاق الخطيرة (١٥٤/١)، الكامل في التاريخ (٣١٤/١٢).

أضواء على جهاد الشيخ محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ)

إنّ الشيخ محيي الدين بن عربي على الرغم من اشتغاله بدقائق علم التصوف، فإنه لم يقطع صلته مع السلاطين، وقواد الدولة الكبار، ومنهم من حصل منه على إجازة في العلم[١].

ويذكر أحمد أمين وغيره أن ابن عربي أثر عنه أنه كان خلال الحروب الصليبية يحرّض المسلمين كثيرا على الجهاد ومقاومة الغزاة، وفي كل مناسبة يلعن ابن عربي الإبقاء على الصليبيين بين المسلمين، ويشيع كرهه الشديد لهم، داعياً إلى اتحاد جميع المسلمين، تفادياً لزوال الإسلام[٢].

ومن وصاياه قوله: " أوصيك بتقوى الله، وحفظ لزوم ظاهر الشرع، وحفظ حدوده، وعليك بالجهاد الأكبر، وهو جهاد هواك، فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء، الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء، الذين عند ربهم يرزقون، وفضل المجاهد في سبيل الله كالصائم القانت بآيات الله، واجهد أن ترمي سهما في سبيل الله، وعليك بتجهيز المجاهد بما أمكنك، ولو برغيف إذا لم تكن أنت المجاهد، واخلف الغزاة في أهلهم بخير تكتب معهم، واحذر إن لم تغز أن لا تحدّث نفسك بالغزو، فإنك إن لم تغز ولم تحدّث نفسك بالغزو كنت على شعبة من النفاق، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) كالتي حظي بها الملك المظفر غازي بن أبي بكر (العادل) ابن أيوب (٦٤٥ هـ)، ينظر: الأعلام (١١٢/٥)، وجاء في أولها: " أقول وأنا محمد بن علي العربي الطائي، الأندلسي الحاتمي، وهذا لفظي: "استخرت الله تعالى وأجزت السلطان الملك المظفر"، وقد ذكر هذه الإجازة الفيروزأبادي في رسالة له إلى الملك الناصر، ضمنها دفاعه عن ابن عربي.

(٢) ابن عربي، لاسين بلاثيوس (ص ٧٣) ترجمة عبدالرحمن بدوي، وينظر: ظهر الإسلام لأحمد أمين (٢٢٢/٤)، التصوف العربي الإسلامي (ص ١٠٠).

(من سأل الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه[١])[٢].

ويكرّر ابن عربي في مصنفاته مثل هذه الوصايا، فيقول مثلاً في "مواقع النجوم": " اعلم يا بني أنْ الله تعالى لما أراد أن يرتقي عبده إلى المقامات العليّة قرب منه أعداءه حتى يعظم جهاده لهم، ويشتغل بمحاربتهم أولا، ثم بمحاربة غيرهم من الأعداء الذين منه أبعد "[٣].

ونظم - رحمه الله - أشعاراً في الجهاد، كالتي يخاطب بها السلطان النور بن الرشيد:

قصدْتَ بلاد الكفر تبغي فتوحها ... فأبشر فإِنَ الروم فيك لفي خسر

رأيتُ لكم رؤيا تدلُّ على النصرِ ... وفتح بلادِ الكفرِ والقتلِ

ويقول متحدثا عن نفسه:

وإذا فَلَّ سيفي لم تَفُلَّ عزائمي ... فلي عَزَمات شاهِدات صَوارِم[٥]

وقد انتصر لابن العربي كبار المؤرخين، والعلماء المحققين، وأثنوا عليه بما يليق بمقامه:

قال الذهبي: " وله ذكاء وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيق في التصوف، وتآليف جمة في العرفان"[٦]، وقال النووي: " الذي عندنا يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم ما دام لم يلحق بهم، وقال عنه العز بن عبد السلام: " هو قطب زماننا "، وقال أبو شامة: " حضرت الصلاة عليه وشيعته، وكانت له جنازة حسنة، وله تصانيف كثيرة كانت عليه سهلة "، وقال الفيروزابادي صاحب القاموس: " لم يبلغنا عن أحدٍ في القوم أنّه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محيي

---

(١) صحيح مسلم (١٩٠٩) وغيره.

(٢) الوصايا (ص ٣٧).

(٣) مواقع النجوم (ص ٩٦).

(٤) مسامرات (٢/٤٢١).

(٥) الأعلاق (٢٩٤). ومعنى فل السيف: إذا لم يقطع.

(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام (٤٦/٣٨١)

الدين أبدا "، وقال المقري: "وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة، وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه، وأُلّفت الكتب الكثيرة في الدفاع عن ابن عربي، منها: " تنبيه الغبي على تبرئة ابن عربي" للسيوطي، ولمحمد بن حمزة (شيخ السلطان محمد الفاتح) كتاب في الدفاع عنه (خ رقم ٥٦٠٥ مكتبة الأسد).

وقد ذهب معظم العلماء المحققين إلى قبول كلامه الموافق لظاهر الشرع، وتأويل كلامه الذي يخالف ظاهره على المحامل الحسنة، بعد أن تبين تقواه في الدين، وظهر علمه بينَ المسلمين.

وقال الشعراني: وليحذر من مطالعة أغلب كتب ابن عربي؛ لعلو مراقيها، ولأنه قد دس فيها في مواضع عديدة[١].

ومن جليل أعمال الصوفية وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية أنّ المُلوك والأمراء متى قصدوا الجهاد كان مشايخهم يحرّضون أتباعهم بالمشاركة في رد العدوان، وكان هؤلاء يسارعون بذلك لعظيم اعتقادهم وانقيادهم، فيكون ذلك سبباً للظفر والنصر.

الناحية الصوفية عند الظاهر بيبرس قائد معركة عين جالوت (٦٠٧-٦٧٦ هـ).

إن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري يأتي في المرتبة نفسها التي احتلها صلاح الدين ونور الدين؛ وذلك للوقائع الهائلة والنجاحات العظمى التي حققها على التتار وبقايا الصليبيين وتوجها بالمعركة الفاصلة في التاريخ الإسلامي والعالمي (عين جالوت ٦٥٨ هـ).

والشيء الذي نريد إلقاء الضوء عليه في هذا الجانب هو العلاقة الوطيدة التي كانت قائمة بين (بيبرس) وبين شيوخ التصوف في عصره وإكرامه لهم.

---

(١) من كتاب البطولة والفداء(ص ١٢٣).

قال ابن شداد: " وأقام زوايا للمشايخ بدمشق والقدس، وأغدق عليها أعمال البرّ، وهذا من فرط ما لهم في قلبه من المحبة والرغبة وصفاء النية وحسن العقيدة، وإذا ما ورد عليه المشايخ من أهل الحجاز والحرم النبوي كان يعظمهم ويتبرّك بهم"[١].

ويشبه هذا الكلام قول صاحب سيرته: لما علم - تغمّده الله برحمته - أنّ أفضل ما يتقرّب به المتقرّب إلى الله تعظيم أوليائه، ثابر على الوفود عليهم، وَالتودد إليهم، والقيام بحقوقهم، والاهتداء بلوامع بروقهم، وصحب جماعة متأدّباً بآدابهم، ينكس رأس العزّ لديهم بالخضوع[٢].

ويبرز في طليعة هؤلاء: **الولي الشهير أحمد البدوي ت (٦٧٥ هـ)**، يروي صاحب شذرات الذهب: " أنه بوصول السيّد البدوي إلى مصر قادما من المغرب تلقاه الظاهر بيبرس بعسكره وأكرمه وعظمه "[٣]، وانتسب إلى طريقته[٤].

ولكن الذي أثر تأثيراً مهمّاً في حياة بيبرس هو الشيخ **خضر الكردي العدوي** (ت ٦٧٥ هـ)، قال ابن كثير وغيره: كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له بجبل المزّة في كل أسبوع مرّة أو مرتين، ووقف على زاويته شيئا كثيرا جدا، وكان معظما عند الخاص والعام؛ بسبب حب السلطان وتعظيمه له، وكان فيه خير ودين وصلاح، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة[٥].

وكان بيبرس يستشيره في أموره، ولا يخرج عما يشير به، ويأخذه معه في أسفاره وغزواته، وأطلق يده، وصرّفه في مملكته[٦].

وهو الذي أخبر السلطان بأنه سوف يتسلطن، وأخذ يقوي روح الجهاد لديه.

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (ص ٢٣) وما بعدها.

(٢) تاريخ الملك الظاهر (ص ٢٧١).

(٣) شذرات الذهب (٣٤٥/٥).

(٤) الأعلام (١٧٥/١).

(٥) البداية والنهاية (٢٧٨/١٣)، طبقات الأولياء (ص ٤٣١)، تاريخ الملك الظاهر (ص ٥٨).

(٦) المنهل الصافي لابن تغري بردي (٢١٨/٥)، الخطط للمقريزي (٤٣٠/٢).

ومما يدل على ملازمة الشيخ خضر للسلطان في معاركه قول الشاعر المعاصر لتلك الفترة:

ما الظاهر السلطان إلا مالك الدْ　　دُنيا بذاك لنا الملاحم تخبر

ولنا دليل واضح كالشمس في　　وسط السماء لكل عين تنظر

لما رأينا الخضر يقدم جيشه　　أبدا علمنا أنه الإسكندر[١]

ويحدثنا ابن عبد الظاهر رئيس ديوان السلطان عن حضور الصوفية للحروب، وهو شاهد عيان بقوله: " وحضر العباد والزهاد الفقهاء والفقراء (الصوفية) إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر وأصناف العالم، ولم يتبعها خمر، ولا شيء من الفواحش، بل النساء الصالحات، يسقين الماء في وسط القتال، ويجرجرن في المجانيق، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب، مثل الشيخ علي المجنون[٢]، والشيخ إلياس من الغنائم والحوائج، وأطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال[٣].

ومن الأعمال التي قام بها السلطان الظاهر بيبرس وذكرها ابن كثير وعدها من جملة مناقبه: أنه جدد قبة الخليل عليه السلام، وبنى على قبة موسى عليه السلام قبة مسجدا، ووقف عليه وقفا، وبنى على قبر أبي عبيدة رضي الله عنه مشهدا[٤]، وجدد قبر جعفر

---

(١) الروض الزاهر (ص ٢٣٨).

(٢) ويصفه ابن عبد الظاهر بالصلاح، وله كرامات معروفه، وكان له دور متميز في فتح أرسوف.

(٣) الروض الزاهر (ص ٢٣٩).

(٤) إن بناء القباب فوق قبور الأنبياء والأولياء، قال فريق من العلماء: لا يكره، وقال فريق آخر: بل يستحب لما في ذلك من إحياء الذكرى، والتبرك بأصحاب هذه المشاهد، وإن في تشييدها حفظها الاندراس والانطماس، وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في كشف النور عن أصحاب القبور (مخطوطة رقم ١٣٧٧ ورقة ٣٣ أ: الأولياء أحياء وأموات من شعائر الله، وإن العمارة على قبوره بدعة حسنة، كما قال الفقهاء في تكبير العمائم وتوسيع الثياب حتى لا تستخف بهم العامة، واعتبر السبكي إقرار الصحابة على دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته أصلا لجواز البناء على قبور الصالحين، وقد استدل بعضهم بقول الله تعالى في سورة الكهف: (لنتخذن عليهم مسجدا) على جواز بناء مساجد فوق قبور الصالحين، ذكره الشهاب الخفاجي في حواشيه على تفسير البيضاوي، هذا مع العلم أن النبي

الطيار، ووقف على الزائرين له شيئا كثيرا، وجدد مشهد زين العابدين"، وختم ابن كثير كلامه: "وله من الآثار الحسنة والأماكن ما لم يبن في زمن الخلفاء وملوك بني أيوب، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل الله[١].

دور الصوفية في إسلام المغول

تجدر الإشارة إلى أنّ من أسباب نجاحات الظاهر بيبرس وانتصاراته هو الدعم الذي أسداه له "بركة خان" ت (٦٦٥ هـ) حفيد "جنكيز خان"، وابن عم "هولاكو، ويعد من عظماء ملوك التتار في بلاد القفجاق، وأحسنهم سيرة.

وكان بركة خان قد لقي وهو عائد من بخارى الشيخ صفي الدين الباخرزي خليفة زعيم الطريقة الكبراوية[٢]، وأشهر إسلامه على يديه، وَتأكدت صحبته معه[٣].

يقول الدكتور رجب محمد عبد الحليم: " كما تصدى الصوفيون للغزو المغولي بقدر ما أمكنهم التصدي، ووقع منهم شهداء بذل الصوفيون جهدهم كله لتحويل هؤلاء الغزاة المتوحشين الوثنيين إلى الدين الإسلامي، ونجحوا في ذلك النجاح كله "[٤].

ويأتي في طليعة هؤلاء الشيخ سعد الدين بن حمُّويَه، قال صاحب النجوم الزاهرة: " وفيها توفّي الشيخ الإمام سعد الدين محمد بن المؤيّد بن عبدالله بن علي بن حمّويه ابن عمّ شيخ الشيوخ صدر الدين، مات بخراسان، وكان زاهدا عابدا ديّنا متكلّما في الحقيقة، وله مجاهدات ورياضات، وقدم الشام وحجّ وسكن بدمشق، ثمّ عاد إلى الشرق بعد أن افتقر

صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أقروا البناء على قبر إبراهيم الخليل، وعلى بناء مدفن إسماعيل وأمه هاجر عليهم السلام. من كتاب البطولة والفداء (ص ٨٩)، ويراجع: إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد على القبور، للشيخ عبدالله الغماري.

(١) البداية والنهاية (٥٣١/١٧).

(٢) الكبراوية: مؤسسها الشهيد الصوفي نجم الدين الكبرى.

(٣) تاريخ ابن خلدون المسمى العبر (٢٩/٥)، وعن المراسلات التي كانت تجري بين بيبرس وبين بركة خان ينظر: السلوك للمقريزي (٤٩٥/١)، والنجوم الزاهرة (٢٢٢/٧).

(٤) انتشار الإسلام بين المغول (ص ٨٥).

بالشام، واجتمع بملك التّتار فأحسن به الظنّ وأعطاه مالا كثيرا، وأسلم على يده خلق كثير من التّتار، وبنى هناك خانقاه وتربة إلى جانبها، وأقام يتعبّد، وكان له قبول عظيم هناك- رحمه الله تعالى - "[١].

وقد تواصل دخول التتار في الإسلام على شكل موجات، وأحدث دخول ملكهم غازان - حفيد هولاكو- في الدين الحنيف على يد إبراهيم الجويني الشافعي الصوفي[٢] ت (٧٢٢ هـ) دويا واسعاً، إذ انضم إلى غازان عساكره في إيران، وأكثر بلاد ما وراء النهر، وتحولوا من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان.

وفي آسية الوسطى دخلت الهداية الربانية قلب ملك كاشغر المغولي " تُغْلُقْ تَيمور خان " ت(٧٦٥ هـ) أثناء لقائه مع الشيخ جمال الدين البخاري النقشبندي[٣]، وذلك عندما قال تيمور للشيخ وأصحابه: " إن الكلب أغلى ثمنا من أي واحد منكم، فأجابه جمال الدين: نعم قد يكون ذلك لو أننا لم ندن بالدين الحق "[٤].

وفي منطقة جبال (البنغال) نرى أهلها يسارعون باعتناق الإسلام، ونبذ العقائد الوثنية، ويعود الفضل في ذلك للشيخ الصوفي جلال الدين التبريزي[٥].

وأخذ الناس يقبلون على التصوف، واشتهرت طرق ومرشدون لها احتوت المسلمين، كالطريقة السهروردية، والطريقة المولوية، نسبة إلى مولانا جلال الدين الرومي، والتي كانت زواياها منتشرة في معظم المدن والقرى في آسيا الوسطى.

وبرزت الطريقة النقشبندية بمظهر النفوذ والقوّة في القرن الرابع عشر الميلادي، وبثّت حماسة شديدة، وأمدّت الجماعة الإسلامية بحياة جديدة[٦].

---

(١) النجوم الزاهرة (٣١/٧).

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦٧/١).

(٣) الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية (ص ١١٠).

(٤) ينظر القصة في الدين الحق للدكتور حسن الحمصي.

(٥) ينظر: رحلة ابن بطوطة (ص ٦١٥).

(٦) الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٧٠).

وممّا يدل على عظم نفوذ الصوفيين في تلك البلاد، أنّ الأمير جوبان ت (٧٣٦ هـ) صار من أعظم وأخلص المريدين للشيخ صفي الدين الأردبيلي، مما جعل غالبيّة المغول وأناسا كثيرين ينخرطون في سلك هذا الشيخ، حتى إن الأمير جوبان سأل هذا الشيخ يوماً: أيّهما أكثر جنود السلطان أم أتباعه ومريدوه؟ فأجابه الشيخ: بأن عدد مريديه في إيران وحدها يبلغ ضعف عدد جنود السلطان[١].

وكان آخر وأعظم إمبراطور مغولي أسلم في الهند وتصوّف بواسطة رجالات العارفين بالله هناك هو محمد أورنك زيب، عالم كير ت (١١١٨ هـ)، وهو من سلالة تيمورلنك المشهور.

وهذا التأثير كله من قبل الصوفيين الدعاة لأنهم أخلصوا لله تبارك وتعالى عملهم فأثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قسوتها، لذلك يقول الجاحظ: " ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا، ويكون الداعي إلى الله صوفيا "[٢].

فقهاء صوفية مجاهدون

العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ)

صاحب الفتوى المشهورة لإعداد معركة عين جالوت، كان يحضر مجلس أبي الحسن الشاذلي كما مر معنا[٣]، وله كرامات أثناء غزو الإفرنج، من ذلك ما يرويه السبكي في الطبقات: "وكان الشيخ مع العسكر وقويت الريح فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيرا بيده إلى الريح يا ريح خذيهم، عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج، فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: " الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر له الريح "[٤].

---

(١) انتشار الإسلام بين المغول (ص ٩٦) .

(٢) البيان والتبيين (٩٦/١).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٣١٥/١).

(٤) طبقات الشافعية (٢١٦/٨).

الموفق ابن قدامة المقدسي (٦٢٠ هـ)

وهو أكبر المراجع للفقه الحنبلي، صاحب "المغني"، كان للموفق ولأخية أبي عمر خيمة يتنقلون بها مع المجاهدين في سبيل الله، تحت ألوية البطل صلاح الدين المظفرة، قال الذهبي في سياق ترجمته: ارتحل في إحدى وستين في طَلب العلم إلى بغداد فنزل عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وسمع منه، وقد كان يقدم إلى العدو وجرح في كفه، وذكر له الضياء حكايات في كراماته (١)، وقد سلك الموفق الطريقة القادرية.

الإمام النووي (٦٧٦ هـ)

محرر المذهب الشافعي، كثيرا ما حرض الملك الظاهر بيبرس على الإسراع في ملاقاة التتار، وكان بيبرس يقول: " أنا أفزع من هذا الرجل "(٢)، قال الإمام النووي عن طريق التصوف: " ومن أصول هذا الطريق علو الهمة، ونفوذ العزيمة، وصحبة المشايخ، ومن يدلك على الله، وترك الرخص للتحفظ، وضبط الأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج عن الهوى "(٣).

الناحية الصوفية عند محمد الثاني فاتح القسطنطينية (٨٣٣-٨٨٦هـ)

إن شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم كافية في علو شأنه ومقامه، فقد صح في الحديث الشريف: (لتفتحن القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش)(٤)، وقد أجمع من ترجم للفاتح من المتقدمين على النزعة الصوفية القويةعند هذا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦٦/٢٢).
(٢) التذكرة الأيوبية، خ برقم (٧٨١٤) الورقة (٥٣ أ) .
(٣) المقاصد (المقصد السابع في التصوف).
(٤) مسند أحمد (١٨٩٥٧)، البخاري في التاريخ الكبير (٨١/٢).

البطل، وأن شيخه كان الطبيب العالم **محمد بن حمزة الملقب آق شمس الدين**، الذي أدخله الخلوة[١]، ولقنه الأوراد.

والحكاية التي يوردها مصنف أخبار الدول والشوكاني في البدر الطالع وغيرهم توضح ذلك:

" ومن مشايخ الطريقة في زمانه الشيخ العارف بالله، الواصل إلى الله تعالى شمس الدين، لما أراد السلطان محمد خان فتح القسطنطينية، أرسل وزيره إلى الشيخ المذكور يدعوه إلى الجهاد، وإلى الحضور معه في فتح المدينة العظيمة، فحضر، وبشر بالنصر، وقال: ستفتح القسطنطينية إن شاء الله تعالى على يد المسلمين هذا العام، وفي اليوم الفلاني من ناحية القلعة.

فبِشّر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح، فلما صار ذلك الوقت الموعود ولم تفتح القلعة ذهب الوزير إلى الشيخ يستفسر، فوجده ساجداً على التراب في خيمته وهو يتضرع ويبكي، ثم قام وكبّر، وقال: الحمد لله الذي منحنا فتح هذ المدينة.

قال الوزير: فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخل بأجمعه، ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت، وكانت دعوته تخرق السبع الطباق، وقال السلطان كلمته الشهيرة: ما فرحت بهذا الفتح، وإنما فرحي من وجود مثل هذا الرجل في زماني.

ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة الشيخ آق شمس الدين وهو مضطجع، وقبّل يده، وقال له: جئتك لحاجة عندك، قال ما هي؟ قال: أريد أن أدخل الخلوة عندك أيَاما، فقرأ الشيخ عليه الأوراد، والسلطان جالس أمامه على ركبتيه يستمع للأوراد، فلماً أتمّها التمسن السلطان من الشيخ أن يعيّن له قبر أبي أيوب الأنصاري - الصحابي الذي استشهد على أبواب القسطنطينية-، فقال آق شمس الدين: التقت روحي مع روحه، وهنأني بهذا

---

(١) قال الإمام الشافعي: "من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب" مناقب الشافعي للبيهقي (المقدمة ص ٢٢).

الفتح، ثم سار الشيخ إلى منطقة، وقال: إني أشاهد في هذا الموضع نوراً، لعل قبره هاهنا، فاحفروا مقدار ذراعين من جانب الرأس من القبر، فحفروا في الموضع المشار إليه، فظهر رخام عليه خط، فقرأه من يعرفه وفسّره فإذا هو ما قرره الشيخ، فغلب على السلطان محمد حال، فكاد أن يسقط لولا أن أخذوه، ثم أمر ببناء مسجد وقبة على قبر الصحابي الجليل[1].

كان السلطان محمد يعيش حياة بسيطة للغاية، يغلب عليها طابع التقشف والزهادة، وكان عدواً للترف، منصرفاً عن حياة إرضاء الشهوات، وها نحن نذكر جملة عن صفاته ووصيته لابنه:

يُعرف السلطان محمد الفاتح بأنه قضى نهائيًّا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرَّت أكثر من أحد عشر قرنًا، وقد حَكَمَ ما يقرب من ثلاثين عامًا، تابع السلطان محمد الفاتح فيها فتوحاته في آسيا، فوحَّد ممالك الأناضول، وتوغَّل في أوربا حتى بلجراد، من أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية المتوسِّعة آنذاك.

عندما توفي السلطان الغازي محمد الفاتح راحت الكنائس في أوربا تدقُّ أجراسها لمدَّة ثلاثة أيام بأمر من البابا.

وقد كانت وصيته لابنه بايزيد الثاني وهو على فراش الموت تُعَبِّر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها، والتي يتمنَّى من خُلفائه من بعده أن يسيروا عليها، فقال فيها:

ها أنا ذا أموت، ولكني غير آسف لأني تارك خَلَفًا مثلك، كن عادلًا صالحًا رحيمًا، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا

---

(١) ينظر: أخبار الدول للقرماني (ص ٣٠٧ وما بعدها)، البدر الطالع في محاسن ما بعد القرن السابع (١٦٦/٢)، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (١٦٦/٢ وما بعدها)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار (٢٧/٢ وما بعدها)، شرفنامه للبدليسي (مترجم عن الفارسية (١١٠/٢).

هو واجب الملوك على الأرض، قدِّم الاهتمام بأمرِ الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمُّون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجَانِب البدعَ المفسدة، وباعِدِ الذين يُحَرِّضُونك عليها، وَسِّعْ رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تَتَبَدَّد، إيَّاك أن تمدَّ يدك إلى مال أحد من رعيَّتك إلَّا بحقِّ الإسلام! واضمن للمعوزين قُوْتهم، وابذل إكرامك للمستحقِّين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوَّة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجِّعهم، وإذا سمعتَ بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرَّنَّك المال ولا الجند! وإيَّاك أن تُبعد أهل الشريعة عن بابك!، وإيَّاك أن تميل إلى أيِّ عمل يُخالف أحكام الشريعة! فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ منِّي هذه العبرة: حضرتُ هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذُ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة في ترفٍ أو لهوٍ أو أَكْثَرَ مِنْ قَدْرِ اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك.

وبالجملة فقد كان للعلماء في عصر الفاتح قوّة روحية كبيرة، ومقام سامٍ لتقدير السلطان لهم، ولمكانتهم عند الناس، وكان لا يردُ لهم طلباً ولا شفاعة، ويتبسط معهم[١].

قال السخاوي في الضوء اللامع: " إنّه كان ملكاً عظيما، زاحم العلماء ورغب في لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم، وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع "[٢].

وقال المكي: " وله كرامات عجيبة، وآثار بديعة "[٣].

---

(١) محمد الفاتح، الدكتور محمد مصطفى صفوت (ص ١٨٦).

(٢) الضوء اللامع (٤٧/١٠).

(٣) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٦٧/٤).

وللصوفية دور بارز في جهاد الصلبيين في المغرب والأندلس، وكذلك في العصر الحديث، فقد كان للطرق الصوفية أثرها الواضح في توسيع بقعة الإسلام وخاصة في إفريقيا وآسيا، فقد أدخلت ملايين كثيرة في الدين الحنيف.

وممن كان له الأثر الواضح في ذلك من السادة الصوفية وأصحاب الطرق:

- الطريقة السنوسية وعمر المختار، في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.
- الأمير عبدالقادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٥م).
- الشيخ الحداد الجزائري (١٧٨٩-١٨٧٣).
- محمد أحمد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥).
- أحمد عرابي وصوفية مصر (١٨٤١-١٩١١).
- الشيخ الحكيمي اليمني (المصلح الشاذلي) تـ (١٩٥٩ م).
- محمد بن عبدالكريم الخطابي "المغرب"، (١٨٨١-١٩٦٢).
- محمد عبدالله حسن "الصومال"، تـ (١٩٢٠) شيخ الطريقة الصالحية، وهي فرع من الشاذلية.
- الشيخ ماء العينين، وابنه الهيبة "مرتانيا". (١٨٣٠-١٩١٠). الطريقة الفاضلة فرع عن الطريقة القادرية.
- الشهيد عمر التكروري، (١٧٩٧-١٨٦٤)، وأحمد حبيب الله " السنغال".
- الشيخ عثمان بن فودي "نيجيريا" (١٧٥٤-١٨١٧).
- شاه ولي الله الدهلوي " الهند"، ت (١٧٦٢).
- محمد إقبال، (ت ١٩٣٨م).
- سعيد النَّوْرَسي "تركيا" (١٨٧٣-١٩٨٥).
- عز الدين القسام (١٨٨٢-١٩٣٥).

- محمد بدر الدين الحسني "سوريا"، (١٨٥١-١٩٣٥).
- محمد بن يلس التلمساني الشاذلي، ت (١٩٢٧).
- محمد الشريف اليعقوبي الشاذلي الخلوتي ت (١٩٤٣).
- محمد الهاشمي الشاذلي (١٨٨٠-١٩٦١).[١]

هذه هي بعض الصور المشرقة على الدوام للسادة الصوفية، أهل تقوى وورع وجهاد في سبيل الله، قال الإمام تاج الدين السبكي في مُعيد النعم: " إذا علمت أن خاصة الخلق هم الصوفية فاعلم أنه قد تشبّه بهم أناس فأورث ذلك سوء الظن "[٢].

---

(١) ينظر: البطولة والفداء، السنوسية دين ودولة، عمر المختار نشأته وبيئته الأولى، الحركة الوطنية الجزائرية، تاريخ علماء دمشق، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، تاريخ السودان الحديث، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، الوسيط في أدباء شنقيط، تاريخ الإسلام في الهند، احتلال الروس للقفقاس، حقائق عن التصوف.

(٢) معيد النعم (٩٦/١).

الخاتمة

وفي الختام نجمل الكلام بأن التصوف وأهله، وأصحاب الطرق الصوفية هم الذين حفظ الله بهم دينه، وأكمل فيهم ركن الإحسان الذي فيه قبول الأعمال بين يدي ربنا المتعال.

ومن خلال عرضنا لهذا الكتاب وجدنا الصفات التي كان عليها الصوفية، والأخلاق التي اتصفوا بها، وكيف كانوا الأساس في تكوين مجتمعات صالحة مؤمنة بربها، متوكلة عليه، حافظة للشريعة، منتهجة منهج النبوة، وبرز منهم فئات ربانية محمدية مجاهدة.

وهذه المدارس والطرق الصوفية أنجبت لنا القادة العظام، والبارزين الأعلام، أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، ومحمد الفاتح، وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار وغيرهم.

وتبين لنا أن أئمة الطرق ومناهجهم تعتبر إرثاً تلقَّوه عن السلف الصالح ومن بعدهم، ولم يكن التصوف يوماً إلا إحياء للرسالة الربانية، وتمسكاً عملياً بالتشريع الحنيف، بعيداً عن كل ما ألصق فيه من شُبَهٍ في العقيدة وغيرها.

وقد عاب الإمام الغزالي والإمام الشعراني والحافظ ابن رجب الحنبلي على الذين لبسوا الصوف على أجسادهم ولّم يُصفّوا قلوبهم، واغتروا بالزي، والنطق، والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية في الظاهر.

وعدهم السهروردي في عوارفه بأنهم من المفتونين، وأنهم في غرور وغلط، إلى أن قال: "فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة".

كما ناصب الشيخ الأكبر ابن عربي العداء للمتفقهة وَالمتصوفة المزيفين، فقال في ذم الصنف الثاني: "إنني ذممت الصنف الذي تزيا بزي الصوفية عند الناس، وباطنه مع

الله بخلاف ذلك، فإن الحلولية والإباحية وغيرهم من هذا الطريق، ظهروا وتظاهروا بالدعاوى واتصفوا، فإنهم قرنَاء الشيطان وحلفاء الخسران(١).

وقال في الفتوحات مشدداً النكير على أصحاب الحلول والاتحاد: " وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، ومن قال بالحلول فهو معلول، وهو مرض لا دواء لدائه "(٢).

إننا اليوم بحاجة ماسّة إلى إعادة كتّابة تاريخ علمائنا الربانيين، الوراث المحمديين، والتركيز على الناحية الروحية التي فجرت فيهم طاقات عظيمة نورانية، قلما نجد لها مكانا في النفوس الضعيفة، ممّن فاتتهم هذه التربية، وهذا التوجيه الديني القويم، ممن أولئك الذين عمّروا دنياهم بالشهوات، وخرّبوا آخرتهم بالهوى المتبع، فكرهوا الانتقال من العمران إلى الخراب.

ونحن اليوم بحاجة - كما يقول أحد الباحثين - إلى معركة نفسيّة، روحيّة، تاريخيّة، تخاض مع الداخل، لم يسبق لها مثيل في تاريخنا المعاصر، لأنّ عدوّ الداخل أشرس بألف مرة من عدو الخارج، والانتصار عليه أصعب.

يذكر الدكتور سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى أنّ الخطر الأكبر والرهيب في حياة المسلمين ليس العدو الداهم الديار، إنّه نفوسنا التي بين جنبينا، فكيف يتحقّق نصر المسلمين إذا كانت ألسنتهم وأقوالهم في وادٍ من الدعاوي والشعارات، ونفوسهم تائهة في واد آخر من التنافس على الدنيا والتسابق إلى أهوائها(٣).

إنّ التاريخ ليشهد أنه عندما تمسّك المسلمون بروح الإسلام ترقّوا وعزوا وكانت لهم الغلبة، والمكانة المهيبة بين الأمم.

فهكذا كان الصحابة، وهكذا كان التابعون، وهكذا كان الأبطال صفا واحدا، وإيمانا مضيئا، وجهاداً متتابعاً، ونهجاً روحياً واضحاً، لا يعرف الجدل والفرقة والانقسام.

---

(١) روح القدس (ص ١٠٠).
(٢) الفتوحات المكية (٣٧٢/١-٣٧٩).
(٣) باطن الإثم (ص ٤٥).

وإذا علمنا أنّ الدعوة الصريحة إلى معاداة التصوف ورجاله، ورمي أهله بالبدع، وبألفاظ ما أنزل الله بها من سلطان، وليدة العصر الحديث أدركنا زيف وبطلان من نادى بهذه الدعوة، وهم قرناء الشيطان، وحلفاء الخسران، لأنّ الطائفة الظاهرة على الحق، والتي أخبر عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم تنكر على المسلمين عقائدهم خلال القرون الإسلامية المتتالية.

وإنّ ما ظهر لنا نحن الضعفاء لم يكن ليخفى على المجتهدين والعلماء الأكفاء[١].

والطامّة الكبرى أنّ فريقاً من أعداء الروح الإسلامية يتسترون تحت غطاء الكتاب والسنة، ويحرّفون الكلمَ عن مواضعه، بينما الحقائق القرآنية، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم براء منهم مقارنة مع أفعالهم براءة الذئب من دم يوسف.

ولنا بعد ذلك أن نتعجب من بعض أولئك المتشدقين، المتخذين من جهالتهم أو تجاهلهم سبيلاً للدسِّ على إخوانهم في الدين والوطن، خادمين بذلك الدوائر الاستشراقية، التي تَبنّاها الاستعمار، والتي تهدف بالأساس - عن طريق توجه مدروس ومحكوم - إلى إنكار المقوّمات الروحية في ماضي هذه الأمّة، محاولاً بذلك استئصال تراثها وتاريخها وعقيدتها، ليلفت الانتباه عن روح الإسلام، إلى الغلوّ والتطرّف والتفرقة، جرياً على قاعدة استعمارية معروفة **فرّق تسد**.

كل ذلك بأساليب خبيثة ماكرة، حتى وصل به الأمر إلى تحريف كلمة الجهاد، يبغي من وراء ذلك إشعال نيران الفتنة، وأن يقاتل بعضنا بعضاً، وأن تسود دوماً روح النزاع، والتضليل والتكفير والتشريك بين أبناء الدين والوطن الواحد.

---

(١) لو كان عند أعلام الصوفية أدنى عوج كما يزعم البعض لم يثن عليهم معاصروهم من الأئمة المشهورين ممن عرفوا بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم الإمام أحمد في ثنائه على معروف الكرخي وأبي تراب النخشبي والسري السقطي وأبي حمزة الصوفي، وكذلك ثناء العز بن عبد السلام على أبي الحسن الشاذلي ومحيي الدين بن عربي وشهاب السهروردي كما مر معنا.

والحق أن الاستعمار الغربي في بلاد المسلمين لم يُحدِث من الخراب في الأرْض وفي الأجسام ما أحدثه في القلوب والأرواح والأفهام، فقد أصبح المسلمون بما تسرّب إلى بواطنهم يجهلون أنفسهم، ولا يعرفون من حقيقة دينهم شيئا.

إنَ فهم التصوف اليوم يتطلب دراسة تاريخية للحياة الروحية الإسلامية، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأساسية، بعيدا عن المؤلفات التي طالعنا بها العصر الحديث، فجاء أغلبها استشراقاً، بعيدا عن الواقع والحقيقة.

إذ ليس التصوف خمولا ولا انهزاما، ولا سلبية كما ادعوا، وليس التصوف تواكلا وتقاعسا وهوانا كما زعموا، وليس التصوف علوما دخيلة، وسبحا فلسفيا كما أرادوا، بل التصوف قوة، وبأس، ونضال، ونفس ملهمة عاملة، إنه تصعيد بالحياة إلى الأعلى، وارتفاع بالقيم الإنسانية إلى ما هو أرفع وأسمى.

ومع هذه البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، حصحص الحق، وظهر الدليل، وزهق الباطل، ووضح السبيل.

وبعد ذلك فلا بد من وجود راغب ومعتبر، ومتأمّل، ومستبصر، مع وجود من قال فيهم الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو اقتصر الأمر على ما ذكر الشاعر لهانت المصيبة، ولكن كما قال الإمام أبو حامد الغزالي:

"إنهم كصخرة في فم واد، فلا هي شربت، ولا تركت الماء يصل إلى الزرع".

فيا أيّها المكابر، انزل عن مركبك العالي، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال[1]، قال تعالى: (فَليعَلَمَنَ الله ألذين صَدَقوا وليعلمنَّ الكاذبين)[2]، ودع عنك الملحدين في أقوالهم، المزخرفين لطلاب الدنيا خرافات جدالهم، قال تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)[3].

وتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الكبْر بطر الحق)[4]، أي عدم الانقياد للحق الذي كان عليه سلف هذه الأمّة، وأولياؤها الصالحون، وعلماؤها العاملون، وأبطالها الميامين[5].

---

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في فيصل التفرقة ص (٣٥): " اعلم أن الحق والضلال وسرهما لا يجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أضرار الدنيا، ثم صقلت بالرياضة الكاملة، ثم نورت بالذكر الصافي، ثم غذيت بالفكر الصائب، ثم زينت بملازمة حدود الشرع، حتى أفاض عليها من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلية".

(٢) العنكبوت (٣).

(٣) الكهف (٢٨).

(٤) صحيح مسلم (٩١).

(٥) قال الإمام الحصكفي في الدر المختار وهو يذكر مناقب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه: "وقد تبعه على مذهبه كثير من الأولياء الكرام، ممن اتصف بثبات المجاهدة، وركض في ميدان المشاهدة، كإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، ومعروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي، وفضيل بن عياض، وداود الطائي، وأبي حامد اللفاف، وخلف بن أيوب، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، وأبي بكر الوراق، وغيرهم ممن لا يحصى لبعده أن يُستقصى، فلو وجدوا فيه شبهة ما اتبعوه، ولا اقتدوا به ولا وافقوه ... وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله، فعجبا لك يا أخي: ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة، وأرباب الشريعة والحقيقة، ومن بعدهم في هذا الامر فلهم تبع، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود ومبتدع". الحصكفي، الدر المختار (١/١٤).

وقد حذرنا سبحانه وتعالى ونبيه الكريم من اتباع غير سبيل المؤمنين، فقال عزَّ شأنه: (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[١]، وقال أيضا: (أولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده)[٢].

وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة)[٣].

وقال أيضا: (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه)[٤].

وقد أجاد الإمام الشافعي رحمه تعالى في وصف هذه الفئة المؤمنة:

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وأخيرا يمكن أن نقول:

إنّ التصوف جزء هام من الأجزاء التي تألف منها تراثنا وعقيدتنا، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الإسلامية لعوامل النشوء والارتقاء، ولمقتضيات التراجع والانحطاط، على أنّ هذا لا يعني أن الحياة الروحية الإسلامية لم تعدم بعض النفوس الصافية، والقلوب الطاهرة التي كانت وما تزال تظهر من حين إلى حين.

لكن وإن كمل إيمان هؤلاء الأفراد، وصح يقينهم وإخلاصهم فإن ذلك لا يكفي في تحصيل الأثر العام الذي ينبغي أن تكتسبه الأمّة بمجموعها، من إسلام حي نتيجته الطبيعية السيادة والعزة والكرامة.

---

(١) التوبة (١١٩).

(٢) الأنعام (٩٠).

(٣) الترمذي (٢١٦٧) وغيره.

(٤) أبو نعيم، حلية الأولياء (١٦٠/٢)، الترمذي (٣٠٦٠).

وأختم القول برسالة كتبها الشيخ الأستاذ أحمد الشرباصي، الكاتب الإسلامي المعروف، والمدرس في الأزهر الشريف، في تقدمته لكتاب نور التحقيق، وكذلك في مجلة الإصلاح الاجتماعي تحت عنوان: " الأخلاق عند الصوفية "، بعد أن تحدث عن التصوف، وتعريفه وأخلاقه:

هذا هو التصوف الجليل النبيل، أضاعه أهلهُ، وحافَ عليه أعداؤه الصرحاء، وشوَّه جماله أدعياؤه الخبثاء، وتطاول عليه الزمن، وهو مجهول منكور، أو مذموم محذور، على الرغم من جماله وعظم رجاله الماضين وأبطاله، واتساع اختصاصه ومجاله، وخطورة أقواله وأعماله، فغدا كالدرة الثمينة حجبتها اللفائف السود، فظنها الجاهلون سوداء بسواد لفائفها، وهم لو وصلوا إليها، وجلَوْا عنها ما حاق بها أو حاطها من أستار لانبهرتْ أعينهم من ساطع الضياء وفريد البهاء.

لَهَفِي على التصوف الحق الناطق بنقائه وصفائه، أين الذين يُطلِعون الحيارى من أبناء الكون على ما فيه من أخبار وأسرار؟! أين الذين يصرخون بين القطعان الضالة من البشر، ليقولوا لها: إن التصوف جزء من الإسلام، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن التصوف مظلوم، فقد أضيف إليه كثير مما ليس منه عن حسن نية أو سوء قصد، وقد كتم أدعياؤه كثيراً من أموره، وقد تطاول عليه بالتحريف قوُم نَكِلُ حسابهم إلى الله، وقد تسرع بالسخرية منه مَنْ لم يطرقوا بابه، ولم يذوقوا شرابه، ولم يطالعوا كتابه، ولم يجد التصوف الكريم الذي أضاعه الناس مع هذه العوامل الهدامة كلها من يأخذ بناصره، أو يجلو الغياهبَ عن مآثره، أو يعرض على الشانئين أو الخاطئين سلاسل مفاخره.

وقد علمتْنَا الدراسات والتجارب أن الحق إذا لم يجد أهلاً، ولم يفز بمؤيد أو مستجيب انطوى وتوارى، حتى يهيئ الله له بعد قليل أو طويل من يُذكِّر به أو يدعو إليه، أو يحمل الناس رغبة أو رهبة عليه، فإذا هو بعد انطوائه السيد المطاع.

أرأيت إلى كنز وسيع عجيب، فيه المال الغزير الذي لا يحصى، وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون، وفيه علاج النفس الذي يهدي، وفيه نور القلب الذي لا يخبو، ماذا يكون من شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود هذا الكنز في مكان ما، ورسم لك

الطريق إليه، وذكر لك ما تحتاجه الرحلةُ نحوه من مجهود وتكاليف ؟.. ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستنفذ طاقتك، وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنز الذي ستجد عنده جاه الدنيا وعز الآخرة ؟.

كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفي والكنز المطوي والسر العلمي، إنه الدواء الذي يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك، ولكنك لن تصل إليه ولن تنتفع به حتى تتجه بمشاعرك نحوه، وحتى تُقبل ببصرك وبصيرتك عليه، وحتى تبذل من ذات يدك، وذات نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيئ لك البلوغ إليه والوقوف عليه، فهل فعلت من ذلك شيئاً وقد عرفت الطريق إلى النعيم ؟.

ربما تكون موالياً للصوفية، وربما تكون من أعدائهم، لكني أذكرك أولاً وقبل كل شيء أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً يطالبك دينُك وعقْلُك بأن تعرفه، ومن هنا يتحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه وتفقهه، وبعد ذلك تحكم له أو عليه.

وأزيدك بياناً فأقول لك: إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل، ومن هنا أيضاً يطالبك دينك بأن تقوم لتهتك حجاب الباطل، وتستضيء بنور الحق.. فهلاَّ يكفي ذلك لتحريضك على دراسة التصوف ؟.

وكم أودُّ في النهاية أن تقوم حركةٌ علمية واسعة بيننا، تدور حول دراسة التصوف ونشر أسفاره، وتمحيص أُموره وموضوعاته، بل وبسط ما يُلحق به من شطحات نابية وخرافات منكرة ودسائس خبيثة، حتى نعرف الباطل ونتبين جذوره، ثم نَكُرَّ عليه بالحجة الدامغة، فإذا الباطل زاهق، وإذا الحق سيد مطاع.

يا أبناءَ الإِسلام إنَّ التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً، وقد ضيعتموه أزماناً طوالاً، فحَسْبُكم ما كان، وأقبلوا على التصوف ففيه غذاء ودواء، والله الهادي إلى سبيل السواء[1].

اللهم اكشف حجاب الغفلة عن قلوبنا، وأخرجنا من ظلمات أنفسنا، ووفقنا لما تحبّ وترضى، واعصمنا من فتن الدنيا، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، واحشرنا في زمرة أوليائك المتقين، تحت لواء سيد المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وفضله

---

(١) تصدير كتاب نور التحقيق للشيخ حامد إبراهيم محمد صقر (٣/١). مجلة الإصلاح الاجتماعي (ص ٤).

المراجع

١. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.
٣. أبو الأسعاد، سعيد، التصوف نهج لازم، مجمع البحوث الإسلامية.
٤. الأسفراييني، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي، أبو منصور (ت ٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية.
٥. إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (ت ١١٢٧هـ)، روح البيان، الناشر: دار الفكر – بيروت.
٦. اعبيدو، محمد، الشيخ المولى عبدالسلام بن مشيش قطب المغرب الأقصى، دار أبي رقراق.
٧. أبو غزالة، حازم نايف، أسئلة وأجوبة عن التصوف، دار الإمام النووي، الطبعة الأولى (١٩٩١).
٨. الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، كتاب المواقف، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة.
٩. أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف (ت ٦٦٥ هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المحقق: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.
١٠. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

١١. الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
١٢. أنور الجندى، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتّاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع (١٩٨٣).
١٣. البابانى، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي (ت ١٣٩٩هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.
١٤. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، صحيح الأدب المفرد للإمام، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
١٥. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، ثم صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى عام ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي، والإحالة لبعض المراجع المهمة.
١٦. البدر العيني، محمود بن أحمد ت (٨٥٥هـ)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، قدم له: محمد زاهد الكوثري، دار الأنوار سنة (١٣٧٠).
١٧. بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد ب (ت ١٣٤٦هـ)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: ط٢، ١٩٨٥م.
١٨. البدوي، مصطفى حسن، الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر سيرته ومنهجه، دار الحاوي بيروت، الطبعة الأولى.
١٩. ابن بريكة البوزيدي، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (٢٠٠٦).
٢٠. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت ٢٩٢ هـ)، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله (جـ

١ - ٩)، عادل بن سعد (جـ ١٠ - ١٧)، صبري عبد الخالق الشافعي (جـ ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨ م، وانتهت ٢٠٠٩ م).

٢١. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، الناشر: دار الشرق العربي.

٢٢. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٣. البقاعي، علي بن غانم بن الخطيب، مخطوطة طبقات الأبرار ومناقب الأئمة الأخيار، أصل هذه النسخة في مكتبة لايبزج بألمانيا.

٢٤. البناني، أبو الفضل، تحفة أهل الفتوحات والأذواق في اتخاذ السبحة وجعلها في الأعناق، مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر.

٢٥. البنداري، الفتح بن علي، سنا البرق الشامي، مكتبة الخانجي بمصر (١٩٧٩).

٢٦. البوطي، محمد سعيد رمضان، باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، الطبعة الثانية.

٢٧. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، مناقب الشافعي، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

٢٨. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

٢٩. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر (ت ٤٥٨هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٣٠. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد

الندوي، صاحب الدار، السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٣١. البيرشاندور، صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، قدم له: العماد مصطفى طلاس، دار طلاس طبعة ثانية (١٩٩٣)

٣٢. تاج القراء، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، (ت نحو ٥٠٥هـ)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت

٣٣. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، الجامع الكبير - سنن الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م

٣٤. التُستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع (ت ٢٨٣هـ)، تفسير التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: منشورات محمد علي بيضون / دارالكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ

٣٥. التليدي، عبدالله بن عبدالقادر، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان الرباط، الطبعة الرابعة (٢٠٠٣)

٣٦. ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتّاب.

٣٧. ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر

٣٨. الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ

٣٩. ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، الناشر: دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة: الأولى.

٤٠. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت ٨١٦هـ)، التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

٤١. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

٤٢. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف (ت ٨٣٣هـ)، مناقب الأسد الغالب مُمزق الكتائب ومُظهر العجائب ليث بن غالب أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، المحقق: طارق الطنطاوي، الناشر: مكتبة القرآن، الطبعة: الأولى ١٩٩٤

٤٣. الجفري، علي، سلسلة أيها المريد نحو عالم متصل بالله.

٤٤. ابن جماعة، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت ٧٣٣هـ)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، المحقق: قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - قطر/ الدوحة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م

٤٥. ابن أبي جمرة، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، شرح مختصر البخاري، مطبعة الصدق الخيرية، الطبعة الأولى (١٣٤٨)

٤٦. الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ)، الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، المحقق: عبد العظيم الديب، الناشر: مكتبة إمام الحرمين، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ

٤٧. الجيلاني، عبدالقادر، الفتح الرباني، دار الريان للتراث.

٤٨. الجيلاني، عبدالقادر، فتوح الغيب، تحقيق: جمال الدين فالح الكيلاني، مركو الإعلام العالمي داكا -بنغلادش، الطبعة الأولى (٢٠١٤).

٤٩. الجيلالي، أحمد العايد، أحمد مختار عمر، المعجم العربي الأساسي.

٥٠. أبو الحاج، صلاح، السياسة الراشدة في الدولة الماجدة.

٥١. ابن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير (ت ٧٣٧هـ)، المدخل، الناشر: دار التراث، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

٥٢. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني، (ت ١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الناشر: مكتبة المثنى - بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية) تاريخ النشر: ١٩٤١م
٥٣. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» (المتوفى ١٠٦٧ هـ)، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، المحقق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، تدقيق: صالح سعداوي صالح، إعداد الفهارس: صلاح الدين أويغور، الناشر: مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا، عام النشر: ٢٠١٠ م
٥٤. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، مع تضمينات: الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠
٥٥. ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة، الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
٥٦. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩ هـ)
٥٧. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٥٨. الحداد، علوي بن طاهر، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، دار المعرفة السعودية، الطبعة الأولى (١٩٨٥)
٥٩. الحداد، عبدالله بن علوي الحضرمي، آداب سلوك المريد.
٦٠. ابن الحداد محمد بن منصور بن حبيش (ت بعد ٦٧٣هـ)، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة / الرياض، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م

٦١. الحرضي اليماني، يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى بن حسين العامري، غربال الزمان في وفيات الأعيان، طبع في مطبعة زيد بن ثابت في دمشق (١٩٨٥).
٦٢. الحصكفي، محمد بن علي بن محمد الحِصْني المعروف بعلاء الدين الحنفي (ت ١٠٨٨هـ)، الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، المحقق: عبد المنعم خليل إبراهيمن الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م
٦٣. الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد، الطبعة الأولى (١٩٩٢)
٦٤. الحموي، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي، جمال الدين (ت ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جـ ١، جـ ٢، جـ ٣: الدكتور جمال الدين الشيال جـ ٤، جـ ٥: الدكتور حسنين محمد ربيع - الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة - جمهورية مصر العربية، عام النشر: ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
٦٥. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
٦٦. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، فضائل الصحابة، المحقق: د. وصي الله محمد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ - ١٩٨٣
٦٧. ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة
٦٨. حوى، معاذ سعيد، التزكية تصوف أهل السنة، دار الفاروق، الطبعة الثالثة (٢٠٢١)
٦٩. حوى، سعيد، جولات في الفقهين الكبير والأكبر، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثانية.
٧٠. حوى، سعيد، تربيتنا الروحية، دار السلام، الطبعة السادسة (١٩٩٩)
٧١. حوى، سعيد، غذاء العبودية.
٧٢. حوى، سعيد، مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، دار عمار بيروت، طبعة منقحة (١٩٨٩).

٧٣. الخاني، عبد المجيد بن محمد، الحدائق الوردية في حقائق إجلاء النقشبندية، دار ئاراس، أربيل العراق.
٧٤. الخاني، قاسم بن صلاح الدين، السير والسلوك إلى ملك الملوك، نقلا عن موقع نفحات الطريق. مكتبة الثقافة الدينية.
٧٥. خطار، يوسف محمد، الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، دار التقوى، دمشق (٢٠٠٣)
٧٦. الخطيب، أسعد، البطولة والفداء عند الصوفية، دار التقوى دمشق، الطبعة الخامسة.
٧٧. ابن الخطيب السلماني، روضة التعريف بالحب الشريف، علق حواشيه محمد الكتّاني، دار الثقافة.
٧٨. ابن خلدون، الشفاء السائل وتذهيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق.
٧٩. ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، حققه عبدالله محمد الدرويش، الطبعة الأولى (٢٠٠٤).
٨٠. ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الإشبيلي، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيت الأفكار الدولية السعودية
٨١. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت
٨٢. خلف الله، أحمد عز الدين عبدالله، من قادة الفكر الصوفي الإسلامي السيد إبراهيم الدسوقي، لجنة التعريف بالإسلام، القاهرة (١٩٩٢).
٨٣. الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، مسند الإمام الدارمي، درسه وضبط نصوصه وحققها: الدكتور/ مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، الناشر: (بدون ناشر) (طُبع على نفقة رجل الأعمال الشيخ جمعان بن حسن الزهراني)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
٨٤. أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، المحقق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

٨٥. الدباغ، عبد العزيز، تأليف: أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة (٢٠٠٢).

٨٦. درنيقة، محمد أحمد، الطريقة النقشبندية وأعلامها، جروس برس.

٨٧. الدسوقي، إبراهيم، كتاب منير، مصر المكتبة السعيدية، وهو كتاب مشتمل على آداب المريد وعلى نصائح ومواعظ.

٨٨. الدمياطيّ، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البديري الحسيني، الأشعري الشافعيّ، أبو حامد (ت ١١٤٠هـ)، الجواهر الغوالي في ذكر الأسانيد العوالي – مخطوط.

٨٩. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨ هـ)، ويليه: «ذيل العبر» للذهبي نفسه، ثم «ذيل الحسيني» عليه، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

٩٠. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ)، تذكرة الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

٩١. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

٩٢. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م

٩٣. الرازي، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، بمراجعة علي سامي النجار، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٣٨)

٩٤. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٩٥. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

٩٦. رجب محمد عبدالحليم، انتشار الإسلام بين المغول، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، دار النهضة العربية.
٩٧. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
٩٨. الرفاعي، إبراهيم الراوي، السير والمساعي، دار التقوى، (٢٠٠٦) دمشق.
٩٩. الرفاعي، أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، البرهان المؤيد، الناشر: دار الكتاب النفيس – بيروت الطبعة الأواى، ١٤٠٨ تحقيق: عبد الغني نكه مي.
١٠٠. الرواس، محمد مهدي بن علي الصيادي، (١٢٨٧هـ)، مراحل السالكين.
١٠١. الرواس، محمد مهدي بن علي الصيادي، (١٢٨٧هـ)، فذلكة الحقيقة في أحكام الطريقة.
١٠٢. الزبيدي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، الدار اليمنية.
١٠٣. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ)، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م
١٠٤. زروق، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى، قواعد التصوف، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية (٢٠٠٥).
١٠٥. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
١٠٦. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء. المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ.
١٠٧. السباعي، مصطفى بن حسني (ت ١٣٨٤هـ)، السيرة النبوية - دروس وعبر، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
١٠٨. سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (٥٨١ - ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق وتعليق:

[بأول كل جزء تفصيل أسماء محققيه]، محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق، الناشر: دار الرسالة العالمية، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

١٠٩. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

١١٠. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ

١١١. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت ٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الناشر: منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت

١١٢. أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١١٣. السفاريني، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، الناشر: مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م

١١٤. السقاف، علي محسن، الاستزادة من أخبار السادة.

١١٥. سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (١٩٨١)

١١٦. السكندري، أحمد ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، المكتبة الأزهرية للتراث، (٢٠٠٧)

١١٧. السكندري، أحمد بن عطاء الله، الله القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، تخريج: محمود توفيق الحكيم، مكتبة مدبولي.

١١٨. السكندري، ابن عطاء الله، تاج العروس وأنس النفوس، مكتبة الروضة الشريفة للبحث العلمي، المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق محمد عبدالرحمن الشاغول

١١٩. السكندري، ابن عطاء الله، لطائف المنن، تحقيق: عبدالحليم محمود، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

١٢٠. السلمي، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن (ت ٤١٢هـ)، الفتوة، المحقق: د. إحسان ذنون الثامري / د. محمد عبد الله القدحات، الناشر: دار الرازي / عمان – الأردن الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

١٢١. السلمي، أبو عبدالرحمن، الطبقات الصوفية، تحقيق الدكتور أحمد الشرباصي (١٩٩٨). الطبعة الثانية.

١٢٢. ابن سميط، زين بن إبراهيم باعلوي، المنهج السوي شرح أصول طريقة السادة آل باعلوي، دار العلم والدعوة.

١٢٣. السهروردي، أبو حفص عمر، عوارف المعارف، دار المعارف، القاهرة.

١٢٤. سهير محمد يوسف قاسم، الطرق الصوفية وتراثها في فلسطين، رسالة ماجستير مقدمة في جامعة بير زيت (٢٠٠٥-٢٠٠٦)

١٢٥. السنوسي، محمد بن عثمان بن محمد، أبو عبد الله (ت ١٣١٨هـ)، مسامرات الظريف بحسن التعريف.

١٢٦. السنوسي، محمد بن علي، السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الجامعية قسم المخطوطات.

١٢٧. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

١٢٨. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، الطبعة: الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

١٢٩. السيوطي، جلال الدين (٨٤٩ - ٩١١ هـ)، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، المحقق: مختار إبراهيم الهائج - عبد الحميد محمد ندا - حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٣٠. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، الحاوي للفتاوي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
١٣١. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (٢٠٠٦).
١٣٢. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير ب (ت ٧٩٠هـ)، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
١٣٣. الشاطري، محمد بن أحمد بن عمر، أدوار التاريخ الحضرمي، مكتبة الإرشاد جدة.
١٣٤. ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الحلبي (ت ٦٨٤هـ)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة.
١٣٥. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، تاريخ الملك الظاهر، دار النشر فرائز شتايز (١٩٨٣)
١٣٦. ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، الناشر:مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
١٣٧. الشرقاوي، حسن محمد، نحو علم نفس إسلامي، تقديم: عبدالحليم محمود، مصطفى محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٣٨. الشرنوبي، عبد المجيد الأزهري، شرح الحكم العطائية، مصفوفة عن الطبعة القديمة، اعتنى وصححه: الدكتور صلاح أبو الحاج، الناشر: مركز أنوار العلماء الدولي للدراسات.
١٣٩. الشعراني، عبدالوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق: طه عبد الباقي سرور ومحمد عيد الشافعي، مكتبة المعارف بيروت، (١٩٨٨).
١٤٠. الشعراني، عبدالوهاب، تنبيه المغترين، مطبعة التقدم العلمية.
١٤١. الشعراني، عبدالوهاب، الطبقات الكبرى، اختصره واعتنى به عثمان أحمد الحسيني.
١٤٢. الشعراني، عبدالوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، دار المعارف (١٩٩١)

١٤٣. الشعراني، عبدالوهاب، الطبقات الوسطى، مخطوط.

١٤٤. الشعراني، عبدالوهاب، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٤٥. الشعراني، عبدالوهاب، لطائف المنن والأخلاق المعروف بالمنن الكبرى، دار التقوى، الطبعة الأولى(٢٠٠٤).

١٤٦. الشعراني، عبدالوهاب بن أحمد، أبو المواهب، لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، ضبطه وصححه: محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية (٢٠٠٥)، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م

١٤٧. الشلي، محمد بن أبي بكر باعلوي، المشروع الروي في مناقب السادة الكرام آل باعلوي.

١٤٨. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الناشر: دار المعرفة – بيروت

١٤٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

١٥٠. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، نيل الأوطار، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

١٥١. الشيال، جمال الدين، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى (٢٠٠١)

١٥٢. ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي العبسي (ت ٢٣٥ هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، الناشر: (دار التاج - لبنان)، (مكتبة الرشد - الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

١٥٣. الصاحب بن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحيط في اللغة.

١٥٤. الصالحي، محمد بن يوسف الشامي (ت ٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

١٥٥. الصاوي، أحمد بن محمد المالكي الخلوتي، حاشية الصاوي على الجلالين، دار الجيل بيروت.

١٥٦. ابن الصباغ، الشيخ الحميري، درة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ومقامات ونسب وكرامات وأذكار ودعوات سيدي أبي الحسن الشاذلي، المكتبة الازهرية للتراث

١٥٧. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م

١٥٨. الصفدي، صلاح الدين خليل، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، وزارة الثقافة إحياء التراث العربي (٨٦)

١٥٩. صفوت، محمد مصطفى، السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، الناشر: مؤسسة الهنداوي (١٩٤٨).

١٦٠. صقر، حامد إبراهيم محمد الشاذلي، نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، دار التأليف بمصر، الطبعة الثانية (١٩٧٠).

١٦١. الإمام عز الدين الصياد، (٦٧٠ه)، المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية.

١٦٢. الصيادي، محمد أبو الهدى بن حسن، (١٣٢٨ه) الطريقة الرفاعية.

١٦٣. الصيادي، أبو الهدى، العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية، تحقيق: أحمد رمزي بحا، الطبعة الأولى (٢٠٠٧)

١٦٤. الصيادي، محمد أبو الهدى بن حسن، (١٣٢٨ه) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٥. الصيادي، أبو الهدى، القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية، تحقيق: أحمد بحا، الطبعة الأولى.

١٦٦. طاشْكُبْري زَادَهْ أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين (ت ٩٦٨هـ)، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت
١٦٧. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة
١٦٨. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية
١٦٩. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت ٣٦٠ هـ)، المعجم الأوسط، المحقق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
١٧٠. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (ت ٣١٠هـ)، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر، والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
١٧١. الطوسي، أبو نصر السراج، اللمع، دار الكتب الحديثة بمصر، (١٩٦٠)
١٧٢. ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت ١٢٥٢ هـ)، رد المحتار على الدر المختار، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (وصورتها دار الفكر - بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م
١٧٣. عباس حسني محمد، العقد في الفقه الإسلامي.
١٧٤. عبدالحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، دار المعارف القاهرة.
١٧٥. عبدالحليم محمود، سلطان العارفين، أبو يزيد البسطامي، دار المعارف.
١٧٦. ابن عباد المحلى، أحمد بن محمد، المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، المكتبة الأزهرية للتراث.
١٧٧. عبد الحليم محمود، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، دار الكتب الحديثة، دار النصر للطباعة.
١٧٨. عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني، المصنف، ويليه: كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، رواية عبد الرزاق الصنعاني، (١٢٦ - ٢١١ هـ) المحقق: حبيب الرحمن

الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، توزيع المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣

١٧٩. ابن عبد ربه أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ

١٨٠. عبدالقادر عيسى، حقائق عن التصوف.

١٨١. عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (ت ٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ.

١٨٢. العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي (ت ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الناشر: مكتبة القدسي، لصاحبها حسام الدين القدسي - القاهرة، عام النشر: ١٣٥١ هـ

١٨٣. العدني، أبو بكر المشهور، سلسلة أعلام حضرموت، مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث، الطبعة الثانية (٢٠٠٣)

١٨٤. العدوي، أبو الحسن, علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي (نسبة إلى بني عدي، بالقرب من منفلوط) (ت ١١٨٩هـ)، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

١٨٥. ابن عربي، محيي الدين، معجم اصطلاحات الصوفية، دار الإمام مسلم للنشر، تاريخ النشر ١٩٩٠/١/١.

١٨٦. ابن عربي، محيي الدين، الحكم الحاتمية، عالم الفكر، الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ).

١٨٧. ابن عربي، محيي الدين، الوصايا، دار الإيمان، الطبعة الثانية (١٩٨٨).

١٨٨. ابن عربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت.

١٨٩. ابن عربي، محيي الدين، شطرنج العارفين، شرحه الشيخ محمد الهاشمي وسماه:أنيس الخائفين وسمير العاكفين في شرح شطرنج العارفين.

١٩٠. أبو العزائم، محمد ماضي، الصوفية والتصوف.
١٩١. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
١٩٢. عزام، صلاح، أقطاب التصوف الثلاثة: أحمد الرفاعي، أحمد البدوي، عبدالرحيم القناوي، مؤسسة دار الشعب (١٩٦٨).
١٩٣. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥
١٩٤. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
١٩٥. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ
١٩٦. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
١٩٧. العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت ١١١١هـ)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
١٩٨. عفيفي، أبو العلاء، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت.
١٩٩. ابن علان، محمد الصديقي الشافعي الأشعري المكي (ت ١٠٥٧ هـ)، الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، الناشر: جمعية النشر والتأليف الأزهرية
٢٠٠. ابن علوي، محمد بن علي خرد باعلوي، غرر البهاء الضوي ودرر الجمال البديع البهي.
٢٠١. علي أحمد، الأندلسون والمغاربة في بلاد الشام، طلاسدار، دمشق.
٢٠٢. علي غريسي، البيعة عند الصوفية، مطبعة سيب الجزائر، الطبعة الأولى (٢٠١٤)

٢٠٣. العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (ت ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، الناشر: مكتبة دنديس – عمان

٢٠٤. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

٢٠٥. عمر فروخ، التصوف الإسلامي، مكتبة منيسة، بيروت (١٩٤٧)

٢٠٦. عيدروس بن عمر الحبشي، عقد اليواقيت الجوهرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية، دار العلم والدعوة، الطبعة الأولى (٢٠٠٩).

٢٠٧. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، المنقذ من الضلال، بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر

٢٠٨. الغزالي، أبو حامد، مكاشفة القلوب، حقق نصوصه: أبو عبدالرحمن صلاح محمد عويضة.

٢٠٩. الغزالي، أبو حامد، فيصل التفرقة بين الإسلام والتفرقة، الطبعة الأولى (١٩٠٧) في مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.

٢١٠. الغزالي، أبو حامد، روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار النهضة الحديثة، صححها الشيخ محمد بخيت.

٢١١. الغزي، النجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، المحقق: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

٢١٢. الغماري الزمزمي، بن محمد بن صديق، الانتصار لطريق الصوفية الاخيار.

٢١٣. الغنيمي، التفتازاني أبو الوفا، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة القاهرة.

٢١٤. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٢١٥. ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢١٦. أبو الفرج، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)- صفة الصفوة، المحقق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م
٢١٧. ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد، ، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، عدد الأجزاء.
٢١٨. فوزي محمد أبو زيد، الصوفية والحياة المعاصرة، دار الإيمان والحياة.
٢١٩. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو ٧٧٠ هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت
٢٢٠. القادري، إسماعيل بن السيد محمد سعيد، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، مطبعة مصطفى الحلبي، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية.
٢٢١. القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت ١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٢٢٢. القاري، ملا علي بن سلطان، شرح عين العلم وزين الحلم، إدارة الطباعة المنيرة بمصر.
٢٢٣. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت ٩٢٣هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ
٢٢٤. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: ٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة
٢٢٥. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت ٤٦٥هـ)، لطائف الإشارات؛ تفسير القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب– مصر، الطبعة: الثالثة
٢٢٦. القشيري، عبدالكريم، شرح أسماء الله الحسنى، دار آزال، الطبعة الثانية (١٩٨٦).

٢٢٧. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ثم القاهري (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

٢٢٨. القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (ت ١٣٠٧هـ)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

٢٢٩. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٢٣٠. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

٢٣١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ه)، طبقات الشافعيين. تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣ه.

٢٣٢. الكاشاني، عبدالرزاق، معجم المصطلحات الصوفية، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى (١٩٩٢)

٢٣٣. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

٢٣٤. الكردي، محمد أمين الإربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، دار القلم العربي، حلب، (١٩٩١) الطبعة الأولى.

٢٣٥. الكرماني، الحاج آغا محمد كريم خان، مواقع النجوم، تحقيق: عبدالله زين الدين، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى (٢٠٠٧).

٢٣٦. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت

٢٣٧. أبو كف، أحمد، أعلام التصوف الإسلامي، مؤسسة دار التعاون، القاهرة

٢٣٨. الكلاباذيي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب البخاري الحنفي (ت ٣٨٠هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

٢٣٩. الكوهن الفاسي، الحسن ين الحاج محمد الشاذلي الفتحي، طبقات الشاذلية الكبرى المسماة: جامع الكرامات العلية في طبقات السادات الشاذلية، الطبعة الأولى المطبعة العلامية (١٣٤٧).

٢٤٠. ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت ٢٧٣ هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٤١. المحاسبي، أبو عبدالله الحارث بن أسد، الوصايا، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى (١٩٨٦).

٢٤٢. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير (ت ٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية، الناشر: دار الحديث – القاهرة.

٢٤٣. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (ت ٤٥٠هـ)، أدب الدنيا والدين، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م

٢٤٤. المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م

٢٤٥. المحاسبي، الحارث بن أسد، أبو عبد الله (ت ٢٤٣هـ)، رسالة المسترشدين، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب – سوريا، الطبعة: الثانية، ١٣٩١ - ١٩٧١

٢٤٦. محمد كمال إبراهيم جعفر، التصوف طريقا وتجربة ومذهبا، دار الكتب الجامعية، القاهرة.

٢٤٧. محمد بن علوي المالكي الحسيني، مفاهيم يجب أن تصحح، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (٢٠٠٩).

٢٤٨. محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية (١٩٩١)

٢٤٩. محمود بن الشريف، الحب في القرآن، مكتبة الهلال بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٣)
٢٥٠. ابن محيي الدين، مصطفى نجى الشاذلي اليشرطي البيروتي، كشف الأسرار لتنوير الأفكار، طبع في مطبعة جريدة بيروت (١٣٠٩ هـ).
٢٥١. مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (٢٠٠٣).
٢٥٢. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)، صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها)، عام النشر: ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
٢٥٣. المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣ هـ)، الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٢٥٤. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ
٢٥٥. المقريزي، تقي الدين (ت ٨٤٥ هـ - ١٤٤٠ م)، المقفى الكبير، المحقق: محمد اليعلاوي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
٢٥٦. ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، طبقات الأولياء، بتحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، الناشر: مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
٢٥٧. المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، دار صادر، تحقيق: محمد أديب الجادر.
٢٥٨. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم القاهري (ت ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦.

٢٥٩. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

٢٦٠. موفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، ابن الشيخ أبي الحرم مكّي بن عثمان الشارعي الشافعي (المتوفى: ٦١٥هـ)، مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

٢٦١. ناصر بن سليمان العمر، العهد والميثاق في القرآن الكريم.

٢٦٢. ناصر البغدادي، معراج السالكين إلى المقام الأمين بدلالة القطب العارف بالله السيد حسين برهان الدين، طبع في استنبول.

٢٦٣. النبهاني، يوسف بن إسماعيل، سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين، دار الفكر

٢٦٤. النجار، عامر، الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف الطبعة الخامسة.

٢٦٥. ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف المصري (ت ٩٧٠هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد ١١٣٨ هـ) وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، الناشر: دار الكتاب الإسلامي الطبعة: الثانية –.

٢٦٦. النحوي، عدنان علي رضا، العهد والبيعة وواقعنا المعاصر، دار النحوي، الطبعة الثالثة (١٩٩٣)

٢٦٧. الندوي، أبو الحسن، الإمام عبد القادر الجيلاني، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، مطبعة الاعتصام بالقاهرة.

٢٦٨. الندوي، أبو الحسن، روائع إقبال، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى (١٩٦٠)

٢٦٩. الندوي، أبو الحسن، رجال الفكر والدعوة، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة (٢٠٠٧)، تقديم: الدكتور مصطفى السباعي والدكتور مصطفى الخن.

٢٧٠. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، السنن الكبرى، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، (بمساعدة مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة)، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٢٧١. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)، الأذكار، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م
٢٧٢. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢
٢٧٣. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
٢٧٤. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)، بستان العارفين، الناشر: دار الريان للتراث
٢٧٥. الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت ٩٧٤هـ)، الفتاوى الحديثية، المحقق: لا يوجد، الناشر: دار الفكر.
٢٧٦. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، التَّفْسِيرُ البَسِيْط، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.
٢٧٧. الإمام الواسطي، علي بن الحسن بن أحمد الشافعي المتوفى (٧٣٣هـ)، خلاصة الإكسير. المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ.
٢٧٨. الوتري، أحمد بن محمد، روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين، الطبعة الأولى المطبعة الخيرية.
٢٧٩. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين المعري الكندي (ت ٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م
٢٨٠. الولوالجي، ظهير الدين عبد الرشيد بن أبي حنيفة بن عبدالرزاق، الفتاوى الولوالجية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (٢٠٠٣).

٢٨١. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م
٢٨٢. اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م
٢٨٣. أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت ٣٠٧ هـ)، مسند أبي يعلى، المحقق: حسين سليم أسد [ت ١٤٤٣ هـ]، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ – ١٩٨٤
٢٨٤. يوسف محمد طه زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، دار الجيل بيروت الطبعة الأولى (١٩٩١)

فهرس الموضوعات